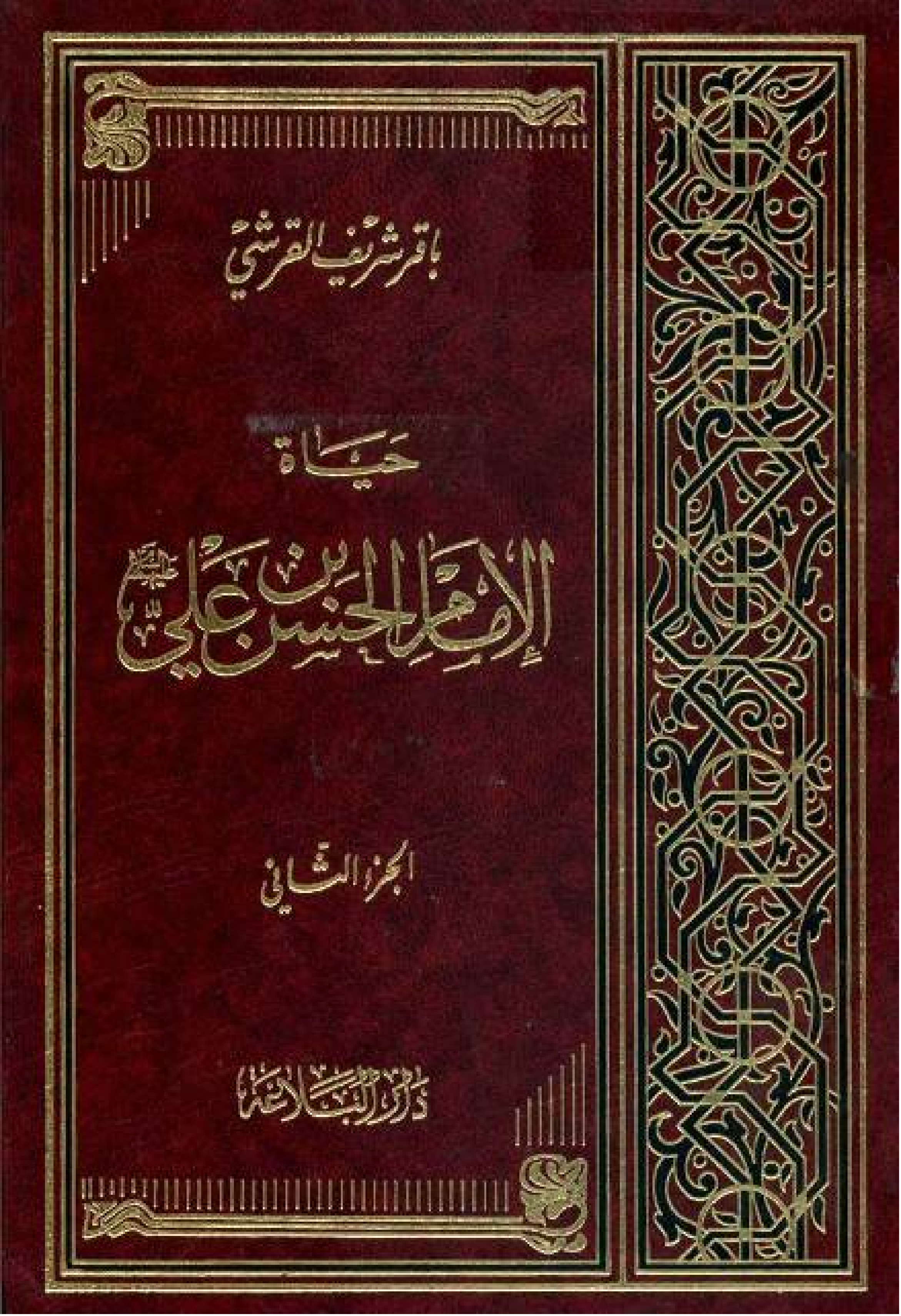


باقر شريف القرشي
حياة
الإمام الحسن بن علي عليه السلام
الجزء الثاني
دار البلاغة

باقر شريف القرشي

حياة



دراسة وتحليل

الجزء الثاني

دار البلاغة

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع .

هاتف وفاكس: ٣١٧٤٢٥ - ٨٢٠٣٢٠ - ٨٣٤٢٦٥ - ص.ب: ٢٥/١٦ - تلكس: ٢٢٥٩٧ بلاغ - بيروت - لبنان


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ★ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ★ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ .

« القرآن الكريم »

الاهداء

اليك . يامن لا تحصى مواهبه وملكاته وعبقرياته .

اليك يامن تمت بخلافته في يوم « عيـد الغدير » النعمة الكبرى ، وكمل الدين .

اليك . ياوصي رسول الله « ص » وصهره ، وصاحبه وخليله

اليك . ياأمير المؤمنين .

أتقدم الى روحانيتك المقدسة ، وبيدي « الحلقة الثانية » من حيـاة الامام الحسن ، كبيـر ولدك وشريكك في آية التطهير ، وولي عهدك ، الذي سكبت في نفسه كمالك اللامتناهي ، وغذيته بأروع المثل العليا راجيا من مقامك الرفيع قبولها واذا منحتني القبول وتلطفت علي بالرضا ، فهو غاية النجاح ومنتهى الأمل والسعادة لعبدك .

المؤلف

امام الكتاب

قدم الجزء الاول من هذا الكتاب سماحة الامام المغفور له الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء نضرّ الله مثواه وقد وعد في تقديمه أن يعطي البيـــان حقه ويكشف الحجب والغموض ، ويرفع الابهام والالتباس في صلح الامام الحسن مع معاوية ـ فيما اذا سمحت له ظروفه بذلك ـ وعندما انتهى الكتاب من الطبع وعرض عليه كتب هذه الكلمة الرائعة ، وهو في آواخر أيام حياته ، وقد اشتملت على مواضيع خطيرة ، وأبحاث مهمة ، وقد ابرز فيها دقائق التأريـخ ، وهي تعد ـ بحق ـ آيـــة من آيات الفن من حيث العمق والتحليل وروعة الاسلوب وبما أن الكتاب هو الباعث على تحريرها رأينا أن نتوج الجزء الثاني بهـــا ، ونتحف القراء بهذه الاضبارة الممتعة من بحوث الامام كاشف الغطاء .

بنو هاشم، وبنو أمية

والحسن ومعاوية

العداوات ، والتباغض بين الأفراد والقبائل ، والجماعات غريزة بعيدة المدى في طبيعة البشر من أول عهده ، وبدء وجوده على هذه الكرة من عهد هابيل وقابيل ، مستمرة في جميع الاجيال إلى هذا الجيل ، ومنشأ العداوة وبواعثها غالبا هو التنافس والتعالي والانانيـة التي تدفع إلى حب الأثرة والغلبة والسيطرة ، والاستيلاء على مال أو جاه ، أو ولاية وإمرة وانكى العداوات العداوات التي تبعث عن ترة وطلب ثار وغسل عاروالتشفي والانتقام ، ولكن اسوأ العداء أثراً ، وأبعده مدى ، والذي يستحيل تحويله ولا يمكن زواله هو عداوة الضدية الذاتية، والمباينة الجوهرية كعداوة الظلام للنور ، والرذيلة للفضيلة ، والقبح للحسن . والشر للخير وأمثال ذا ، فان هذا العداء والتنافر يستحيل من أن يزول إلا بزوال احدهما إذ كل يضاد الآخر في اصل وجوده وطباع ذاته ، وكل واحد يمتنع على الآخر فلا يجتمعان ولا يرتفعان ، فالذوات الشريرة بذاتها في جوهرها تضاد الذوات الخيرة وتعاديها ، وكل واحد من هذين المتضادين المتعاندين يجد ويجتهد في ازالة الآخر ومحوه من الوجود كالنور والظلام لا يجتمعان في محـل واحد أبداً ، وكل منهما بطباعه يتنافى مع الآخر ويعاديه وكالفضيلةوالرذيلة في الانسان ، وعلى هذا الطراز ، ومن هذا النوع عداوة بني هاشم وبني

أمية عداوة جوهرية ذاتية يستحيل تحويلها ويمتنع زوالها عداوة الظلام للنور والشر للخير ، والخبيث للطيب ، ويعرف كل واحد منها بثماره وآثاره ، وقديما قيل : « من ثمارهم تعرفونهم » الشجرة لا تعرف إلا من ثمرها أنها خبيثة أم طيبة ، والانسان لا يعرف خبثه وطيبه إلا من أعماله وملكاته وخصاله .

أولد عبد مناف هاشما ، وعبد شمس ، ونشب العداء بينهما منذ نشا وشبا لا لشيء سوى اختلاف الجوهرين ، وتباين الذاتين ، ثم استشرى الشر واتسعت عدوى العداء بين القبيلين بحكم الوراثة ، وكان لكل واحد من هذا القبيل ضد له من القبيل الآخر ، فعدوه بالنسب ، هاشم وعبد شمس ، وعبد المطلب وأميـة ، وأبو طالب وحرب ، ومحمد « ص » وأبو سفيان ، ما اشرقت أول بارقة من اشعة الاسلام ، وما اعلن البشير النذير بدعوة التوحيد إلا وثارت نعرة الشرك والوثنية لطمس أنوار الاحدية وقام بحمل معاول المعارضة والهدم لما يبنيه ، ويتبناه منقذ البشرية من مخالب الوحشية ، قام بها ثالوث الجبت والطاغوت ، أبو جهل وأبو لهب وأبو سفيان ، وكان الثالث زعيم الحزب الأموى أشدهم مناوئة للاسلام ومحاربة له ، نصبوا كل الحبائل ، وتوسلوا بجميع الوسائل لاخفات صوته واخماد ضوئه ، واعملوا كل بأس ، وسطوة في مقاومة تلك الدعوة حتى الجأت جماعة ممن تدين بها فهاجروا إلى الحبشة ، وتحمل النبي واصحابه من الاضطهاد والأذى أكثر من عشر سنين حتى اضطر إلى الجلاء من وطنه ووطن آبائه ، ومركز عزه ، فهاجر إلى يثرب فطارده أبو سفيان وتلاحقه إلى دار هجرته ، وما رفعت راية حرب على الاسلام إلا وبنو أمية وزعيمهم أبو سفيان قائدها ورافعها يلهب نارها ويثير غبارها ويتربص باخماد ذلك

النور ، الدوائر ، ويهيج نعرة القبائل ، إلى أن فتح الله الفتح المبين وأمكن الله نبيه من جبابرة قريش وملكهم عنوة ، فصاروا عبيداً وملكا بحكم قوانين الحرب ، والاستيلاء على المحاربين ، بالقوة والسلاح ولكنه سلام الله عليه أطلقهم وعفا عنهم ، وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء واكتفى منهم بظاهر الاسلام واطلاق لسانهم بالشهادتين ، وقلوبهم مماوءة بالكفر والحقد على الاسلام ، يتربصون الفرص لمحو سطوره . وقلع جذوره « ما اسلموا بل استسلموا . ولما وجدوا اعواناً على الاسلام وثبوا » ما تغير شيء من نفسيات أبي سفيان وبني أميه بعد دخولهم في حظيرة الاسلام قلامة ظفر، إنما تغير وضع المحاربة ، وكيفية الكفاح والمقاومة ، دخل أبو سفيان ومعاوية في الاسلام ، ليفتكوا في الاسلام ويكيدوا له ، والعدو الداخل أقدر على الكيد والفتاك من العدو الخارج وهذه العداوة ذاتية متأصلة ، والذاتي لا يزول وليست هي من تنافس على مال ، أو تزاحم على منصب أو جاه ، بل هي عداوة المبادىء عداوة التضاد الطبيعي ، والتنافر الفطري عدواة الظلام للنور ، والضلال للهدى والباطل للحق والجور للعدل ، ولذا بقي بنو أمية على كفرهم الداخلي ومكرهم الباطني مع عدادهم في المسلمين وتمتعهم بنعم الاسلام وبركاته لكن لم يمس الاسلام شعرة من شعورهمولا بلّ ريشة من اجنحتهم ، كالبط يعيش طول عمره في الماء ولا يبل الماء ريشة منه (فيا يقولون) نعم أقروا باسلامهم حقنا لدمائهم وتربصالسنوح الفرصة لهدم عروش الاسلام وقواعده ، حتى إذا أدلى من كانت لهالسلطة بالخلافة إلى أول خليفة منهم طاروا فرحاً ، وأعلنوا ببعض ما كانت تكنه صدورهم ، فجمعهم أبو سفيان وقال : « تلقفوها يابني أمية ، تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به أبو سفيان ما من جنة ولا نار » :

ثم أخذوا زمام الخليفة الأموي بأيديهم، وصاروا يقودونه « كالجمل الذلول » حيث شاؤا ، فاتخذوا مال المسلمين دولا ، وعباد الله خولا ، وانتفضت بلاد المسلمين من جميع أقطارها عليه وعليهم إلى أن حاصروه في داره ، وضايقوه على أن يخلع نفسه من الخلافـة ، ويجعلها شورى بين المسلمين فتقاعس وتصلب أولا ، ثم لما اشتد الحصار عليه وحبسوا عنـه حتى الماء والطعام تراخت اعصابه ، ووهنت اطنابه ، وحاول أن يخمد نار الفتنة بخلع نفسه اجابة للثائرين الذين شددوا الحصار فاحس بنو أميـة وقيادتهم يومئذ بيد مروان في المدينة ، ومعاوية في الشام ، بأن صاحبهم إذا خلع نفسه فسوف يفلت الحبل من ايديهم ، وقد غلط الدهر أوغلط المسلمون غلطة يستحيل أن يعودوا لمثلها أبداً ، وبأي سابقة ، أو مكرمة لبني أمية أو جهاد في الاسلام يستحقون أن تكون خلافة المسلمين في واحد منهم ، وهم اعداء الاسلام وخصومه في كل موقف من مواقفه ، وفي كل يوم من ايامه ، أدرك كل ذلك مروان ومن معه من حزبه فتواطئوا مع زعيمهم بالشام أن يجهزوا على صاحبهم فيقتلوه قبل أن يخلع نفسه وقبل أن يفلت حبل الحيلة من أيديهم ، نعم يقتلونه ويتخذون قتله ذريعة إلى مطالبة فئة من المسلمين بدمه ، ويتظاهرون لسائر المسلمين بأنه قتل مظلوماً ولابد من الأخذ بثاره فيكون أقوى وسيلة إلى استرجاع الخلافة إليهم ، ولولا قتل عثمان وقميص عثمان لما صارت الخلافة إلى معاوية ومروان وابناء مروان ،ولكان من المستحيل أن يحلموا بها في يقظة أو منام ولكن جاءت صاحبهم الاول من غير ثمن ، وقد دفعها إليه من قبله دفعا نعم اراد السابق أن يحولها عن بني هاشم إلى خصومهم الألداء بني أمية ففتل حبل الشورى ، وابرمه بحيث تصير الخلافة لا محالة إلى عثمان ، وما اكتفى

بذلك حتى نفخ روح الطموح إليها في نفس معاوية الطليق ابن الطليق ، وهو وأبوه اكبر الاعداء الألداء للاسلام ، كان كل سنة يحاسب عماله ويصادر أموالهم ، ويعاملهم بأشد الأحوال إلا معاوية ، تتواتر الاخبار لديه بأن معاوية يسرف في صرف أموال المسلمين ويلبس الحرير والديباج فيتغاضى عنه بل يعتذر له ، ويقول : «ذاك كسرى العرب»(١) مع أن معاوية كان من الضعة والفقر والهوان باقصى مكان ، كان من الصعاليك الساقطين في نظر المجتمع حتى أن أحد أشراف العرب وفد على النبي « ص » .

ولما أراد الخروج أمر النبي « ص » معاوية أن يشيعه إلى خارج المدينة وكان الحر شديداً والأرض يغلي رملها ويفور ومعاوية حافي القدمين فقال للوافد الذي خرج في تشييعه :

اردفني خلفك .

— أنت لا تصلح أن تكون رديف الأشراف والملوك ! .

— ألا فاعطني نعليك اتقي بهما حرارة الشمس .

— أنت احقر من ان تلبس نعلي .

— ما أصنع وقد احترقت رجلاى ؟

— امشي في ظل ناقتي ولا تصلح لأكثر من هذا ! ! .

(١) كان عمر يضفي على معاوية ثوب البطولات ، ويخلع عليه النعوت والألقاب ويبالغ في تسديده ، ولا يسمح بانتقاصه ، فقد جاء في الاستيعاب المطبوع على هامش الاصابة (ج٣ص٣٧٧ ـ ٣٧٨) ان قوما ذموا معاوية عند عمر فقال : دعونا من ذم فتى من قريش ، من يضحك في الغضب ولا ينال ما عنده الا على الرضا ، ولا يؤخذ ما فوق راسه الا من تحت قدميه . ولا ندرى لما هذا الاطراء على هذا الطليق الذي نظر إليه الرسول «ص» نظرة ريبة وشك في اسلامه .

تعسا لك يا زمان وأف لك يادهر هذا الصعلوك النذل صار أو صيروه كسرى العرب ! ! ! .

نعم : معاوية ومروان هما اللذان دبرا الحيلة في قتل عثمان ، ومكنوا الثائرين من قتله ، وقضية الجيش الذي أرسله معاوية من الشام إلى المدينة ووصيته له بأن لا يدخل المدينة حتى بقتل عثمان تشهد الذلك وهي مشهورة

نعم : وقد اعانهم على قتله ايضا احدى زوجات النبي التي كانت تهرج على عثمان وتصرخ في النوادي « اقتلوا نعثلا قتل الله نعثلا » ثم بعد أن امتثلوا أمرها وقتلوه ، ثارت أو أثاروها إلى الطلب بدمه ، وكانت من جراء ذلك واقعة الجمل التي ذهب ضحيتها عشرون الفاً من المسلمين ، وفتحت باب الحروب بين أهل القبلة ، وقال أحد شعراء ذلك العصر يخاطبها ويؤنبها

وأنت البلاء وأنت الشقاء   وأنت السحاب وأنت المطر

وأنت أمرت بقتل الامام   وقلت لنا إنه قد كفر

وقال الآخر :

جاءت مع الأشقين في هودج   تزجى إلى البصرة أجنادها

كأنها في فعلها هرة   من جوعها تأكل أولادها

وهذه النكات التي رشح القلم بها هنا وهي من أسرار دقائق التأريخ والتي قلّ من تنبه لها إنما جاءت عفوا ، وما كانت من القصد في شيء ، إنما المقصود بالبيان ان معاوية وأبا سفيان لما بهرهما الاسلام وقهرهما على الدخول فيه حفظاً لحوبائهما (١) من التلف ، أظهرا الاسلام صورة واضمرا الكيد والفتك به سريرة ، وبقيا يتربصان فكلما سنحت فرصة لذلك ظهرت ركيزتهم في اقوالهم وفي اعمالهم .

(١) حوبائهما : تثنية حوباء وهي النفس تجمع على حوباوات .

وكان معاوية أدهى من أبيه الذى كبر وخرف في آخر عمره ومن دهائه وعزمه كان يحتفظ بصورة الاسلام مدة إمرته بالشام عشرين سنة فلا يصطدم بشعيرة من شعايره ، ولا يتطاول إلى اعتراض قاعدة من قواعده فلا يتجاهر بشرب الخمر والاغاني ، ولا يقتل النفس المحرمة ولا يلعب بالفهود ، ولا يضرب على المزمار والعود ، نعم : قد يلبس الحرير والديباج وطيلسان الذهب ولا بأس بذلك فانه « كسرى العرب » وما احتفظ بشعاير الاسلام إلا لحاجة في نفس يعقوب ، ومن باب الهدوء قبل العاصفة والمشي رويداً لأخذ الصيد .

بقي على ظاهر الايمان المبطن بالكفر مدة مخالفته ومحاربته لاميرالمؤمنين في صفين ، فلما استشهد سلام الله عليه ، تنفس الصعداء ، وغمرته المسرة وامكنته الفرصة من اللعب على الحبل وتدبير الحيل ، ولكن بعد أن بويع الحسن « ع » والتف عليه الأبطال من أصحاب أبيه . وشيعته ومواليه ، ومنهم الرؤس ، والضروس ، والانياب ، والعديد ، والعدة ، والسلاح ، والكراع ، فوجد أنه وقع في هوة أضيق وأعمق من الأولى ، فان الحسن سبط رسول الله ، وابن بنته ، وريحانته ، وهو لوداعته ، وسلامة ذاته محبوب للنفوس لم يؤذ أحدا مدة عمره ، بل كان كله خير وبركة ، ولم تعلق به تهمة الاشتراك بقتل عثمان ، بل قد يقال إنه كان من الذابين عنه فكيف يقاس معاوية به وكيف يعدل الناس عن ابن فاطمة بنت رسول الله « ص » إلى ابن هند آكلة الأكباد ، اقلق معاوية ، وأقض مضجعه التفكير بهذه النقاط المركزة التي لا مجال فيها للنقاش والجدال ، ولكن سرعان ما أهتدى بدهائه ومكره إلى حل عقدتها وكشف كربتها ، فلجأ إلى عاملين قويين ، « أولها » المال الذي يلوى اعناق الرجال ، ويسيل في لعبه

لعاب الأبطال ، وبعث إلى اعظم قائد من قادة جيش الحسن الذين بايعوه على الموت دونه ، وأمسهم رحماً به وهو عبيد الله بن العباس الذي جعله أميراً حتى على قيس بن سعد بن عبادة ذلك الزعيم العظيم الفارس المغوار المتفاني اخلاصاً في حب الحسن وأبيه ، نعم : بعث اليه معاوية باكثر من خمسين الفا ، ووعده عند مجيئه إليه بمثلها ، فانسل إلى معاوية في جنح الظلام ، وأصبح الناس ولاأمير لهم فصلى بهم قيس،وهوّن عليهم ،هذه الفادحة التي أوهت عزيمة الجيش ، وهيئتهم للهزيمة ، قبل النضال ، وفُل ساعد الله قلبك ياأبا محمد كيف تحملت هذه الرزايا التي أقبلت عليك متتابعة كقطع الليل ، وصار معاوية يعمل بهذه الخطة مع كل بارز من الشيعة ورجالهم وأبطالهم فأستمالهم إليه جميعا ، ولم يستعص عليه ويسلم من مكره وحبائله إلا عدد قليل لا يتجاوز العشرة كقيس بن سعد ، وحجر بن عدى وأمثالهم ممن ناطحوا صخرة الظلم والضلال براسخ إيمانهم ، وما اختلجهم الشك في كفر معاوية وأبيه وبنيه ، طرفة عين ، وكان قيس « أقسم بالله أن لا يلقى معاوية إلا وبينهما الرمح أو السيف » في قضية معروفة ، هذا أول تدبير أتخذه معاوية للغلبة على الحسن ، واستبداده بالأمر واغتصاب الخلافة منه « الثاني » وهي حيلة تأثيرها أشد من الأولى استطابها السواد الأعظم وانجرف إليها الرأي العام تلك دعوى معاوية الحسن إلى الصلح (١) نعم : أشد مافت في عضد الحسن طلب معاوية الصلح ، فقد كانت أفتك غيلة ، وأهلك حيلة لأن المال كان يستميل به معاوية عيون الرجال ، والخواص منهم ، اما العامة فلا ينالهم منه شيء ولكن الناس

(١) وهي تضارع خديعته في رفع المصاحف التي استطابها الجيش العراقي فلم يقرر حق مصيره بعدما أشرف على الفتح والظفر .

كانوا قد عضتهم أنياب الحروب حتى أبادت خيارهم ، وأخربت ديارهم في أقل من خمس سنين بثلاثة حروب ضروس : الجمل ، وصفين ، والنهروان فاصبحت الدعوة الى الحرب ثقيلة وبيلة ، والدعوة إلى الصلح والراحة لذيذة مقبولة ، وهنا تأزمت ظروفه سلام الله عليه وحاسب الموقف حسابا دقيقاً ، حساب الناظر المتدبر في العواقب ، فوضع الرفض والقبول في كفتي الميزان ليرى لأيهما الرجحان ، فوجد أنه لو رفض الصلح وأصر على الحرب ، فلا يخلو أما أن يكون هو الغالب ، ومعاوية المغلوب وهذا وإن كانت تلك الأوضاع والظروف تجعله شبه المستحيل ، ولكن فليكن بالفرض هو الواقع ، ولكن هل مغبة ذلك إلا تظلم الناس لبني أمية ، وظهورهم باوجع مظاهر المظلومية ، بالامس قتلوا عثمان عين الامويين ، وامير المؤمنين « كما يقولون » واليوم يقتلون معاوية عين الأمويين ، وخال المؤمنين (يالها من رزية) ويتهيأ لبني أمية قميص ثاني فيرفعون قميص عثمان مع قميص معاوية ، والناس رعاع ينعقون مع كل ناعق لاتفكير ولا تدبر ، فماذا يكون موقف الحسن إذاً ؟ لو افترضناه ، هو « الغالب » .

أما لو كان هو « المغلوب » فاول كلمة تقال من كل متكلم إن الحسن هو الذى القى نفسه بالتهلكة ، فان معاوية طلب منه الصلح الذي فيه حقن الدماء فابى وبغى ، وعلى الباغي تدور الدوائر ، وحينئذ يتم لمعاوية وأبي سفيان ماأرادا من الكيد للاسلام وارجاع الناس الى جاهليتهم الأولى وعبادة اللات والعزى ، ولا يُبقي معاوية من أهل البيت نافخ ضرمة ، بل كان نظر الحسن « ع » فى قبول الصلح أدق من هذا وذاك ، أراد أن يفتك به ويظهر خبيثة حاله ، وما ستره في قرارة نفسه قبل أن يكون غالباً أو مغلوباً ، وبدون أن يزج الناس في حرب ، ويحملهم على مايكرهون من إراقة الدماء .

فقد ذكرنا أن معاوية المسلم ظاهرا العدو للاسلام حقيقة ، وواقعا كان لوجود المزاحم يخدع الناس بغشاء رقيق من التزمت في ارتكاب الكبائر والموبقات ، وما ينطوي عليه من معاداة الاسلام وتصميم العزيمة على قلع جذوره واطفاء نوره ، يتكتم بكل ذلك خوفا من رغبة الناس إلى الحسن وأبيه من قبل فاراد الحسن أن يخلي له الميدان ، ويسلم له الأمر ويرفع الخصومة ، حتى يظهر مايبطن ، ويبوح بكفره ، ويعلن ويرفع عن وجهه ذلك الغشاء الصفيق ويعرف الناس حقيقة أمره ، وكامن سره ، وهكذا فعل ، وفور إبرام الصلح صعد المنبر في جمع غفير من المسلمين ، وقال :

« إني ماقاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم ، وقد اعطيت الحسن شروطاً كلها تحت قدمي . »

أنظر الى القحة والصلف وعدم الحياء وضيق الوعاء وصفاقة الوجه ، أما وأيم الله إنه لو لم يكن لقبول الصلح الا ظهور هذه الكلمات من معاوية لكفى بها دليلا على افتضاح معاوية ، ومعرفة الناس بكفره ، فما ظنك به وقد استمر على هذه الخطة الكافرة ، والخطيئة السافرة ، والتحدي للاسلام وهدم قواعده جهارا .

لولا صلح الحسن لما استلحق معاوية زيادا بأبي سفيان ، وهو ولده من الزنا ، فضرب قول رسول الله « ص » « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ضربها بالحجر وبعرض الجدار بلا خيفة ، ولا حذر .

لولا الصلح لما قتل حجر بن عدي سيد الأوابين ، وعشرة من أعلام خيار الصحابة والتابعين ، قتلهم بمرج عذراء صبراً ، من دون أي سبب مبرر

لولا الصلح لما قتل معاوية الصحابي الجليل عمرو بن الحمق ، وحمل رأسه الى الشام ، وهو أول رأس حمل في الاسلام .

لولا الصلح لما سقى معاوية الحسن السم على يد جعيدة بنت الاشعث

لولا الصلح لما أجبر معاوية البقية الصالحة من أولاد المهاجرين والانصار على أخذ البيعة ليزيد، وحاله في الفسق والفجور مشهور إلى كثير من أمثال هذه المخازي، والفظايع التي لايبلغها الاحصاء. ولكن تأمل ملياً وأنظر من الغالب ومن المغلوب.

انظر ماصنع الحسن بمعاوية في صلحه وكيف هدّ جميع مساعيه وهدم كل مبانيه حتى ظهر الحق وزهق الباطل، وخسر هنالك المبطلون فكان الصلح في تلك الظروف هو الواجب والمتعين على الحسن، كما أن المحاربة والثورة على يزيد في تلك الظروف كان هو الواجب والمتعين على أخيه الحسين، كل ذلك للتفاوت بين الزمانين، والأختلاف بين الرجلين

ولولا صلح الحسن الذي فضح معاوية، وشهادة الحسين التي قضت على يزيد، وانقرضت بها الدولة السفيانية بأسرع وقت.

لولا تضحية هذين السبطين لذهبت جهود جدهما بطرفة عين، ولصار الدين دين آل أبي سفيان دين الغدر والمكر، دين الفسق والفجور، دين الحانات والخمور، دين العهار، دين الفهود والقرود، دين إبادة الصالحين واستبقاء الفجرة الفاسقين.

فجزاكما الله ياسيدي شباب الجنة وياسبطي رسول الله، جزا كما الله عن الاسلام وأهله أفضل الجزاء، فو الله ماعبد الله عابد ولا وحده موحد. وما حقت فريضة ولا أقيمت سنة ولا ساغت في الاسلام شريعة ولا زاغت من الضلال إلى الهدى أمة إلا ولكما بعد الله ورسوله الفضل والمنة والحجة البالغة والمحجة.

جاء رسول الله بالهدى والنور والخير والبركة للانسانية أجمع من غير لون ولون وعنصر وآخر وأمة دون أمة وقوم سوى آخرين جاء بالاسلام والنور المبين فشيّد قواعده وأحكمه وأقومه وأكمله وأتمة ولم يترك فيه أي،

نقص وأي عوج وجاء أبو سفيان والشجرة الملعونة في القرآن معاوية ويزيد ومروان فحملوا معاول الكفر والشرك وتحاملوا على تلك الأسس والقواعد يقلعون جذورها ويخمدون نورها « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » فوقف السبطان بما لها من قوة وسلطان سداً منيعاً دون ذلك البنيان،وما تم لها ما أرادا من حفظ شريعة جدها إلا بالتضحية العظمى بانفسهم وأموالهم ورجالهم وأطفالهم وبكل مافي دنيا النعمة والنعيم والعيش الوسيم ، بذلوا كل ذلك في سبيل الله ولحفظ دين الله ، ولولا هذه التضحية وتلك المفادات لأصبح دين الاسلام أسطورة من الاساطير لاتجده إلا في الكتب والقماطير يذكره التأريخ كما يذكر الحوادث العابرة والأمم المنقرضة .

« سبحان الله والله أكبر ولله الحمد » من هنا تعرف ويجب أن تعرف السر في حفاوة المنقذ الأعظم تلك الحفاوة البليغة والتعظيم الخارج عن نطاق العرف والمعتاد بل وعن رواق التعقل والسداد ذلك النبي العظيم والشخصية الحبيبة إلى المبدء الاعظم التي ملأها هيبة وعظمة ووقارا ، والذي لاتهزه العواصف ولا تستميله العواطف ولا تخامره في لحظة من عمره العبث واللهو واللعب الذى كانت غريزته التي فطر عليها قوله : « ما أنا من دد ولا الددمني » والذى كان من الوقار والهيبة والا تزان ربما يدخل عليه الرجل الذي مارآه من ذى قبل فترتعد فرائصه من هيبته فيقول له النبي : « لاتفزع فاني ابن أمرأة من قريش كانت تأكل القديد » حذراً من أن يقول المسلمون فيه ما قالت النصارى في المسيح، هذا الطود العظيم ، يحمل الحسن والحسين وهما طفلان على كتفيه ، ويمشي بهما وهما على متنيه في ملأ من المسلمين رافعا صوته ليسمعوا « نعم الجمل جملكما ، ونعم الراكبان أنتما » ثم يأتي الحسين وهوغلام فيعلو على ظهر النبي والنبي ساجد فلايرفع رأسه حتىينزل

الحسين حسب إرادته ، النبي يخطب والحسين يدرج في المسجد فيعثر فيقطع النبي خطبته ، ويعدو اليه ويحتضنه ويقول : « قاتل الله الشيطان ، الولد فتنة لما عثر ولدي هذا أحسست أن قلبي قد سقط مني » الى كثير من أمثال هذا مما صدر عنه سلام الله عليه في ولديه مما لست بصدد احصائه وجمعه ، ولكن أقول : إن هذا الشغف ، والحب اللامتناهي ليس لكونهما ابني بنته فحسب فان هذه النسبة لاتستوجب كل هذا العطف الخارق لسياج العرف والعادة ، ولكن لاشك ان هناك أسراراً وأسباباً هي أدق وأعمق ، أسرار روحية هي فوق هذه الوشايج الجسمية ، فهل ترى معي أن رسول الله (ص) لعله ارتفع عن أفق الزمان : وأشرف بروحيته المقدسة من نافذة الدهر ، وأطل على صحيفة التكوين من الفه إلى يائه ، فنظر الى الماضي والحاضر والآتي نظرة واحدة ، رأى الحوادث الآتية ممثلة بعينها في صحيفة الوجود لابصورها على شاشة التمثيل ، رأى ما كابد ولداه من الدفاع عن دينه ، والحماية لشريعته والتضحية بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ، وأنهم ارخصوا في المفادات كل غال وعزيز ، تجرع الحسن السم من معاوية مرارا حتى قضى بالمرة الأخيرة التى تقيأ بها كبده قطعة قطعة ، ثم ضرب الحسين المثل الأعلى في التضحية والمفادات لحفظ شريعة جده ، فاستقبل السيوف والرماح والسهام وجعل صدره ونحره ورأسه ورئته ، وقاية عن المعاول التى اتخذها بنو أمية لهدم الاسلام ، وقلعه من اساسه ، ونصب نفسه وأولاده وانصاره ، الغر الميامين هدفا وشبحا لوقاية الاسلام من أن تنهار دعائمه ، وتنهد قواعده وقوائمه ، بهجمات الأمويين عليه ، حتى سلم الاسلام واشرقت أنواره ، وعلمت أسراره ، وهلك الكافرون وخسر هنالك المبطلون ، وكانت كلمة الله العليا ، وكلمة اعدائه السفلى ، وكل مسلم من أول اسلام الناس الى اليوم بل والى يوم القيامة مدين ورهين بالشكر والمنة لهذين الامامين ، ولولا

تضحيتها التي ماحـدث التأريخ بمثلها أبداً ، نعم لولا تلك التضحية لعاد الناس بمساعي الأمويين الى جاهليتهم الأولى بل اتعس إذاً ، فهل تستغرب من النبي (ص) تلك الحفاوة والتعظيم لها وهما طفـلان صغيران ، وقد عرف بل رأى بعين بصره تلك الحوادث الفجيعة ، وذلك الكفاح المرير من أجله وفي سبيله ، وكان يشمهما ويضمهما ويقول : « هما ولداى وريحانتاى » وباليقين انه كان يتنسم منهما العبق الربوبي ، ويتوسم بهما الألق الالهي وبهذا نعرف ويجب ان نعرف أن الحسن والحسين ، نور واحد لايفضل احدهما على الآخر قدر عرض شعرة كل واحد منهما قد قام بواجبه ، وأدى رسالته وعمل بالمنهاج المقرر له من جـده وأبيـه ، والصك الذي تسلمه في أول يوم من إمامته ، إذا أردت التوسع في معرفة عظمة الحسن سلام الله عليه وشجاعته ، وبسالته ، وقوة قلبه ، وشدة عارضته ، وبليغ حجته ، وعدم أكـتراثه بزخارف الملك ، وأبهـة السلطـان ، فانظر الى كلماته واحتجاجاته في مجلس معاوية مع رؤوس المنافقين ، وضروس الكفرة الملحدين الذين كان معاوية يحرش بينهم وبين الحسن ليضحك على ذقونهم ، كابن العاص وابن شعبة ومروان ونظرائهم من زبانية جهنم الذين ما آمنوا بالله طرفة عين ، انظرها واعجب بها ماشئت هناك تتمثل لك العظمة في أوج رفعتها وتتصور لك البسالة في موج لجتها ، وإن شئت المزيد فانظر الى كلماته في ساعة الموت ، ويوم انطلاقه من هذا السجن ، الكلمات التي قالها لأخيـه محمد بن الحنفية في حق أخيـه الحسين ، هنالك تنفتح لك أغـلاق أسرار الامامة ، ويتضح لديك إشراق أنوار النبوة والزعامـة ، وتعرف المرعوية النبوية ، والولاية الكليـة ، هنالك الولاية لله « والنبي أولى بالمؤمنين من انفسـهم » (ومن كنت مولاه فعلي مولاه) « وإنما وليكم الله ورسوله » الآية

وقد زحف القلم ، وخرج عن الحـد ، واشتمر عن قصد الجادة

وجادة القصد ، إنما القصارى التي أردتها من كلمتي هذه ان العداوة بين بني هاشم وبني امية ذاتية متأصلة هي عداوة الهدى للضلال ، والنور للظلام ويشهد لذلك انك لو استعرضت سيرة بني امية من اولهم من عبد شمس إلى آخرهم مروان الحمار لم تجد في صحيفة الكثير بل الأكثر منهم إلا الغدر والمكر ونكث العهود ، والفسق والفجور ، والعهر والخنا وانباء الزنا إلى كل مايتحمله لفظ الرذيلة من المعاني .

وإذا استعرضت سيرة بني هاشم من أولهم ليومنا هذا لم تجد في صحيفة الكثير بل الأكثر منهم إلا كلما يتحمله لفظ الفضيلة من الوفاء والصدق والشجاعة والعفة ، وطهارة المولد ، وشرف النفس وعلو الهمة ، والتضحية في سبيل المبدأ ، وما الى ذلك من كرم الأخلاق ، وطهارة الأعراق ، وهب أن هناك من يعذر بني امية في عداوتهم لبني هاشم ويقول : إنهم اتخذوها ذريعة ووسيلة الى الملك والسلطان ، ولكن ماعذر الموالين لبني امية في هذا العصر ماعذر الأموية الحديثة ، التي لاتنال بذلك حظا من حظوظ الدنيا ولا نصيباً في الآخرة .

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » « خسر الدنيا والآخـرة ذلك هو الخسران المبين » .

والحمد لله الذي فقأ عيني الكفر والنفاق ، وأقر عيني الاسلام والإيمان بالحسن والحسين ، والعترة الطاهرة ، ونسأله تعالى كما منّ علينا بمعرفتهم وولايتهم أن يحشرنا في زمرتهم ، ويكرمنا بشفاعتهم والبراءة من اعدائهم وعداوتهم :

أواليكم ما دجت مزنة	وما اصطخب الرعد أوجلجلا
وأبـرء ممن يعاديـكم	فان البراءة شرط الولا

وحقا إن الزكي أبا محمد سلام الله عليه في المدة القصيرة التي عاشها بعد ابيه تحمل من الرزايا والمحن مالم يحتملها نبي ، وما هي بأقل من المصايب التي جرت على أخيه أبي عبد الله «ع» يوم الطف ، فان النكبة الأليمة ، والضربة الأثيمة في الأخوين واحدة وإن اختلفت الأشكال والأساليب ، وكما أن الحسين قابل رزاياه بالصبر الذى عجبت منه ملائكة السماوات ، فكذلك الحسن قاتل عدوه ، وقابل الامة وارزائه بصبر عجيب . وصدر رحيب ما هان يوما ولا لان ، ولا تضرع ولا استكان ، وما أخـذ من امواله التي اغتصبها معاوية منه وصارت العوبة بايدى بنى امية ، ما أخذ واحدا من الآف بل من مئات الآلاف وكما لامساغ للتفاضل بين هذين النيرين ، كذلك لايصح القول بأن صبر الحسن دون صبر الحسين ، أو ان مصيبته اهون المصيبتين ، فسلام الله عليكما يا إمامي الهـدى وسليلي على والزهراء ما ازهرت الفضيلة واكفهرت الرذيلة .

واختم كلمتي بابيات من خاتمة قصيدة رثاء اسيد الشهداء نظمتها منذ مدة تزيد على خمسين سنة استهلها :

حذوا الماء من عيني والنار من قلبي ولا تحملوا للبرق منا ولا السحب

واختتها :

بنى الشرف الوضاح والحسب الذي تناهي فاضحى قاب قوسين للرب

لئن عدت الأحساب للفخر اوغدت تطاول بالأنساب سيارة الشهب

فما نسبي إلا انتسابي اليـكم وما حسبي إلا بأنـكم حسبي

حرر هذه الكلمة بانامله الرقيمة ، واقلامه السقيمة مرتجلا مترسلا في بضع سويعات آخرها يوم الحادي والعشرين من شهر رمضان يوم وفاة سيد الوصيين وإمام الصديقين امير المؤمنين عليه آلاف السلام والتحية سنة ١٣٧٣ هـ

محمد الحسين آل كاشف الغطاء

بمدرسة العلمية بالنجف الاشرف



البيعة

واعتنى الاسلام بالخلافة (١) اعتناء بالغاً فأناط بها المسؤليات الضخمة فجعلها مسؤلة عن نهضة المسلمين وتطورهم وانطلاقهم في ميادين العلم، وتوجيههم نحو الخير وابعادهم عن مسالك الضلال والفساد، والعمل على ايجاد الوسائل السليمة لأسباب قوتهم ورخائهم، كما أوكل اليها حراسة الدين والحفاظ على شؤونه، وصيانة مثله فهي المحور الذي تدور عليه سياسته وسائر شؤونه.

إن حقيقة الاسلام وفكرته شاملة لجميع المناحي الدينية والسياسية فقد الف بينهما وحدة متسقة وجعلهما كلا لا يتجزأ، وقد ادرك هذه الحقيقة جمهور كبير من علماء المستشرقين يقول بعضهم:

(إن الاسلام ليس ظاهرة دينية فقط، وانما اتى بنظام سياسي ذلك ان مؤسسه كان نبياً وكان حاكماً مثالياً خبيراً بأساليب الحكم.)

وقال جيت: (ان الاسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية، وانما استوجب اقامة مجتمع مستقل له أسلوبه المعين في الحكم وله قوانينه وانظمته الخاصة به.) (٢)

إن الخلافة ترتبط بالاسلام ارتباطاً وثيقاً فهي جزء من براجه وفصل من فصوله فلابد من اقامتها على مسرح الحياة يقول الشيخ محمد عبده:

(الاسلام دين وشرع فقد وضع حدوداً، ورسم حقوقاً وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجري عليه في عمله فقد يغلب الهوى وتتحكم

---

(١) الخلافة: في الاصل مصدر خلف: يقال: خلفه في قومه خلافة فهو خليفة، ومنه قوله تعالى: «وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي» ثم أطلقت في العرف على الزعامة العظمى وهي الولاية العامة على كافة الأمة، والقيام بأمورها والنهوض بأعبائها.

(٢) النظام السياسي في الاسلام: ص ١٥.

الشهوة فيغمط الحق ، ويتعدى المعتدي الحد فلا تكمل الحكمة إلا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضي وصون نظام الجماعة .) (١)

إن الاسلام جاء بمجموعة كاملة من النظم والقوانين تهدف إلى تنظيم الحياة وصيانة الحقوق والقضاء على الغبن والظلم ، وبسط الأمن والعدل في البلاد ، ومن الطبيعي انها تحتاج إلى قوة ودولة لتقوم بحمايتها وتطبيقها على واقع الحياة .

أما من يتولى قيادة الحكم وإدارة شؤون البلاد فقد تحدث الامام أمير المؤمنين (ع) عما يعتبر فيه من الصفات بقوله :

(وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالى على الفروج ، والدماء ، والمغانم ، والاحكام وإمامة ، المسلمين البخيل فتكون في اموالهم نهمته (٢) ولا الجاهل فيضلهم بجهله ، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ، ولا الحائف للدول (٣) فيتخذ قوماً دون قوم ، ولا المرتشي فى الحكم فيذهب بالحقوق ، ويقف فيها دون المقاطع (٤) ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة ...) (٥)

إن من يلى امور المسلمين ويتولى ادارة شؤونهم ـ فى نظر الامام ـ

---

(١) الاسلام والنصرانية : ص ٦٥ .

(٢) النهمة : ـ بالفتح ـ الافراط فى الشهوة ، المبالغة فى الحرص .

(٣) الحائف : من الحيف : الجور والظلم ، والدول : جمع دولة ـ بالضم ـ وهو المال لأنه يتداول به وينتقل من يد إلى يد ، وفي التنزيل (كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) والمراد من كلامه (ع) ان الوالى ليس له أن يحيف فى الأموال بأن يفضل قوماً على قوم فى العطاء من دون سبب موجب لذلك .

(٤) المقاطع : الحدود التى عينها الله لها .

(٥) نهج البلاغة محمد عبده ٢ / ١٩ .

لابد أن يكون ندي الكف بعيداً عن البخل عالماً بما تحتاج اليه الامة غير حائف للدول ، ولا مرتشي في اعماله ، ولا معطل لحدود الله وسنة نبيه فانه اذا تجرد من هذه الصفات واجهت الأمة - في عهده - سيلا عارماً من المحن وتعرضت البلاد للازمات والنكبات .

وأعرب الذكر الحكيم في قصة ابراهيم (ع) عمن يستحق الامامة من ذريته قال تعالى : (إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) (١) وذكر المفسرون أن المراد بالعهد هو الامامة والإمامة هي الخلافة (٢) فلا ينالها من تلبس بالظلم في أي مرحلة من حياته (٣) سواء أكان الظلم للنفس (٤) أو للغير فانه لا يمنح بذلك اللطف .

لقد اهتم الاسلام اهتماماً كثيراً فيمن يلي امور المسلمين فالزم ان يكون مثالا للعدل وعنواناً للحق ورمزاً للعدل والفضائل ليرعى مصالح الأمة ويحقق في ربوعها جميع ماتصبوا اليه من العزة والكرامة ولم تتوفر الصفات الرفيعة التي يتطلبها الاسلام في القيادة الرشيدة إلا في أهل البيت (ع) الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، والذين قرنهم النبي (ص)

---

(١) سورة البقرة : آية ١٢٤ :

(٢) مجمع البيان ٢٠٢/١ ط صيدا .

(٣) هذا مبني على ماذهب اليه بعض علماء الاصول في بحوث المشتق من أنه حقيقة في الأعم ممن تلبس بالمبدأ ومن انقضى عنه .

(٤) الظلم للنفس : كالسجود للاصنام وغير ذلك من الاخلاق الذميمة ، وقد استدل علماء الشيعة بالآية الشريفة على أحقية أمير المؤمنين بالخلافة دون غيره لأنه لم يظلم نفسه بالسجود للاصنام التي سجد لها غيره من الصحابة قبل بزوغ نور الاسلام .

بكتاب الله العزيز - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - وجعلهم سفنا للنجاة وأمناً للعباد ، ومن الطبيعي أن ذلك لم يكن ناشئاً إلا عن مدى أهميتهم ، وقدتحدث الامام أمير المؤمنين (ع) عما مُثل فيهم من الصفات والنزعات بقوله :

« هم عيش العلم ، وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، وصمتهم عن حكم منطقهم . لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه هم دعائم الاسلام ، وولائج الإعتصام (١) بهم عاد الحق في نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية (٢) لاعقل سماع ورواية فان رواة العلم كثير ورعاته قليل .. » (٣)

وبالاضافة الى هذه القابليات والمواهب التي يتمتعون بها فان النبي (ص) نصّ على اختصاص الخلافة فيهم وانهم أحق بالأمر من غيرهم ، وقد تواترت النصوص (٤) الواردة منه بذلك كقوله :

« لا يزال هذا الدين قائما حتى تقوم الساعة ، ويكون عليهم اثنا عشر خليفة .. كلهم من قريش »

وقال (ص) : « يكون بعدي اثنا عشر أميراً . وقال : كلهم من قريش .. »

(١) الولائج : جمع وليجة ، وهي المحل الذي يعتصم فيه من المطر والبرد .

(٢) عقل الوعاية : الحفظ في فهم ، الرعاية : ملاحظة تعاليم الدين وتطبيق العمل عليها أما السماع والرواية من دون فهم وعمل فمنزلتهما منزلة الجهل .

(٣) نهج البلاغة محمد عبده ٢ / ٢٥٩ .

(٤) التواتر : الاستفاضة في نقل الخبر بحيث يؤدي الى القطع بصدقه وذلك فيما إذا أحال العقل تواطؤ المخبرين على الكذب ، ولذا كان الخبر المتواتر من أهم الأسباب المؤدية الى القطع بالأشياء .

الى غير ذلك من الأحاديث الدالة بصراحتها وحصرها على اختصاص الخلافة فيهم ، وانهم سفن النجاة وهداة العباد .

ومن الأئمة الطاهرين الاثني عشر الذين أقامهم الرسول (ص) خلفاء من بعده وأمناء على تبليغ رسالته الامام الحسن ريحانته وسبطه الأكبر فقد نصبه اماماً على أمته وقال فيه وفي أخيه : « الحسن والحسين امامان إن قاما وإن قعدا » . ونص على امامتــه الامام أمير المؤمنين (ع) وأقامه علما من بعده ، بعد أن اغتاله ابن ملجم ، وقد فزع اليه المسلمون بعد موت أمير المؤمنين وأجمعوا على مبايعته ، فقد اجتمعوا في جامع الكوفة سنة أربعين من الهجرة في صبيحة احدى وعشرين من شهر رمضان المبارك ، وأقبل عليه السلام وقد احتفت به البقية الباقية من صلحاء المهاجرين والأنصار فاعتلى منصة الخطابة فابتـدأ ـ بعد حمد الله والثناء عليه ـ بتأبين فقيـد العدالة الكبرى الامام أمير المؤمنين وتعداد بعض فضائله ومواهبه فقال :

« لقد قُبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ، ولم يدركه الآخرون بعمل ، لقد كان يجـاهد مع رسول الله (ص) فيقيه بنفسه ، وكان رسول الله (ص) يوجهه برايته فيكتنفه جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله ، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه ، ولقد توفي في هـذه الليلة التي عرج فيها عيسى بن مريم (ع) وقبض فيهـا يوشع بن نون وصي موسى (ع) وما خلف صفراء ولا بيضـاء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله » .

وتمثلت صورة أبيه أمامه فخنقته العبرة وأرسل ما في عينيه من دموع وكذلك بكى جميع من حضر في جنبات الحفل ، وساد الحزن وعم الأسى ثم استأنف الامام خطابه فأعرب للناس سمو مكانته وما يتمتع به من الشرف

والمجد قائلاً :

« أيها الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن ابن علي ، وأنا ابن النبي ، وأنا ابن الوصي ، وأنا ابن البشير النـذير ، وأنا ابن الداعي الى الله باذنه ، وأنا ابن السراج المنير ، وأنا من أهـل البيت الذي كان جبرئيل ينزل الينا ، ويصعد من عندنا ، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، وأنا من أهل بيت افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال تبارك وتعالى لنبيه (ص) : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ، ومن يقترف حسنة نزد له منها حسناً » فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت » .

وحفل خطابه البليغ بما يلي :

١ ـ انه عرف الناس بجهاد ابيه وعظيم بلائه في الإسلام ووقايتـه لرسول الله (ص) بنفسه في جميع المواقف والمشاهد وقد أبنه بكلمة تمثلت فيها بلاغة الاعجاز وروعـة الايجاز وهي قوله : « فهو لم يسبقه الأولون بعمل ، ولا يدركه الآخرون بعمل » ومن كان لم يسبقه الأولون ولم يدركه الآخرون كان أعظم شخصية برت جميع المصلحين والعظماء في جميع مراحل التاريخ وحقـاً انه كذلك ، فليس في جميع فترات الزمن وآناته قديمـاً وحديثاً أحد فاق الامام أو يفوقه في مثله وأعماله وجهاده وذبه عن حظيرة الإسلام .

٢ ـ وأبان (ع) في خطابه الرائع قداسة الليلة التي رحل فيها أبوه الى جنان الخلد . فلقد عرج فيها الى السماء المسيح عيسى بن مريم (ع) ورحل فيها إلى جواره تعالى يوشع بن نون وصي موسى (ع) . وفي هذه الليلة العظيمة انتقل الى جوار الله سيد الأوصياء ، وعميد الأتقياء ، وحامي

حوزة الإسلام الامام علي (ع) فهي – بحق – أشرف الليالي وأسماها عند الله .

٣ – وأعرب (ع) لذلك الحفل الحاشد زهد أبيه وعدم اعتنائه بدنياه فلقد رحل عنها ولم يخلف من حطامها شيئاً ، وقد كان في استطاعته أن يسكن أفخم القصور ، ويلبس الحرير والديباج ، ويأكل ما لذّ من الطعام ويتخذ العبيد والاماء ولكنه ترك كل ذلك رغبة فيما أعد الله له في دار البقاء من النعيم والكرامة والسعادة ، وما أفاض عليه في هذه الدنيا من خلود الاسم والثناء العاطر والذكر الحسن المقرون بالاكبار والتقديس عند الناس جميعاً !! لقد وافى الامام علياً الأجل المحتوم وما خلف سوى ثمالة من المال يتركها أقل البائسين والضعفاء ، وهو سلطان المسلمين وزعيمهم ، تجبى له الأموال الطائلة من شتى الأقطار الإسلامية ولكنه (ع) أبى أن يأخذ منها شيئاً .

٤ – وتضمن خطابه (ع) دعوة الناس إلى مبايعته ، وقد كانت دعواه رائعة بكل ما للروعة من معنى ، فلقد عرّف نفسه إلى الجماهير بأنه ابن الداعي إلى الله ، وابن السراج المنير ، وانه ممن أذهب الله عنهم الرجس والأباطيل ، وهل هناك أحد أحق بالخلافة من شخص التقت به هذه الكمالات ، واجتمعت فيه هذه الفضائل .

ولما انهى (ع) خطابه الذي لم يرو التأريخ الا شطراً منه انبرى عبيد الله بن العباس فحفز المسلمين إلى المبادرة لمبايعته قائلا :

(معاشر الناس هذا ابن نبيكم ، ووصي إمامكم فبايعوه) .

واستجاب الناس لهذه الدعوة المباركة فهتفوا بالطاعة ، واعلنوا الرضا والانقياد قائلين :

(ما أحبه الينا وأوجب حقه علينا وأحقه بالخلافة) (١) .

وانثالوا على الامام يبايعونه وهم (إنما يبايعون الله ورسوله)

وأول من بـــايعه المؤمن الثائر والحازم اليقظ الزعيم قيس بن سعـــد الأنصاري فقال له بنبرات تقطر حماساً وشوقاً إلى حرب اعداء الله وخصوم الاسلام :

(ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المحلين) .

وثقل على الامام أن يعزب عن قيس من أن العمل على كتـاب الله وسنة نبيـــه والسير على أضوائهـا يغني عن اشتراط قتال المحلين لأن فيهـا تبيانا لكل شيء ، فقال له بلطف ولين :

(على كتاب الله ، وسنة نبيه ، فانهـما يأتيان على كل شرط) (٢)

وذكر ابن قتيبة أن الامام كلما قصدته كوكبة من النـــاس لتبـــايعه يلتفت اليها قائلا :

(تبايعون لى على السمع والطاعة ، وتحاربون من حـاربت وتسالمون من سالمت) .

ولما سمعوا هذا الشرط احجموا عن البيعة (٣) وأمسكوا أيديهم عنها ،

(١) مقاتل الطالبيين ص ٣٤ ، الارشـاد ص ١٦٧ .

(٢) تأريـخ ابن الأثير ج ٣ ص ١٧٤ ، تأريـخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٨٦ .

(٣) البيعة: هي العهد على الطاعة لأن المبايع يعاهـــد أميره على أن يسلم له أمر النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه على ذلك .. ويطيعه فيما يكلفه بــه من الأمر .. وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد فاشبه ذلك كلا من البائع والمشتري .. فسمي بيعة ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته ص ١٩٧ ، والبيعة نوع من العقد الاجتماعي الذي ذكره (جان جاك روسو) ـــ

وقبض الحسن يده ، فانثالوا نحو الحسين ، وهم يهتفون :

(ابسط يدك نبايعك على ما بايعنا عليه أباك ، وعلى حرب المحلين الضالين أهل الشام) .

فردعهم الحسين قائلا :

(معاذ الله أن أبايعكم ما كان الحسن حيا) .

وبعدما رفض الحسين (ع) طلبهم أقبلوا نحو الحسن فبايعوه وهم مكرهون (١) وهذا القول بعيد فانه يدل على رغبة الامام في السلم فى أول الأمر وهو مناف لمواقفه العديدة فى إمضائه للحرب وعدم رغبته فى الموادعة والمسالمة مع خصمه كما ـ سنذكره بالتفصيل ـ ولوسلمنا صحة ذلك فانما كان مع الخوارج الذين يريدون خلق الاضطرابات والشغب في المجتمع العراقي واذاعة الخوف والارهاب بينهم بعزم الامام على الحرب ويدل على ذلك إحجامهم عن البيعة فى أول الأمر وذلك يكشف عن اضطراب نفوسهم وعدم ثقتهم وايمانهم بالخليفة الجديد ، وهذا مما عرفت به الخوارج وأما شيعته وأصحابه وخواصه فان نفوسهم قد ملئت ايماناً وثقة وحباً واخلاصاً له .

ومهما يكن من شي ، فان هذا الحديث كما كان يتضمن السلم كذلك يتضمن إمضاء الحرب والتصميم عليه ، فهو جامع بين الأمرين السلم لمن دخل في الطاعة والحرب لمن خرج عنها سواء أكانوا من الخوارج أم من أهل الشام ولكن

ـــ وتقوم هذه النظرية على اساس ان الاجتماع الذي يقع بين الناس في صورة شعب أو أمة انما يقوم على تعاقد بين الافراد .. فكل فرد قد دخل مع أفراد مجتمعه فى عملية تعاقد ، ويقضي ذلك بأن يصبح الفرد جزءاً من المجتمع ، وقد استدل على هذه النظرية (روسو) وأوضح كثيراً من جوانبها فى كتابه العقد الاجتماعي

(١) الامامة والسياسة ١ / ١٧٠.

لم يرق ذلك للخوارج فلذا شاغبوا فى الأمر وأرادوا الحرب خاصة لأهل الشام لا تتعداها الى غيرهم ، وقبل ان نسدل الستار على هذا الفصل نقدم إلى القارىء الكريم أموراً تتعلق فى هذا الفصل وهي كما يلى :

١ـ قبول الخلافة :

ويتساءل كثير من النقاد عن السبب في قبول الامام للخلافة مع ما منيت به الحاضرة الاسلامية من اخطار وعواصف وفتن ، فكان الأجدر به أن يتريث فى الأمر ولا يتسرع (كما يقولون) ولندع الجواب إلى سماحة المغفور له الحجة آل ياسين قال نضر الله مثواه :

أما أولا :

. فلما كان الواجب على الناس ديناً ، الانقياد إلى بيعة الامام المنصوص عليه كان الواجب على الامام ـ مع قيام الحجة بوجود الناصر ـ قبول البيعة من الناس .

أما قيام الحجة ـ فيما نحن فيه ـ فقد كان من انثيال الناس طواعية إلى البيعة فى مختلف بلاد الاسلام ما يكفي ـ بظاهر الحال ـ دليلا عليه ولا مجال للتخلف عن الواجب مع وجود شرطه .

وأما ثانيا :

فان مبعث هذا الانعكاس البداثي عن قضية الحسن عليه السلام هو النظر اليها من ناحيتها الدنيوية فحسب بينا الأنسب بقضية (إمام) ان يستنطقها الباحث من ناحيتها الدينية على الأكثر ، وكثير هو الفرق بين الدنيا والدين

في نظر إمام ، والقضية من هذه الناحية ظفر لا خسارة ـ كما سنأتي على توضيحه في محله المناسب ـ وهي وإن تكن معرض آلام ، ولكنها آلام في سبيل الاسلام ، ومن أولى بالاسلام من الحسن (ع) وتحمل آلامه وإنما هو نبت بيته .

واما ثالثا :

فلم يكن الحسن في رفعة مكانه من زعماء المسلمين ، وفي نسبه الممتاز ومركزه من العلم ، بالذي يستطيع الفراغ وإن أراده عن عمد ، ولا بالذي يتركه الناس وإن أراد هو ان يتركهم ، وكان لابد للرجات العنيفة في المجتمع الاسلامي أن تتدافع اليه ، تستدعيه للوثوب إحقاقاً للحق وانكاراً للمنكر كما وقع لأخيه الحسين عليه السلام في ظرفه (١) .

ويأخذ شيخنا في الاستدلال على ضرورة قبول الامام للخلافة ، ولزوم تسرعه لأجابة الجماهير الهاتفة باسمه ، وعلى كل فليس هناك مجال للشك في أنه (ع) لو تقاعس عن الاعتلاء على العرش ، وترك الأمة حبلها على غاربها لوقعت في محاذير ومصاعب لا يمكن حلها ، ثم ماهو المبرر له في عدم التسرع في الأمر بعدما أجمعت الأمة على مبايعته كما ذكر ذلك بالتفصيل سماحة المغفور له آل ياسين .

٢ ـ عموم البيعة :

واجمع العالم الاسلامي من اقصاه إلى ادناه على مبايعة الامام والانقياد لحكومته والخضوع لأمره ، فبايعه من الكوفة اثنان واربعون الفاً على السمع

---

(١) صلح الحسن ص ٤٧ .

والطاعــة وكذلك بايعــه أهل البصــرة والمدائن ، وجميع أهل العــراق وبايعته فارس على يد زياد بن ابيه ، وبايعه الحجازيون واليمانيون ، على يد القائد العسكري الحازم اليقظ جارية بن قدامــة وما تخلف أحــد عن البيعة سوى معاوية ومن يمت به كما تخلف عن مبايعة الامام علي (ع) من قبل فكانت بيعته (ع) عامة على غرار بيعة أبيه .

٣- احكام الدولة :

ولما تمت البيعة أخذ (ع) في إحكـام دولته فرتب العمال ، ووظف المحنكين والأشراف من عدول المؤمنين وصلحــاء المسلمين واعطى الاوامر الحازمــة إلى الامراء وزاد في عطــاء الجيش مائة مائة ، وكان الامــام علي قد فعل ذلك يوم الجمل، هذه هي الخطة الاولى من الاحسان والبر والمعروف التي افاضها على الجيش فملك بها القلوب والسيوف حتى قال ابن كثير : (وأحبوه أشد من حبهم لأبيه) (١) وهكـذا أخذ (ع) يعمل مجداً في اصلاح دولته ، وإحكامها وصيانتها ، وقد خطب فيهم فكان منطق خطابه الحث على لزوم طاعته ووجوب الانقياد اليه لأنه من العترة الطاهرة ومن حلقات الثقـل الأكبر الذي خلفه رسول الله (ص) في أمتـه وحذر (ع) رعيته من الاصغاء والانجراف بدعاية معاوية وبهتانه وكذبه وأمرهم بالتكاتف والاتحــاد والوحدة ، لرد العدوان الأموي الذي يهـدد المجتمع الاسلامي بالخطر ، وينذره بفقدان الحيـاة ، وقد تقدم نص هذا الخطاب في الحلقـة الأولى من هذا الكتاب (٢) .

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٤١ .

(٢) الجزء الأول ص ٣٢٧ .

٤ ـ اخطاء تأريخية :

ووقع فريق من المؤرخين وكتاب العصر في اخطاء حول بيعة الامام الحسن نشأت من قلة التتبع رأينا من اللازم التنبيه عليها .

١ ـ المسعودي :

ذكر المسعودى : (أن الامام بويع بعد وفاة أبيه بيومين) (١) وهذا القول لا يتفق مع ما ذكره جمهور المؤرخين من أنه بويع له في صبيحة الليلة التي وارى فيها جثمان أبيه عليه السلام .

٢ ـ فريد وجدي :

وذكر الاستاذ السيد محمد فريد وجدي أن الحسن (ع) : (بويع له في الخلافة قبل وفاة والده ، ولما انتهت البيعة توفي والده) (٢) وهذا القول كالقول السالف في مخالفته لاجماع المؤرخين ، فقد أجمعوا على أن البيعة كانت بعد مقتل الامام بلا فصل ، ولم يذكر مؤرخ ـ فيما نعلم ـ أنه بويع للامام في حياة أبيه .

٣ ـ الخضري :

ذكر الشيخ محمد الخضري في بيعة الامام ما نصه :(نظر الحسن إلى بيعته في انها ليست كبيعة أبيه لأنها ليست عامة ، ولكنها قاصرة على شيعتهم من أهل العراق) (٣) وهذا القول مجاف للواقع فان بيعة الامام لم تكن قاصرة على أهل العراق من الشيعة ، فان عمال الامام في جميع الاقطار الاسلامية قد أخذوا له البيعة من المسلمين ـ كما ذكرناه سابقاً ـ ولم

---

(١) التنبيه والاشراف ص ٢٦٠ .

(٢) دائرة المعارف ج ٣ ص ٤٤٣ ، كنز العلوم واللغة ص ٣٨٠ لفريد وجدي

(٣) اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ص ٢٢٥

تبق هنـــاك أي حاظرة من الحواظر الاسلاميـــة إلا بايعتـه سوى البلاد الخاضعة لمعاوية .

٤ ـ طه حسين :

قال الدكتور طه حسين في بيعـة الامام الحسن : (ومهما يكن من شيء فلم يعرض الحسن نفسه على الناس ، ولم يتعرض لبيعتهم وانما دعـا الناس إلى هذه البيعة قيس بن عبادة فبكى الناس ، واستجـابوا واخرج الحسن للبيعة ..) (١) وما ذكره بعيد عن الصحة كل البعد وذلك لما يلي

١ ـ إن قوله : (إن الحسن لم يعرض نفسه على الناس ، ولم يتعرض لبيعتهم) لا واقعية له ويرده خطاب الحسن في تأبين أبيه ، فقد دعاالناس إلى مبايعته وحفزهم إلى طـاعته وذلك بذكره للفضـائل النسبية والنفسيـة التي اختص بها فان بيانها وهو في مقام تأبين أبيـه ليس المقصود منه إلا إلا الدعوة لمبايعته ، وارشاد المجتمع الإسلامي الى أحقيته بالخلافة دون غيره .

٢ ـ وأما قوله : إن قيس بن سعد دعا الناس الى البيعة ولم يكن الامام حاظراً فاستجابوا له ، وأخرج فبويع . فانه اشتباه ظاهـر وخلط غريب لأن الدعوة الى البيعة إنما كانت بعدما أنهى الإمام خطابه السالف ولم تكن قبل ذلك الوقت والذي دعا اليها عبيد الله بن العباس وأول من بايعه قيس بن سعد كما بينّا ذلك فيما تقـدم .. إن أغلب بحوث الدكتور فى الإمام الحسن كانت خالية عن التحقيق وبعيدة عن الصواب ، فقـد مرّ فى صلح الإمام وفى سائر مناحي حيـاته مرور منطلق فلم يقف على الحقيقة ولم يقرب من الواقع ، وسنشير الى مواضع اشتباهه إن من الناحية التأريخية أو الاستنتاج التأريخي فى كثير من الجهات التي تخص البحث

---

(١) على وبنوه : ص ١٩٥



الحرب الباردة

وما أذيع مصير الخلافة الاسلامية إلى حفيد الرسول (ص) إلا وموجات من الهموم والأحزان قد طافت بابن هند ، فلكته الحيرة واستولى عليه الجزع والذهول ، وذلك لعلمه أن للامام مركزاً عظيماً في نفوس المسلمين، ومكانة مرموقة في جميع الأوساط ، لأنه سبط النبي العظيم وأعز الناس عنده وأقربهم اليه ، وقد شاعت بين المسلمين الأحاديث المتواترة عنه(ص) في رفع كيانه وتعظيم شأنه وتقديمه بالفضل على غيره فكيف يعدل الناس عنه إلى ابن هند وكيف يقاس معاوية به وهو من الاسرة الملعونة في القرآن وقد عرف الجميع عداء أبيه وأسرته للاسلام والمسلمين من يوم بزغ نوره

اضطرب معاوية وطارت نفسه شعاعاً ، وأقضّ التفكير مضجعه لما ازدانت الخلافة الاسلامية بالامام الحسن ، وذلك لعلمه ان الامام لايتحول عن شريعة جده وسيرة أبيه التي تقضي بلزوم محاربة الباغين والقضاء عليهم ومعاوية هو رافع لوائهم وعميدهم ، فالحسن لابد وأن يعمل كل جهوده ويبذل جميع مساعيه لمناجزة معاوية والقضاء عليه ، مضافاً إلى ذلك كله انه لم يجد منفذاً وثغراً يسلك فيه للطعن بشخصية الامام أو اتهامه بشيء مما قدم عثمان بريء منه ، بل قد قيل إنه من الذابين والمدافعين عنه ، فبماذا يتهم الامام اذاً وقد نزه من كل نقص ورذيلة كما تجرد هو من كل مكرمة وفضيلة .

المؤتمر الاموي :

وعقد معاوية على أثر ذلك اجتماعاً مفاجئاً في بلاطه دعا فيه خلص أتباعه وأشياعه فاخبرهم بالموقف الرهيب ، والخطر المفاجيء الذي حل في مملكته ، وأعلمهم ان الأمر إذا لم تتخذ فيه القرارات الحاسمة ، ولم تبذل الجهود الجبارة لانتشاله فسوف يحدق بهم الخطر المنذر بالفناء ، وبعد مداولة

الآراء والأفكار اجمعت كلمتهم على ما يلي :

١ — نشر الجواسيس ، وبث العيون في الأقطار الأسلامية الخاضعة لحكم الامام ، خصوصاً البصرة والكوفة ، ليعرفونه الأنباء بالتفصيل ويخبرونه باتجاه المجتمع ونياته ومدى اخلاصه لآل البيت (ع) كما ويقومون بعمليات الذعر والخوف والأرهاب بين المسلمين بقوة معاوية وضعف الحسن

٢ — مراسلة الزعماء والوجوه والشخصيات البارزة وارشائهم بالأموال الطائلة والوظائف المهمةفي مناصب الدولة إن اتبعوهوانقادوا له وخذلوا الإمام الحسن ، أماهذا الأمر فقدارجيء تنفيذه ـ بالاجماع ـ إلى وقت آخرقريب ، واما الأمر (الأول) فقد نفذ فوراً فقد استدعى معاوية رجلين خبيرين يثق بكفائتهما ويطمئن بدرايتهما وحذاقتهما في عالم التجسس ، أما الرجلان(فاحدهما) من حمير وقد ارسله إلى الكوفة ، وأما (الآخر) فمن بني القين وقد بعثه إلى البصرة .

ولما وصل الحميري إلى الكوفة ، والقيني إلى البصرة ، اخذا بتنفيذ الخطط المقررة لهما ، وبعدما انتشر أمرهما قبضت عليهما الشرطة المحلية ، اما الحميري فجيء به إلى الامام فأمر بقتله ، واما القيني فجيء به مخفوراً إلى عامل الامام على البصرة عبد الله بن عباس فأمر باعدامه ايضاً .

مذكرة الامام :

وعلى أثر وقوع هذا الاعتداء الصارخ من معاوية رفع الامام اليه مذكرة تهدده فيها وتوعده باعلان الحرب عليه وهذا نصها :

(أما بعد : فانك دسست إلي الرجال ، كأنك تحب اللقاء ، لا شك في ذلك فتوقعه إن شاء الله ، وبلغني أنك شمت بما لم يشمت به ذوو

الحجى (١) وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول :

فانا ومن قد مات منا لكالذي يروح فيمسي في المبيت ليغتدي
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى تجهز لأخرى مثلها فكأن قد

ويلمس في هذه الرسالة مدى روح العزم والحزم والتصميم على الحرب إن اصر معاوية على البغي ، والتمرد والتمادي في الاثم ، كما احتوت على الاستنكار لما أظهره من السرور والغبطة بمقتل الامام أمير المؤمنين .

جواب معاوية :

ولما وردت رسالة الامام إلى معاوية فزع منها ، فانبرى يفتش في حقيبة مكره عذراً يدفع به عن نفسه القبيح الذي ارتكبه ، والمنكر الذي فعله ، فلم يجد عذراً إلا انكار ما أظهره من السرور بمقتل الامام ولا بأس عليه في الكذب ، فقد استساغه واستحله وهو كل ما يملك في خزانة نفسه وأما بعثه العيون والجواسيس فرأى أن يتغاضى عن ذكره ويعرض عن جوابه ويهمل الاعتذار منه وهذا نصه :

(أما بعد : فقد وصل كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ، ولقد علمت بما حدث ، فلم أفرح ، ولم أحزن ، ولم أشمت ، ولم آس (٢) وإن علياً

---

(١) الحجى : العقل والفطنة .

(٢) لم آس : أي لم أحزن وذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن معاوية أظهر الحزن والأسى والتوجع بمقتل الامام أقول : ـ أولا ـ لا يتفق مع ماذكره معاوية من عدم حزنه بموت الامام ـ وثانياً ـ انه لا يتفق مع سيرة معاوية وعدائه السافر للامام الذي جعل سبه فريضة من فرائض الاسلام وتتبع شيعته واصحابه فقتلهم تحت كل حجر ومدر .

أباك لكما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة (١) :

فأنت الجواد وانت الذي ... إذا ما القلوب ملأن الصدورا
جدير بطعنة يوم اللقـا ... يضرب منها النساء النحورا
وما مزبد من خليـج البحا ... ر يعلو الاكام ويعلو الجسورا (٢)
بأجود منه بمـا عنده ... فيعطي الالوف ويعطي البدورا (٣)

---

(١) أعشى بني قيس : هو الأعشى الكبير أسمه (ميمون) بن قيس ولـد بقرية باليمامة يقال لها منفوحة وفيها داره وقبره ويقـال انه كان نصرانيـاً وهو أول من سأل بشعره ، وفد إلى مكة يريد النبي (ص) وقد مدحه بقصيدة أولها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبت كما بـات السليم مسهدا

ومنها :

أجدك لم تسمع وصاة محمد ... نبي الإله حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد بما كان أرصدا

فلقيه أبو سفيان في الطريق فأخبره بقصته فجمع له مائة من الابل ورده عن قصده فلما صار بقاع منفوحة رمى به بعيره فقتله ومن شعره :

قد يترك الدهر في خلقاء راسية ... وهيا وينزل منها الأعصم الصدعا
وكان شيء إلى شيء ففرقه ... دهر تعود على تفريق ما جمعـا

الخلقاء : الصخرة الثابتة . الأعصم : الذي في يده بيـاض . الصدع . الفتى من الوعول جاء ذلك في معجم الشعراء للمرزباني (ج ٢ ص ٤٠١)

(٢) مزبـد : مشتق من أزبد البحر إزبـاداً فهو مزبـد (بالتحريك) وهو كالرغوة . الاكام : جمع أكمة كقصبة وهي التل .

(٣) البدور : جمع مفرده بدرة كوردة وهي كيس فيه ألف أوعشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار .

ويلمس في هذه الرسالة دهاء معاوية وخداعه ، كما يلمس خوره وضعف عزيمته وفزعه من الامام الحسن وذلك لمدحه وثنائه على الامام علي (ع) وانكاره لما اظهره من الفرح والسرور والغبطة بموته ولولا ذلك لما سجل لخصمه هذا الثناء العاطر .

مذكرة ابن عباس :

ورفع عامل الامام على البصرة عبد الله بن عباس مذكرة إلى معاوية يستنكر فيها بعثه العيون والجواسيس إلى البصرة ويهدده على هذا الاعتداء السافر ، وهذا نصها :

(أما بعد : فانك ودسك أخا بني القين إلى البصرة تلتمس من غفلات قريش بمثل ما ظفرت به من يمانيتك لكما قال أمية بن أبي الصلت (١)

لعمرك إني والخزاعي طارقاً كنعجة غادت حتفها تتحفر(٢)

---

(١) جاء في رسالة جمهرة العرب (ج ٢ ص٤) ان الصحيح هو (أمية بن الأسكر) لا أمية بن أبي الصلت فانه خطأ وقد استند إلى ما ذكره برواية الأغاني حيث ذكر هذه الأبيات إلى أمية بن الأسكر قالها لما تغلب اصحاب النبي (ص) على رهط أمية بسبب طارق الخزاعي وكان قاطناً معهم فدل اصحاب النبي (ص) عليهم لأن خزاعة كان مشركها ومؤمنها يميلون إلى النبي على قريش فتأثر أمية من فعل طارق فقال فيه هذه الأبيات وأجابه طارق بأبيات استشهدفيها معاوية في جوابه عن رسالة عبد الله بن عباس .

(٢) غادت : أي باكرت . الحتف : الموت ، ومنع نعجة من الصرف لأجل الضرورة .

اثارت عليها شفرة بكراعها فظلت بهامن آخر الليل تنحر (١)
شمت بقوم هم صديقك أهلكوا أصابهم يوم من الدهر أعسر (٢)

جواب معاوية :

ولما وردت رسالة ابن عباس على معاوية إنبرى اليها مجيباً بجواب تمثلت فيه المواربة والخداع ، وهذه صورته :

(أما بعد : فان الحسن كتب الينا بنحو الذي كتبت به ، أنبني بما لم يحقق سوء ظن ورأي فيّ ، وانك لم تصب مثلي ومثلكم ، وإنما مثلنا كما قال طارق الخزاعي يجيب أمية على هذا الشعر :

فوالله ما أدري (وإني لصادق) إلى أي من يتظنني اتعذر (٣)
أعنف إن كانت زبينة أهلكت ونال بني لحيان شرفاً نفروا (٤)

وهذا الجواب يضارع الجواب الذي بعثه إلى الامام في انكاره لما أبداه من السرور والفرح بموت الامام ، كما احتوى جوابه على الدهاء والمواربة ، فاما قوله لابن عباس إن الحسن قد أنبني ، فالامام الحسن وإن أنبه ولامه على أظهاره

---

(١) الشفرة : السكين العريضة ، وحد السيف ، وجانب النصل ، الكراع : مستدق الساق وجاء في المثل (كالباحث عن المدية) ويروى عن (الشفرة) وفي آخر (كباحثة عن حتفها بظلفها) وأصله ان رجلا كان جائعاً فوجد شاة ولم يكن معه ما يذبحها به فبحثت الشاة الأرض بأظلافها فسقطت على شفرة فذبحها بها يضرب مثلا لكل من أعان على نفسه بسوء تدبيره .

(٢) الأغاني : (ج ٨ ص ٦٢) شرح ابن ابي الحديد (ج ٤ ص ١٢)

(٣) يتظنني : يتهمني .

(٤) نفروا : شردوا .

للمسرات بمقتل الإمام إلا أنه تهدده وتوعده باعلانه للحرب لما هو أهم من ذلك وأعظم وهو بعثه للعيون والجواسيس الى مملكته فان هذه الجهة قد أعرض عنها لئلا يذاع نشاط الإمام وعزمه على إعلان الحرب فتخور عزائم جنده وتقوى نفوس أصحاب الإمام .

رسالة ابن عباس للامام :

وعلى أثر ذلك بعث الحازم اليقظ عبد الله بن عباس رسالة الى الإمام ينشطه فيها على إثارة الحرب ومقاومة معاوية ومناجزته ، حتى النفس الأخير وقد دلت رسالته على درايته الواسعة واطلاعه الوافر بفنون السياسة ومعرفته التامة بنفوس المجتمع ووقوفه التام على نفسيات الأمويين واتجاههم السيء نحو الإسلام والمسلمين وهذا نصها :

« أما بعد : فان المسلمين ولوك أمرهم بعد علي عليه السلام فشمر للحرب وجاهد عدوك وقارب أصحابك ، واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم لك دنياه (١) ول (٢) أهل البيوت والشرف تستصلح به عشائرهم حتى يكون الناس جماعة فان بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق ، وكانت عواقبه تؤدي (٣) إلى ظهور العدل وعز الدين خير من كثير مما يحبه الناس إذا كانت عواقبه تدعوا الى ظهور الجور وذل المؤمنين وعز الفاجرين . واقتد بما جاء عن أئمة العدل فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلا في حرب ، أو اصلاح

---

(١) الظنين : المتهم . ويروى (واستر من الظنين ذنبه بما لا يثلم دينك) .

(٢) وفى رواية (واستعمل) وفى أخرى (ووال) .

(٣) وفى رواية (تدعو) .

بين الناس فان الحرب خدعة (١) ولك في ذلك سعة إذ كنت محارباً ما لم تبطل حقاً .

واعلم أن عليا أباك إنما رغب الناس عنه الى معاوية أنه آسى (٢) بينهم في الفيء وسوّى بينهم في العطاء ، فثقل عليهم ، واعلم أنك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الإسلام حتى ظهر أمر الله . فلما وحد الرب ، ومحق الشرك وعز الدين أظهروا الإيمان وقرؤا القرآن مستهزئين بآياته ، وقاموا الى الصلاة وهم كسالى وأدّوا الفرائض وهم لها كارهون ، فلما رأوا أنه لا يعز في الدين إلا الأتقياء الأبرار توسموا بسيمى الصالحين ليظن المسلمون بهم خيراً فما زالوا بذلك حتى شركوهم في أماناتهم وقالوا حسابهم على الله فان كانوا صادقين فاخواننا في الدين وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين ، وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم ، والله ما زادهم طول العمر إلا غياً ، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مقتاً فجاهدهم ولا ترض دنية ولا تقبل خسفاً (٣) فان عليا أباك لم يجب الى الحكومة حتى غلب على أمره فأجاب وإنهم يعلمون أنه أولى بالأمر إن حكموا بالعدل فلما حكموا بالهوى رجع الى ما كان عليه حتى أتى عليه أجله ولا تخرجن من حق أنت أولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام (٤)

واحتوت هذه الرسالة على أمور بالغة الأهمية هي :

١ — أن ابن عباس عرض على الإمام أن يولي الأشراف وذوي

---

(١) الحرب خدعة : مثلثة الخاء ، وبضمها مع فتح الدال أي تنقضي بخدعة .

(٢) آسى : أي سوى .

(٣) خسفاً : أي ذلاً .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ج ٤ ص ٨ . رسائل جمهرة العرب ج ٢ ص ١ .

النفوذ ، ويشري من الظنين دينه ليقضي بذلك على روح التفرقة ، ويكون الناس جماعة واحدة ، حتى يتمكن من مناجزة معاوية ومقاومته ، وغفل ابن عباس ان ذلك يتنافى مع السياسية الرشيدة التي انتهجها أهل البيت فانها بنيت على الحق الخالص ، وعلى شجب كافة الوسائل التي لا تتفق مع المبادىء الإسلامية وإن توقف عليها الظفر والنصر ، وسنذكر ذلك بمزيد من التوضيح عند عرض أسباب الصلح .

٢ ـ واشتملت هذه الرسالة على أهم الأسباب الوثيقة التي أدت الى خذلان الإمام في دور خلافته ونجاح معاوية في عهد حكومته ، فان الإمام قد انتهج سياسة العدل والمساواة فسوى بين المسلمين في العطاء فلم يقدم أحداً على أحد في العطاء عملاً بما أمر به الإسلام ونصت عليه مبادؤه العادلة التي محت التفاوت بين الأبيض والأسود وهدمت الحواجز بين الغني والفقير وجعلت (الناس سواسية كأسنان المشط كلهم من آدم وآدم من تراب) لا ميزة لأحد على أحد إلا بالتقوى ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل والكفاءة ، سار الإمام علي (ع) على هذه السياسة العادلة ومشى على هذه الخطة الواضحة حتى ضرب الرقم القياسي للمساواة والعدل فمن بوادر عدله انه ساوى بين سيدة قرشية ، وبين أمة في العطاء فغاظ القرشية ذلك وأقبلت اليه وهي محنقة مغيظة تقول بحرارة :

« أتساوي في العطاء بيني وبين هذه الأمة ؟ »

فرمقها الإمام بطرفه وأخذ بيده قبضة من التراب وجعل يقلبه بيده وهو يقول :

« لم يكن بعض هذا التراب أفضل من بعض » .

لقد ثقل على الناس هذه المساواة وشق عليهم هذا العدل لأنهم

لا يتطلبون إلا مصالحهم الخاصة ، فلذا زهدوا في حكومته وخضعوا لحكومة الظلم حكومة معاوية الذي لا هدف له إلا إشباع شهواته ، وتحقيق رغباته .

٣ — وأعرب ابن عباس في رسالته عن دراسته الوثيقة لنفسيات الأمويين ومعرفته بما انطوت عليه قلوبهم ، فلقد بيّن أنهم مجموعة من الملحدين والمشركين « كما هم كذلك » فاذا حاربهم الإمام فانما يحارب من حارب الله ورسوله حينما بزغ نور الاسلام فانه لما كتب الله النصر لدينه وقهر سلطان الإسلام العرب دخلت أمية فيه لكن لا إيماناً منهم بقضيته بل خوفاً من حر السيف ، ورهبة الموت ، فكانوا يتظاهرون باعتناق الإسلام فيقرؤن آيات الذكر الحكيم ولكن قراءة استهزاء وسخرية لا إيماناً واعتقاداً به وكانوا يقيمون الصلاة ولكنهم يؤدونها وهم كسالى ، ويقيمون فرائض الإسلام ولكن عن كره ونفاق ، ولما رأوا أن خططهم مغلوطة ولا تضمن لهم النجاح ، ولا تكفل لهم السعادة إذ لا يعز في هذا الدين إلا الأبرار الصلحاء لقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) . أظهروا — تدليساً ورياءً — الصلاح والتقى والإيمان وأضمروا في دخائل نفوسهم الشرك والنفاق والحقد على الإسلام ، وظلوا على هذا الحال يظهرون الطاعة لله والإنقياد لأوامره وأحكامه حتى أشركهم المسلمون في امورهم وشؤونهم ولكن المسلمين مع ذلك كانوا مرتابين منهم شاكين في أمرهم على ريب من صدقهم.

٤ — واحتوت هذه الرسالة على حث الإمام وتحريضه لمحاربة هؤلاء المنافقين والمارقين من الدين ، ومواصلة حربهم حتى النفس الأخير لتستريح الأمة من شرهم ، وتسلم من مكرهم وغوائلهم . ولا شك ان هذه

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

الرسالة التي دبجتها يراعة هذا الحبر الجليل كان لها موقع حسن في نفس الإمام فقد حفزته الى مناجزة معاوية ومقاومته ، وإعلان الحرب عليه .

رسالة الامام الى معاوية :

وأرسل الإمام رسالة أخرى الى معاوية يدعوه الى مبايعته ، وطاعته والدخول فيما دخل فيه المسلمون . وقد أرسل هـذه الرسالة بيد شخصين من عيون المؤمنين وثقات الإسلام وهما الحارث بن سويد التميمي (١) وجندب الأزدي (٢) واليك نص رسالته :

« من عبد الله الحسن أمير المؤمنين ، الى معاوية بن أبي سفيان .

أما بعد : فان الله بعث محمداً (ص) رحمة للعالمين فأظهر به الحق ، وقمع به الشرك ، وأعزّ به العرب عامـة ، وشرّف به قريشاً خاصـة ،

---

(١) الحارث بن سويد التميمي : هو أبو عائشة الكوفي روى عن جماعة من ثقات الصحابة منهم الإمام علي وابن مسعود ، وروى عنه جماعة من الثقات وقد عظّم الرواة شأنه فقال ابن معين : إنه ثقة . وقال غيره : إنه أجود اسناد روى عن الإمام علي وقد أطرى على الرجل وأثنى عليه بثناء عاطر ويكفيه فضلاً أنه ثقة الإمام الحسن ومعتمده الذي بعثه لمعاوية توفى في أواخر أيام عبد الله بن الزبير ، جاء في تهذيب التهذيب ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) جندب الأزدي العامري يكنى أبو عبد الله وهو أحد الصحابة وقـد روى عن النبي (ص) أنه قال : (حد الساحر ضربه بالسيف) روى عن جماعة من الصحابة منهم الإمام علي (ع) وسلمان الفارسي ، وروى عنه جماعة آخرون وذكره ابن حيان من ثقات التـابعين ، توفي في آخر خلافة معاوية . جاء ذلك في تهذيب التهذيب ج ٢ ص ١١٨ .

فقال : « وإنه لذكر لك ولقومك » (١) ، فلما توفاه الله تنازعت العرب في الأمر بعد ، فقالت قريش : نحن عشيرته وأولياؤه فلا تنازعونا سلطانه فعرفت العرب لقريش ذلك وجاحدتنا قريش ما عرفت لها العرب ، فهيهات ما انصفتنا قريش ، وقد كانوا ذوي فضيلة في الدين ، وسابقة في الإسلام ، ولا غرو إلا منازعتك إيانا الأمر بغير حق في الدنيا معروف ، ولا أثر في الإسلام محمود ، فالله الموعد ، نسأل الله معروفه أن لا يؤتينا في هذه الدنيا شيئاً ينقصنا عنده في الآخرة .

إن علياً لما توفاه الله ولاني المسلمون الأمر بعده ، فاتق الله يا معاوية وانظر لأمة محمد (ص) ما تحقن به دماءها وتصلح به أمرها والسلام » (٢)

وتروى هذه الرسالة بصورة أخرى أبسط من هذه الصورة وأوفى نذكرها لما فيها من مزيد الفائدة :

« من الحسن بن علي أمير المؤمنين ، الى معاوية بن أبي سفيان ، سلام عليك فاني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فان الله جل جلاله بعث محمداً رحمة للعالمين ، ومنة للمؤمنين ، وكافة للناس أجمعين « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » (٣) فبلغ رسالات الله وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصر ولا وان ، وبعد أن أظهر الله به الحق ، ومحق به الشرك ، وخص به قريشاً خاصة . فقال له : « وإنه لذكر لك ولقومك » ، فلما توفى تنازعت سلطانه العرب ، فقالت قريش : نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقه ،

---

(١) سورة الزخرف آية ٤٤ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ج ٤ ص ٩ .

(٣) سورة يس آية ٧٠ .

فرأت العـرب أن القول ما قالت قريش وان الحجة في ذلك لهم على من نازعهم أمر محمد ، فأنعمت لهم (١) وسلمت اليهم ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت به العرب فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها ، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنصاف والإحتجاج فلما صرنا أهل بيت محمد وأولياءه الى محاججتهم وطلب النصف (٢) منهم باعدونا ، واستولوا بالإجتماع على ظلمنا ومراغمتنا (٣) والعنت منهم لنـــا ، فالموعد الله وهو الولي النصير .

ولقد كنا تعجبنا لترثب المتوثبين علينا في حقنا وسلطان بيتنا ، وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقـــة في الإسلام وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب (٤) في ذلك مغمزاً يثلمونه به ، أو يكون لهم بذلك سبب الى ما أرادوا من إفساده ، فاليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله . لا بفضل في الدين معروف ، ولا أثر في الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله (ص) ولكتابه ، والله حسيبك ، فسترد وتعلم لمن عقبى الدار ، وبالله لتلقينّ عن قليل ربك ثم ليجزينك بما قدّمت يداك ، وما الله بظلاّم للعبيد .

---

(١) أنعم له : أي قال له نعم .

(٢) النصف : الإنصاف .

(٣) راغمهم : نابذهم وعاداهم .

(٤) الأحزاب : هي التي تحزبت على قتال رسول الله (ص) من قريش وغطفان وبني مرة وبني أشجع وبني سليم وبني أسد في غزوة الأحزاب وهي غزوة الخندق وكان قائدهم العام أبا سفيان وذلك في السنة الخامسة من الهجرة .

إن عليا لما مضى لسبيله — رحمة الله عليه يوم قبض ، ويوم منّ الله عليه بالإسلام ويوم يبعث حياً — ولاني المسلمون بعده ، فأسأل الله أن لا يؤتينا في الدنيا الزائلة شيئاً ينقصنا به في الآخرة مما عنده من كرامة ، وإنما حملني على الكتاب اليك الاعذار فيما بيني وبين الله عز وجل فى أمرك ولك في ذلك إن فعلته الحظ الجسيم ، والصلاح للمسلمين فدع التمادي في الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي ، فانك تعلم أني أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أوّاب (١) حفيظ ومن له قلب منيب ، واتق الله ودع البغي ، واحقن دماء المسلمين ، فوالله ما لك خير فى أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به وادخل فى السلم والطاعة ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك ليطفىء الله النائرة (٢) بذلك ، ويجمع الكلمة ، ويصلح ذات البين ، وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيك سرت اليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » (٣)

وحفلت هذه الرسالة — على كلتا الروايتين — بأمور مهمة :

١ — إن الإمام أعرب فيها عن شعوره تجاه الخلافة الإسلامية فهو فهو يرى أنها من حقوق أهل البيت (ع) لا يشاركهم فيها أحد ، وان من ابتزها منهم فقد اعتدى عليهم وسلب تراثهم ، وقد سلك الإمام في الإستدلال على رأيه الوثيق بعين ما استدلت به قريش على العرب في أحقيتهم بالخلافة من أنهم أقرب الناس الى النبي (ص) وأمس الناس رحماً به ، فان هذا الشعار الذي هتفوا به موجود في أهل البيت على النحو الأكمل

---

(١) آب الى الله رجع عن ذنبه وتاب فهو أواب مبالغة .

(٢) النائرة : العداوة والبغضاء .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ج ٤ ص ١٢ ،

فانهم فرع دوحته والصق الناس به وأقربهم اليه ، ومن الغريب ان العرب قنعت بحجة قريش ، ولكن القرشيين لم يخضعوا لمقالة أهـــل البيت ، نعم يعود السبب فى ذلك الى الأضغان والأحقاد التي أترعت نفوسهم بها فناصبوا عترة نبيهم ، وبالغوا في ارهاقهم ، والتنكيل بهم ، فواجهت العترة الطاهرة ألواناً قاسية من المحن والخطوب .

٢ ــ وذكر الإمام الحسن السر في إمساكهم وإحجامهم عن المطالبة بحقهم وذلك خوفاً منهم على بيضة الإسلام وكلمة التوحيد من الأحزاب والمنافقين الذين مردوا على النفاق ، فقد قويت شوكتهم بموت النبي (ص) وأخذوا ينتهزون الفرصة لمحق الإسلام واستئصال شأفته ، فآثروا مصلحة الإسلام على ضياع حقهم ، وقد صرح الإمام أمير المؤمنين (ع) بذلك في كتابه الذي بعثه الى أهل مصر وقد جاء فيه :

« فلما مضى عليه السلام ، تنازع المسلمون الأمر من بعده ، فو الله ما كان يلقى فى روعي ، ولا يخطر ببالي ، ان العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله عن أهل بيته ، ولا انهم منحوه عني من بعده ، فما راعني إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه ، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس عن الإسلام يدعون الى محق دين محمد (ص) فخشيت إن لم انصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوات ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب ... »

فلأجل الحفاظ على الإسلام والإحتياط على مصلحة المسلمين أمسكوا عن المطالبة بحقوقهم ، ولم يناجزوا القوم بالسيف ، وسلموا الأمر الى الله .

٣ ــ وأعرب الإمام الحسن في رسالته عن استغرابه من نزاع معاوية

وتطاوله عليه وهو من الحزب الذي سخر الدنيا حرباً على رسول الله (ص) وأثاروا عليه حفائظ الجاهلية وأحقادها ، فكيف ينازع حفيد النبي ووريثه على منصبه ومقامه ! ! وهناك باعث آخر من بواعث استغراب الإمام على منازعة معاوية له ، وهو أن معاوية ليس له فضل في الدين معروف ، ولا أثر في الإسلام محمود ، وليست أي مرهبة أو فضيلة حتى يستحق هـــذا المنصب العظيم في الإسلام .

٤ – وذكر (ع) لمعاوية عموم البيعة له بعد وفاة أبيه وان الأمّـة قد أجمعت على مبايعته وعلى الإنقياد اليه وهي حجة بالغة لو وعاها معاوية ورجع الى منطق الحق والصواب .

جواب معاوية :

ولما وصلت رسالة الإمام الى معاوية أجاب عنها بجواب يلمس فيه المكر والخداع ، وهذه صورته :

« أما بعد : فقد فهمت ما ذكرت به رسول الله (ص) وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعـــده ، فصرّحت بتهمة أبي بكر الصديق وعمر وأبي عبيدة الأمين وصلحاء المهاجرين فكرهت لك ذلك إن الأمّة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشاً أخلقها به ، فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولوا من قريش أعلمها بالله وأخشاها له وأقواها على الأمر فأختاروا أبا بكر ولم يألوا (١) ولوعلموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ، ويذب عن حرم الإسلام ذبه ، ما عدلوا بالأمر الى أبي بكر ، والحال اليوم بيني وبينك على ما كانوا عليه

(١) لم يألوا : أي لم يقصروا .

فلو علمت أنك أضبط لأمر الرعية ، وأحوط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأكيد للعدو ، وأقوى على جمع الفيء ، لسلمت لك الأمر بعد أبيك ، فان أباك سعى على عثمان حتى قتل مظلوماً فطالب الله بدمه ، ومن يطالبه الله فلن يفوته ، ثم ابتز الأمة أمرها ، وفرّق جماعتها فخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدم في الإسلام ، وادعى أنهم نكثوا بيعته فقاتلهم فسفكت الدماء ، واستحلت الحرم ، ثم أقبل الينا يدعي علينا بيعة ولكنه يريد أن يملكنا اغتراراً فحاربناه وحاربنا ، ثم صارت الحرب الى أن اختار رجلاً واخترنا رجلاً ليحكما بما تصلح عليه الأمة ، وتعود به الجماعة والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقاً ، وعليه مثله ، وعلينا مثله على الرضا بما حكما ، فأمضى الحكمان عليه الحكم بما علمت وخلعاه فوالله ما رضي بالحكم ، ولا صبر لأمر الله ، فكيف تدعوني الى أمر إنما تطلبه بحق أبيك ، وقد خرج منه فانظر لنفسك ولدينك والسلام » (١) .

وروى هذا الجواب بصورة أخرى أوسع وأبسط من الأولى وهذا نصه :

« من عبد الله معاوية أمير المؤمنين الى الحسن بن علي : سلام عليك فاني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت به محمداً رسول الله (ص) من الفضل وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله قديمه وحديثه وصغيره وكبيره وقد والله بلغ وأدى ونصح وهدى حتى أنقذ الله به من الهلكة ، وأنار به من العمى ، وهدى به من الجهالة والضلالة ، فجزاه الله أفضل ما جزى نبياً عن أمته وصلوات الله عليه يوم ولد ويوم بعث ويوم قبض ويوم يبعث حياً ، وذكرت وفاة

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٤ ص ٩ .

النبي (ص) وتنازع المسلمين بعده وتغلبهم على أبيك فصرحت بتهمة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة الأمين وحواري (١) رسول الله (ص) وصلحاء المهاجرين والأنصار فكرهت ذلك لك ، إنك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظنين ، ولا المسيء ، ولا اللئيم ، وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل .

إن هذه الأمّة لما اختلفت بينها لم تجهل فضلكم ، ولا سابقتكم ، ولا قرابتكم من نبيكم ، ولا مكانكم في الإسلام وأهله ، فرأت الأمّة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانتها من نبيها ، ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار ، وغيرهم من سائر الناس وعوامهم ، أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلاماً ، وأعلمها بالله ، وأحبها له ، وأقواها على أمر الله فاختاروا أبا بكر . وكان ذلك رأي ذوي الدين والفضل ، والناظرين للأمة فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة ، ولم يكونوا متهمين ولا فيما أتوا بالمخطئين ولو رأى المسلمون أن فيكم من يغني غناءه (٢) ، ويقوم مقامه ، ويذب عن حريم الإسلام ذبه ما عدلوا بالأمر الى غيره رغبة عنه ، ولكنهم علموا في ذلك بما رأوه صلاحاً للإسلام وأهله ، والله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيراً وقد فهمت الذي دعوتني اليه من الصلح ، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي (ص) ، فلو علمت أنك أضبط مني للرعية ، وأحوط على هذه الأمّة ، وأحسن سياسة ، وأقوى على جمع الأموال ، وأكيد للعدو لأجبتك الى ما دعوتني اليه ، ورأيتك لذلك أهلاً ، ولكن قد علمت اني أطول منك ولاية ، وأقدم منك بهذه

(١) الحواري : الناصر والمعين أو ناصر الأنبياء .

(٢) الغناء : النفع ، وأغنى غناءه أجزأ عنه ، وقام مقامه .

الأمّة تجربة ، وأكبر منك سناً ، فأنت أحق أن تجيبني الى هذه المنزلة التي سألتني ، فادخل في طاعتي ، ولك الأمر من بعدي ، ولك ما فى بيت مال العراق من مال بالغاً ما بلغ ، تحمله الى حيث أحببت ، ولك خراج أي كور العراق شئت معونة لك على نفقتك يجبيها أمينك ويحملها لك في كل سنة ، ولك أن لا يستولى عليــك بالإساءة ، ولا تقضى دونك الأمور ، ولا تعصى فى أمر أردت به طاعة الله ، أعاننا الله وإياك على طاعتــه إنه سميع مجيب الدعاء والسلام » (١) .

واشتملت هذه الرسالة ــ بكلتا الروايتين ــ على دجل معاوية ومراوغته، وأغاليطه كما يقول الدكتور « أحمد رفاعي » (٢) ولابد لنا من وقفة قصيرة للنظر فى محتوياتها وهي :

١ ــ جاء فيها « أن هذه الأمّة لما اختلفت بينها لم تجهل فضلكم ، ولا سابقتكم للإسلام ، ولا قرابتكم من نبيكم . الخ » إن من تتبع الأحداث التي وقعت بعد وفاة النبي (ص) عرف زيف هذا الكلام ومجافته للواقع، فان العترة الطاهرة واجهت بعد النبي (ص) أشق المحن والخطوب ، فان الجرح لما يندمل والرسول لما يقبر استبد القوم بالأمر ، وعقــدوا سقيفتهم متهالكين على الحـكم ، وتغافلوا عترة نبيهم فلم يأخذوا رأيهم ولم يعتنوا بهم ولما تم انتخاب أبي بكر خفوا مسرعين الى بيت بضعته وريحانتــه وهم يحملون مشاعل النار لإحراقه ، وسحبوا أخا النبي ووصيه أمير المؤمنين مقاداً بحمائل سيفه ليبايع قسراً ، وهو يستجير فلا يجار ، وخلد بعد ذلك الى العزلة يسامر همومه وشجونه ، وتتابعت عليهم منـذ ذلك اليوم المصائب والخطوب فلم يمض على انتقال النبي (ص) الى دار الخلد خمسون عاماً وإذا بالمسلمين

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤/١٣ .　　(٢) عصر المأمون ١ / ١٧ .

في موكب جهير يجوب البيداء من بلد الى بلد وهم يحملون رؤوس أبنائه على أطراف الرماح ، وبناته سبايا « يتصفح وجوههن القريب والبعيد ، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل » . وبعد هذه المحن التي ألمّت بهم هل أدت الأمّة حقهم وعرفت مكانتهم ولم تجهل فضلهم .

٢ — ومن محتوياتها : « ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم أن يولوا الأمر من قريش الخ » . إن صلحاء المسلمين وخيارهم كانوا مع أمير المؤمنين ولم يرتضوا بيعة أبي بكر ، وأقاموا على ذلك سيلاً من الإحتجاج والإنكار ذكرناه بالتفصيل في الجزء الأول من هذا الكتاب .

لقد كانت مغبة اختيار قريش أن يحكم رقاب المسلمين معاوية ويزيد ومروان والوليد وأمثالهم من أئمة الظلم والجور الذين أغرقوا البلاد في المآسي والشجون وأمعنوا في إذلال المسلمين وإرهاقهم حتى بايعوا في عهد يزيد انهم خول وعبيد له هذا ما رآه صلحاء الناس من قريش في صرف الأمر عن عترة نبيهم كما قال معاوية وقد وفقت في اختيارها — كما يقولون — فانا لله وإنا اليه راجعون .

٣ — ومن غريب هذه الرسالة قوله : « فلو علمت أنك أضبط للرعية مني وأحوط على هذه الأمّة ، وأحسن سياسة . الخ » نعم تجلت حيطته على الإسلام وحسن سياسته حينما تم له الأمر ، وصفا له الملك ، فانه أخذ يتتبع صلحاء المسلمين وأبرارهم فيمعن في قتلهم ومطاردتهم وزجهم في السجون . ومن حيطته على الإسلام استلحاقه لزياد بن أبيه ، وسبه لأمير المؤمنين على المنابر ، وفي قنوت الصلاة ، ونصبه ليزيد حاكماً على المسلمين وأمثال هذه الموبقات والجرائم التي سودت وجه التاريخ .

مذكرة معاوية :

وأرسل معاوية الى الإمام مذكرة يحذره فيها من الخلاف عليه ، ويمنيه بالخلافة من بعده إن تنازل له عن الأمر وهذا نصها :

« أما بعد : فان الله يفعل في عباده ما يشاء لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، فاحذر أن تكون منيتك على أيدي رعاع من الناس وأيس من أن تجد فينا غميزة ، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه ، وبايعتني وفيت لك بما وعدت ، وأجريت لك ما شرطت وأكون في ذلك كما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة :

وإن أحد أسدى اليك أمانة فأوف بها تدعى إذا مت وافيا
ولا تحسد المولى إذا كان ذا غنى ولا تجفه إن كان في المال فانيا

ثم الخلافة لك من بعدي ، فأنت أولى الناس بها والسلام » .

وأكبر الظن ان هذه الرسالة المشتملة على مثل هذا اللون من التهديد والتوعيد إنما بعثها معاوية الى الإمام بعد ما اتصل اتصالاً وثيقاً بزعماء الجيش العراقي وقادته فضمنوا له تنفيذ مخططاته ، فانه لم يكتب ذلك إلا بعد الإتصال بزعماء العراق وانقطاع أمله من إجابة الحسن له .

جواب الإمام :

ولم يعتن الإمام بتهديد معاوية ، وأجابه بجواب يلمس فيه الحزم والإصرار منه على الحرب وهذا نصه :

« أما بعد : فقد وصل إليّ كتابك ، تذكر فيه ما ذكرت ، وتركت جوابك خشية البغي عليك ، وبالله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحق تعلم أني

من أهله ، وعليَّ أثم أن أقول فأكذب والسلام » .

وكانت هذه الرسالة هي آخر الرسائل التي دارت بين الإمام ومعاوية وعلى أثرها علم معاوية أنه لا يجديه خداعـــه وأباطيله ، ولا تنفع مغالطاته السياسية ، وعرف أن الإمام مصمم على حربه فاتجه بعد ذلك الى الحرب وتهيئة أسبابه ومقتضياته .





إعلانُ الحربْ

وبعد ما فشلت أغاليط معاوية ومخططاته السياسية رأى أن خير وسيلة له للتغلب على الأحداث أن يبادر الى اعلان الحرب لئلا يتبلور الموقف ، وتفوت الفرصة وأكبر الظن – انه بالإضافة الى ذلك – إنما استعجل الحرب لأمور وهي :

١ – إنه اتصل اتصالاً وثيقاً بزعماء العراق ، وقادة الجيش ، ورؤساء القبـــائل فاشترى ضمائرهم الرخيصة بالأموال ومنّاهم بالوظائف ، فأجابوه سراً الى خيانة الإمام وتنفيذ أغراضه ، ويدل على ذلك مذكرته التي بعثها الى عماله وولاته يطلب منهم النجدة والإلتحاق به فانه أعرب فيهـــا عن اتصالهم به .

٢ – علمه بتفكك الجيش العراقي وتفلله وعدم طاعته للأمام وذلك مسبب عن أمور نذكرها مشفوعة بالتفصيل عند عرض علل الصلح وأسبابه

٣ – علمه بوجود الخطر الداخلي الذي مني به العراق ، وسلمت منه الشام ، وهي فكرة الخوارج التي انتشرت مبادؤها بين الأوساط العراقية ومن أوليـــات مبادئهم اعلان التمرد والعصيان على الحكم القائم ، ونشر الفوضى في البلاد ليتسنى لهم الإطاحة به واستلام قيادة الأمّة .

٤ – مقتل الإمام أمير المؤمنين (ع) الذي فقد به العـــراق قائداً وموجهاً وخطيباً ، يحملهم على الحق ويثيبهم الى الصواب ، وقد أصبح العراقيون بعد فقده يسيرون في ظلام قاتم ، ويتخبطون خبط عشواء قـــد فقدوا الرائد والدليل .

هذه الأمور – فيا نعلم – هي التي حفزت معاوية الى اعلان الحرب واستعجاله ، فان العراق لو لم يُمن بمثل هذه الكوارث والفتن لما وجـــد معاوية الى الحرب سبيلاً ، ولبذل جميع طاقاته في تأخير الحرب ، وعقد

الهدنة المؤقتة – كما فعل ذلك مع ملك الروم – حتى يتبين له الأمر فانا لا ننسى كلماته التي تنم عن خوفه وفزعه من العراقيين حينما كانوا صفاً واحداً غير مبتلين بالتفكك والإنحلال فقد قال : « ما ذكرت عيونهم تحت المغافر (١) بصفين إلا لبس على عقلي » ووصف اتحادهم بقوله : « إن قلوبهم كقلب رجل واحد » فلولا اختلافهم وتشتتهم لما بادر معاوية الى اعلان الحرب واستعجاله .

مذكرة معاوية لعماله :

ورفع معاوية مذكرة ذات مضمون واحد الى جميع عماله وولاته ، يحثهم فيها على الخروج الى حرب الإمام ويأمرهم بالالتحاق به سريعاً بأحسن هيئة ، وأتم استعداد وهذا نصها :

« من عبد الله معاوية أمير المؤمنين ، الى فلان ابن فلان ، ومن قبله من المسلمين ، سلام عليكم ، فاني أحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد : فالحمد لله الذي كفاكم مؤنة عدوكم ، وقتلة خليفتكم ، إن الله بلطفه أتاح لعلي بن أبي طالب رجلاً من عباده فاغتاله فقتله فترك أصحابه متفرقين مختلفين ، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ، فأقبلوا الي حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم ، وحسن عدتكم ، فقد أصبتم بحمد الله الثأر ، وبلغتم الأمل ، وأهلك الله أهل البغي والعدوان ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » (٢) .

(١) المغافر : جمع ، مفرده : مغفر ومغفرة ، وهو زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ١٣ .

ولما وصلت هذه الرسالة الى عماله وولاته قاموا بتحريض النــاس وحثهم على الخروج والاستعداد لحرب ريحانة رسول الله وسبطه وفي أقرب وقت التحقت به قوى هــائلة منظمة لا ينقصها شيء من حيث الكراع والسلاح ، والعدد والعدة .

ولما توفرت له القوة الهائلة من الجند والعسكر وأصحاب المطامع الذين لا يقدسون سوى المـادة زحف بهم نحو العراق وتولى بنفسه القيادة العامة للجيش ، وأناب عنه في عاصمته الضحاك بن قيس الفهري ، وقد كان عدد الجيش الذي زحف معه ستين ألفاً ، وقيل أكثر من ذلك ، ومهما كان عدده فقد كان مطيعاً لقوله ، ممتثلاً لأمره ، منفذاً لرغباته ، مذعناً له لا يخالفه ولا يعصيه .

وطوى معاوية البيداء بجيشه الجرار فلما انتهى الى جسر منبج (١) .

---

(١) جسر منبج : بفتح الميم وسكون النون وكسر الباء بلد قديم ، المسافة بينه وبين حلب يومان ، أول من بناه كسرى ، وقد أنجب جماعة من الشعراء يعد في طليعتهم البحتري ، وقد عناها المتنبي بقوله :

قيــل بمنبـج مثواه ونائله ... في الأفق يسأل عن غيره سألا

ولها يتشوق ابراهيم بن المدبر ، وكان يهوى جارية بها في قوله :

وليلة عين المرج زار خياله ... فهيّج لي شوقاً وجدد أحزاني

فأشرفت أعلى الدير أنظر طامحاً ... بألمح آماقي وأنظــر انساني

لعلي أرى أبيات منبج رؤية ... تسكن من وجدي وتكشف أشجاني

جاء ذلك في معجم البلدان ٨ / ١٦٩ .

فزع العراقيين :

وحينما أذيع خبر توجهه وبلوغه الى هذا المحل عم العراقيين الذعر والخوف ، ولما علم الإمام بتوجهه أمر بعض أصحابه أن ينادى فى العاصمة « الصلاة جامعة » ويقصد بذلك جمع الناس فى جامع البلد ، فنودي بذلك وما هي إلا فترة يسيرة من الزمن حتى اكتظ الجامع بالجماهير الحاشدة فخرج (ع) فاعتلى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد : فان الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرهاً ، ثم قال لأهل الجهاد : اصبروا إن الله مع الصابرين ، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون ، انه بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير اليه فتحرك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله الى معسكركم في النخيلة (١) حتى ننظر وتنظرون ، ونرى وترون » (٢) .

ولما أنهى (ع) خطابه وجم الحاضرون ، وأخرست ألسنتهم ، واصفرّت ألوانهم كأنهم قد سيقوا الى الموت ، فلم يجب الإمام أحد منهم كل ذلك لخوفهم من أهل الشام ، وحبهم للسلم ، وإيثارهم للعافية ، وكان هذا التخاذل في بداية الدعوة الى جهاد العدو ينذر بالخطر ويدعو الى التشاؤم واليأس من صلاحهم .

---

(١) النخيلة : تصغير نخلة موضع قريب من الكوفة على سمت الشام وبه قتل معاوية الخوارج لما ورد الى الكوفة وفيهم يقول ابن الأصم راثياً :

إني أدين بما دان الشراة به   يوم النخيلة عند الجوسق الخرب

جاء ذلك فى معجم البلدان ٨ / ٢٧٦ .

(٢) شرح النهج ابن أبي الحديد ٤ / ١٣ .

ولما رأى الصحابي العظيم والحازم اليقظ عدي بن حاتم (١) سكوت الجماهير وعدم اجابتهم للإمام غاظه ذلك والتاع أشد اللوعة ، فانبرى اليهم

(١) عدي بن حاتم الطائي كان أبوه حاتم مضرب المثل في الجود والسخاء ، يكنى عدي بأبي طريف ، وفد على النبي (ص) في السنة التاسعة من الهجرة وكان نصرانياً فاسلم ، ولإسلامه حديث طريف طويل ، ذكره ابن الأثير في أسد الغابة ، روى عن النبي (ص) أحاديث كثيرة ، كان جواداً شريفاً في قومه عظيماً عندهم ، وعند غيرهم ، وكان حاظر الجواب ، ومن أهل الدين والتقى ، وهو القائل : ما دخل عليّ وقت الصلاة إلا وأنا مشتاق اليها ، ودخل يوماً على عمر بن الخطاب فرأى منه تكبراً واستخفافاً بحقه ، فالتفت اليه قائلاً : أتعرفني ؟ فأجابه عمر ، بلى والله أعرفك ، أكرمك الله بأحسن المعرفة ، أعرفك والله أسلمت إذ كفروا ، وعرفت إذ أنكروا ، ووفيت إذ غدروا ، وأقبلت إذ أدبروا فقال عدي : حسبي حسبي ، شهد فتوح العراق ، ووقعة القادسية ، ووقعة النهروان ، ويوم الجسر مع أبي عبيدة وغير ذلك ، ومن كرمه ونبله أن الأشعث ابن قيس أرسل اليه شخصاً يستعير منه قدور حاتم ، فملأها عدي طعاماً وحملها اليه فأرسل اليه الأشعث إنما أردناها فارغة ، فأجابه عدي ، إنا لا نعيرها فارغة ، وكان يفت الخبز للنمل ويقول : إنهن جارات ولهن حق ، كان من المنحرفين عن عثمان ، وشهد مع الامام وقعة الجمل ففقئت عينه بها ، وله ولدان ، قتل أحدهما مع الامام علي ، والآخر مع الخوارج ، وشهد صفين أيضاً وكان له بها مواقف مشهورة توفي سنة سبع وستين من الهجرة ، وقيل غير ذلك ، كان له من العمر مائة وعشرون سنة ، قيل توفي بالكوفة ، وقيل بقرقيسيا والأول أصح ، جاء ذلك في أسد الغابة ٣ / ٣٩٢ ، وقريب منه جاء في كل من الاصابة والاستيعاب وتهذيب التهذيب .

منكراً سكوتهم وتخاذلهم المفضوح قائلا بنبرات تقطر حماساً وعزماً :

« أنا عدي بن حاتم ، سبحان الله ما أقبح هذا المقام !!! ألا تجيبون إمامكم ، وابن بنت نبيكم ؟ أين خطباء المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة ، فاذا جد الجد راوغوا كالثعالب ، أما تخافون مقت الله ، ولا عيبها وعارها ».

ثم التفت الى الإمام مظهراً له الطاعة والامتثال قائلاً :

« أصاب الله بك المراشد ، وجنبك المكاره ، ووفقك لما يحمد ورده وصدره ، قد سمعنا مقالتك ، وانتهينا الى أمرك ، وسمعنا لك ، وأطعنا فيما قلت ورأيت » .

ثم أظهر الى المجتمع عزمه على الخروج لحرب معاوية فوراً قائلا :

« وهذا وجهي الى معسكرنا ، فمن أحب أن يوافي فليواف » .

ثم خرج من المسجد وكانت دابته بالباب فركبها وخرج وحده من دون أن يلتحق به أحد وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه ، فانتهى الى النخيلة فعسكر بها وحده (١) .

وهكذا اضطرب غيظاً وموجدة كل من الزعيم قيس بن سعد بن عبادة ، ومعقل بن قيس الرياحي (٢) ، وزياد بن صعصعة التميمي لما رأوا

---

(١) شرح النهج ابن أبي الحديد ٤ / ١٤ .

(٢) معقل بن قيس الرياحي : أدرك النبي (ص) ، قال ابن عساكر : أوفد عمار معقلا على عمر يخبره بفتح تستر ، كما وجهه الى بني ناجية حين ارتدوا وكان من امراء الإمام علي (ع) يوم الجمل ومدير شرطته ، وذكر خليفة بن الخياط أن المستورد بن علقمة اليربوعي الخارجي بارزه لما خرج بعد علي فقتل كل منهما الآخر وكان ذلك سنة ٤٢ هجرية في خلافة معاوية وقيل سنة ٣٩ في خلافة علي جاء ذلك في الاصابة ٣ / ٤٧٥ ،

سكوت الجماهير وعدم إجابتهم بشيء ، فلاموهم على هذا التخاذل وبعثوا فيهم روح النشاط الى حرب عدوهم ومناجزته ثم التفتوا الى الامام وكلموه بمثل كلام عدي فى الإنقياد والطاعة والإمتثال لأمره فشكرهم الامام على موقفهم المشرف ، وأثنى على شعورهم الطيب قائلا :

« ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والنصيحة فجزاكم الله خيراً » .

وخرج الامام (ع) من فوره لرد العدوان الأموي ، واستخلف فى عاصمته المغيرة بن نوفل بن الحرث (١) وأمره بحث الناس الى الجهاد واشخاصهم اليه فى النخيلة ، وطوى (ع) البيداء بجيشه الجرار المتخاذل — وسيأتي وصفه بعد قليل — حتى انتهى الى النخيلة فاستقام فيها فنظم جيشه (٢) ثم ارتحل عنها وسار حتى انتهى الى (دير عبد الرحمن) فأقام

---

(١) المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب الهاشمي ولد على عهد الرسول (ص) بمكة قبل الهجرة ، وقيل لم يدرك من حياة رسول الله (ص) إلا ست سنين يكنى بأبي يحيى تزوج بامامة بنت أبي العاص بن الربيع ، وكانت امامة زوجاً للإمام علي ، فلما قتل أوصى (ع) أن يتزوجها المغيرة من بعده ، فلما مات (ع) تزوج بها المغيرة . وهو ممن شهد مع الامام صفين ، وكان في أيام عثمان قاضياً ، وقد روى عن النبي (ص) حديثاً واحداً وهو قوله (ص) : « من لم يحمد عدلا ولم يذم جوراً ، فقد بات لله بالمحاربة » جاء ذلك في أسد الغابة ٤ / ٤٠٧ .

(٢) جاء في الخرائج والجرائح ص٢٢٨ أنه نزح مع الامام من أراد الخروج وتخلف عنه خلق كثير لم يفوا بما قالوا وبما وعدوا ، وغروه كما غروا الامام علياً من قبل وعسكر (ع) في النخيلة عشرة أيام فلم يحضر معه إلا أربعة آلاف فرجع الى الكوفة ليستنفر الناس وخطب خطبته التي يقول فيها :

« قد غررتموني كما غررتم من كان قبلي » .

به ثلاثة أيام ليلتحق به المتخلفون من جنده ، وعنّ له أن يرسل مقدمة جيشه للاستطلاع على حال العدو وإيقافه في محله لا يتجاوزه الى آخر ، واختار الى مقدمته خلّص أصحابه من الباسلين والماهرين ، وكان عددهم اثني عشر الفاً ، واعطى القيادة العامة الى ابن عمه عبيد الله بن العباس ، وقبل أن تتحرك هذه الفصيلة من الجيش دعا الامام قائدها العام عبيد الله فزوده بهذه الوصية القيّمة وهي :

« يابن العم ! إني باعث معك اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقراء المصر ، الرجل منهم يزيد الكتيبة ، فسر بهم ، وألن لهم جانبك ، وابسط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك ، وادنهم من مجلسك ، فانهم بقية ثقات أمير المؤمنين ، وسر بهم على شط الفرات ، ثم امضي حتى تستقبل بهم معاوية ، فان أنت لقيته فاحتبسه حتى آتيك ، فاني على أثرك وشيكاً ، وليكن خبرك عندي كل يوم ، وشاور هذين — قيس بن سعد وسعيد بن قيس — وإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك فان فعل فقاتله ، وإن أصبت ، فقيس بن سعد على الناس ، فان اصيب ، فسعيد بن قيس على الناس » . وحفلت هذه الوصية بما يلي :

١ — إنها دلت على اطلاعه الوافر في تدبير شؤون الدولة ، فان التوصية بالجيش بهذا اللون المشتمل على العطف والحنان ، والاطراء عليه بمثل هذا الثناء ، من أنهم بقية ثقات أميرالمؤمنين ، والزام القيادة العامة باللين والبسط مما يزيد الجيش اخلاصاً وإيماناً بدولته ، ومن الطبيعي ان الجيش إذا أخلص لحكومته ، وآمن بسياستها ثبتت قواعدها ، وظفرت بسياج حصين يمنع عنها العدوان الخارجي ، ويقيها من الشر والفتن الداخلية ، ويوجب لها المزيد من الهدوء والاستقرار .

٢ ـ وأما أمره أن لا يعتدي عبيد الله على معاوية ، ولا يناجزه الحرب حتى يكون هو المبتدي فليس ذلك لأن معاوية من مصاديق قوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين » (١) فان معاوية لم يبق وليجة للاعتداء إلا سالكها ، فقد اعتدى في تخلفه عن بيعة أمير المؤمنين ، ومحاربته له في صفين ، وفي بعثه السفاح بسر بن أبي ارطاة وفعله بأمره ما فعل من المنكرات ، ولم يزل معتدياً وخارجاً على الاسلام الى حين وفاة أمير المؤمنين ، ولكن إنما أمر الحسن (ع) أن لا يبتدي عبيد الله بحربه لسد مراوغاته حتى لا يستطيع أن يدعي أنه ما جاء للحرب وإنما جاء للتداول في اصلاح أمر المسلمين .

٣ ـ ونصت وصية الامام على الزام عبيد الله بمشاورة قيس بن سعد وسعيد بن قيس وترشيحها للقيادة من بعده ، وفي ذلك الفات منه الى الجيش ان أمره المتبع هو المقرون بمشاورة الرجلين ، كما فيه توثيق لهما ، والحق انه لم يكن في جيش الامام من يضارعهما في نزعاتهما الخيرة وفي ولائهما لأهل البيت (ع) ، وأعظم بهما شأناً أنهما نالا ثقة الامام واهتمامه.

وقبل أن نطوي الحديث على هذا الموضوع نعرض بعض الجهات التي ترتبط فيه وهي :

١ ـ اختيار عبيد الله :

ويتساءل الكثير عن الحكمة التى رشح الامام من أجلها عبيد الله لقيادة مقدمة جيشه مع أنه كان في ذلك الجيش من هو أصلب منه إيماناً وأقوى عقيدة ، وأعظم اخلاصاً كالزعيم قيس بن سعد ، وسعيد بن قيس

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٩ .

واضرابهما من الثقات والمؤمنين . « والجواب عن ذلك » — أولا — ان الامام (ع) أراد بذلك تشجيعه واخلاصه باسناد القيادة العامة اليه — وثانياً — ان له من الكفائة والقدرة والحزم ما يجعله أهلاً لهذا المنصب الرفيع ، فهو قد تربى في مدرسة الامام أمير المؤمنين (ع) ولكفاءته وقدرته نصبه الامام (ع) والياً على اليمن . — وثالثاً — إنه حري بأن يخلص ويبذل قصارى جهوده في المعركة لأنه موتور من قبل معاوية ، فلقد قتل ولديه بسر بن ارطاة . — ورابعاً — ان الامام (ع) لم يجعل القيادة العامة بيده بل جعلها ثلاثية بينه وبين قيس بن سعد ، وسعيد بن قيس ، وقد أوفى المسألة حقها من جميع الوجوه سماحة المغفور له آل ياسين (١) .

٢ — عدد الجيش :

واضطربت كلمة المؤرخين في تحديد الجيش الذي نزح مع الامام الى مظلم ساباط ، فابن أبي الحديد ذكر أنه نزح مع الامام جيش عظيم ولم يحدده إلا أنه حدد المقدمة التي تولى قيادتها عبيد الله فقال : « إن عددها كان اثنى عشر ألفاً من فرسان العرب وقراء المصر (٢) . وذكر الطبري وغيره انه كان اربعين ألفاً (٣) ، ويستفاد من مطاوي بعض الأحاديث التي دارت بين الامام وبعض أصحابه في أمر الصلح أن عدد الجيش كان مائة ألف كقول سليمان بن صرد للامام (ع) وهو في مقام التقريع له

(١) صلح الحسن ص ٩٦ .
(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ١٤ .
(٣) تأريخ الطبري ٦ / ٩٤ .

على امضائه وقبوله الصلح « أما بعد : فان تعجبنا لا ينقضي من بيعتك معاوية ومعك مائة ألف مقاتل من أهل العراق » (١) ، كما يستفاد أيضاً أنه كان تسعين ألفاً (٢) ، وقيل أنه سبعون ألفاً (٣) الى غير ذلك ، والذي نذهب اليه أن عدد الجيش كان يربو على أربعين ألفاً ، ويدل على ذلك ما حدث به نوف البكالي (٤) قال : لما عزم الامام على العودة الى حرب معاوية قبيل وفاته باسبوع عقد للحسين على عشرة آلاف ، ولأبي أيوب على عشرة آلاف ، ولقيس بن سعد على عشرة آلاف ، ولغيرهم على أعداد أخر

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ١٥١ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٩٤ ذكر ذلك في جواب زياد الى معاوية حينما هدده وذلك قبل أن يستلحقه به ، فقال زياد : إن ابن آكلة الأكباد ، وكهف النفاق ، وبقية الأحزاب ، كتب يتوعدني ويتهددني وبيني وبينه إبنا رسول الله في تسعين ألفاً .

(٣) البداية والنهاية ٨/٤٢ وجاء فيه أن رجلا دخل على الحسن بن علي وبيده صحيفة فقال له الرجل : ما هذه ؟ فأجابه الامام ان معاوية يعدنيها ويتوعد ، فقال الرجل : قد كنت على النصف منه ، فأجابه الامام : إني خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون أو أكثر أو أقل تنضح أوداجهم دماً كلهم يستعدي الله فيم اهريق دمه ، وقريب من هذا ذكره ابن أبي الحديد في شرح النهج ٤/٧ .

(٤) نوف البكالي : بفتح البـاء وتخفيف الكاف ، كان من أصحاب أمير المؤمنين (ع) ، ونقل عن تغلب انه منسوب الى بكال قبيلة من همدان ، ويقال : بكيل وهو أكثر ، وقال ابن أبي الحديد : انه بكال بكسر الباء وهي قبيلة من حمير منهم هذا الشخص وهو نوف بن فضالة صاحب الامام علي (ع) جاء ذلك في التعليقات ص ٣٥٤ .

وهو يريد الرجعة الى صفين ، فما دارت عليه الجمعة حتى ضربه ابن ملجم بالسيف (١) ، فهذا القول يروي لنا جيشاً مسلحاً كان متهيئاً للحرب قد عدّ اسماء جماعة من قادته لهم السلطة على ثلاثين ألف جنـــدي مسلح ولم يذكر لنا أسماء القادة الأخر الذين نصبهم الإمام على كتائب جيشه ولا كمية عدد الجيش الآخر ولا شك بأنهم كانوا يربون على عشرة آلاف ، هؤلاء جميعاً قد بايعوا الحسن ونفروا معـــه الى حرب عـدوه ، ويدل على ذلك ما رواه (أبو الفداء) ان الحسن تجهز الى حرب معاوية بالجيش الذي بايع أباه (٢) ويؤيده أيضاً ما ذكره (ابن الأثير) قال :

« كان أمير المؤمنين علي قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت لما ظهر ما كان يخبرهم به عن أهل الشام ، فبينما هو يتجهز للمسير قتـــل عليه السلام ، وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له ، فلما قتل وبايع الناس ولده الحسن بلغه مسير معاوية في أهل الشام اليه فتجهز هو والجيش الذين كانوا بايعوا علياً وسار عن الكوفة الى لقاء معاوية » (٣) .

ويؤكد ذلك حديث المسيب بن نجبة مع الامام في أمر الصلح قال له « ما ينقضي عجبي منك صالحت معاوية ومعك أربعون ألفاً » (٤) .

فعدد الجيش على هذه الروايات المتوافرة كان أربعين الفـــاً ، وهو الذي يذهب اليه ، وقد ناقش سماحة الحجة المغفور له آل ياسين الروايات

---

(١) شرح النهج محمد عبده ٢ / ١٣٢ .

(٢) تاريخ أبي الفداء ١ / ١٩٣ .

(٣) الكامل ٣ / ٦١ .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٦ .

المتقدمة واختار بعد التصفية والمناقشة ان عدده كان عشرين ألفاً أو يزيد قليلاً (١) .

ومهما كان الأمر فان الاختلاف في عدده ليس بذي خطر لأن الجيش مهما كان عدده كثيراً وخطيراً إذا كان مختلف الأهواء والنزعات لابد وأن ينخذل ولا يحرز فتحاً ونصراً ، لأن الاعتبار في النصر والظفر دائماً إنما هو بالإخلاص والإيمان والعقيدة ووحدة الكلمة ، لا بالكثرة وضخامة العدد فكم فئة قليلة تضامنت فيما بينها ، واتحدت وتعاونت ، قد حازت النصر وفتحت فتحاً مبيناً ، وسحقت القوى المقابلة لها وإن كانت أكثر منها عدة وأعظم إستعداداً أوفر قوة ، والجيش العراقي مهما بلغ عدده وبولغ في كثرته فانه مصاب بالإختلاف والتفكك والإنحلال ومع ذلك فكيف يظفر بالنجاح وما ذا تفيده الكثرة ؟ وضخامة العدد ؟.

٣ ـ وصف الجيش :

لا شك أن الجيش هو العماد الذي يقوم عليه عرش الدولة ، ويبتنى عليه كيانها ، وهو السياج الواقي للحكومة والشعب من الاعتداء ، وعليه المعول فى حفظ النظام وسيادة الأمن ، لكن فيما إذا كان مخلصاً فى دفاعه ومؤمناً بحكومته ، وأما إذا كان خائناً أو لا ينظر لدولته إلا بنظر العداء والانتقام ويترقب الفرص للفتك بها وتمكين العدو منها ، فانها حتماً لا تنجح في أي ميدان من ميادين الصراع الداخلي والخارجي ولا تفوز بالنجاح حينما يتلبد جوّها السياسي بالغيوم القائمة والأخطار الفاتكة ، وكان الجيش العراقي الذي زحف مع الإمام لمحاربة معاوية قد ركس فى الفتنة وماج في الشقاء

(١) صلح الحسن ص ١٠٦

فكان خطره على الدولة أعظم من خطر معاوية ، وقد وصفه الشيخ المفيد رحمه الله وقسمه الى عناصر وقد أجاد فى وصفه وأبدع في تقسيمه ، قال طيب الله مثواه :

« واستنفر الناس للجهاد فتثاقلوا عنه ، ثم خفوا وخف معه أخلاط من الناس بعضهم شيعة له ولأبيه ، وبعضهم محكمة يؤثرون قتـال معاوية بكل حيلة ، وبعضهم أصحاب فتن وطمع بالغنائم ، وبعضهم شكاك ، وبعضهم أصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون الى دين » (١) .

وأعرب الشيخ المفيد نضَّر الله مثواه في كلامه – أولا – عن كراهة الجيش للحرب ، وإيثاره للعافية ، ورغبته في السلم ، وأفاد – ثانياً – في تقسيمه ان الجيش ينقسم الى عناصر متباينة فى أفكارها ، مختلفة فيعقائدها وهي كما يلي :

١ – الشيعة :

وهؤلاء فيما يظهر عدد قليل في الجيش العراقي ولو كانوا عدداً كثيراً فيه ، لما أجبر أمير المؤمنين (ع) على التحكيم في صفين ولما صالح الحسن معاوية وهذا العنصر يخالف بقية العناصر في تفكيره وشعوره وإيمانه فهو يرى أن الخلافة من حقوق أهل البيت وانهم أوصياء النبي وحضنة الإسلام وحماته ، وطاعتهم مفروضة على جميع المسلمين .

---

(١) الارشاد ص ١٦٩ ، وذكر هذا المعنى بعينه علي بن محمد الشهير بابن الصباغ في الفصول المهمة ص ١٤٣ ، والأربلي فى كشف الغمـة ص ١٦١ ، والمجلسي في البحار ١٠ / ١١٠ .

٢ ـ الحكمية :

وهم الخوارج الذين ضمهم جيش الامام وكانوا يرومون قتال معاوية بكل حيلة ووسيلة لا إيماناً منهم بقضية الحسن وباطل معاوية ، بل كانوا يرون الحسن ومعاوية في صعيد واحد ، وإنهما لا يستحقان الخلافة وإنما كانوا يستعجلون حرب معاوية ومناجزته لأنهم يعلمون انه أوفر قوة من الامام فرأوا أن ينضموا الى جيشه مؤقتاً حتى ينهوا أمره ، فان قضي عليه فيكون أمر الحسن سهلاً لأن اغتياله ليس بالعسير عليهم فقد اغتالوا أباه من قبل :

٣ ـ اصحاب المطامع :

وضم جيش الإمام فصيلة من الجند لا تؤمن بالقيم الروحية ولا تقدس العدل ولا تفقه الحق وإنما كانوا ينشدون مصالحهم وأطماعهم وكانوا يرقبون من كتب أي الجهتين قد كتب لها النصر والظفر حتى يلحقوا بها .

٤ ـ الشكاكون :

وأكبر الظن ان الشكاكين هم الذين أثرت عليهم دعوة الخوارج ودعاية الأمويين حتى شككوا في مبدأ أهل البيت (ع) ، وفي رسالتهم الإصلاحية ولو اندلعت نيران الحرب لما ساعدوا الإمام بشيء ، لأنهم لم يكونوا مدفوعين بدافع الإيمان والعقيدة .

٥ ـ اتباع الرؤساء :

وهم أكثر العناصر عدداً ، وأعظمهم خطراً ، فهم يتبعون زعماءهم ورؤساءهم إتباع أعمى لا إرادة لهم ولا تفكير ولا شعور بالواجب ، وهم المعبر عنهم بالهمج الرعاع . وكان أغلب سواد العراق قد انتمى الى أحد الزعماء على غرار العشائر العراقية في هـذا الوقت ، وأكثر زعماء العراق ممن كاتب معاوية بالطاعة والإنقياد كقيس بن الأشعث ، وعمرو بن الحجاج وحجار بن أبجر وأضرابهم من الخوارج والمنافقين الذين اشتركوا في أعظم مأساة سجلها التأريخ وهي قتل سيد شباب أهل الجنة الحسين (ع) .

هذه هي العناصر التي تكوّن منها الجيش العراقي ، بل العراق كله من نفر منه الى الحرب ومن لم ينفر ينطبق عليه أحد هـذه العناوين التي ذكرها شيخ الإسلام المفيد رحمه الله في كلامه القيم ، وأكثر هؤلاء لايؤمن من شرهم فى السلم فضلاً عن الحرب .

٤ ـ أخطاء تاريخية :

وقع فريق من المؤرخين والكتاب فى أخطاء تتعلق فى هـذا الفصل يجدر التنبيه عليها وهي :

١ ـ الحاكم :

أفاد الحاكم النيسابوري أن الحسن (ع) أسند قيادة مقدمته إلى ابن عمه عبد الله بن جعفر ، وضم اليه عشرة آلاف جندي (١) وقد تفرد

(١) مستدرك الحاكم ٣ / ١٧٤ .

الحاكم بهذا القول وهو مخالف لما اجمع عليه رواة الأثر من أن قيادة المقدمة كانت لعبيد الله بن العباس باشراك قيس بن سعد وسعيد بن قيس ، كما أن عدد المقدمة كان اثني عشر الفاً حسب ما ذكروه لا عشرة آلاف .

٢ ــ اليعقوبي :

ذكر المؤرخ الشهير اليعقوبي : ان الإمام الحسن تجهز لحرب معاوية بعد ثمانية عشر يوماً من وفاة أبيه (١) وهو اشتباه لأن الإمام لم يتجهز لمحاربة خصمه إلا بعد أن راسله بتلك الرسائل التي مرّ ذكرها في الفصل السالف ، وعلى الظاهر أن مدة المراسلة كانت تزيد على شهرين كما أن الإمام لم يستعد للحرب إلا بعدما فشلت جميع الوسائل التي اتخذها لأجل السلم والوئام ، وعلم أن معاوية قد زحف اليه بجنده ففي ذلك الوقت تجهز للحرب لا قبله كما أجمع عليه المؤرخون وإذا أردنا تصحيح ما ذكره اليعقوبي فان هذه المدة التي ذكرها كانت فاتحة المراسلات التي دارت بينهما .

٣ ــ ابن كثير :

قال ابن كثير : ولم يكن في نية الحسن أن يقاتل أحداً ، ولكن غلبوه على رأيه ، فاجتمعوا اجتماعاً عظيماً لم يسمع بمثله ، فأمر الحسن بن علي قيس بن سعد بن عبادة على المقدمة في اثني عشر ألفاً بين يديه . الخ (٢) . وهذا القول ليس بوثيق لأن الإمام الحسن لو لم يكن من رأيه الحرب لما بعث الى معاوية تلك المذكرات التي يتهدده فيها ويتوعده باعلان الحرب

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٩١ .

(٢) البداية والنهاية ٨ / ١٤ .

إن لم يدخل في طاعته ، ولو لم يكن من نيته الحرب لما اعتلى المنبر وحفز الناس الى الجهاد ، ودعاهم الى الحرب كما ذكرنا ذلك بالتفصيل ، وأما قوله : ان الناس اجتمعوا اجتماعاً عظيماً لم يسمع بمثله وهم يدعون الإمام الى الحرب . فينافيه ويرده تقاعسهم ، وعدم اجابتهم له ، وسكوتهم لما دعاهم (ع) الى الجهاد في خطابه السالف الذكر .

٤ ـ طه حسين :

قال الدكتور طه حسين : « ومكث الحسن بعد البيعة شهرين أو قريباً من ذلك لا يذكر الحرب ، ولا يظهر استعداداً لها ، حتى ألح عليه قيس بن سعد ، وعبيد الله بن العباس ، وكتب اليه عبد الله بن عباس من مكة يحرضه على الحرب ويلح عليه في أن ينهض فيما كان ينهض فيه أبوه » (١) ومواقع النظر في كلامه ما يلي :

١ ـ إن قوله : ومكث الحسن بعد البيعة شهرين أو قريباً من ذلك لايذكر الحرب ولا يظهر استعداداً لها . فانه بعيد عن الواقع ، وهو قريب مما ذكره ابن كثير في كلامه المتقدم ، ولعل الدكتور استند اليه ، وتفنده رسائل الإمام ـ التي مرّ بيانها ـ فانها صريحة في تصميمه وعزمه على الحرب ، وللاستدلال على ذلك نسوق بعض فقراتها يقول (ع) : « وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيك سرت اليك بالمسلمين حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » . وهذه الفقرات واضحة صريحة فيما ذكرناه ، ولعل الدكتور لم يلحظ هذه الجوانب من رسائل الإمام فأرسل حكمه محفوفاً بالخلط والاشتباه ، وبالاضافة الى ذلك فان الإمام ملزم بمناجزة معاوية ،

---

(١) علي وبنوه ص ١٩٥ .

لأن الله أوجب حرب البغاة الذين يشقون عصا الطاعة ، ويخرجون على إمام المسلمين ، قال تعالى : « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » . وقال رسول الله (ص) : « من دعا الى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فقاتلوه » . ومعاوية قد خرج على أمير المؤمنين من قبل وبغى عليه ، وقد أغرق البلاد في الدماء ، وأشاع بين المسلمين الحزن والثكل والحداد ، فمناجزته من أهم الواجبات الإسلامية ، فكيف يتخلف الإمام عنها وهو سبط النبي وريحانته .

٢ — وأما قوله : إن قيس بن سعد ، وعبيد الله بن العباس ألحّا عليه في أن ينهض للحرب ، فان هذا من الوهم والخلط لأنا ذكرنا — في أوائل هذا البحث — النصوص التأريخية التي دلت على أن الإمام نفر الى الحرب حينما علم أن معاوية قد زحف اليه ، ولم يكن أحد قد ألحّ عليه في ذلك ، وإنما كانت حراجة الموقف والضرورة البالغة تقضيان بخروجه ، فانه لو لم ينفر لحرب معاوية ورد عدوانه لاحتل الكوفة ، وأخذ الإمام أسيراً ، فكان خروجه للدفاع والجهاد أمراً لازماً ، ولم يكن هناك أي أحد ألحّ عليه في ذلك .

إن بحوث الدكتور طه حسين في هذه الجهات محفوفة بالإسفاف والخلط وفاقدة للتحقيق الذي يتطلبه البحث العلمي الذي لا يخضع للعاطفة والأهواء ، فان التاريخ — كما يقول — قد خلّط بالموضوعات حتى أصبح من العسير أن يخلص المؤرخ للحق في أبسط الامور وأيسرها فضلاً عن أمثال هذه الجوانب التي لبست أسمك جلابيب الغموض بسبب الروايات التي تعمد أصحابها على وضعها انتصاراً للأمويين وتقليلا لجانب أهمية أهل البيت (ع) ، فيجب التثبت والوقف في كثير مما انفردوا بروايته ،

وملاحظة أقوال المؤرخين الذين عرفوا بالاستقامة وعدم الانحراف ، وتحرجوا من الوضع ، وليس من الحق أن يعتمد الدكتور على روايات ابن كثير وأمثاله ممن جرفتهم العصبية ، ومالوا عن القصد فدونوا ما هو مجاف للواقع وبعيد عن الحق .

إن مصدر الخطأ والإلتباس في بحوث المتأخرين إنما جاءت من الإعتماد على أمثال هذه المصادر ، وعدم التحقيق والتدقيق فيما انفردوا بروايته انتصاراً للحكم القائم ، وليس شيء أدعى للمؤرخ الذي يريد أن يخلص للحق من التثبت في ذلك فانه مما يقتضيه البحث الحر الذي نحن في أمس الحاجة اليه .





في المدائن

في سجل التاريخ حوادث مفجعة يذوب القلب من هولها أسى وحسرات ، وذلك بما تتركه من الآثار المريعة ، والمضاعفات السيئة ، وبما تخلفــه من المشاكل والمصاعب كانتشار الظلم ، وذيوع الجور ، وهضم الحق ، وضياع العدل . ومن أفجع هذه الحوادث وأقساها ، انتصار الظالمين وتغلبهم على أئمة الحق والعدل ، فانه يؤدي حتماً الى شل الحركة الإصلاحية ، وتدمير القيم الإنسانية ، وظهور البغي والجور في البلاد .

وتمثلت هذه المـأساة المحزنة بأبشع صورها على مسرح الزمن الهازل في صراع الإمام الحسن (ع) مع معاوية ، وغلبة معاوية عليه ، وقــد انتصرت بذلك القوى الحــاقدة على الإسلام ، والباغيــة على المسلمين ، واندحرت المبادىء العليا التي جاء هذا الدين ليقيمها .

إن من نكد الدنيا غلبة معاوية وانتصاره على سبط النبي وريحانته ، وابتزازه لحقه ، وفرضه حاكماً على المسلمين باسم الإسلام ، وهو من ألد خصومه وأعدائه .. إن السر في انتصار معــاوية يرجع الى أسباب كثيرة وعوامل متعددة وأهمها الحوادث القاسية التي وقعت في « مسكن » (١) التي كانت تضم مقدمة جيش الإمام ، والحوادث المؤسفة التي جرت في « المدائن » التي استقرت فيها عامة جيوشه ، وقد عانى الإمام منهــا ألواناً شاقة من

---

(١) مسكن : بفتح أوله وكسر ثالثه ، قال أبومنصور : يقال للموضع المعروف الذي يسكنه الإنسان « مسكن » بفتح الثـالث وكسره ، واللغة الثانية شاذة ، والقياس الفتح ، وهو موضع قريب من « أوانا » على نهر الدجيل ، وبها كانت الواقعة بين عبد الملك بن مروان ، ومصعب بن الزبير ، سنة (٧٢ هـ) ، وفيها قتل مصعب ، وابراهيم بن مالك الأشتر ، ودفنا هنالك ولها قبر معروف ، معجم البلدان ٨ / ٥٤ .

المحن والخطوب حتى اضطر الى الصلح ، والتجأ الى مسالمة الخصم ، وعلينا أن ننظر الى تلكم الأحداث ونتأملها فانهـــا من أهم علل الصلح وأسبابه – فيما نحسب – وهي كما يلي :

حوادث مسكن

وبعد ما أسند الإمام القيادة العامة في مقدمة جيشه الى عبيد الله بن العباس ، انطلق عبيد الله يطوي البيداء مع الجيش حتى انتهى الى « سينور » ومنها خرج الى « شاهي » (١) ، فلزم الفرات والفـــلوجة حتى وصل الى مسكن فاستقام فيها وقابل العـــدو وجهاً لوجه ، وقد قام معاوية بدوره بعمليات التخريب والإفساد فسلك جميع الوسائل للقضـــاء على إصالة « المقدمة » وتمزيق وحداتها ، وإماتة نشاطها العسكري ، فنشر بها المخاوف والأراجيف ، وبث فيها العصيان والتمرد ، ونقدم عرضاً لبعضها :

---

(١) شاهي : موضع قريب من القادسية ، وكان شريك بن عبد الله قاضي الكوفة قد خرج الى شاهي يستقبل الخيزران فأقام فيه ثلاثة أيام ينتظرها حتى نفذ طعامه ، وكان عنده خبز يابس ، فجعل يبلله بالمـــاء ، فنظر اليه العلاء بن منهال فقال فيه :

فان كان الذي قد قلت حقا ... بأن قد أكرهوك على القضاء
فما لك موضع في كل يوم ... تلقى من يحج من النساء
مقيماً في قرى شاهي ثلاثاً ... بلا زاد سوى كسر وماء

معجم البلدان ٥ / ٢٢٤ .

بث الجواسيس

وكانت باكورة الدسائس الخطيرة التي قام بها معاوية في إفساده « المقدمة » ، انه بعث الجواسيس ، ونشر العيون ليذيعون الذعر والإرهاب ويقومون بخذلان الجيش ، وكانت دعايتهم ذات طابع واحد وهي :

« إن الحسن يكاتب معاوية على الصلح فلم تقتلون أنفسكم ؟ . » (١)

وتركت هذه الموجة من الإفتراء اضطراباً فظيعاً ، وخوفاً بالغاً في النفوس ، وأحدثت تمرداً شاملاً في جميع الوحدات العسكرية .

رشوة الوجوه

ولم يقتصر معاوية في عمليات التخريب على ذلك ، فقد صنع ما هو أفتك منها وهو شراؤه الضمائر الرخيصة من قادة الجيش وزعمائه المقيمين في « مسكن » فقد بذل لهم أموالاً ضخمة ، ومناهم بالوظائف والمراتب ، فأجابوه الى ذلك ، وتسللوا اليه ، والتحقوا بمعسكره في غلس الليل وفي وضح النهار ، وكتب عبيد الله أنباءهم بالتفصيل الى الإمام الحسن « ع » (٢)

اغراؤه لعبيد الله

ولما رأى معاوية ان عملية الرشوة قد نجح بها الى حد كبير راح يعمل بنشاط في اغرائه لذوي الضمائر القلقة ، والنفوس المريضة ، فمد أسلاك مكره الى عبيد الله بن العباس ، فجذبه اليه ، وصار الحوبة بيده ، وقد خان

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٢١٥ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٢٨ .

عبيد الله بذلك ثقل رسول الله ، وترك موكب الحق والهدى ، وانضم الى معسكر الخيانة والجور ، أما نص رسالة معاوية التي خدعه بها فهي :

« إن الحسن قد راسلني في الصلح ، وهو مسلم الأمر إليّ فان دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً ، وإلا دخلت وأنت تابع ، ولك إن أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم ، أعجل لك في هذا الوقت نصفها ، وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر .. » (١)

وتمثل الكذب الصريح ، والمكر السافر في قوله : « إن الحسن قد راسلني في الصلح . » إن الإمام متى راسله في الصلح ؟ أفي رسائله ومذكراته التي احتوت على تهديده وتوعيده باعلانه للحرب عليه إن لم يثب لطاعته ، أم بخروجه لمناجزته ؟ مضافاً الى أنه لم تجر أي اتصالات بينه وبين الإمام في ذلك الوقت .

وليس هناك أدنى مجال للشك في أن عبيد الله كان يؤمن في قرارة نفسه بكذب هذا الإدعاء لأن الإمام لو كان قد راسله في الصلح فلأي شيء يمنيه معاوية بهذه الأموال الطائلة ، وما قيمته إن أجابه الإمام إلى ذلك .

غدر وخيانة

وغزى معاوية برسالته مشاعر عبيد الله فقد أخذ يطيل التفكير في ارتكاب الجريمة والخيانة ، وتمثلت أمامه النقاط المغريات التي عرضها عليه معاوية وهي :

١ ــ مراسلة الحسن له في الصلح حسب الإدعاء المزعوم .

٢ ــ الدخول في معسكر معاوية وهو متبوع خير له من أن يكون تابعاً.

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٢٨ .

٣ ــ الحصول على مائة ألف درهم .

وانفق ليله ساهراً يفكر في الأمر ، قد ملأت الحيرة اهابه ، وتمثلت أمامه (المادة) التي منّاه بها معاوية وهو لم يظفر ببعضها في ظل الحكومة الهاشمية التي بنيت على بسط العــدل والمساواة ، وأخيراً سولت له نفسه الأثيمة بالغدر ونكث العهد ، فاستجاب لدنيا معاوية ، ومال عن الحق ، وانحرف عن الطريق القويم ، وخان الله ورسوله ، وترك سبط النبي (ص) وريحانته ، والتحق بمعسكر الظلم والجور ، وقد تسربل بثياب العار والخزي .

لقد تسلل عبيد الله الى معاوية في غلس الليل البهيم ومعه ثمانية آلاف من الجيش (١) من ذوي الأطماع والأهواء الذين لم ينطبع الدين في قلوبهم ففي عنق عبيد الله الخائن الأثيم تقع المسؤلية الكبرى ، فقد أدت خيـانته الى زعزعة الجيش وتفلل وحداته واضطرابه .

إن هذه الخطة التي سلكها معاوية كانت من أهم الأسباب التي مهدت نجاحه ، وفوزه بالموقف وتغلبه على الأحداث ، فقد سببت اندحار جيش الإمام ، وقضت على عزائمه ، وفتحت باب الخيانة ، والغدر على مصراعيهما .

اضطراب الجيش

وأصبحت البقية الباقية من الجيش تفتش عن قائدها ليصلي بها صلاة الصبح فلم تجده ، ولما علمت خيانته وغدره والتحاقه بالعدو اضطربت أشد الإضطراب ، وماجت في الفتن ، وارتطمت بالنزاع والخلاف ، ولما رأى قيس بن سعد الرجات العنيفة ، والفتن السود قد ضربت أطنابها على الجيش قام فصلى بهم صلاة الصبح ، وبعد الفراغ منها قام خطيباً فهدأ روعهم

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٩١ .

وأثابهم الى الصواب والرشاد ، وهذا نص خطابه .

« إن هـذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خيراً قط ، إن أباه عمّ رسول الله (ص) خرج يقاتله ببدر ، فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري (١) فأتى به رسول الله (ص) فأخذ فداءه ، فقسمه بين المسلمين وإن أخاه ولاّه علي على البصـرة فسرق ماله ومال المسلمين فاشترى به الجواري ، وزعم أن ذلك له حلال ، وإن هذا ولاّه علي على اليمن فهرب من بسر بن أبي أرطاة ، وترك ولده حتى قتلوا ، وصنع الآن هذا الذي صنع » (٢) .

وملك قيس أحاسيس الجيش وشعورهم بخطابه المؤثر الرصين ، فقد رأوا في كلامه منطق الحق ، وفي شخصيته صلابة الإيمان ، وتبين لهم أن عبيد الله خليق بالخيانة ، ومظنة لكل سوء ، وانه لو كان عنده شعور نبيل أو عاطفة انسانية لما هرب من اليمن وترك ولديه بيد الجزار بسر بن أبي أرطاة فقتلهما .

---

(١) كعب بن عمرو الأنصاري السلمي ، شهد بدراً بعد العقبة ، وهو الذي أسر العباس يوم بدر ، وانتزع راية المشركين وكانت بيـد أبي عزيز ، وشهد مع أمير المؤمنين صفين ، توفي في يثرب سنة (٥٥) جاء ذلك في الاستيعاب ٤ / ٢١٥ ، وجاء في تهذيب التهذيب ٨ / ٤٣٧ ، انه آخر من مات من أهل بدر وأنه شهد مع أمير المؤمنين جميع مشاهده ، توفي وله من العمـر مائة وعشرون سنة ، وفي المسند من حديث له : أن النبي (ص) بعثه في حاجة فرآه مولياً فقال : « اللهم امتعنا به » فكان من آخر الصحابة موتاً ، وكان إذا حدث بهذا الحديث بكى ، وقال : امتعوا بي لعمري حتى كنت من آخرهم .

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٣٥ .

وانبرى الجيش بجميع كتائبه فأعلن التأييد والخضوع لمقالتـه وهم يهتفون « الحمد لله الذي أخرجه من بيننا . » (١)

وتسلم قيس القيادة ـ بعد غدر عبيد الله ـ بنص الإمام وبالترشيح من جميع القوات المسلحة ، وحينما تسلم منصبه الجديد رفع للإمام مذكرة أخبره فيها بوقوع الحادث المؤسف وبتسلمه مهام القيادة ، وهذا نصها :

« إنهم نازلوا معاوية بقرية يقال لها (الجنوبية) بأزاء (مسكن) وان معاوية أرسل الى عبيد الله بن العباس يرغبه في المصير اليـه ، وضمن له ألف ألف درهم ، يعجل له منها النصف ، ويعطيه النصف الآخر عند دخوله الكوفة ، فانسل عبيد الله في الليل الى معسكر معاوية في خاصته ، وأصبح الناس قد فقـدوا أميرهم ، فصلى بهم قيس بن سعد ونظر في امورهم .. (٢)

وساعد الله قلب الإمام الحسن حينما انتهى اليه هذا النبأ المؤسف ، فقد أترعت نفسه الشريفة بالآلام والهواجس ، ويئس من الظفر والنصر ، وعلم أن أكثر من معه لا واقعية لهم ، وانهم يسلمونه عند الوثبة ويغدرون به عند اندلاع نار الحرب . وأما جيشه الرابض معه في « المدائن » فانه لما علم بخيانة عبيد الله ، والتحاقه بمعسكر العدو ارتطم في الفتن ، وماج في الشر ، واستولى عليه الذعر والخوف ، وأخذ أكثر قادته يلتمسون الطرق للإتصال بمعاوية والظفر بأمواله .

اكاذيب واضاليل :

وبعد ما طعن معاوية الجيش العراقي في صميمه بعمليات الرشوة ، سلك

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ٣٥ .

(٢) الأرشاد ص ١٧٠ .

طرقاً أخرى في إفساده وإماتة نشاطه ، فقد أرسل عيونه وخواصه ينشرون الأكاذيب ، ويبثون الإرهاب في جميع كتائب الجيش سواء المقيمة في المدائن ، أو في مسكن ، وكانت تلكم الإشاعات ذات صور وهي :

أ - إذاعتهم في « المدائن » أن قيس بن سعد قد صالح معاوية ، وصار معه (١) ، ولم يشك الجيش في صدق هذه الدعاية ، فان عبيد الله بن العباس الذي هو أمس الناس رحماً بالإمام قد غدر به وخانه فكيف بغيره .

ب - إشاعتهم في « مسكن » ان الإمام قد صالح معاوية وأجابه (٢).

ج - افتراؤهم على من في « المدائن » ان قيس بن سعد قد قُتل فانفروا (٣) .

ومزقت هذه الدعايات الكاذبة أعصاب الجيش ، وأماتت نشاطه العسكري ، وأصبح متفككاً تسوده الفتن والأهواء .

خلاصة الأحداث :

ومجمل ما تقدم من الفتن السود ، والخيانة المفضوحة التي مُنيت بها المقدمة التي هي أقوى فصائل الجيش أمور :

١ - تسلل ذوي الوجاهة والنفوذ من ذوي البيوتات الشريفة والأسر البارزة الى معاوية .

٢ - غدر القائد العام عبيد الله بن العباس وخيانته لسبط النبي وريحانته .

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٤ .

(٢) تأريخ اليعقوبي ٢ / ١٩١ .

(٣) حياة الحيوان للدميري ١ / ٥٧ .

٣ ــ خيانة ثمانية آلاف من الجيش ، والتحاقهم بمعسكر معاوية ، وناهيك بالضعف والاختلال الذي منيت به المقدمة بعد انسحاب هذا العدد الخطير منها .

٤ ــ اضطراب الجيش على الإطلاق سواء أكان في مسكن أو في المدائن بسبب الإشاعات الكاذبة التي أذاعها أتباع معاوية من أن الحسن قد صالح معاوية ، وأن قيساً قد قُتل .

هذه خلاصة الأخطار الفظيعة التي اصيبت بها « المقدمة » وقد أوجبت انهيارها وأماتت نشاطها ، وأصبحت لا لياقة لها على مواجهة الأحداث ، ولا قابلية لها على الدفاع ورد العدوان الأموي الذي يتمتع بأتم القابليات وأضخم الطاقات . وبعد هذه الزعازع التي فتكت بالمقدمة هل يصح أن يقال إنها جبهة قوية لها القدرة على مناجزة معاوية ؟!!

حوادث المدائن :

ونزح الإمام الحسن عن عاصمته ، وقد نفر معه أخلاط من الناس ، وأخذ في مسيره على حمام عمر حتى أتى دير كعب في « مظلم ساباط » (١) فاستقوا فيه ، وأخذ معاوية يعيث فساداً في جيش الإمام حتى ارتطم بالفتن والخطوب ، ونقدم عرضاً من النكبات التي مني بها ، والى الأحداث الهائلة

(١) مظلم ساباط : يقع قرب المدائن ، ولم يعلم سبب التسمية ، وذكر مظلم ساباط زهرة بن حوية في قوله :

ألا أبلغا أبا حفص آية   وقولا له قول الكمي المغاور

بأنا أثرنا آل طوران كلهم   لدى مظلم يهفو بحمر الطواهر

معجم البلدان ٨ / ٩١ .

التي واجهها الإمام الحسن .

اذاعة الذعر :

وكانت أول بادرة فعلها معاوية لإفساد جيش الإمام أنه بعث عبدالله ابن عامر ليبث الخوف والجزع فى نفوس العراقيين فانطلق عبد الله فنادى بأعلى صوته بين صفوف الجيش العراق :

« يا أهل العراق ، إني لم أر القتال ، وإنما أنا مقدمة معاوية وقد وافى الأنبار في جموع أهل الشام ، فأقرؤا أبا محمد « يعني الحسن » عني السلام وقولوا له : أنشدك الله في نفسك وأنفس هذه الجماعة التي معك » .

وحينما سمعوا ذلك داخلهم من الخوف والرهبة الى حد لا سبيل الى تصويره ، وأخذ بعضهم يخذل بعضاً ، وسئموا القتال ، وكرهوا الحرب .

رشوة الزعماء :

لا تزال الرشوة قديماً وحديثاً هي الثغرة الوحيدة التي يسلك فيها المستعمرون للإستيلاء على الشعوب ، وسلب سيادتها ، والقضاء على إصالتها وقد أمعن معاوية في استعمال الرشوة بنطاقها الواسع في شراء الضمائر والذمم والأديان لأجل تدعيم ملكه ، والقضاء على حكومة الإمام ، استعمل في سبيل هذه الغاية كل وسيلة ، وسلك كل طريق لأن « الغاية تبرر الواسطة » والرشوة التي استعملها كانت ذات طوابع مختلفة وهي :

أ ــ منح الوظائف المهمة ، والمناصب الخطيرة في الدولة كالولاية على قطر من الأقطار أو القيادة العامة على جيش من جيوشه لمن غدر بالإمام الحسن ، واستجاب له .

ب ــ بذل الأموال الضخمة من المائة ألف فما فوق .

ج ـ الوعد بتزويج إحدى بناته ، ومن الغريب ان تتوصل خساسة الرشوة الى مثل هذا اللون الذي ينم عن انحطاط النفس وتماديها في الرذائل والموبقات .

ودلت هذه الأساليب على دراسة معاوية لنفوس العراقيين ، فقد عرف الأشخاص الذي تشترى ضمائرهم بالمادة فبذلها لهم بسخاء ، والأشخاص الذين لا يقيمون وزناً للمادة منّاهم بالوظائف والنفوذ ، والأشخاص الذين يحبون الإتصال والقرب منه منّاهم بزواج إحدى بناته ، وقد نص على هذه الجهات الصدوق رحمه الله فى كلامه قال :

« وبعث معاوية لكل من عمرو بن حريث (١) ، والأشعث بن قيس وحجار بن أبجر (٢) عيناً من عيونه يمنى كل واحد منهم بقيادة جند من

---

(١) عمرو بن حريث بن عثمان القرشي المخزومي الكوفي ، كان عمره يوم توفى رسول الله (ص) اثنى عشر سنة ، وكان من الطلقاء الصغار ولى الكوفة عن زياد وابنه عبيد الله توفى سنة ٨٥ وقيل ٩٨ هـ تهذيب التهذيب ٧ / ١٧ .

(٢) حجار بن أبجر العجلي كان أبوه نصرانياً فقال له : يا أبت أرى قوماً قد دخلوا فى هذا الدين فشرفوا وقد أردت الدخول فيه ، فقال له أبوه : يا بني أصبر حتى أقدم معك على عمر ليشرفك ، وإياك أن تكون لك همة دون الغاية القصوى ، ووفد على عمر فقال أبجر لعمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأن حجاراً يشهد أن محمداً رسول الله ، فقال عمر : وما يمنعك أن تقولها أنت ؟ فقال أبجر: « إنما أنا هامة اليوم أو غد » . وذكر المرزباني في معجم الشعراء : إن أبجر مات على نصرانيته في زمن أمير المؤمنين علي (ع) قبل قتاله بيسير ، ولما مات شيّعته النصارى ، وكان حجار يمشي فى جانب مع أناس من المسلمين ، جاء ذلك فى الاصابة ١ / ٣٧٣ . وجاء في كثير من المصادر التاريخية : أن حجاراً كان من الأشخاص الذين راسلوا سيد الشهداء الحسين (ع) بالقدوم الى العراق ، ولما قدم (ع) الى العراق كان هذا الأثيم في طليعة الواثبين عليه .

جنوده ، أو بتزويج إحدى بناته ، أو بمائة ألف درهم إن هم قتلوا الحسن وقد بلغه ذلك فاستلأم (١) ولبس درعاً ، فكان لا يتقدم للصلاة إلا وعليه وقاية » (٢) .

تأثير الرشوة :

واستجابت النفوس المريضة التي لم يهذبها الدين الى دعوى معاوية ، وانجرفت بدنياه الحلوة وانخدعت بوعوده المعسولة ، فأخذت تتهاوى على أعتابه ملبية طلبــاته ، وممتثلة لأمره ، فراسله جمع من الأشراف والوجوه والبارزين برسائل متعددة أعربوا فيها عن استعدادهم الى الفتك بالإمام متى طلب وأراد وهي ذات مضمونين :

١ ــ تسليم الحسن له سراً أو جهراً .

٢ ــ اغتياله وقتله متى أراد ذلك .

وقد بعث معاوية بتلكم الرسائل الى الإمام ليطلع فيها على خيــانة جيشه ، وعندما عرضت عليه تلك الرسائل أيقن بفسادهم وتخاذلهم وسوء نياتهم (٣) .

ومن تأثير الرشوة على تلك النفوس المريضة التي انمحت عنها جميع النواميس الإنسانية ، ان الإمام (ع) وجه قائداً من كندة فى أربعة آلاف وأمره أن يعسكر بالأنبار وأن لا يحدث شيئاً حتى يأتيه أمره ، فلما نزل بها عرف معاوية فوجّه اليه رسولا وكتب معه « إنك إن أقبلت إليّ أو لك بعض كور الشام والجزيرة غير منفس عليك » وأرسل اليه بخمسمائة ألف

---

(١) استلأم : أي لبس لامة حربه .

(٢) علل الشرايع ص ٨٤ .

(٣) جنات الخلود الفصل التاسع منه ، وكشف الغمة ص ١٥٤ وغيرها .

درهم ، فقبض الكندي المال وانحاز الى معاوية في مائتي رجل من خاصته وأهل بيته ، فبلغ الحسن (ع) ذلك فتأثر وقام خطيباً وهو متذمر ومتألم أشد الألم من ذلك المجتمع الذي جرفته الخيانة ، وصار فريسة للباطل والضلال فقال عليه السلام :

« هذا الكندي توجه الى معاوية ، وغدر بي وبكم وقد أخبرتكم مرة بعد مرة انه لا وفاء لكم ، أنتم عبيد الدنيا ، وأنا موجّه رجلاً آخر مكانه وإني أعلم أنه سيفعل بي وبكم ما فعل صاحبكم ، ولا يراقب الله فيّ ولا فيكم » .

وبعث عليه السلام رجلاً آخر من مراد في أربعة آلاف ، وتقدم اليه بمشهد من الناس وتأكد عليه ، ولكنه أخبره انه سيغدر كما غدر الكندي فحلف له بالأيمان الموثقة أنه لا يفعل ذلك ، فلم يطمئن منه الحسن وقال متنبئاً : « إنه سيغدر » .

وسار حتى انتهى الى الأنبار ، فلما علم معاوية به أرسل اليه رسلاً وكتب اليه بمثل ما كتب الى صاحبه ، وبعث اليه بخمسة آلاف ولعلها خمسمائة ألف درهم ، ومنّاه أي ولاية أحب من كور الشام والجزيرة ، فقلب على الحسن وأخذ طريقه الى معاوية ولم يحفظ ما أخذ عليه من العهود (١) .

وارتكب هذه الخيانة جمع غفير من الأشراف والوجوه . وقد أدّى ذلك الى زعزعة كيان الجيش واضطرابه ، وتفلل جميع وحداته .

٤ ــ نهب أمتعة الامام :

وانحطت نفوس ذلك الجيش انحطاطاً فظيعاً ، واستولت على ضمائره

---

(١) البحار ١٠ / ١١٠ .

سحب قاتمة لا بصيص فيها من نور الكرامة والشرف ، فارتكبوا كل جريمة وموبقة . ومن انحطاط نفوسهم ان بعضهم جعل ينهب بعضاً ، ولم يكتفوا بذلك حتى عـــدوا الى أمتعة الإمام وأجهزته فنهبوهـــا ، وأكبر الظن أن للخوارج ضلعاً كبيراً في هذا الإجرام ، فانهم لا يرون حرمة للإمام ، ولاحرمة لأموال غيرهم ، فقد أباحت خططهم الملتوية أموال من لا يدين بفكرتهم ولا يخضع لدينهم ، وقد وقعت جريمة نهب الإمام في موردين هما :

١ — حينما دس معـاوية عيونه في جيش الإمام ليذيعون أن الزعيم قيس بن سعد قد قتل فانهم حينما سمعوا ذلك نهب بعضهم بعضاً حتى انتهبوا سرادق الحسن (١) وتنص بعض المصـــادر انهم نزعوا بساطاً كان الإمام جالساً عليه واستلبوا منه رداءه (٢) .

٢ — لمـــا أرسل معاوية المغيرة بن شعبة ، وعبـــد الله بن عامر ، وعبد الرحمن بن الحكم الى الإمام ليفاوضونه في أمر الصلح ، فلما خرجوا من عنده أخذوا يبثون بين صفوف الجيش لإيقاع الفتنة فيه قائلين : « إن الله حقن الدماء بابن بنت رسول الله (ص) وقد أجابنا الى الصلح » ولما سمعوا بمقالتهم اضطربوا اضطراباً شديداً ووثبوا على الإمام فانتهبوا مضاربه وأمتعته (٣) .

٥ ـ تكفيره :

وخيم الجهل على قلوب ذلك الجيش المصاب بأخلاقه وعقيـــدته ، فراح يسرح في ميادين الشقاء والغواية متمادياً في الإثم والضـلال ، وبلغ

(١) الطبري ٤ / ١٢٢ ، البداية والنهاية ٨ / ١٤ .

(٢) البحار ، أعيان الشيعة ، تأريخ اليعقوبي .

(٣) البحار ، شرح ابن أبي الحديد .

من طيشه وجهله أن بعضهم حكم بتكفير حفيد نبيهم ، فلقد انبرى له الجراح بن سنان الذي أراد قتله قائلاً :

« أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل !! » .

إن مجتمعاً يرى هذا الإعتداء الصارخ على حفيد نبيهم ولا يقومون بنجدته لجدير بأن ينبذ ويترك لأنه لا ينفعه النصح ، ولا يثوب الى الحق والرشاد ، وأغلب الظن أن الذين حكموا بكفر الإمام كانوا من الخوارج إذ لا يصدر هذا الاعتداء إلا من هؤلاء الأشرار .

٦ ـ اغتياله :

ولم تقف محنة الحسن وبلاؤه في جيشه الى هذا الحد فلقد عظم بلاؤه الى أكثر من ذلك فقد قدم المرتشون والخوارج على قتله ، وقد اغتيل (ع) ثلاث مرات وسلم منها وهي :

١ ـ انه كان يصلي فرماه شخص بسهم فلم يؤثر شيئاً فيه .

٢ ـ طعنه الجراح بن سنان في فخذه ، وتفصيل ذلك ما رواه الشيخ المفيد رحمه الله قال : «إن الحسن أراد أن يمتحن أصحابه ليرى طاعتهم له وليكون على بصيرة من أمره ، فأمر (ع) أن ينادى (بالصلاة جامعة) فلما اجتمع الناس قام عليه السلام خطيباً فقال :

« الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق وائتمنه على وحيه .

أما بعد : فإني والله لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنّه وأنا أنصح خلق الله لخلقه ، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ، ولا مريد له بسوء ، ولا غائلة وإن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة ألا وإني ناظر لكم خير من نظركم لأنفسكم فلا تخالفون أمري ،

ولا تردوا عليّ رأيي ، غفر الله لي ولكم ، وأرشدني وإياكم لما فيه المحبة والرضا » .

ونظر الناس بعضهم الى بعض وهم يقولون ما ترونه يريد ؟.

واندفع بعضهم يقول :

« والله يريد أن يصالح معاوية ويسلم الأمر اليه !!! »

وما سمعوا بذلك إلا وهتفوا :

« كفر الرجل !!! »

وشدوا على فسطاطه فانتهبوه ، حتى أخذوا مصلاه من تحته ، وشدّ عليه الأثيم عبد الرحمن بن عبد الله بن جعـال الأزدي ، فنزع مطرفه من عاتقـه ، فبقي الإمام جالساً متقلداً سيفه بغير رداء ، ودعا (ع) بفرسه فركبه ، وأحدقت به طوائف من خاصته وشيعته محافظين عليـه ، وطلب عليه السلام أن تدعى له ربيعة وهمدان فدعيتا له ، فطافوا به ودفعوا الناس عنه ، وسار موكبه ولكن فيه خليطاً من غير شيعته ، فلما انتهى (ع) الى مظلم ساباط بَدَرَ اليه رجل من بني أسد يقال له الجراح بن سنان فأخذ بلجام بغلته ، وبيده مغول (١) فقال له :

« الله أكبر ، اشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل ! ».

ثم طعن الإمام في فخذه فاعتنقـه الإمام وخرّا جميعاً الى الأرض ، فوثب اليه رجل من شيعة الحسن يقـال له عبد الله بن حنظل الطائي ، فانتزع المغول من يده فخضخض به جوفه ، وأكب عليه شخص آخر يدعى بظبيان بن عمارة فقطع أنفـه ، ثم حمل الإمام (ع) جريحاً على سرير الى المدائن في المقصورة البيضاء لمعالجة جرحه (٢) .

---

(١) المغول : آلة تشبه السيف .

(٢) الارشاد ص ١٧٠ .

٣ ـ طعنه بخنجر في أثناء الصلاة (١) .

واتضحت للإمام (ع) بعد هذه الأحداث الخطيرة نوايا هؤلاء الأجلاف وانه سيبلغ بهم الاجرام والشر الى ما هو أعظم من ذلك وهو تسليمه الى معاوية أسيراً فتهدر بذلك كرامته أو يغتال ويضاع دمه الشريف من دون أن تستفيد الأمّة بتضحيته شيئاً .

الموقف الرهيب :

وكان موقف الإمام الحسن عليه السلام من هذه الزعازع ، والفتن السود التي تدع الحليم حيراناً ، موقف الحازم اليقظ ، فقد كان من حنكته وحسن تدبيره ، وبراعة حزمه في مثل الإنقلاب الذي مني به جيشه أن جمع الزعماء والوجوه ، فأخذ يبين لهم النتائج المرة والأضرار الجسيمة التي تترتب على مسالمة معاوية قائلاً :

« ويلكم ، والله إن معاوية لا يفي لأحد منكم بما ضمنه في قتلي ، وإني أظن أني إن وضعت يدي في يده فأسالمه لم يتركني أدين بدين جدي ، وإني أقدر أن أعبد الله عز وجل وحدي ، ولكن كأني أنظر الى أبنائكم واقفين على أبواب أبنائهم يستسقونهم ويطعمونهم بما جعل الله لهم فلا يسقون ولا يطعمون ، فبعداً وسحقاً لما كسبته أيديهم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

ولم تنفع جميع المحاولات التي بذلها الإمام من أجل استقامتهم وصلاحهم فقد أخذ الموقف تزداد حراجته ، ويعظم بلاؤه ، وتشتد فيه الفتن والخطوب وقد وجد زعماء الجيش انشغال الإمام بمعالجة جرحه فرصة إلى الإتصال

---

(١) ينابيع المودة ص ٢٩٢ .

المفضوح بمعاوية ، والتزلف اليه بكل وسيلة ، وقد علم الإمام (ع) جميع ما صدر منهم من الخذلان والإتصال بالعدو .

حقاً لقد كان موقف الأمام موقفاً تمثلت فيه الحيرة والذهول ، ينظر الى معاوية فيرى حربه ضرورياً يقضي به الدين ويلزم به الشرع وينظر الى الانقلاب والتفكك الذي أصيب به جيشه ، والى المؤمرات المفضوحة على اغتياله فينفض يده منهم وييأس من صلاحهم ، ومع ذلك أراد عليه السلام أن يمتحنهم ليرى موقفهم من الحرب لو اندلعت نارها ، فأمر (ع) بعض أصحابه أن ينادي في الناس (الصلاة جامعة) فاجتمع الجمهور فقام فيهم خطيباً فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

« والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم ، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر ، فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع ، وكنتم في مسيركم الى صفين ودينكم أمام دنياكم ، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين ، قتيل بصفين تبكون عليه ، وقتيل بالنهروان تطلبون بثاره ، وأما الباقي فخاذل وثائر » .

وأعرب (ع) بهذا الخطاب البليغ عن بعض العوامل التي أدت الى تفككهم وانحلالهم ، وعرض عليهم بعد هذا دعوة معاوية في الصلح قائلا :

« ألا وان معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ، ولا نصفة فان أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه بظبات السيوف ، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذناه بالرضا » .

وما انتهى (ع) من هذه الكلمات إلا وارتفعت الأصوات من جميع جنبات الجمع وهي ذات مضمون واحد :

البقية ، البقية (١) .

ورأى (ع) بعد هذا الموقف أنه إن حارب معاوية حاربه بيد جذاء إذ لا ناصر له ولا معين ، ولم يكن هناك ركن شديد حتى يأوي اليه ، واستبانت له الخطط المفضوحة التي سلكها زعماء الجيش من تسليمه الى معاوية أسيراً أو اغتياله ، رأى بعد هذا كله ان الموقف يقضي بالسلم واستعجال الصلح .

وحدث يزيد بن وهب الجهني عن مدى استياء الامام وتذمره من أجلاف الكوفة وأوباشهم ، قال : دخلت عليه لما طعن فقلت له :

« يابن رسول الله ، ان الناس متحيرون » .

فاندفع الامام يقول بأسى بالغ وحزن عميق :

« والله أرى معاوية خيراً لي ، هؤلاء يزعمون أنهم لي شيعة ابتغوا قتلي وانتهبوا ثقلي ، وأخذوا مالي ، والله لئن آخذ من معاوية عهداً أحقن به دمي وآمن به أهلي وشيعتي خير لي من أن يقتلوني فيضيع أهل بيتي ، لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني اليه سلماً ، والله لئن اسالمه وأنا عزيز أحب من أن يقتلني وأنا أسير ، أو يمن علي فتكون سبة على بني هاشم الى آخر الدهر ، ولمعاوية لا يزال يمن بها وعقبه على الحي منا والميت » .

وأعرب الإمام في حديثه عن مدى ما لاقاه من الإعتداء الغادر على حياته وكرامته من هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أنهم شيعة له ، وانه سيبلغ بهم التفسخ الى أقصى حد فسيقتلونه أو يسلمونه أسيراً الى معاوية فيقتله أو يمن عليه فيسجل له بذلك يداً على الإمام وتكون سبة وعاراً على بني هاشم الى آخر الدهر .

---

(١) حماة الاسلام ١ / ١٢٣ ، المجتنى لابن دريد ص ٣٦ ،

وأخذ (ع) بعد هذه الأحداث الخطيرة يجيل النظر ويقلب الرأي على وجوهه، في حرب معاوية وتصور المستقبل الملبد بالزعازع والإضطرابات التي تقرر المصير المخوف والنهاية المحتومة لدولته وحياته معاً بل وعلى حياة الإسلام أيضاً لأن القلة المؤمنـة التي يحويهـا جيشه كانت بين ذرية النبي الأعظم (ص) وبين حملة الدين الإسلامي المقدس، من بقايا الصحابة وتلامذة أميرالمؤمنين (ع) وهؤلاء إن طحنتهم الحرب تفنى معنويات الإسلام، ويقضى على كيانه وتحطم عروشه، لأنهم هم القائمون بنشر طاقاته، ومضافاً الى ذلك ان الإسلام لا يستفيد بتضحيتهم شيئاً لأن معاوية بمكره سوف يلبسهم لباس الاعتـداء، ويوصمهم بالخروج عن الطاعة والإخلال بالأمن العام والقضاء عليهم أمر ضروري حفظاً لحياة المسلمين من القلق والاضطراب.

حقاً لقـد تمثلت الحيرة والذهول في ذلك الموقف الرهيب والخروج من مأزقه يحتاج الى فكر ثاقب والى مزيد من التضحية والإقدام، رأى الامام عليه السلام أن المصلحة التامة تقضي أن يصالح معاوية ويعمل بعد ذلك على تحطيم عروش دولته، ويعرب للناس عاره وعياره، ويظهر لهم الصور الإجرامية التي تتمثل فيه! لقد سالم (ع) وكانت المسالمة أمراً ضرورياً يلزم بها العقل ويوجبها الشرع المقدس، وتقتضيها حراجة الموقف، واضافة لهذه الأحداث سوف نقدم أسباباً أخرى توضح المقام وترفع أثر الشك وترد شبهات الناقدين



اسباب الصلح

تحوم حول صلح الامام الحسن (ع) مع خصمه معاوية كثير من الظنون والأقوال ، ويستفاد منها حكمان متباينان بكل ما للتباين من معنى والحق أن أحدهما خطأ وبعيد عن الصواب كما هو الشأن في كل حكمين متباينين :

« الأول » من هذين الحكمين تبرير موقف الامام في صلحه وموفقيته فيه الى أبعد الحدود ، ويختلف مبنى التعليل فيه ، فطائفة من العلماء والبحاث عللته بأنه إمام والإمام معصوم من الخطأ ، فلا يفعل إلا ما هو الصالح العام لجميع الأمة ، وسنذكر في أواخر هذا البحث الذاهبين الى هذا القول وتعليل آخر يكشف عن مناط القول الأول ، ويوضح مدركه وهو يستند الى العلل المادية التي اضطرت الامام الى الصلح كخذلان جيشه ، وفساد مجتمعه ، وخيانة الزعماء والمبرزين والوجهاء من شعبه وغير ذلك من العوامل ،

« الثاني » من هذين الحكمين تعود خلاصته الى ضعف ارادة الامام وعدم احاطته بشؤون السياسة العامة وعجزه عن ادارة دفة الدولة ، وعدم تداركه للموقف بالاعتماد على الأساليب السياسية وإن منع عنها الدين ، فان نال الظفر فذاك وإلا فالشهادة في سبيل المجد التي هي شعار الهاشميين ، وهدف المصلحين ، وهذا الرأي مبني على ظواهر لا تمت الى الواقع بصلة ولا تلتقي معه بطريق وذلك لعدم ابتنائه على دراسة الظروف المحيطة بالامام ، وعدم الوقوف على اتجاه شعبه الذي اصيب بأخلاقه وعقيدته ، فلذا كان هذا الرأي سطحياً وخالياً عن التحقيق وبعيداً عن الواقع ، أما الذاهبون لهذا الرأي فهم :

١ ــ الصفدي :

قال الصفدي في شرحه لهذا البيت من لامية العجم :

حب السلامة يثني عزم صاحبه		عن المعالي ويغري المرء بالكسل

وقد رضي بالخمول جماعة من الرؤساء والأكابر المتقدمين في العلم والمنصب وفارقوا مناصبهم ، وأخلوا الدسوت من تصديرهم ، ثم ذكر جماعة من الذين رضوا بالخمول ونزعوا عن أنفسهم الخلافة ثم قال :

« وهذا الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) قال لمعاوية : إن عليَّ ديناً فأوفوه عني وأنتم في حل من الخلافة ، فأوفوا دينه وترك لهم الخلافة » (١) .

٢ — الدكتور فيليب حتي :

قال الاستاذ فيليب حتي : « وفي بدء حكم معاوية قامت حركة أخرى كان لها شأن كبير في الأجيال التي تلت أعني اعلان أهل العراق الحسن بن علي الخليفة الشرعي ، ولعلمهم هذا أساس منطقي لأن الحسن كان أكبر أبناء علي وفاطمة ابنة النبي الوحيدة الباقية بعد وفاته ، ولكن الحسن الذي كان يميل الى الترف والبذخ لا الى الحكم والادارة لم يكن رجل الموقف ، فانزوى عن الخلافة مكتفياً بهبة سنوية منحه إياها » (٢) .

٣ — العلائلي :

قال الاستاذ العلائلي : « ولكنه (يعني الحسن) كان قديراً على أن يعد الجماعات المنحلة عن طريق الاستشارة والحماس ، وبث روح العزم والإرادة كما رأينا في القادة الحديديين أمثال « نابليون » الذي تولى شعباً أنهكته الثورة الطويلة كما أنهكت العرب ، وزاد هو في انهاكه بالحروب

(١) شرح لامية العجم ٢ / ٢٧ وقد خبط الصفدي خبط عشواء ، فان الامام متى باع الخلافة على خصمه بوفاء دينه ؟ نعوذ بالله من هذا الافتراء .

(٢) العرب ص ٧٨ .

المتتالية المستمرة التي اخذ بها أوربا ، ولكن القائد غمرته موجة السأم التي غمرت الناس » (١) .

٤ ــ المستشرق « روايت م رونلدس » :

قال هذا المستشرق : « فان الأخبار تدل على أن الحسن كانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية العقلية لقيادة شعبه بنجاح » (٢) .

٥ ــ لامنس :

قال هذا الإنكليزي المهوس الأثيم الذي لم يفهم من التاريخ الإسلامي شيئاً : « وبويع للحسن بعد مقتل علي فحاول أنصاره أن يقنعوه بالعودة الى قتال أهل الشام ، وقلب هذا الإلحاح من جانبهم حفيظة الحسن القعيد الهمة ، فلم يعد يفكر إلا في التفاهم مع معاوية ، كما أدى إلى وقوع الفرقة بينه وبين أهل العراق ، وانتهى بهم الأمر إلى اثخان امامهم اسما لافعلا بالجراح فتملكت الحسن منذ ذلك الوقت فكرة واحدة هي الوصول الى اتفاق مع الأمويين ، وترك له معاوية أن يحدد مايطلبه جزاء تنازله عن الخلافة ، ولم يكتف الحسن بالمليوني درهم التي طلبها معاشا لأخيه الحسين بل طلب لنفسه خمسة ملايين درهماً أخرى ، ودخل كورة في فارس طيلة حياته وعارض أهل العراق بعد ذلك في تنفيذ الفقرة الأخيرة من هذا الاتفاق ، بيد أنه اجيب إلى كل ماسأله حتى ان حفيد النبي اجترأ فجاهر بالندم على أنه لم

(١) الحلقة الثانية من حياة الحسين ص ٢٨٣ .

(٢) عقيدة الشيعة تعريب ع م ص . وهذا المستشرق من الحاقدين على الإسلام ، وقد شحن كتابه بالكذب والطعن على الإسلام والحط من قيمة أعلامه النابهين وقد تعرض الاستاذ السيد عبد الهادي المختار في مجلةالبيان الزاهرة في عددها الخاص بسيد الشهداء من السنة الثانية عدد ٣٥ ــ ٣٩ إلى تزيفه وعرض أكاذيبه .

يضاعف طلبه وترك العراق مشيعا بسخط الناس عليه ليقيم في المدينة » (١)

وهؤلاء الناقدون لصلح الامام كان بعضهم مدفوعا بدافـع الحقد والعداء للإسلام ، وبعضهم لم يكن رأيه خاضعاً لحرية الفكر ولم يختص

(١) دائرة المعارف الاسلامية ج ٧ ص ٤٠٠ وهذه الدائرة لم تكن إلا دائرة كذب وافتراآت فقد حفلت بالطعن على الاسلام والسب لأعلامه خصوصاً في بحوث (لامنس) عن الشيعة وعن أئمتهم فانها مليئة بالبهتان والتهريج عليهم ، والسبب في ذلك ان لجان التبشير المسيحي هي التي تدفع أمثال هذه الأقلام المأجورة لتشويه الاسلام والكيد له ، مضافا الى أن بحوث المستشرقين تعتمد على دراسة سطحية خالية عن التحقيق والتدقيق ، ومن الجدير بالذكر أن بعض المستشرقين زار (طهران) عاصمة إيران بعد أن تعلم اللغة الفارسية في مدارس الألسنة الشرقية وقد حاول أن يضع تأريخاً عن حالة إيران الاجتماعية والأخلاقية كما يشاهدها فرأى حمالين وعلى رؤسهم أوانيا وأسباباً فاخرة ، وأمامهم الدفوف والمزامير فسأل عن ذلك فقال له بعض الحاظرين إنهم يحملون جهاز عروس ، ثم سأل عن اسم الزوج فقال له بعض الحاظرين (ماذا يهمك ؟)، وفي المساء رأى هذا المستشرق رجلا يضرب امرأة في الشارع فسأل بعض الحاظرين عن القصة فأخبره أن الضارب زوجها وقد تركته بغير حق ، ثم سأل عن أسم الزوج فقال له (ماذا يهمك ؟) فظن المستشرق ان اسم الرجل ماذا يهمك ، وإنه العريس الذي رأى جهازه صباحاً ، فكتب هذا المستشرق في كتابه تاريخ ايران انه رأى في عاصمتها عريساً يقترن صباحاً ويضرب عروسه في الشارع مساء وان اسمه ماذا يهمك ، هذا حال المستشرقين في الأمور الظـاهرة البديهية فكيف حالهم في النظريات الدقيقة الغامضة هذا إذا لم يعتمدوا على التحريف فكيف إذا اعتمدوا عليه ومن المؤسف ان شبابنا قد عكف على دراسة مؤلفاتهم والاعتماد عليها في اطروحاتهم مع انها لانصيب لها من الصحة والواقع .

قولهم الدليل فى جميع أحواله ، وذلك لعدم وقوفهم على العوامل التي أحاطت بالامام حتى دعته إلى مسالمة خصمه ، ويجب على الكاتب الذي يريد أن يمثل للمجتمع صورة عن شخصية مهمة لها من الخطورة شأن كبير أن يحيط بأطرافها من جميع النواحي ليكون رأيه قريباً الى الصواب وبعيداً عن الخطأ وبما أنا وقفنا بعض الوقوف أو أقله على بعض العلل والعوامل التي دعت الامام لمسالمة عدوه ، وهي تتلخص في أمور استنبطنا بعضها من الابحاث السالفة والبعض الآخر استنتجناه من دراسة نفسية معاوية وملاحظة أعماله ، ومن الوقوف على أضواء سيرة الامام الرفيعة ، ومعرفة سياسة أهل البيت (ع) التي لاتتذرع بالوسائل التي شجبها الاسلام في سبيل الوصول الى الحكم وقبل أن نعرض أسباب الصلح نود أن نبين انا قد نعيد نماذج بعض المواضيع السالفة لأجل الاستدلال على مانذهب اليه فان في الاعادة ضرورة ملزمة يقتضيها البحث ، فان تفصيل هذا الموضوع والاحاطة به أهم من غيره ، ولعل نظر القراء اليه وهي كما يلي :

١ ـ تفلل الجيش :

إن أعظم ماتواجهه الدولة فى جميع مجالاتها مسبب ـ على الأكثر ـ من خبث الجند ، وشدة خلافه ، وعصيانه لقيادته العامة ، وقد مُني الجيش العراقي آنذاك بالتمرد والانحلال بما لم يبتل به جيش معاوية فانه ظل محتفضاً بالولاء لحكومته ولم يصب بمثل هذه الرجات والانتكاسات ، أما العلل التي أدت الى اضطراب الجيش العراقي وانشقاقه فهي :

أ ـ تضارب الحزبية فيه :

إن الأحزاب إذا تضاربت في الجيش وكانت مدفوعة بالحقد للحكم

القائم ، أو كان لها اتصال بدولة أجنبية تعمل بوحي منها ، وتستمد منها التوجيهات للإطاحة به ، فان الدولة لاتلبث أن تلاقي النهاية المحتومة إن عاجلا أو آجلا ، وقد ابتلي الجيش العراقي في ذلك الوقت بحزبين ليس فيهما صديق للدولة الهاشمية ولا محافظ عليها ، وإنما كانا يبذلان المساعي والجهود للقضاء عليها ، وهما :

الحزب الاموي :

وهؤلاء هم أبناء الأسر البارزة وذوو البيوتات الشريفة الذين لايهمهم غير الزعامة الدنيوية ، والظفر بالمال والسلطان وهم كعمر بن سعد ، وقيس ابن الأشعث ، وعمرو بن حريث ، وحجار بن أبجر ، وعمرو بن الحجاج ، وأمثالهم من الذين لا صلة لهم بالفضيلة والكرامة ، وكانوا أهم عنصر مخيف فى الجيش ، فقد وعدوا معاوية باغتيال الامام أو بتسليمه له أسيراً كما قاموا بدورهم باعمال بالغة الخطورة وهي :

١ — إنهم سجلوا كل ظاهرة أو بادرة فى الجيش فارسلوها الى معاوية للإطلاع عليها .

٢ — كانوا همزة وصل بين معاوية وبقية الوجوه .

٣ — قاموا بنشر الأراجيف والارهاب فى نفوس الجيش بقوة معاوية وضعف الحسن .

وأدت هذه الأعمال الى انهيار الجيش ، وزعزعة كيانه ، وضعف معنوياته في جميع الحالات .

الحزب الحروري :

وهذا الحزب قد أخذ على نفسه الخروج على النظام القائم ، ومحاربته بجميع الوسائل ، وقد انتشرت مبادؤه في الجيش العراقي انتشاراً هائلا لأن المبشرين بأفكارهم كانوا يحسنون غزو القلوب والأفكار ويجيدون الدعاية وقد وصف زياد بن أبيه مدى قابلياتهم بقوله : « لكلام هؤلاء أسرع الى القلوب من النار الى اليراع » (١) ووصف المغيرة بن شعبة شدة تأثيرهم في النفوس بقوله : « إنهم لم يقيموا ببلد إلا أفسدوا كل من خالطهم » (٢) وقد استولوا على عقول السذج والبسطاء من الجيش بشعارهم الذي هتفوا به « لاحكم إلا لله » ولم يقصد بذلك إلا حكم السيف كما يقول فان فلوتن (٣)

لقد قضت خطط الخوارج الملتوية بوجوب الخروج على ولي أمر المسلمين إذا لم ينتم اليهم وهو عندهم جهاد ديني تجب التضحية في سبيله وقد قاموا بأعنف الثورات ضد الولاة حتى عسر عليهم مقاومتهم . وكان الخوارج يحملون حقداً بالغاً في نفوسهم على الحكومة الهاشمية لأنها قد وترتهم بأعلامهم ، وقضت على الكثيرين منهم في واقعة النهروان ، وقد فتكوا بالإمام أمير المؤمنين وتركوه صريعاً في محرابه انتقاماً منه بما فعله فيهم ، كما اغتالوا الإمام الحسن (ع) وطعنوه في فخذه ، وحكموا بتكفيره ، وكانت كمية هذه العصابة كثيرة للغاية فقد نصت بعض المصادر أن أكثرية الجيش

---

(١) اليراع : القصب .

(٢) الطبري ٦/١٠٩

(٣) السيادة العربية ص ٦٩ .

كانت من الخوارج (١) .

وهذان الحزبان السائدان في العراق قد بذلا جميع الطاقات لإفساد الجيش ، وبذر الخلاف والإنشقاق في جميع وحداته حتى ارتطم في الفتن والأهواء ، ويضاف لذلك أن هناك مجموعة كبيرة منه كان موقفها موقفاً سلبياً في قضية الإمام الحسن (ع) لأنها لاتفقه الأهداف الأصيلة التي ينشدها الامام ، ولضيق تفكيرها ترى أن الامام كل من ارتقى دست الحكم من أي طريق كان فالحسن ومعاويه سيان ، وإن حارب الحسن معاوية على الدين ، وحارب معاوية الحسن على الدنيا .

ولم يعد بعد ذلك من يناصر الحكومة الهاشمية ، ويقف الى جانبها سوى الفئة الشيعية التي ترى رأي العلويين في أحقيتهم بالخلافة وهم أمثال الزعيم قيس بن سعد ، وسعيد بن قيس ، وعدي بن حاتم الطائي ، وحجر ابن عدي ، ورشيد الهجري ، وحبيب بن مظاهر ، وأضرابهم من تلامذة أمير المؤمنين (ع) وهم الأقلية عدداً كما قال الله تعالى « وقليل ماهم » وليس باستطاعتهم أن ينتشلوا الحكومة من الأخطار الحافة بها فانهم لو كانوا كثرة في الجيش لما اضطر الامام أمير المؤمنين على قبول التحكيم ولما التجأ الامام الحسن الى الصلح .

ب ــ السأم من الحرب :

ان من طبيعة الكوفة التي جبلت عليها نفوس أهلها السأم والملل « ولا رأي لملول » ومضافا لهذه الظاهرة النفسية التي عرفوا بها أن هناك سببين أوجبا زيادته ومضاعفته وهما :

---

(١) أعيان الشيعة ٤ / ٤٢ .

١ ـ الحروب المتتالية :

ومما سبب شيوع الملل والسأم في نفوس الجيش العراقي الحروب المتتالية فان الدولة كانت تستعمله في الفتوحات والدفاع عنها ، وزاد في ضعف أعصابه وانهياره حرب صفين والنهروان ، فقد طحنت الحرب فيها جمعاً غفيراً منهم حتى أصبحوا يكرهون الحرب ويؤثرون السلم ويحبون العافية .

٢ ـ اليأس من الغنائم :

ولم يربح الجيش العراقي في حرب الجمل وصفين والنهروان شيئاً من العتاد والأموال ، لأن الامام أمير المؤمنين لم يعاملهم معاملة الكفار فيقسم غنائمهم على المسلمين ، وإنما أمر بارجاع جميع الأموال التي اغتنمها جيشه إلى أهلها بعد انتهاء حرب البصرة (١) وقد علم الجيش أن الامام الحسن (ع) لايتحول عن سيرة أبيه ونهجه ، فلم يثقوا بالأموال والغنائم إن حاربوا معاوية فاعلنوا العصيان وأظهروا التمرد والسأم من الحرب .

إن كراهية الجيش العراقي للحرب وإيثاره للعافية لم يكن ناشئاً في « مسكن » وإنما كان عقيب رفع المصاحف وواقعة النهروان فقد خلد بجميع كتائبه إلى السلم ، وقد ذكرنا في الحلقة الأولى من هذا الكتاب صوراً من الاعتدآت الغادرة التي قامت بها قوات معاوية على الحدود العراقية وغزوهم لمدن العراق ، وترويعهم للآمنين ، وقتلهم الأبرياء ، وهم متخاذلون متقاعسون عن ردها لاتحركهم العواطف الدينية ولا يهزهم الشعور الانساني لدفع الضيم والذل عنهم ، يأمرهم الامام أمير المؤمنين بالجهاد فلا يطيعونه ، ويدعوهم إلى مناصرته فلم يستجيبوا له ، وقد ترك ذلك أسى مريراً وشجى مقيماً في نفسه ، وقد اندفع في كثير من خطبه إلى انتقاصهم وذمهم يقول (ع) :

---

(١) علي وبنوه ص ٥٥ .

« لقد سئمت عتابكم أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً ، وبالذل من العز خلفاً ، إذا دعوتكم الى جهاد عدوكم دارت أعينكم كأنكم من الموت في غمرة ، ومن الذهول في سكرة » .

ويستمر في تقريعه ولومه لهم ، وإبداء تأثره على تخاذلهم ونكوصهم عن الحرب فيقول :

« وما أنتم بركن يمال بكم، وأيم الله إني لأظن أن لو حمس الوغى ، واستحر الموت قد انفرجتم من ابن أبي طالب انفراج الرأس . . » .

ويصف (ع) في خطاب آخر عدم اندفاعهم للجهاد في سبيل الله ، ومدى محنته وبلائه فيهم فيقول :

« ودعوتهم سراً وجهراً ، وعوداً وبدءً فمنهم الآتي كرهاً ، ومنهم المعتل كاذباً . ومنهم القاعد خاذلا ، واسأل الله أن يجعل منهم فرجا عاجلا والله لولا طمعي عند لقائي عدوي في الشهادة لاحببت أن لاأبقى مع هؤلاء يوماً واحداً ولا ألتقي بهم أبداً » (١) .

ويقول (ع) في خطاب آخر له :

« المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل (٢) أصبحت والله لاأصدق قولكم ، ولا أطمع في نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ، مابالكم ! مادوائكم

---

(١) النهج محمد عبده ٣/٦٧ .

(٢) الأفوق من السهام : مكسور الفوق وهو موضع الوتر من السهم ، الناصل: العاري عن النصل أي : من رمى بهم فكأنما رمى بسهم لايثبت في الوتر حتى يرمى ، وإن رمى به لم يصب مقتلاً إذ لا نصل له .

ما طبكم . . » (١) .

وقد احتوى « نهج البلاغة » على طائفة كبيرة من خطب الامام تدل على استيائه البالغ ، وحزنه العميق من تخاذل جيشه وعدم استجابتهم لنصرته حتى ملأوا قلبه غيظاً وجرعوه نغب التهمام انفاساً ـ على حد تعبيره ـ وبقي سأمهم من الحرب وكراهيتهم للجهاد مستمراً طيلة أيام أمير المؤمنين . ولما آل الأمر إلى الحسن (ع) ظهر ذلك بأبشع الصور فانه لما عرض عليهم دعوة معاوية للصلح إرتفعت أصواتهم وهم يهتفون :

« البُقية البُقية » .

ودل ذلك على مدى جزعهم من الحرب ، وكراهيتهم للجهاد ، وانهم لم يكونوا بأي حال مع الإمام لو فتح باب الحرب مع معاوية .

ج ـ فقد القوى الواعية :

ومما سبب تفلل الجيش العراقي فقده للقوى الواعية من أعلام الإسلام الذين آمنوا بحق أهل البيت (ع) وعرفوا فضلهم ، وكان الجيش بجميع كتائبه يكنُّ لهم أعمق الولاء والتقدير لأنهم من خيار المسلمين ومن الذين أبلوا في الإسلام بلاء حسناً ، وكان لهم شأن كبير في تنظيم الحركة العسكرية ، وفي توجيه الجيش في خدمة الأهداف الإسلامية ، وهم أمثال الصحابي العظيم عمار بن ياسر ، والقائد الملهم هاشم المرقال ، وثابت بن قيس ، وذو الشهادتين ونظائرهم من الذين سبقوا إلى الإسلام والإيمان ، وقد طحنتهم حرب صفين وقد أحصى رواة الأثر عدد البدريين منهم فكانوا ثلاثاً وستين بدرياً ، وهناك كوكبة أخرى من أبرار الصحابة وخيارهم قد استشهدوا في تلك الحروب التي أثارها الطامعون والمنحرفون عن الإسلام ضد وصي رسول الله (ص)

---

(١) نهج البلاغة محمد عبده ١ / ٧٠ .

وباب مدينة علمه ، وقد ترك فقدهم فراغاً هائلاً في الجيش العراقي فقد خسر الضروس والرؤس ، وبُلي من بعدهم بالمنافقين والخوارج الذين كانوا سوسة تنخر في كيانه ، ولو ضم جيش الإمام أمثال أولئك الأبرار لما التجأ إلى الصلح والموادعة مع خصمه .

د ـ الدعوة إلى الصلح :

ومما سبب ضعف العزائم ، وإخماد نار الثورة في نفوس الجيش دعوة معاوية إلى الصلح وحقن الدماء ، فقد كانت هذه الدعوى لذيذة مقبولة إلى حد بعيد ، فقد استطابها البسطاء والسذج ورحب بها عملاء معاوية وأذنابه من الذين ضمهم جيش الإمام ، ولم تكن الاكثرية الساحقة في الجيش تعلم بنوايا معاوية وما يبيته لهم من الشر فانخدعوا بدعوته إلى الصلح كما انخدعوا من قبل في رفع المصاحف ، مضافاً لذلك خيانة زعمائهم ، والتحاقهم بمعسكر معاوية .

وعلى أي حال فقد رحبت أكثرية الجيش بالدعوة إلى الصلح وآثرت السلم على الحرب ، ولم يكن في استطاعة الامام أن يرغمهم على مناجزة معاوية ومقاومته .

هـ ـ خيانة عبيد الله :

ويعتبر خذلان عبيد الله بن العباس من العوامل المهمة التي سببت تفكك الجيش وتخاذله ، فقد طعن بخيانته الجيش العراقي طعنة نجلاء ، وفتح باب الخيانة والغدر ، ومهد السبيل للإلتحاق بمعاوية ، وقد وجد ذوو النفوس الضعيفة مجالا واسعاً للغدر بخيانتهم للإمام ، فاتخذوا من غدر عبيد الله وسيلة لذلك فهو ابن عم الامام وأقرب الناس اليه ، وقديماً قد قيل :

إذا فاتك الادنى الذي أنت حزبه   فلا عجب إن أسلمتك الاباعد

وقد أولد غدر عبيد الله في نفس الامام حزناً بالغاً وأسى مريراً ، فانه لم يرع « الدين ، ولا الوتر ، ولا العنعنات القبلية ، ولا الرحم الماسة من رسول الله (ص) ، ولا من قائده الاعلى ، ولا الميثاق الذي واثق الله عليه في البيعة منذ كان أول من دعا النـــاس إلى بيعة الحسن في مسجد الكوفة ، ولا الخوف من حديث الناس ، ونقمة التاريخ » .

و ــ رشوات معاوية :

وبالأموال تشترى ذمم الرجال ، وتباع الأوطان ، وتخمد الافكار ، وتسيل لها لعاب الابطال ، وقد عمد معاوية إلى بذلهـــا بسخاء إلى الوجوه والاشراف والزعماء فانه لم ير وسيلة للتغلب على الاحداث إلا بذلك ، فغدروا بالامام ، وتسللوا اليه في غلس الليل وفي وضح النهار غير حافلين بالعار والخزي وعذاب الله ، وقد أدت خيانتهم إلى اضطراب الجيش وتفلله ، وإعلانه للعصيان والتمرد .

إن الاكثرية الساحقة من الجيش لم يكن لها أي هدف نبيل . وإنما كانت تسعى نحو المنـــافـع والاطماع ، وقد أدلى بعضهم بذلك في بعض المعارك فقال :

« من أعطانا الدراهم قاتلنا معه » .

وهجا بعض الشعراء شخصاً قتل في تلك المعارك يقول لابنائه :

ولا فى سبيل الله لاقى حمامه   أبوكم ولكن في سبيل الدراهم (١)

إن الجيش إذا كان مدفوعاً بالدوافع المادية فانه لايخلص في دفاعه ، ولا يؤمن من انقلابه ، وخطره على حكومته أعظم من الخطر الخارجي .

لقد بلغ من فساد العراقيين وجشعهم فى الحصول على أموال معاوية

---

(١) الطبري ٢ / ١٩ .

ان الإمام الحسن لما نزل بالمدائن للإستشفاء من جرحه في دار سعد بن مسعود الثقفي (١) وكان والياً على المدائن من قبـل أمير المؤمنين (ع) وأقره الإمام الحسن عليها أقبل إليه ابن اخيه المختار – على ما قيل – وكان آنذاك غلاماً فقال له :

« ياعم هل لك في الغنى والشرف ؟ » .

« وما ذاك ؟ » .

« توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية ! » .

فانبرى اليه عمه وقد لسعه قوله قائلا :

« عليك لعنة الله أثب على ابن بنت رسول الله فاوثقه بئس الرجل أنت » (٢) .

ولم يكن المختـار وحده – على تقدير صحة هذه الرواية – قد غمره هذا الشعور بالخيانة ، فقد غمر ذلك أكثرية الجيش الذي كان مع الإمام ، فقد تسابقوا إلى مطامع الدنيا ، وليس ذلك في زمان الحسن (ع) وانما كان في زمان أمير المؤمنين (ع) فقد قال الإمام زين العابدين (ع) « إن علياً كان يقاتله معاوية بذهبه » (٣) ان معاوية عرف نقطة الضعف في جيش

---

(١) سعد بن مسعود الثقفي ذكره البخاري في الصحابة ، وقال الطبراني : له صحبة ، ولاه أمير المؤمنين (ع) على بعض أعماله . واستصحبه معه إلى صفين ، وروى عنه أنه قال : كان نوح إذا لبس ثوباً حمد الله ، وإذا أكل وشرب حمد الله ، فلذا سمي عبداً شكوراً ، الاصابة ٢ / ٣٤ .

(٢) الطبري ، والاصـابة ، ونفى بعض المحققين صحة الخبر وجعله من الموضوعات ، ولايبعد ذلك لأن المختار من خيرة الرجال في هديه وورعه وسائر نزعاته

(٣) خطط المقريزي ٢ / ٤٣٩ .

الإمام فأغدق عليهم بالرشوات حتى استجابوا له وتركوا عترة نبيهم ووديعته في أمتـه .

ز ـ الاشاعات الكاذبة

ومما سبب انحلال الجيش الاشاعات الكاذبة التي أذاعها عملاء معاوية فى (المدائن) بأن قيس بن سعد قد قتل ، واشاعوا أخرى بأنه قد صالح معاوية ، وقد اعتقد الجيش بصحة هذه الأنباء فارتطم بالفتن والاختلاف وأعظم هذه الدعايات بلاءً وأشدها فتكاً هي مابثه الوفد الذي أرسله معاوية للإمام ، فانه لما خرج منه أخذ يفتري عليه بأنه قد أجابهم إلى الصلح ، وحينما سمعوا بذلك اندفعوا كالموج فنهبوا أمتعته ، واعتدوا عليه ، ولوكانت عند الزعماء والوجوه صبابة من الانسانية والكرامة لقاموا بحماية الامام ، ورد الغوغاء عنه حتى يتبين لهم الأمر ، ولكنهم أقاموا في ثكناتهم العسكرية ولم يقوموا بحمايته ونجدته .

إلى هنا ينتهي بنا الحديث عن العوامل التي أدت إلى تفكك الجيش والقضاء على اصالته ، ومن البديهي ان القوى العسكرية قلب الدولة ومصدر حمايتها فاذا أصيبت بمثل هذه الزعازع والأخطار فهل يتمكن القائد الاعلى أن يحقق أهدافه أو يفتح باب الحرب مع القوى المعادية له ؟ ! .

٢ ـ قوة العدو :

العامل الثاني الذي دعى الامام إلى المصالحة والمسالمة هو مايتمتع به خصمه من القوى العسكرية وغيرها التي لاطاقة للإمام على مناجزتها ، ولا قابلية له للوقوف أمامها ، حتى استطاع معاوية أن يناجز أمير المؤمنين من قبل ويرغم الامام الحسن على الصلح ، ونقدم عرضاً لبعضها وهي :

أ ــ طاعة الجيش :

وغرس معاوية حبه في قلوب جيشه ، وهيمن على مشاعرهم وعواطفهم فقد عرف ميولهم واتجاهاتهم فسايرها حتى أحبهم وأحبوه وصاروا طوع إرادته وقد اختمر في أذهانهم بسبب دعايته وتمويهه أنه الحجة من بعد الخلفاء ، وان النبي (ص) ليس له وارث شرعي غير بني أمية فقد نقل المؤرخون أن أبا العباس السفاح (١) لما فتح الشام أقبلت اليه طائفة من الزعماء والوجوه فحلفوا له أنهم ماعلموا للرسول قرابة ، ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى تولى بنو العباس الخلافة ، وفى ذلك يقول ابراهيم بن المهاجر البجلي (٢) :

أيها الناس اسمعوا أخبركم   عجباً زاد على كل العجب

عجباً من عبد شمس إنهم   فتحوا للناس أبواب الكذب

ورثوا أحمد فيما زعموا   دون عباس بن عبد المطلب

كـــذبوا والله ما نعلمه   يحرز الميراث إلا من قرب (٣)

ويعود السبب في ذلك إلى الروايات التي تعمد وضعها الرواة المستأجرون وأشاعوها في أوساط دمشق من أن معاوية هو وارث النبي وأقرب الناس

---

(١) أبو العباس أول خلفاء بني العبـــاس ولد سنة (١٠٨) بالحمية من ناحية البلقاء ، ونشأ بها ، وبويع له بالكوفة في ٣ ربيع الاول سنة (١٣٢) وكان سريعاً إلى سفك الدماء ، وسار على منواله عماله بالمشرق والمغرب ، توفى بالجدري سنة (١٣٦) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠٠ .

(٢) ابراهيم بن المهاجر البجلي : هو أبو اسحاق الكوفي روى عن جماعة من الثقات وروى عنـــه آخرون اختلف فى روايته فقيل إنه ثقة وقيل إنه ضعيف ، تهذيب التهذيب ١/١٦٧ .

(٣) مروج الذهب ٢/٣٣٥ .

اليه وقد أفاضوا عليه وعلى الشجرة الملعونة من اسرته النعوت الحسنة والاوصاف الشريفة حتى جعلوهم فى الرعيل الأول من المصلحين الاخيار وأصبحت طاعتهم فرضاً من فروض الدين ، واعتقدوا فيه وفي بني أمية أكثر من ذلك يقول الاستاذ (فان فلوتن) : « وكان السواد الاعظم يرى في حزب بني أمية حزب الدين والنظام » وقال : « وكان معاوية فى نظر الحزب الاموي خليفة الله كما كان ابنه يزيد إمام المسلمين ، وعبد الملك إمام الاسلام وأمين الله » (١) وبلغ من ودهم وطاعتهم له أنه كان يسلك بهم جميع المسالك البعيدة التي تتنافى مع الدين حتى استطاع أن يحقق بهم جميع مايصبو اليه ، ونظراً لمزيد طاعتهم له تمنى أمير المؤمنين أن يصارفه معاوية بأصحابه فيعطيه واحداً منهم ويأخذ عشرة من العراقيين الذين عرفوا بالشغب والتمرد .

ب ـ بساطة وسذاجة :

وأتاح الزمن المزيل إلى معاوية أن يسيطر على جيش كان مثالا للسذاجة والبساطة فلم يعرف الاكثر منهم أي طرفيه أطول وقد احتفظ التأريخ بصور كثيرة من بلاهتهم تدل على مدى خولهم وعدم نباهتهم ، فقد ذكر المؤرخون أن رجلا من أهل الكوفة قدم على بعير له إلى دمشق حال منصرفهم من صفين فتعلق به رجل من أهل دمشق قائلاً له :

« هذه ناقتي أخذت مني بصفين » .

وحدث بينهما نزاع حاد فرفعا أمرهما إلى معاوية وأقام الدمشقي بينة على دعواه تتألف من خمسين رجلاً يشهدون انها ناقته فقضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم البعير اليه فوراً ، فالتفت اليه العراقي متعجباً من هذا

---

(١) السيادة العربية ص ٧٠ .

الحكم قائلاً :

« أصلحك الله إنه جمل وليس بناقة ! » .

« حكم قد مضى » .

ولما انفض الجمع أمر معاوية باحضار العراقي فلما مثل عنده سأله عن ثمن البعير فاخبره به فدفع اليه ضعفه وبرّ به وأحسن اليه ثم قال له :

« أبلغ علياً أني أقابله بمائة الف مافيهم من يفرق بين الناقة والجمل » (١) .

ان خمسين رجلا منهم لايفرقون بين الناقة والجمل ، وليس من شك أن الاكثرية الساحقة منهم لايميزون بين الحق والباطل ولا يتدبرون الفرق بين المحسوسات همج رعاع لاتفكيرلهم ولا تدبر ، وأدل دليل على غفلتهم قصة الصحابي العظيم عمار بن ياسر حينما نال الشهادة فوقع الاختلاف فيما بينهم لقول النبي (ص) « ان ابن سمية تقتله الفئة الباغية » ولما رأى ابن العاص الخلاف قد دب فيهم قال لهم إن الذي قتله من أخرجه فصدقوا قوله ورجعوا إلى طاعة معاوية ومن الطبيعي ان الدولة إذا ظفرت بمثل هذا الجند المطيع الغافل توصلت الى غاياتها وتحقيق أهدافها .

وأبقى معاوية أهل الشام على غفلتهم يتخبطون في دياجير الجهالة ويسرحون في ميادين الشقاء رازحين تحت نير الاستعباد الاموي قد وضع بينهم وبين الناس حجابا حديدياً فلم يسمح للغير أن يتصل بهم ولم يسمح لهم بالاتصال بالغير لئلا تتبلور أفكارهم ويقفون على الحقيقة فيتبين لهم باطل معاوية وابتزازه للخلافة من أهلها .

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٣٣٢ .

ج – اتفاق الكلمة :

ذكرنا في بحوثنا السابقه مامنى به العراق من الإختلاف والتفكك بسبب الأحزاب التي كانت تعمل على زعزة كيان الدولة الهاشمية وتحطيم عروشها وعلى العكس من ذلك كانت الشام فانهـــا بجميع طبقاتها لم تبتل بتلك الأحزاب ولم تصب بالافكار المعادية للحكم القائم فقد كان السلام والوئام والهدوء مخيما على دمشق وجميع ملحقاتها ولم يكن في الجيش ولا في المملكة وكر للخوارج ولا دعاة لهم ولا لغيرهم ممن يعملون على قلب الحكم ، وهذا الاتفاق الداخلي هو السبب في قوة معاوية واتساع نطاقه ونفوذه .

د – ضخامة القوى العسكرية :

وانفق معاوية جميع جهوده المعنوية والمادية في إصلاح جيشه وتقويته فانه لما منيت الشام بخطر الروم بادر فعقد هدنة مؤقتة مع ملكها ودفع إليه أموالاً خطيرة ولم يفتتح معه باب الحرب لئـــلا تضعف أعصاب جيشه ومضافاً إلى ذلك فانه لم يستعمله في الفتوح والحروب ، فلم يكن قد ولج به حربا غير صفين فكان محتفظاً بنشاطه وقوته .

وبالإضافة لجيشه الذي كان مقيما معه في دمشق فانه لما عزم على حرب الإمام الحسن كتب إلى عماله وولاته في جميع الأقطار يطلب منهم النجدة والإستعداد الكامل لحرب ريحـــانة رسول الله (ص) ، وفي فترات قصيرة التحقت به قوى هائلة ضخمة فضمها إلى جيوش أهل الشام ، وزحف إلى العراق بجيش جرار كامل العدد حسن الهيئة موفور القوة ، مطيع لأمره فرأى الإمام الحسن (ع) أنه لايتمكن على مقابلته ولا يستطيع أن يحاربه بجيشه المتخاذل الذي تسوده الخيانة والغدر .

هـ ـ حاشيته :

ومضافا إلى ماكان يتمتع به معاوية من القوى العسكرية فقد ظفر بقوة أخرى لهـا أثرها الفعال في تقوية جبهته وتوجيهه وتدبير شؤنه وهي انظمام المحنكين والسياسيين اليه طمعا بماله ودنياه ، وهم كالمغيرة بن شعبة الذي قيل في حيلته ودهائه « لو كان المغيرة في مدينة لهـا ثمانية أبواب لايخرج منها إلا بالمكر والخداع لخرج المغيرة من أبوابها كلها . » وقيل في عظيم مكره « كان المغيرة لايقع في أمر إلا وجد له مخرجاً ، ولا يلتبس عليه أمران إلا أظهر الرأي في أحدهما » ومن حاشيته عمرو بن العاص الذي كان قلعة من المكر والباطل ، وقد قيل في وصفه « ما رأيت أغلب للرجال ولا أبذلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص » وهو في طليعة من رفع علم الثورة على عثمان لأنه عزله عن منصبه ، وكان يثير عليه حفائظ النفوس ويحفز القريب والبعيد لمناجزته وقال في ذلك : « والله لألقى الراعي فاحرضه على عثمان فضلاً عن الرؤساء والوجوه » ولما بلغه مقتله قال : « أنا أبو عبد الله ماتكأت قرحة إلا أدميتهـا » وهو الذي خدع الجيش العراقي برفع المصاحف ، فتركه ممزق الأوصال ، مختلف الأهواء .

لقد جذب معاوية هؤلاء الدهاة الماكرين الذين يخلطون السم بالعسل ، ويلبسون الباطل لباس الحق ، ولم يتحرجوا من الاثم والمنكر في سبيل نزعاتهم الشريرة ، ولم يكن لهم هدف إلا القضاء على ذرية النبي (ص) ومن يمت اليهم من صلحاء المسلمين ليتسنى لهم القضاء على الإسلام حتى يمعنوا في التحلل حيثما شاؤا ، وقد وقف الإمام الحسن (ع) معهم في صلحه أحزم موقف يتخذه المفكرون فقد حفظ ذرية رسول الله (ص) وحقن دماء المؤمنين من شيعته لأن التضحية في ذلك الوقت لايمكن بأي حال من الأحوال

أن تعود بالصالح العام للمسلمين لأنهم يضفون عليهـا أصباغاً من التمويه والتظليل مافقد به معنويتها وأصالتها .

و ــ ضخامة الأموال :

ويسر لمعاوية من الثراء العريض الذي مهدته له بلاد الشام طيلة ملكه لها فانه لم ينفقها فى صالح المسلمين وانما شرى بها الضمائر والاديان ، ليمهد بذلك الطريق الموصل لفوزه بالإمرة والسلطان والتحكم في رقاب المسلمين.

لقد وجه معاوية الجباة السود إلى أخذ الضرائب من الشعوب الإسلامية التي احتلها ، وقد عمدوا إلى أخذ أموال المسلمين بغير حق ، حتى بالغوا في إرهاقهم وإرغامهم على أدائها ، كما فرض عليهم من الضرائب مالا يقره الإسلام كهدايا النيروز وغيرها ، وقد امتلأت خزائنه بهـا فأنفقها بسخاء على حرب ريحانة رسول الله (ص) والتغلب عليه ، وقد رأى السبط بعد هذه القوى التي ظفر بها ابن هند أنه لايمكن مناجزته ، ولا الإنتصار عليه ، وان الموقف يقضي بالصلح والمسالمة لابالحرب والمناجزة فانهـا تجر للأمة من المضاعفات السيئة مالا يعلم خطورتها إلا الله .

٣ ــ اغتيال أمير المؤمنين :

ومن العوامل التي دعت الإمام الى الصلح ما روع به من اغتيـال أبيه ، فقد ترك ذلك حزناً مقيماً وأسىً شديداً في نفسه لأنه قد قتل على غير مال احتجبه ولا سنة في الإسلام غيرها ، ولا حق اختص به دونهم ، وكان يحي بينهم حياة الفقراء والضعفاء ، ويتطلب لهم حيـاة حافلة بالنعم والخيرات ، ويسعى جاداً فى اقامة العدل ، واماتة الجور ، ونصرة المظلومين واعالة الضعفاء والمحرومين ، فعمدوا على اغتياله وتركوه صريعاً في محرابه

لم يحفظوا حرمته ، ولا حرمة رسول الله (ص) فيه وقد رأى الإمام الحسن (ع) بعد ارتكابهم لهذه الجريمة النكراء أنه لا يمكن إصلاحهم ، وإرجاعهم الى طريق الحق والصواب ، فتنكر منهم ، وزهد في ولايتهم ، وقد أدلى (ع) بذلك بقوله :

« وقد زهدني فيكم اغتيالكم أبي » .

حقاً أن يكون اغتيال الامام أمير المؤمنين (ع) رائد العدالة الإجتماعية الكبرى من الأسباب الوثيقة التي زهدت الامام الحسن في ذلك الشعب الجاهل الذي غمرته الفتن والأطماع ، وانحرف عن الطريق القويم .

٤ ـ حقن الدماء :

ومن دواع الصلح رغبة الإمام الملحة في حقن دماء المسلمين ، وعدم اراقتها ، ولو فتح باب الحرب مع معاوية لضحى بشيعته وأهل بيته ، ويجتث بذلك الإسلام من أصله ، وقد صرح (ع) بذلك في جوابه عن دوافع صلحه فقال :

« إني خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض فأردت أن يكون للدين ناعي .. »

وأجاب (ع) بعض الناقمين عليه من شيعته في الصلح فقال : « ما أردت بمصالحتي معاوية إلا أن أدفع عنكم القتل » (١) . وأعرب في خطابه الذي ألقاه في المدائن عن مدى اهتمامه في دماء المسلمين فقد جاء فيه .

« أيها الناس . إن الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إنما هو حق أتركه لإصلاح أمر الأمة ، وحقن دمائها . » (٢)

---

(١) الدينوري ص ٣٠٣ .

(٢) أعيان الشيعة ٤ / ٤٢ .

ومن حيطته ورعايته لذلك أنه أوصى أخاه الحسين حينما وافاه الأجل المحتوم أن لا يهرق في أمره ملء محجمة دماً . »

إن أحب شيء للإمام (ع) الحفاظ على دماء المسلمين ، ونشر الأمن والوئام فيما بينهم ، وقد بذل في سبيل ذلك جميع جهوده ومساعيه .

٥ ـ منة معاوية :

لقد علم الإمام (ع) أنه إن حارب معاوية فان اجلاف العراقيين وأوباشهم سوف يسلمونه أسيراً الى معاوية وأغلب الظن انه لا يقتله بل يخلي عنه ويسجل له بذلك مكرمة وفضيلة ويسدي يداً بيضاء على عموم الهاشميين ويغسل عنه العار الذي لحقه من أنه طليق وابن طليق ، وقد صرح الحسن (ع) بهذه الخاطرة قائلا :

« والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني اليه سلماً ، والله لئن أسالمه وأنا عزيز ، أحب إليّ من أن يقتلني وأنا أسير أو يمن عليّ فتكون سبة على بني هاشم الى آخر الدهر ولمعاوية لا يزال يمن بها هو وعقبه على الحي منّا والميت . »

وهذا السبب له مكانته من التقدير فان الإمام أراد أن لا يسجل لخصمه أي فضيلة ومكرمة .

٦ ـ حوادث المدائن :

ومن جملة الأسباب التي دعت الامام الى الصلح هي الحوادث القاسية التي لاقاها في المدائن ، وقد ذكرناها مشفوعة بالتفصيل وخلاصتها .

أ ـ خيانة الزعماء والوجوه واتصالهم بمعاوية .

ب – الحكم عليه بالتكفير من قبل الخوارج .
ج – اغتياله .
د – نهب أمتعته .

هذه بعض العوامل التي أدت الامام الى السلم ، وفيما نعلم انها تلزم بالصلح وعدم فتح أبواب الحرب .

٧ – الحديث النبوي :

نظر النبي (ص) الى الحوادث الآتية من بعده فرآها بعينها وحقيقتها لا بصورها وأشكالها ، رأى أمّته ستخيم عليها الكوارث ، وتنصب عليها الفتن والخطوب ، حتّى تشرف على الهلاك والدمار ، وإن إنقاذها مما هي فيه من الواقع المرير سيكون على يد سبطه الأكبر ، وريحانته من الدنيا الامام الحسن (ع) فأرسل كلمته الخالدة قائلاً :

« إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين » (١) .

وانطبع هذا الحديث في أعماق الامام الحسن وفي دخائل ذاته منذ نعومة أظفاره ، وتمثل أمامه في ذلك الموقف الرهيب ، « وإنه ليطمئن الى قول جده كما يطمئن الى محكم التنزيل وها هو ذا جده العظيم يقول له : وكأن صوته الشريف يرن بعذوبته المحببة في أذنه ، ويقول لأمّه الطاهرة البتول ، ويقول على منبره ، ويقول بين أصحابه ، ويقول ما لا يحصى كثرة : إن إبني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين » .

وزادت هذه الذكرى تفاعلاً شديداً في نفسه فقد رأى ما عناه

---

(١) تقدمت مصادر الحديث في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٨١ .

جده (ص) في (المدائن) رأى طائفتين :

(أحداهما) شيعته وهم من خيــار المسلمين ، وصلحائهم من الذين وقفوا على أهـداف الاسلام ، وعرفوا حقيقته وواقعه :

(الثانية) اتباع معاوية من السذج والبسطاء والمنحرفين عن الاسلام ، وهؤلاء وإن كانوا بغاة قد خرجوا على إمام زمانهم ولكنهم يدعون الاسلام وهاتان الطائفتان إن دارت رحى الحرب فانها ستطحن الكثير منهم وبذلك يتضعضع كيان الاسلام وتنهار قواه ، ومن يصد عن المسلمين العدو الرابض الذي يراقب الأحداث ليثب عليهم ، ومن هو يا ترُى حريص على رعاية الاسلام والحفاظ على المسلمين غير سبط النبي ووارثه ، فآثر الصلح على ما فيــه من قذى في العين ، وشجى في الحلق ، ويذهب شمس الدين الصقلي (المتوفى سنة ٥٦٥ هـ) الى أن الباعث لخلع الحسن نفسه عن الخلافة حديث النبي (ص) في ذلك (١) .

وزعم الرواة ان النبي (ص) كان يحدث أصحابه عن عمر الخــلافة الاسلامية فقال لهم : « إن الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكاً . » ولاحظوا أن في مصالحة الحسن لمعاوية قد كملت الثــلاثون سنة حسب ما يقولون (٢) .

---

(١) أنباء نجباء الأبناء ص ٥٦ .

(٢) البداية والنهاية ٨ / ٤١ ، وعندي أن هذا الحديث من الموضوعات لأن الخلافة قد صارت ملكاً عضوضاً في أيام عثمان فهو الذي حولها عن مفاهيمها الخلاقة وآثر الأمويين في الحكم والأموال وأتاح لهم من القوى ما هيأهم لمنازعة أمير المؤمنين ، وقد تحدث النبي (ص) عما يؤل اليه الأمر من بعده فقال : « إن أول دينكم بدء نبوة ورحمة ، ثم يكون ملكاً وجبرية » رواه السيوطي —

نظر الحسن (ع) الى قول جـده (ص) فعلم أن الأمر لابد أن ينتقل الى معاوية، ومضافاً لذلك فقد أخبره أبوه بذلك كما حدث عنه فقال:

« قال لي أبي ذات يوم: كيف بك يا حسن إذا ولي هـذا الأمر بنو أميّة؟ وأميرها الرحب البلعوم، الواسع الاعفجاج، يأكل ولا يشبع، فيستولي على غربها وشرقها، تدين له العباد، ويطول ملكه، ويسن البدع والضلال، ويميت الحق وسنة رسول الله (ص)، يقسم المـال في أهل ولايته، ويمنعه عمن هو أحق به، ويذل في ملكه المؤمن، ويقوى في سلطانه الفاسق، ويجعل المال بين أنصاره دولا، ويتخذ عباد الله خولا، ويُدرّس في سلطانه الحق، ويظهر البـاطل، ويقتـل من ناوأه على الحق.. »(١)

إن النبي والوصي قد استشفا من حجاب الغيب ما تمنى به الأمّـة الاسلامية من المحن والبلاء بسبب تخاذلها عن مناصرة الحق ومناجزة الباطل وانها من جراء ذلك سيتولى أمرها الأدعياء من الطلقاء وأبنائهم فيسومونها سوء العذاب، ويستأثرون بمال الله، ويتخذون المسلمين عبيداً لهم وخولا.

وكان معاوية يعلم بمصير الأمر اليه في زمان أمير المؤمنين (ع) فقد صنع فذلكة استعلم بها منه عمـا يؤول اليه أمره، فبعث جماعة من أصحابه الى الكوفة ليشيعون أن معاوية قد مات، فبلغ ذلك أمير المؤمنين، وتكرر حديث الناس حول هذه الاشاعة فقال (ع).

« قد أكثرتم من نعي معاوية، والله ما مات، ولا يموتن حتى يملك

— في تأريخ الخلفاء ص ٦، وقـد تحقق قوله (ص) فان الدين أول بدئه كان نبوة ورحمة، ثم تحول في زمان الأمويين الى ملك وطغيان وجبرية.

(١) البحار

ما تحت قدمي . »(١)

ولما بلغه ذلك اعتقد به لعلمه أن الامام هو باب مدينة علم النبي (ص) ومستودع سره ، وان قوله لا يتخلف عن الواقع ولا يخطىء الحق .

ومهما يكن الأمر فان الامام الحسن (ع) بصلحه مع معاوية قد لقبه المسلمون بالمصلح العظيم ، وقد أفاض عليه هذا اللقب جده الرسول من قبل .

٨ ـ العصمة :

وذكرت طائفة من العلماء الأعلام صلح الامام عليه السلام فعللته بالعصمة وان الامام المعصوم لا يرتكب الخطأ ولا يفعل إلا ما فيه الخير والصلاح لجميع الأمة ولعل الوجوه التي ذكرناها قد كشفت عن مناط هذا القول وأوضحت حسنه وذلك للأسباب والعوامل التي أحاطت بالامام حتى دعته الى الصلح ، ونشير الى بعض الذاهبين الى هذا القول وهم :

١ ـ الشريف المرتضى :

قال الشريف المرتضى علم الهدى (١) رحمه الله : « إنه (يعني الحسن)

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٢٩٥ .

(١) الشريف المرتضى : هو علي بن الحسين ينتهي نسبه الوضاح الى امام المسلمين موسى بن جعفر عليه السلام ، كانت له نقابة الطالبيين لقب بالمرتضى وعلم الهدى كانت ولادته في سنة (٣٥٥ هـ) ووفاته في سنة (٤٣٦) ، وكان أكبر من أخيه الشريف الرضي . قال أبو جعفر الطوسي : قد توحد المرتضى في علوم كثيرة وكان مجمعاً على فضله ومقدماً في العلوم كعلم الكلام والفقه وأصول الفقه والأدب وغير ذلك وله ديوان شعر يزيد على عشرة آلاف بيت وله مؤلفات كثيرة في مختلف الفنون جاء ذلك في معجم الأدباء ١٣ / ١٤٦ .

قد ثبت انه المعصوم المؤيد بالحجج الظاهرة ، والأدلة القاهرة ، فلابد من التسليم لجميع أفعاله وإن كان فيها ما لا يعرف وجهــه على التفصيل أو كان له ظاهر نفرت منه النفوس » (١) .

٢ ــ السيد ابن طاووس :

وعلل نابغة الإسلام السيد الجليل ابن طاووس طيب الله مثواه (٢) في وصيته لولده صلح الإمام بالعصمة وببعض الأسباب التي ذكرناها قال رحمه الله يخاطب ولده :

« وليس بغريب من قوم عابوا جدك الحسن على صلح معاوية وهو كان بأمر جده وقد صالح جده الكفار وكان عــذره في ذلك أوضح

---

(١) تنزيه الأنبياء ص ٦٩ .

(٢) السيد ابن طاووس : هو السيد الجليل الكامل العابد المجاهد رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني الحسيني ، لقب بالطاووس من جهة حسن وجهه وخشونة رجليه ، وكان من سكنة الحلة ، وهو من السادة المعظمين ، ومن النقباء وله مؤلفات كثيرة ، وقد ذكر جميع مناقبــه وعلومه الحجة الثبت السيد محمد باقر الخونساري في مؤلفه روضات الجنات ٣/٤٣ ــ ٤٧ وجاء في الكنى والألقاب ١ / ٣٢٨ ان السيد تولى نقابة الطالبين وكان يجلس في قبة خضراء والناس تقصده وقــد لبسوا لباس الخضرة بدل السواد وذلك عقيب وقعة بغداد ، وفي ذلك يقول علي بن حمزة :

فهذا علي نجل موسى بن جعفر	شبيه علي نجل موسى بن جعفر
فذاك بدست للامامة أخضر	وهذا بدست للنقابة أخضر

يشير بذلك الى الامام الرضا (ع) لما ولى العهد فقد لبس لباس الخضرة توفي السيد ابن طاووس يوم الاثنين خامس ذي العقدة سنة (٦٦٤ هـ) .

الأعـذار فلما قام أخوه الحسين بنصرهم وإجابة سؤالهم وترك المصالحة ليزيد المارق كانوا بين قاتل وخاذل حتى ما عرفنـــا أنهم غضبوا في أيام يزيد لذلك القتل الشنيـع ولا خرجوا عليه ولا عزلوه عن ولايته وغضبوا لعبد الله ابن الزبير وساعدوه على ضلالته وافتضحوا بهذه المناقضة الهائلة وظهر سوء اختيارهم النازلة فهل يستبعد من هؤلاء ضلال عن الصراط المستقيم ؟ وقد بلغوا الى هذا 'الحال السقيم العظيم الذميم » (١) .

وعلل السيد رحمه الله صلح الامام (أولا) بالعصمة من الخطأ وقاس صلحه بصلح جده الرسول (ص) مع المشركين في قصـة الحديبية فـكما ان صلح الرسول لا يتطرقه الشك ولا يأتيه النقد نظراً لوجود المصلحة فيه فكذلك صلح الإمام مع خصمه فانه محفوف بالمصلحة العامة لعموم المسلمين و (ثانياً) ببلاء الإمام ومحنته بذلك المجتمع الضال الذي لم يقم وزناً للفضيلة ولم يفقـه من القيم الروحيـــة شيئاً فانه هو الذي اضطر الإمام الى الصلح والمسالمة . وأقام السيد الدليل على تفسخ أخلاق ذلك المجتمع وتماديه في الشر وذلك بمتابعته ليزيد شارب الخمور ، ومعلن الفسق والفجور ، ومنـاصرته والاشتراك معه في أفظع جريمة سجلها التأريخ وهي قتل سيد شباب أهل الجنة الحسين عليه السلام ولم يظهر أحد منهم الأسف والحزن على هـــذه الجريمة ، وما ثاروا عليه ، ولا عزلوه عن منصبه . وقد ذكرنا في الابحاث السالفة الأسباب التي أوجبت هذا الانحطاط الهائل في جموع أهل العراق .

٩ ــ ابراز الواقع الاموي :

كان معـاوية قبل أن يستولي على زمام الحـكم ملتزماً بتعاليم الإسلام

---

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة يحتوي على وصايا رفيعة لولده ص ٤٦ .

ظاهراً ، ويظهر الإهتمام بشؤون المسلمين ، ولكن كان ذلك ــ من دون شك ــ رياءً منه ومكيدة من باب المشي رويداً لأخذ الصيد ، كان يبطن الكفر والنفاق ويضمر السوء والعداء للمسلمين فأراد الإمام الحسن (ع) بصلحه أن يبرز حقيقته ، ويظهر للناس عاره وعياره ، ويعرفه للذين خدعهم بمظاهره من أنه أعدى عدو للإسلام ، فأخلى له الميدان ، وسلم له الأمر ، فاذا بكسرى العرب ــ كما يقولون ــ تتفجر سياسته الجهنمية بكل ما خالف كتاب الله ، وسنة رسول الله (ص) ، وإذا به يعمد الى فصم عرى الإسلام والى نسف طاقاته ، والى الإجهاز على القوى الواعية فيه ، فيصب عليها وابلاً من العذاب الأليم ، فيُعدم وينكّل بمن شاء منها ، ويرغم المسلمين على البراءة من عترة نبيهم ، واعلان سبهم وانتقاصهم على الأعواد والمنابر وبذلك ظهرت خفايا نفسه ، وفهم المسلمون جميعاً حقيقة هذا الطاغية وما يبغيه من الغوائل لهم ، ولو لم تكن للصلح من فائدة إلا إظهار ذلك لكفى بها كما نصّ على ذلك الامام كاشف الغطاء رحمه الله في مقدمته لهذا الكتاب (١) .

إذ معاوية بعد أن آل اليه الأمر حمل معول الهدم على جميع الأسس الاسلامية محاولاً بذلك اطفاء نور الاسلام ، ولف لوائه ، ومحو أثره ، وقلع جذوره ، واعادة الحياة الجاهلية الأولى ، وقبل أن نعرض بعض موبقاته ومردياته التي سود بها وجه التأريخ نذكر ما أثر عن أبويه من الحقد والعداء للإسلام . وما ورد من النبي (ص) من الأخبار في انتقاصه وذمه لنرى هل كان خليقاً بأن تسند اليه الامارة ويفرض حاكماً على المسلمين ويخلى بينه وبين الحكم يتصرف فيه كيفما يشاء من دون أن يحاسب أو يراقب والى القراء ذلك .

---

(١) ص ١٨ ــ ١٩ .

أبو سفيان وهند :

وأبو سفيان من ألدّ أعداء النبي (ص) فهو الذي قاد الأحزاب ، وظاهر اليهود ، وناصر جميع القوى المعادية للإسلام ، وتضاعف حقده على النبي (ص) حينما وتره بأسرته وبسبعين رجلاً من صناديد قريش ممن كانوا تحت لواء الشرك في غزوة بدر الكبرى ، فأترعت نفسه الأثيمة بالحزن عليهم ، وظل يناجز الرسول (ص) ويؤلب عليه الأحقاد ، ولكن الله رد كيده ، فنصر رسوله ، وأعز دينه ، وأذل أبا سفيان وحزبه ، فقد فتح النبي (ص) مكة ودخل ظافراً منتصراً فحطم الأصنام ، وكسر الأوثان ودخل أبو سفيان — على كُره منه — في الاسلام ذليلاً مقهوراً يلاحقه العار والخزي ، وظل بعد إسلامه محتفضاً بجاهليته لم يغير الاسلام شيئاً من طباعه وأخلاقه ، وكان بيته وكراً للخيانة وكان هو كهفاً للمنافقين (١) .

ولما فجع المسلمون بالنبي (ص) وتقمص أبو بكر الخلافة أقبل أبو سفيان يشتد إلى أمير المؤمنين (ع) يطلب منه الثورة ومناجزة أبي بكر لارجاع الخلافة اليه ، ولم يكن ذلك منه إيماناً بحق أمير المؤمنين ، ولكن ليجد بذلك منفذاً يسلك فيه للتخريب والهدم ، ولم يخف على الامام نواياه الشريرة فأعرض عنه وزجره ، وظل أبو سفيان بعد ذلك قابعاً في زوايا الخمول ينظر اليه المسلمون نظرة ريبة وشك في اسلامه ، ولما آل الأمر الى عثمان وقرّب بني أمية ، وفوض اليهم أمور المسلمين ، ظهر أبو سفيان وعلا نجمه ، وراح يظهر الأحقاد ، والعداء الى النبي ، فوقف يوماً قبال مرقد سيد الشهداء حمزة (ع) فألقى ببصره المتغور على القبر ثم حرّك شفتيه قائلاً :

---

(١) الاستيعاب

« يا أبا عمارة ! . . إن الأمر الذي أجتلدنا عليه بالسيف أمس في يد غلماننا يلعبون به . »

ثم ركل القبر الشريف برجله ، ومضى مثلوج الصدر ، ناعم البال ، قرير العين ، كل ذلك بمرأى ومسمع من عثمان فلم يوجّه له عتـاباً ولم ينزل به عقاباً (فإنا لله وإنا اليه راجعون) .

هذا واقع أبي سفيان في كفره وحقده على الأسلام ، وأما زوجتـه هند فانها لا تقل ضراوة عن زوجها وكانت أحقد منه على رسول الله (ص) فكانت تحرض المشركين على قتاله ومناجزته ، ولما انتهت واقعة بدر بقتل أهلها ومن يمت اليها من المشركين ، لم تظهر الحداد والحزن (١) عليهم ، تحرض بذلك قريشاً على الطلب بثارهم وجاءتها نسوة قريش قائلات لها :

« ألا تبكين على أبيك ، وأخيك ، وعمك ، وأهل بيتك » ؟

فانبرت اليهن قائلة بحرارة :

« حلاّني أن أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا ونساء بني الخزرج لا والله حتى أثأر محمداً وأصحابه ، والدهن عليّ حرام إن دخل رأسي حتى نغزوا محمداً ، والله لو أعلم أن الحزن يذهب عن قلبي لبكيت ، ولكن لا يذهبه إلا أن أرى ثأري بعيني من قتلة الأحبة . »

ومكثت على حالها لم تظهر الأسى ، ولم تقرب من فراش أبي سفيان

---

(١) كانت العادة في الجاهلية تأخير البكاء على القتيل منهم حتى يؤخذ بثأره فاذا أخذ بكت عليه نسوتهم وفي ذلك يقول شاعرهم :

من كان مسروراً بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهـار

يجد النساء حواسراً يندبنـه ... يلطمن حر الوجه بالاسحار

صبح الأعشى ١ / ٤٠٥ .

ولم تدهن حتى صارت واقعة أحد (١) فأخذت ثارهـا من سيد الشهداء حمزة فمثلت به ، وفعلت معه ذلك الفعل الشنيع ، فعند ذلك أظهرت السرور والفرح وأخذت ترتجز قائلة :

شفيت نفسي بأحُد	حين بقرت بطنه عن الكبد
أذهب عني ذاك ما كنت أجد	من لوعة الحزن الشديد المعتمد
والحرب تعلوكم بشؤبوب برد	نقدم إقداماً عليكم كالأسد

ولما رأى رسول الله (ص) ما فعلته هند بعمه من التنكيل غاظه ذلك والتاع أشد اللوعة ، وقال :

« ما وقفت موقفاً أغيظ إلي من هذا الموقف » .

وقال (ص) ثانياً :

« لن أصاب بمثل حمزة أبداً .. » (٢)

ولما كان يوم الفتح ودخل المسلمون مكة قام أبو سفيان في أزقة مكة وشوارعها منادياً على كره منه من ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فلما سمعت هند منه ذلك لطمته على وجهه وجعلت تصيح بلا اختيار :

« اقتلوا الخبيث الدنس ، قبّح من طليعة قوم .. »

ثم التفت الى جماهير قريش محرضة لهم على الحرب قائلة بنبرات تقطر حماساً : « هلاّ قاتلتم عن بلادكم ، ودفعتم عن أنفسكم .. »

تثير بذلك حفاظ النفوس ، وتلهب نار الثورة في قومها ، ولكن الله ردّ كيدها ، وخيّب سعيها ، فنصر الاسلام وأهله . هذان أبوا معاوية

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٣ / ٣٤٢ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٣ / ٣٨٧ .

وبقاعدة الوراثة نجزم بأن ما استقر في نفسها من الغل والحقد والبغض والعداء للإسلام ولرسول الله (ص) قد انتقل إلى معاوية ، ومضافاً إلى ذلك فان رسول الله قد لاقى الأمويين عموماً بالاستهانة والتحقير وذلك لما لاقى منهم من العناء والآلام ، فأمر بابعادهم عن يثرب كالحكم وابنه مروان وسعيد بن العاص والوليد ، وأمر المسلمين بالتجنب عنهم وسماهم بالشجرة الملعونة ، وهذه الامور التي شاهدها معاوية قد أولدت في نفسه حقداً على النبي (ص) وعلى أهل بيته .

ما أثر عن النبي في معاوية :

وتضافرت الأخبار الواردة عن النبي (ص) في ذم معاوية وفي الاستهانة به وهي :

١ — قال (ص) يطلع من هذا الفج رجل يحشر على غير ملتي . فطلع معاوية (١) .

٢ — ورأى رسول الله (ص) أبا سفيان مقبلاً على حمار ، ومعاوية يقود به ، ويزيد ابنه يسوق به ، قال : لعن الله القائد والراكب والسائق (٢) .

٣ — وروى البراء بن عازب قال : أقبل أبوسفيان ومعه معاوية فقال

---

(١) تاريخ الطبري ١١ / ٣٥٧ ، وروى نصر بن مزاحم في كتاب صفين ص ٢٤٧ ان النبي (ص) قال : يطلع عليكم من هذا الفج رجل يموت حين يموت على غير سنتي .

(٢) تاريخ الطبري ١١ / ٣٥٧ ، ورواه الإمام السبط الحسن (ع) عن جده ذكره نصر بن مزاحم في كتاب صفين ٢٤٧ .

رسول الله (ص) : اللهم عليك بالأقيعس ، وسأل ابن البراء أباه عن الأقيعس ، فقال له : إنه معاوية (١) .

٤ ـ وجاءت الى النبي (ص) امرأة تستشيره في الزواج من معاوية فنهاها ، وقال لها : إنه صعلوك .

٥ ـ وروى أبو برزة الأسلمي (٢) قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمعنا غناءاً فتشرفنا له ، فقام رجل فاستمع له وذاك قبل أن تحرم الخمر فأتانا وأخبرنا أنه معاوية وابن العاص يجيب أحدهما الآخر بهذا البيت :

يزال حواري تلوح عظامه ... زوى الحرب عنه أن يحس فيقبرا (٣)

فلما سمع بذلك رسول الله رفع يديه بالدعاء وهو يقول :

« اللهم اركسهم في الفتنة ركسا ، اللهم دعهم إلى النار دعا (٤) » (٥)

---

(١) كتاب صفين ص ٢٤٤ ورواه الإمام الحسن أيضاً .

(٢) أبو برزة : هو نضلة بن عبيد كان صاحباً لرسول الله ، وروى عنه وعن أبي بكر وروى عنه جماعة آخرون قال ابن سعد : كان من ساكني المدينة ثم البصرة ، وغزا خراسان ، وقال الخطيب شهد مع علي (ع) فقاتل الخوارج بالنهروان ، وغزا بعد ذلك خراسان ، فمات بها ، وقيل إنه مات بنيسابور ، وقيل بالبصرة وقيل غير ذلك . تهذيب التهذيب ١٠/٤٤٦ .

(٣) الحس القتل الشديد وفي الكتاب (إذ تحسونهم بأذنه) .

(٤) الأركاس والركس : الرد والإرجاع . وفي التنزيل (والله أركسهم بما كسبوا) والدع : الدفع الشديد . وفي الكتاب (يوم يدعون إلى نارجهنم دعا) وقد ورد الحديث في اللسان ركس . بلفظ (اللهم اركسها في الفتنة ركسا) .

(٥) وقعة صفين ص ٢٤٦ مسند أحمد ٤/٤٢١ .

واستشف رسول الله (ص) من وراء الغيب ان معـاوية سوف يتولى شؤون الحكم فحذر المسلمين منه وأمرهم بقتله فقال (ص) :

إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاضربوا عنقه (١) .

وكان الحسن (ع) إذا حدث بهذا الحديث يقول والتأثر ظاهر عليه .

« فما فعلوا ولا أفلحوا . . . » (٢) .

وهكذا كان معاوية في زمان النبي (ص) مهان الجانب ، محطم الكيان ، صعلوكا ذليلاً ، يلاحقه العار ، ويتابعه الخزي ، يتلقى من النبي صلى الله عليه وآله اللعن ، ومن المسلمين الاستهانة والتحقير ، ولما آل الأمر الى عمر جافى ما أثر عن النبي (ص) فيـه فقربه وأدناه ، ورفعه بعد الضعة والهوان ، فجعله والياً على الشام ، ومنحه الصلاحيات الواسعة ، وفوض اليه أمر القضاء والصلاة ، وجباية الأموال ، وغير ذلك من الشؤون العامة التي تتوقف على الوثاقة والعدالة ، وبلغ من عظيم حبه وتسديده له أنه كان في كل سنة يحاسب عماله ، وينظر في أعمالهم إلا معاوية فانه لم يحاسبه ، ولم يراقبه ، وقد قيل له إنه قد انحرف عن الطريق القويم فبدد في الثروات

---

(١) تناول المحرفون هـذا الحديث الشريف فرووه بصورة أخرى رواه الخطيب في تاريخه عن جابر مرفوعا قال رسول الله (إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاقبلوه فانه أمين) وروى الحاكم في تاريخه عن ابن مسعود قال رسول الله : (إذا رأيتم معاوية على منبري فاقبلوه فانه أمين مأمون) ومتى كان ابن هند أميناً ومأموناً أبمحاربته لوصي رسول الله ، أو لولوغه في دماء المسلمين ، وقتله الأخيار والصلحاء ، وغير ذلك من الأحداث الجسام التي تكشف عن جاهليته وعدم تحرجه في الدين .

(٢) وقعة صفين .

ولبس الحرير والديباج ، فلم يلتفت لذلك ، وأضفى عليه ثوب الأبهة والمجد ، فقال : « ذاك كسرى العرب » ولما فتل حبل الشورى لأجل إقصاء عترة النبي (ص) عن الحكم ، وجعله في بني أمية ، أشاد بمعاوية وهو في أواخر حياته ، ونفخ فيه روح الطموح ، فقال لإعضاء الشورى : « إن تحاسدتم وتقاعدتم ، وتدابرتم ، وتباغضتم غلبكم على هذا معاوية بن أبي سفيان ، وكان إذ ذاك أميراً على الشام » (١) .

وما أكثر عماله وولاته فلماذا أشاد به دونهم ؟ ! وكيف ساغ له أن يهدد أعضاء الشورى بسطوته وهم ذوو المكانة العليا وقد مات رسول الله (ص) وهو عنهم راض — كما يقول — وإذا كان يخاف عليهم منه فكيف أبقاه في جهاز الحكم إن هذه الأمور تدعو إلى التساؤل والإستغراب .

وعلى أي حال فان معاوية كان أثيراً عند عمر وعزيزاً عليه ، ولما آل الأمر إلى عثمان زاد في رقعة سلطانه وفي تقوية نفوذه كما أوضحنا ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب (٢) فصار يعمل في الشام عمل من يريد الملك والسلطان ، ولما قتل المسلمون عثمان نظراً للأحداث الجسام التي ارتكبها ، اتخذ معاوية قتله وسيلة لتحقيق مآربه وأهدافه ، فبغى على أمير المؤمنين بدعوة أنه رضي بقتله وآوى قتلته ، وأعقبت ذلك من الخطوب والمحن مابلي بها الإسلام ، وتصدع بها شمل المسلمين فأدت الأحداث المؤسفة إلى انتصاره ، وخذلان الإمام أمير المؤمنين ، وولده الإمام الحسن ، ولما صار الأمر اليه بعد الصلح أخذ يعمل مجداً في إحياء جاهليته الأولى والقضاء على كلمة الإسلام وتحطيم أسسه ، وإلغاء نصوصه ، وقد ظهرت منه تلك الأعمال

(١) نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ١٨٧ .

(٢) ص ٢٤٧ .

بوضوح لما خـــلا له الجو وصفا له الملك ، فلم يخش أو يراقب أحداً في اظهار نواياه ، وفي ابراز إتجاهه وعداته للإسلام وللمسلمين ، وقد أوضح الإمام الحسن في صلحه حقيقته وبين واقعه وسلبه ذلك الغشاء الرقيق الذي تستر به باسم الدين ودونك أيها القارىء الكريم النزر اليسير من نواياه وأعماله :

١ ــ عداؤه للنبي :

كان معاوية يكن في نفسه بغضا عارما للنبي ولذريته ويحاول بكل جهوده القضاء على كلمة الإسلام ومحو أثره وقد أدلى بذلك في حديثه مع المغيرة بن شعبة فقد حدث عنه ولده مطرف قال وفدت مع أبي المغيرة على معاوية فكان أبي يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله ويعجب بما يرى منه ، وأقبل ذات ليلة فأمسك عن العشاء وهو مغتم أشد الغم ، فانتظرته ساعة وظننت أنه لشيء حدث فينا أو في عملنا فقلت له :

ــ مالي أراك مغتما منذ الليلة ؟ .

ــ يابني إني جئت من أخبث الناس ! ! .

ــ وما ذاك ؟ .

ــ خلوت بمعاوية فقلت له : إنك قد بلغت مُناك يأمير المؤمنين ، فلو أظهرت عدلا وبسطت خيراً فانك قد كبرت ، ولو نظرت إلى اخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم ، فوالله ماعندهم اليوم شيء تخافه .

فقال لي :

« هيهات هيهات ! ! ملك أخوتيم فعدل وفعل مافعل ، فوالله ماعدا أن هلك ، فهلك ذكره ، إلا أن يقول قائل أبو بكر . ثم ملك أخو عدى فاجتهد ، وشمر عشر سنين ، فوالله ماعدا أن هلك فهلك ذكره إلا أن يقول قائل عمر ، ثم ملك أخونا عثمان فملك ، رجل لم يكن أحد في مثل نسبه ،

فعمل ماعمل وعُمل به ، فوالله ماعدا أن هلك فهلك ذكره وذكر مافُعل به ، وإن أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات « أشهد أن محمداً رسول الله » فأي عمل يبقى بعد هذا لاأم لك ، إلا دفنا دفنا » (١) .

وهذه البادرة تدل بوضوح على كفره والحاده ، وعلى حقده البالغ على النبي فقد أزعجه وساءه أن يذكر اسمه كل يوم خمس مرات في الأذان ولو وجد سبيـــلا لمحا ذلك ولشدة بغضه وعدائه لذريته أنه مكث في أيام خلافته أربعين جمعة لايصلي فيها على النبي (ص) وقد سئل عن ذلك فقال :

« لايمنعني من ذكره إلا أن تشمخ رجال بانآفها » (٢) .

٢ ـ تعطيله الحدود :

ولم يعتن معاوية بالحدود الإسلامية ولم يهتم باقامتها فقد عفا عمن ثبت عليه الحد ، فقد جيئ اليه بجماعة سارقين فقطـع أيديهم ، وبقي واحد منهم فقال السارق :

يميني أمير المؤمنين أعيذهـــا ... بعفوك أن تلقى مكاناً يشينها
يدي كانت الحسناء لوتم سترها ... ولا تعدم الحسناء عيبا يشينها
فلا خير في الدنيا وكانت حبيبة ... إذا ماشمالي فارقتها يمينهـــا

وغزت هذه الأبيات قلب معاوية فقال له :

« كيف أصنع بك ؟ قد قطعنا أصحابك » .

فاجابته أم السارق :

« ياأمير المؤمنين اجعلها في ذنوبك التي تتوب منها » .

---

(١) ابن أبي الحديد (ج ٢ ص ٣٥٧) .

(٢) النصائح الكافية ص ٩٧ .

فخلى سبيله وأطلق سراحه ، فكان أول حد ترك في الإسلام (١) .

٣ — اباحته الربا :

ومنع الإسلام من الربا أشد المنع وجعله من الموبقات والكبائر ، فلعن المعطي والآخذ والوسيط والشاهد ، ولم يعتن معاوية بتحريم الإسلام له فعن عطاء بن يسار أن معاوية باع سقاية من ذهب ، أو ورق بأكثر من وزنها فقال له أبو الدرداء (٢) : « سمعت رسول الله (ص) ينهى عن مثل هذا إلا مثلا بمثل » .

فانبرى معاوية مظهراً له عدم اعتنائه بنهي رسول الله ، وتحريمه له قائلاً :

« ماأرى بمثل هذا بأساً » .

فاستاء أبو الدرداء من هذه الجرأة واندفع وهو غضبان متألم قائلاً :

« من يعذرني من معاوية أنا أخبره عن رسول الله (ص) ويخبرني عن رأيه ، لاأساكنك بأرض أنت بها » .

---

(١) البداية والنهاية ٨/١٣٦ .

(٢) أبوالدرداء : اختلف في اسمه فقيل عامر وعويمر ، واختلف في اسم أبيه فقيل عامر ومالك وعبد الله ، ينتهي نسبه إلى كعب بن الخزرج الأنصاري ، أسلم أبو الدرداء يوم بدر وشهد أحداً قال (ص) في حقه :

(أبو الدرداء حكيم أمتي) كان تاجراً قبل الإسلام فلما أسلم ترك التجارة ، ولاه معاوية قضاء دمشق في خلافة عمر توفي لسنتين بقيتا من خلافة عثمان ، وقيل مات سنة ٣٢ ، وقيل مات بعد صفين ، جاء ذلك في الإصابة ٤/٤٦ وجاء في الكنى والأسماء ص ٧٢ أن أبا الدرداء روى عن رسول الله أنه قال : (إن أثقل شيء في ميزان المؤمن خلق حسن وإن الله يبغض الفاحش البذي) .

ثم ترك الشام وانصرف إلى عاصمة الرسول وهو ثائر غضبان واستقال من وظيفته (١) .

٤ ـ الأذان في صلاة العيد :

وقضى الشرع الإسلامي باتيان الأذان والإقامة في خصوص الصلاة اليومية الواجبة ، وأما ماعداها من الصلاة المندوبة كصلاة النوافل أو الواجبة كصلاة العيدين والآيات فان الشرع قد حكم بتركها ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

« ليس في العيدين أذان ، ولا إقامة » (٢) وسار على هذه السنة الخلفاء من بعد رسول الله (ص) (٣) ولكن معاوية لم يبال بذلك فقد أحدث الأذان والإقامة في صلاة العيد (٤) وبذلك خالف رسول الله وجافى ماأثر عنه وكان مبدعا في تشريعه .

٥ ـ الخطبة قبل صلاة العيد :

والزمت السنة الإسلامية فى صلاة العيد بالخطبة بعد فراغ الإمام من الصلاة فقد صلى النبي (ص) صلاة عيد الفطر وبعد الفراغ منها قام خطيباً بين أصحابه وفعلُ النبي كقوله سنة يجب اتباعه ، وصلى من بعده الخلفاء على وفق صلاته (٥) ولكن معاوية لم يعتن بذلك فقد قدّم الخطبة على الصلاة ،

---

(١) النصائح ص ٩٤ .

(٢) كشف الغمة للشعراني ١/١٢٣ .

(٣) سنن أبي داود ١/٧٩ .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١/٤٧٠ .

(٥) سنن أبي داود ١/١٧٨ .

واقتفى بفعله الأمويون (١) وبذلك فقد هجر سنة النبي .

٦ ـ أخذه الزكاة من الأعطية :

وفرض الإسلام الزكاة في موارد مخصوصة ذكرها الفقهاء وما عداها فلا تجب فيه الزكاة ، ولكن معاوية قد أعرض عن ذلك فأخذ الزكاة من الأعطية ولم تشرع فيها الزكاة باجماع المسلمين وقد ارتكب معاوية ذلك (٢) .

أما جهلاً منه بالحكم الشرعي أو تعمداً منه على مخالفة السنة والثاني أولى بسيرته .

٧ ـ تطيبه في الإحرام :

ويجب على المحرم في الحج أن يترك الطيب مادام محرما ، فاذا حلّ من إحرامه جاز له استعماله ، ولكن معاوية خالف ذلك فتطيب في حال إحرامه (٣) عناداً منه للإسلام أو لجهله بتعاليمه وفروضه .

٨ ـ استعماله أواني الذهب والفضة :

ويحرم استعمال أواني الذهب والفضة إلا أن معاوية قد عمد إلى مخالفة ذلك وأخذ يستعملها في مأكله ومشربه ، ولما تلي عليه قول رسول الله (ص) في التحريم قال :

« لاأرى بأساً في ذلك » (٤) .

٩ ـ لبسه الحرير :

وحرم الإسلام لبس الحرير على الرجال إلا في حال الحرب ولكن

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٣/٤٧٠ .

(٢) تأريخ اليعقوبي ٢/٢٠٧ .

(٣) النصائح ص ١٠٠ وغيره .

(٤) النصائح ص ١٠١ .

معاوية قد جافى ذلك فقد عمد إلى لبسه (١) غير معتن بتحريم الإسلام ونهيه عنه .

١٠ ــ استحلاله أموال الناس :

وحرم الإسلام أموال الناس وأخذها بالباطل ، ولكن معاوية لم يلتزم بذلك فقد استصفى أموال الناس من دون عوض (٢) .

١١ ــ شراؤه الأديان :

وليس في سوق التجارة رذيلة أسوء من شراء ضمائر الناس وأديانهم فانه ينم عن سوء سريرة البائع والمشتري ، وقد مهر معاوية في هذه الصنعة وكان يتجاهر بهـا من دون خيفة وحذر فقد ذكر الرواة أنه وفد عليه الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة والجون بن قتـادة والحتات بن يزيد فأعطى معاوية كل واحد منهم مائة الف ، وأعطى الحتـات سبعين الفا ، فلما كانوا فى الطريق ذكر كل منهم جائزته فرجع الحتات مغضبا فالتفت اليه معاوية قائلاً له :

« ماردك ؟ » .

ــ فضحتني في بني تميم أما حسبي فصحيح ، أو لست ذا سن ؟ ألست مطاعا في عشيرتي ؟ » .

فأجابه معاوية :

« بلى » .

واندفع الحتات قائلاً :

« فما بالك خست بي دون القوم وأعطيت من كان عليك أكثر ممن

---

(١) النصائح ص ١٠١ .

(٢) تأريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠٧ .

كان لك – يريد الأحنف وجارية فهما كانا مع علي في حرب الجمل – وهو قد اعتزل القتال » .

فقال له معاوية بلا حياء ولا خجل .

– إني اشتريت من القوم دينهم ووكلتك إلى دينك .

– وأنا اشتري مني ديني .

فأمر له باتمام الجائزة (١) .

١٢ – خلاعة ومجون :

واتسعت الدعارة وانتشر المجون في الحاظرة الإسلامية في عصر بني أمية ، فكان الشعراء يتشببون ويتغزلون بالنساء ، وأول من فتح باب الدعارة معاوية فقد حدثوا أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت (٢) قد تشبب بابنة

---

(١) الكامل ٣ / ١٨٥ .

(٢) عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي : ولد في زمن النبي (ص) كان شاعراً قليل الحديث ، ذكره ابن معين في تابعي أهل المدينة ، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين ، توفي سنة ١٠٤ ، وأبطل هذا القول ابن عساكر فقال : إنه قيل إنه عاش ثماني وأربعين ، ومقتضاه أنه ماأدرك أباه لأنه مات بعد الخمسين بأربع أو نحوها وقد ثبت أنه كان رجلاً في زمان أبيه وأبوه القائل :

فمن للقوافي بعد حسان وابنه ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت

(قلت) وإن يثبت أنه ولد في العهد النبوي وعاش إلى سنة ١٠٤ يكون عاش ٩٨ فلعل الأربعين محرفة ، جاء ذلك في الإصابة ٣ / ٦٧ وذكر الزمخشري في الكشاف أن عبد الرحمن قال في معاوية قصيدة منها :

ألا أبلغ معاوية بن حرب أمير الظالمين نثا كلامي

معاوية بن هند وابن صخر لحاك الله من مرء حرامي –

معاوية فبلغ ذلك يزيد فغضب ودخل على أبيه قائلا بنبرات تقطر ألماً :

ـ يا أبة أقتل عبد الرحمن بن حسان .

ـ لِمَ ؟ .

ـ تشبب بأختي .

ـ وما قال ؟

ـ قال :

طال ليلي وبت كالمحزون ومللت الثواء في جيرون

فأجابه معاوية باستهزاء وسخرية :

« يابني وما علينا من طول ليله وحزنه ، أبعده الله » .

فالتفت يزيد إلى أبيه انه يقول :

فلذا اغتربت بالشام حتى ظن أهلي مرجات الظنون

« يابني وما علينا من ظن أهله » .

ـ إنه يقول :

هي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون

ـ صدق يابني هي كذلك .

ـ إنه يقول :

وإذا مانسبتها لم تجدها في سناء من المكارم دون

ـ صدق يابني :

ـ إنه يقول :

ـ تجشمنا بامرتك المنـــايا وقددرج الكرام بنو الكرام

أمير المؤمنين أبو حسين مفلق رأس جدك بالحسام

وإنا صابرون ومنظروكم إلى يوم التغابن والخصام

ثم خاصرتها إلى القبة الخضـ ـراء تمشي في مرمر مسنون

— : ولا كل هذا يابني .

وما زال يزيد يذكر له ماقاله عبد الرحمن من التشبيب بأخته ، ومعاوية يدافعه عن ذلك ، ويظهر براءته وعدم استحقاقه العقاب ، وانتشر تشبب عبد الرحمن ، وافتضحت ابنة معاوية ، فأقبلت اليه طائفة فأكبروا هذه الجسارة على ابنته وقالوا له : « لو جعلته نكالاً » فامتنع معاوية من اجابتهم ، وقال لهم : — لا — ولكن أداويه بغير ذلك ، واتفق أن عبد الرحمن وفد على معاوية فاستقبله أحسن استقبال وأجلسه على سريره وأقبل عليه بوجهه ، ثم قال :

إن ابنتي الأخرى عاتبة عليك .

— في أي شيء ؟

— في مدحك أختها وتركك إياها .

— لها العتبى وكرامة أنا أذكرها .

وأخذ يتغزل بابنة معاوية فلما علم الناس ذلك قالوا : « قد كنا نرى أن تشبب حسان بابنة معاوية لشيء فاذا هو على رأي معاوية وأمره » (١)

وهذه البادرة تدل على ميوعته وتفسخ أخلاقه وقد فتح بذلك باب الفساد ومكن الماجنين من التعرض ببنات المسلمين حتى بلغ التهالك على اللذة منتهاه في عصره وعصر بني أمية .

وتشبب أبو دهبل الجحمي (٢) بابنته فعامله باللين وأوصله

---

(١) الأغاني ١٣ / ١٤٩ .

(٢) أبو دهبل الجحمي : اسمه وهب بن زمعة بن أسيد ، كان شاعراً محسناً مداحا وهو القائل : —

وأعطاه (١) وسار بنو أمية على هذه الخطة ، وقد حاولوا أن يقلبوا الدنيا إلى مسارح للعبث والمجون ، فحببوا إلى الناس الفسق والدعارة وساقوهم إلى الضلال والباطل والفساد .

ومن تهتك معاوية ومجونه أنه اشترى جارية بيضاء جميلة ، فادخلها عليه مولاه (خديج) وهي مجردة عارية ليس عليها شيء ، وكان بيده قضيب فجعل يهوى به إلى (متاعها) وهو يقول :

« هذا المتاع ، لو كان لي متاع » (٢) .

وأمر بها إلى يزيد ، ثم عدل عن ذلك ووهبها إلى عبد الله بن مسعدة الفزاري (٣) فقال له :

_ ياليت من يمنع المعروف يمنعه حتى يذوق رجال غب ما صنعوا
وليت رزق أناس مثل نائلهم قوت كقوت ووسع كالذي وسعوا
وليت للناس حظاً في وجوههم تبين أخلاقهم فيه إذا اجتمعوا
وليت ذا الفحش لاقى فاحشا أبداً ووافق الحلم أهل الجهل فارتدعوا

جاء ذلك في معجم الشعراء ١ / ١١٧ وقد نشر الشيء الكثير من شعره في مجلة الآسيوية البريطانية .

(١) الأغاني ٦ / ٣٩ ، ١٥٩ .

(٢) البداية والنهاية ٨ / ١٤٠ .

(٣) عبدالله بن مسعدة بن حكمة الفزارى جيء به وهو صغير في سبي فزارة فوهبه رسول الله لابنته فاطمة فأعتقته وكان صغيراً ثم كان عند علي ، والتحق بمعاوية فكان من أشد الناس وأعداهم إلى علي ، وكان على جند دمشق بعد وقعة (الحرة) وبقي الى خلافة مروان ، وقيل أنه غزا سنة ٤٩ ، وكان أميراً على الجيش عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فمات في أرض الروم فاستخلف من بعده عبد الله ـــ

« دونك هذه الجارية الرومية فبض ولدك » (١) .

وذكر المؤرخون بوادر كثيرة من استهتاره ومجونه دلت على تحلله من جميع القيم الإنسانية .

١٣ — إفتعال الحديث :

قال الله تعالى في كتابه الكريم : « إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون » (٢) وقرب معاوية من يفترى الكذب على الله ورسوله ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فقربهم اليه وأدناهم منه ومنحهم الأموال الضخمة ، وأوعز اليهم أن يضعوا الأحاديث الكاذبة على رسول الله (ص) فى فضله وفي فضل الأمويين والصحابة ، وفي الحط من كرامة العترة الطاهرة وانتقاصها خصوصاً سيدها الإمام أمير المؤمنين (ع) ، وكتب مذكرة بذلك إلى جميع عماله وولاته جاء فيها :

« أنظروا من قبلكم من شيعة عثمان الذين يرون فضله ، ويتحدثون بمناقبه فاكرموهم ، وشرفوهم ، واكتبوا اليّ بما يروي كل واحد منهم فيه باسمه واسم أبيه وممن هو » .

فامتثل عماله وولاته ذلك فأدنوا الرواة المستأجرين وأشادوا بهم ، ومنحوهم الأموال الكثيرة ودونوا ما افتعلوه في فضل عثمان ، وأرسلوه اليه ،

— الفزاري وهي أول ولاية وليها وفيه يقول الشاعر :

أقم يابن مسعود قناة قويمة   كما كان سفيان بن عوف يقيمها

ولما دخل على معاوية سأله عن الشعر ، فقال إن الشاعر ضمني إلى من لست له بكفء وهو سفيان بن عوف جاء ذلك في الإصابة ٢ / ٣٥٩ .

(١) الهداية والنهاية ٨ / ١٤٠ .

(٢) سورة النحل — آية ١٠٥ .

ولما رأى الناس أن الحكومة تشجع الوضاعين وتقابلهم بالحفاوة والتكريم ، وتمنحهم الأموال والثراء العريض بادر من غرته الدنيا إلى وضع الأحاديث وأخذ عوضها من الجهة المختصة ، وقد رووا في فضل معاوية طائفة كبيرة ، فمن جملة ماوضعوه : أن النبي قال : « اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب ، وادخله الجنة » . وأخرج الترمذي أن النبي قال لمعاوية : اللهم اجعله هادياً مهديا .

وروى الحارث بن أسامة أنه (ص) قال : أبو بكر أرق أمتي ، وأرحمها ، ثم ذكر مناقب الخلفاء الأربعة ، ومناقب جماعة آخرين من أصحابه ثم ذكر (ص) معاوية فقال (ص) : ومعاوية بن أبي سفيان أحلم أمتي وأجودها (١) :

ورووا أن النبي (ص) أشاد بفضل أصحابه ، ثم قال في معاوية : وصاحب سري معاوية بن أبي سفيان (٢) .

وحكى القدسي أنه كان بجامع واسط وإذا برجل قد اجتمع عليه الناس فدنا منه فإذا هو يروي حديثاً بسنده عن النبي (ص) ان الله يدني معاوية يوم القيامة فيجلسه إلى جنبه ويغلفه ؟ بيده ثم يجلوه على الناس كالعروس

(١) تطهير الجنان واللسان المطبوع على هامش الصواعق المحرقة ص ٢٤ .

(٢) تطهير الجنان واللسان ص٢٦ ، وقد استند ابن حجر إلى هذه الروايات الموضوعة في فضل معاوية ونزهه عن كل ما ارتكبه من المآثم والموبقات ، والحقه بالصحابة المتحرجين في دينهم ، وقد أعمى الله بصيرة ابن حجر وأضله عن الطريق القويم ، فراح يمجد أعداء الله ، وخصوم الإسلام الذين هم صفحة عار وخزي على المجموعة الإنسانية ، لقد بلي المسلمون بأمثال هؤلاء المؤرخين الذين لاينظرون إلى الواقع إلا بمنظار أسود فجنوا على الإسلام والمسلمين بمفترياتهم وأكاذيبهم .

فقال له المقدسي : بماذا ؟ قال بمحاربته علياً ، فأجابه المقدسي : كذبت ياضال !! فقال خذوا هذا الرافضي فتدافع الناس عليه للبطش به وأنقذه شخص كان يعرفه (١) وحكى المقدسي أيضاً أنه تعرض للقتل حينما أنكر على رجل قوله : ان معاوية نبي مرسل (٢) .

وحدث بعضهم قال رأيت رسول الله (ص) وعنده أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية ، إذ جاء رجل فقال عمر يارسول الله هذا ينتقصنا فكأنه انتهره رسول الله (ص) فقال يارسول الله : إني لاأنتقص هؤلاء ولكن هذا — يعني معاوية — فقال : ويلك أوليس هو من أصحابي ؟ قالها ثلاثاً ثم أخذ رسول الله (ص) حربة فناولها معاوية ، فقال جا بها في لبته فضربه بها ، وانتبهت إلى منزلي فاذا ذلك الرجل قد أصابته الذبحة من الليل ومات وهو راشد الكندي (٣) .

وتعصب البسطاء والسذج لمعاوية ، وبالغوا في تقديره نظراً لهذه الأخبار الموضوعة والدعايات الكاذبة ، فقد ذكر المؤرخون ان عبد الرحمن النسائي دخل دمشق فسئل عن معاوية وما روى من فضائله فقال : أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل ؟ وفي رواية أنه قال : ما أعرف له فضيلة إلا « لاأشبع الله له بطنا » فثاروا عليه وداسوه فحمل إلى الرملة فمات بسبب ذلك (٤) .

لقد أراد معاوية بهذه الأحاديث التي أصدرتها لجان الوضع أن يضفي

---

(١) المقدسي ص ١٢٦ .

(٢) المنتظم ص ٦٠ .

(٣) الغدير ١٠ / ١٣٨ .

(٤) طبقات السبكي ٢ / ٨٤ وفيات الأعيان ١ / ٣٧ .

على نفسه ثوب القداسة والإيمان لتمنحه الأمة ثقتها ، وتنقاد اليه بدافع العقيدة ، ولكنها محاولة فاشلة لأن المسلمين ينظرون اليه نظرة ريبة وشك في إسلامه لأنه من الشجرة الملعونة في القرآن التي ناجزت النبي (ص) وقادت الجيوش لمحاربته ، بالاضافة إلى الأحداث الجسام التي ارتكبها كمناجزته لوصي رسول الله (ص) وباب مدينة علمه ، وقتله الأخيار ، ومطاردته الصلحاء ، وبدعه التي أحدثها في الإسلام ، وغير ذلك من الكبائر والموبقات التي سود بها وجه التأريخ ، ومن الطبيعي أن هذه الدعايات والأكاذيب لاتمحو عنه العار والخزي .

وعلى أي حال فقد كثرت الأحاديث التي وضعها الدجالون في فضل معاوية ، وفي فضل عثمان بن عفان ، وقد خاف أن يفوت غرضه ، ويفتضح أمره ، ولا يصل إلى هدفه من البغي على العترة الطاهرة ، فكتب مذكرة إلى عماله يأمرهم فيها بأن يكف الوضاعون عن ذلك ، ويضعوا الأحاديث في فضل الشيخين ، لأن ذلك من أقرب الطرق ومن أهم الوسائل فى محاربة ذرية النبي (ص) والحط من قيمتهم ، وهذا نص ماكتبه :

« إن الحديث قد كثر في عثمان ، وفشا في كل مصر ، وفي كل ناحية ، فإذا جاءكم كتابي فادعوهم إلى الرواية في أبي بكر وعمر ، فان فضلهما وسوابقهما أحب إلي وأقر لعيني ، وأدحض لحجة أهل هذا البيت — يعني أهل بيت النبي — وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله » .

وقرأ القضاة والأمراء كتابه على الناس ، فبادر الوضاعون إلى افتعال الأحاديث فى مناقب أبي بكر وعمر ، وأمر معاوية بتدوينها وإنفاذ نسخ منها إلى جميع العمال والولاة ليقرؤها على المنابر ، ويتلوها في الجوامع ، وأوعز إليهم أن ينفذوها إلى المعلمين ليجعلوها من مناهج دروسهم ، ويرغموا

الأطفال على حفظها ، وقد اهتمت الحكومات المحلية فى ذلك اهتماما بالغاً فالزمت الناشئة وسائر الطبقات بحفظ تلك الأخبار المفتعلة حتى حفظها الأولاد وحفظتها النساء والخدم والحشم (١) وقد عرض الإمام الباقر عليه السلام بعض تلك الأخبار الموضوعة في حديثه مع أبان ، وندد بها فقد قال له أبان :

« أصلحك الله ، سم لي من ذلك شيئاً ؟ » .

قال (ع) رووا :

« إن سيدي كهول أهل الجنة أبو بكر وعمر » (٢) .

« إن عمر محدث — بصيغة المفعول أي تحدثه الملائكة — » .

« إن عمر يلقنه الملك » ؛

« إن السكينة تنطق على لسان عمر » .

« إن الملائكة لتستحي من عثمان » (٣) .

ثم استرسل (ع) في عرض الأخبار المفتعلة حتى عدّ أكثر من مائة

---

(١) سليم بن قيس (ص ٢٩) شرح ابن أبي الحديد ٣ / ١٥ .

(٢) وضع المستأجرون هذا الحديث لمعارضة الخبر المتواتر الوارد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حق السبطين « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» وقد سئل الإمام الجواد عنه ففنده وقال : والله ليس في الجنة كهول بل كلهم شباب مُرد .

(٣) وإمارة الوضع على هذا الحديث ظاهرة فان الملائكة لماذا تستحي من عثمان بن عفان فهل انه اجتاز عليها فرآها تعمل القبيح وترتكب المنكر فاستحيت منه أو أنه فعل ذلك فاستحيت منه إنا لانتصور وجهاً لهذا الإستحياء المزعوم .

رواية (١) يحسبها الناس أنها حق ، ثم قال (ع) : والله كلها كذب وزور (٢)

ويقول المحدث ابن عرفة المعروف بنفطويه (٣) « إن أكثر الأحاديث الموضوعة فيفضائل الصحابة أفتعلت في أيام بني أمية ، تقرباً اليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم » (٤) .

ولم يكتف معاوية بتلك الأخبار الكثيرة التي وضعت في مناقب الشيخين فقد عمد إلى تشجيع الوضاعين لاختلاق الحديث ضد أهل البيت (ع) وقد أنفق عليهم الأموال الطائلة في سبيل ذلك ، فقد أعطى الجلاد سمرة بن جندب أربع مائة الف على أن يخطب في أهل الشام ، ويذكر لهم أن الآية الكريمة وهي « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث

---

(١) وفي رواية حتى عد أكثر من مائتي حديث .

(٢) سليم بن قيس (ص ٤٥) .

(٣) ابراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي ، ولد سنة (٢٤٤هـ) ، بواسط ، وهو صاحب المؤلفات الحسنة ، لقب بنفطويه لدمامته ، وأدمته تشبيهاً له بالنفط ومن شعره :

قلبي أرق عليك من خديكا ... وقواي أوهى من قوى جفنيكا

لم لاترق لمن يعذب نفسه ... ظلما ويعطفه هواه عليكا

هجاه أبو عبد الله الواسطي بقوله :

من سره أن لايرى فاسقاً ... فليجتهد أن لايرى نفطويه

أحرقه الله بنصف أسمه ... وصير الباقي صراخاً عليه

توفي في صفر (٣٢٣) وفيات الأعيان ١ / ٣٠ .

(٤) النصائح الكافية (ص ٧٤) وغيره .

والنسل والله لايحب الفساد » (١) .

نزلت في علي ، فروى لهم سمرة ذلك (٢) وأخذ العوض من بيت مال المسلمين ، وقد الزم الإسلام بانفاقه على صالح المسلمين ، وإعالة ضعيفهم ومحرومهم ، ولكن ابن هند أنفقه على حرب الإسلام وعلى الكيد والطعن في أعلامه الذين نافحوا عن رسول الله (ص) في جميع المواقف والمشاهد وأرغموا معاوية وأباه على الدخول في حظيرته .

وعلى أي حال فقد انطلق ذوو الأطماع والمنحرفون عن الإسلام إلى افتعال الأحاديث في الحط من قيمة أهل البيت للظفر بالأموال والثراء العريض ، وروى ابن العاص لأهل الشام أن النبي (ص) قال في آل أبي طالب : « إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء ، انما ولي الله وصالح المؤمنين » (٣) .

وهكذا أخذت لجان الوضع تفتعل أمثال هذه الأحاديث ضد عترة النبي (ص) الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، محاولة بذلك إطفاء نور الله ، وحجب المسلمين عن قادتهم الواقعيين الذين نصّ عليهم النبي (ص) وجعلهم خلفاء من بعده على أمته .

وتحدث الإمام الباقر (ع) عن زيف تلك الأخبار وكذبها فقال : « ويرون عن علي أشياء قبيحة ، وعن الحسن والحسين مايعلم الله أنهم قد رووا في ذلك الباطل والكذب والزور » (٤) .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٣ و ٢٠٤ .

(٢) النصائح الكافية ص ٢٥٣ وغيره .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣ / ١٥ .

(٤) سليم بن قيس ص ٤٥ .

وقال ابن أبي الحديد: «وذكر شيخنا أبو جعفر الأسكافي أن معاوية وضع قوماً من الصحابة، وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله فاختلقوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير» (١).

إن هذه الإجرآت التي اتخذها معاوية ضد أهل البيت قد أشاعت الفرقة بين المسلمين، وفتحت باب الكذب على الله وعلى رسوله، وقد أعرض خيار الصحابة عن تلك الأخبار، ولم يصغوا لرواتها، فقد نقل الرواة ان بشير العدوي (٢) جاء إلى ابن عباس، وجعل يحدثه، ويقول له: قال رسول الله (ص): وابن عباس لايأذن لحديثه، ولا ينظر اليه، وقابله بالاستخفاف والإستهانة، فاندفع بشير قائلاً:

«مالي لاأراك تسمع الحديث؟ أحدثك عن رسول الله ولا تسمع».

فزجره ابن عباس قائلاً:

«إنا كنا إذا سمعنا رجلاً يقول قال رسول الله أبتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم تأخذ من الناس إلا مانعرفه» (٣).

---

(١) شرح ابن ابي الحديد ٤ / ٦٣، ط دار احياء الكتب العربية.

(٢) بشير بن كعب بن أبي الحميري العدوي، ويقال العامري، ذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من أهل البصرة، وقال انه ثقة ان شاء الله، وقال النسائي: إنه ثقة، تهذيب التهذيب ١ / ٤٧١.

ولا نعلم أنه كيف كان ثقة مع اعراض ابن عباس عن حديثه.

(٣) فجر الإسلام ص ٢٥٨ وغيره.

إن الناس قد ركبوا الصعبة والذلول ـ على حد تعبير ابن عباس ـ وسلكوا جميع المسالك التي تتنافى مع الدين فلم يتحرجوا من الكذب على الله ولم يتأثموا من الوضع على رسول الله (ص) فلذا كان التوقف والتثبت في الأخبار أمراً ضرورياً .

والمحنة الكبرى التي امتحن المسلمون بهـا امتحاناً عسيراً هو ان تلك الأخبار التي افتعلتها لجان الوضع قد وصلت إلى الثقات والحفاظ فدونوها في كتبهم وهم ـ من دون شك ـ لو علموا واقعها لأسقطوها وتبرؤا منها وما رووها ، وقد ألمع إلى ذلك المدائني في حديثه عن الوضاعين في عصر معاوية ، ونسوق نص كلامه في ذلك قال :

« وظهر حديث كثير موضوع ، وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة ، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراؤون ، والمستضعفون ، الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ، ويقربوا مجلسهم ، ويصيبوا به الأموال والضيـاع ، والمنازل ، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لايستحلون الكذب ، والبهتان ، فقبلوها ، ورووها وهم يظنون أنها حق ، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ، ولا تدينوا بها » (١) .

وقد فاضت الكتب بتلك الأخبار الموضوعة ، وامتلئت بالإسرائيليات (٢) وبخرافات أبي هريرة ، ومما لاشبهة فيه أنها أضرت بالإسلام فشوهت شريعته

---

(١) ابن أبي الحديد ٣ / ١٦ .

(٢) الاسرائيليات : هي الخرافات التي وضعها المنافقون من اليهود الذين أسلموا وتظاهروا بالإسلام فدسوا في الإسلام ما هو بريء منه ، وعلى رأس قائمة الوضاعين من اليهود كعب الأحبار .

السمحاء ، وأفسدت عقائد المسلمين ، وفرقتهم شيعاً وأحزابا .

وليس من شك في أن الخلفاء لو بادروا إلى تدوين ماأثر عن النبي (ص) من الأحاديث لصانوا الأمة من الاختلاف ووقوها من الفتن والخطوب ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك فقد عمد أبو بكر إلى جمع بعض الأحاديث فأحرقها (١) وجاء بعده عمر فاستشار الصحابة في تدوينهـا فأشار عليه عامتهم بذلك ، ولبث مدة يفكر في الأمر ثم عدل عنه ، وقال لهم : « إني كنت قد ذكرت لكم من كتاب السنن ماقد علمتم . ثم تذكرت ، فاذا أناس من أهل الكتاب قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتبا فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشي أبداً . » ثم ترك ذلك وعدل عنه (٢) .

وهو تعليل لا يساعده الدليل لأن حديث النبي (ص) لا يشذ عن كتاب الله ، ولا يخالفه بحال من الأحوال ، وليس تدوينه موجبـاً لهجر القرآن الكريم ، ولا مستلزماً للاعراض عنه ، وأكبر الظن أنهم إنما أبوا من تدوينه لأن شطراً كبيراً منه يتعلق فى فضل العترة الطاهرة . وفي لزوم مودتها ، ووجوب الرجوع اليها في جميع المجالات ، وليس من الممكن التبعيض في كتابة الحديث بأن تدون السنن ، وتترك الأخبار الواردة في حق أهـل البيت ، ومن الطبيعي أن تدوينها يتنـافى مع ابتزازهم حقهم واجماعهم على هضمهم ، واقصائهم عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها ، وقد بلغ من عظيم وجدهم وحقدهم عليهم ، أنهم لما شعروا أن النبي يريد أن يعهد بالأمر اليهم ويكتب فى ذلك كتاباً ردوا عليه وهو في ساعاته الأخيرة فقالوا له : « حسبنا كتاب الله » .

---

(١) تذكرة الحفاظ ١ / ٥ .

(٢) تقييد العلم ص ٥٠ ، وقريب منه فى طبقات ابن سعد ٣ / ١ ص٢٠٦ .

وأثر عنهم أنهم قالوا : « لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد » وبعد هذا فكيف يثبتون اخبار النبي (ص) في أهل بيته .

وعلى أي حـال فان أعظم ما مني به المسلمون من الكوارث هي الروايات المفتعلة التي عهد معاوية بوضعها فانها قد أوجبت تشتت المسلمين واختلافهم في كل شيء ، وهي مما لا شبهة فيه من أعظم موبقات ابن هند .

١٣ - استلحاقه زيادا :

قال رسول الله (ص) : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » . لقد ضرب معاوية كلام رسول الله (ص) بعرض الجدار بلا خيفة ولا حذر. فعاكس قوله ، ورد حكمه علانية لأجل تدعيم ملـكه ، وإقامة سلطانه ، فاستلحق به زياد بن أبيه طبقاً لما كان عليه العمل قبل الإسلام !

يقول الله تعالى : « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » (١) لقد بغى معاوية حكم الجاهلية ، وأحيى سننها فألحق به زياد بن أبيه وهو ابن بغية ، فان سمية كانت من ذوات الرايات بالطائف تؤدي الضريبة الى الحـارث بن كلدة (٢) من بغيهـا ، وكانت تنزل

---

(١) سورة المائدة آية ٥٠.

(٢) الحارث بن كلدة بن عمر الثقفي كان طبيباً مشهوراً عند العرب وكان من الشعراء ومن شعره :

ان اختيار يك لا عن خبرة سلفت	ولا الرجاء ومما يخطيء النظر
كالمستغيث ببطن السيل يحسبه	جزراً يبـادره إذ باله المطـر
فقد رأيت بعبـد الله واعظة	تنهى الحليم فـما أناني الغرر
إن السعيد له في غيره عظـة	وفي التجـارب تحكيم ومعتبر
لأعرفنك إن أرسلت قافية	تلقى المعاذير إذ لا تنفع العذر

جاء ذلك في معجم الشعراء ص ١٧٢ .

بالموضع الذي تنزل فيه البغايا خارجا عن الحضر في محلة يقـال لها حارة البغايا (١) هذه أم زياد في قذارتها وفجورها ولم يأنف معاوية من إلحاق هذا الدعي به .

أما بواعث هذا الإستلحاق فيقول عنه المؤرخون ان أمير المؤمنين «ع» كان قد ولى زياداً قطعة من أعمال فارس، واصطنعه لنفسه ، فلما قتل «ع» بقي زياد في مله وخاف معاوية جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من ممالاته الحسن بن علي «ع» فكتب اليه هذه الرسالة :

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ، إلى زياد بن عبيد ، أما بعد : فانك عبد قدكفرت النعمة ، واستدعيت النقمة ، ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر وإن الشجرة لتضرب بعرقها ، وتتفرع من أصلها إنك لاأم لك ، بل لاأب لك قد هلكت وأهلكت ، وظننت أنك تخرج من قبضتي ، ولا ينالك سلطاني ، هيهات ماكل ذي لب يصيب رأيه ولا كل ذي رأي ينصح في مشورته ، أمس عبد واليوم أمير خطة ما أرتقاها مثلك يابن سمية ، إذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة واسرع الإجابة فانك إن تفعل فدمك حقنت ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش ونلتـك بأهون سعي ، وأقسم قسما مبروراً أن لاأوتى بك إلا في زمارة (٢) تمشي حافياً من أرض فارس إلى الشام حتى أقيمك في السوق وأبيعك عبداً وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه والسلام » .

وفي هذه الرسالة قد نسب زياداً إلى عبيد ، واعترف برقيته ، وإنه إذا تمكن منه يبيعه في أسواق دمشق ويرده إلى أصله ، ولمـا وصلت هذه

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٣١٠ .

(٢) الزمارة : آلة من القصب يغنى بها .

الرسالة إلى زياد ورم أنفه من الغضب وأمر بجمع الناس وخطب فيهم فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

« ابن آكلة الأكبـــاد ، وقاتلة أسد الله ، ومظهر الخلاف ، ومسر النفاق ، ورئيس الأحزاب ، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله كتب إلي يرعد ويبرق عن سحابة جفل لاماء فيها ، وعما قليل تصيرها الرياح قزعا (١) والذي يدلني على ضعفه تهدده قبل القدرة ، أفمن اشفاق على تنذر وتعذر كلا ؟ ولكن ذهب إلى غير مذهب وقعقع لمن ربي بين صواعق تهامة ، كيف أرهبه وبيني وبينه ابن بنت رسول الله (ص) وابن ابن عمه في مائة الف من المهاجرين والأنصار ، والله لو أذن لي فيه أو ندبني اليه لأرينه الكواكب نهاراً ولأسعطنه ماء الخردل (٢) دونه الكلام اليوم، والجمع غداً والمشورة بعد ذلك إن شاء الله » .

وقد أبرق زياد وأرعد وتهدد وأوعد وذلك لعدم علمه بما مني به جيش الإمام من التخاذل والإنحلال معتقداً بأن الجيش على وضعه الأول محتفضا بنشاطه وقواه ، وانه مائة الف من المهاجرين والأنصار ولم يعلم بما نكب به من الإنحلال والفتن التي مزقته وقضت على نشاطه ، وان أعلام المهاجرين والأنصار قد طحنتهم حرب صفين وأبادتهم واقعة النهروان وأصبح الجيش لايضم من أولئك الرؤوس والضروس إلا ماهو أقل من الصبابة ، وأقسم بالله إن الإمام لو استدعا زياداً حينذاك لغدر به وما استجاب له ، وآية ذلك أنه لما علم بوهن جيش الإمام انحاز إلى معاوية وغدر بالإمام ، وكيف لاينخدع وهو من ذوي الضمائر القلقة وقد أبان الزمان خبثه ، وكشف عن

---

(١) القزع : قطع السحاب المتفرقة .

(٢) الخردل : حب شجر معروف .

عدم طيب أناثه ، فقد عاد بعد الإستلحاق من ألد الأعداء إلى أمير المؤمنين وذريته وشيعته .

ومهما يكن من شيء فان زياداً عقيب خطابه أجاب معاوية عن رسالته وهذا نص جوابه :

« أما بعد ، فقد وصل إلي كتابك يامعاوية ، وفهمت مافيه فوجدتك كالغريق يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ويتعلق بأرجل الضفادع طمعاً فى الحياة إنما يكفر النعم ويستدعي النقم من حاد الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً فاما سبك لي فلولا حلم ينهاني عنك ، وخوفي أن أدعى سفيهاً لأثرت لك مخازي لايغسلها الماء ، وأما تعييرك لي بسمية فان كنت ابن سمية فأنت ابن جماعة (١) وأما زعمك انك تخطفنى بأضعف ريش وتتناولني بأهون سعي فهل رأيت بازياً يفزعه صغير القنابر ؟ أم هل سمعت بذئب أكله خروف ؟ فامض الآن لطيتك ، واجتهد جهدك فلست أنزل إلا بحيث تكره ، ولا اجتهد إلا فيا يسوءك ، وستعلم أينا الخاضع لصاحبه ، الطالع اليه والسلام »

ولما قرأ معاوية رسالة زياد طار قلبه رعباً وداخله فزع شديد فاستدعى داهية العرب « المغيرة بن شعبة » فقال له :

« يامغيرة إني أريد مشاورتك في أمر أهمني فانصحني فيه وأشر علي برأي المجتهد ، وكن لي أكن لك ، فقد خصصتك بسري وآثرتك على ولدي » .

فقال له المغيرة :

« فما ذاك ؟ والله لتجدني في طاعتك أمضى من الماء في الحدور ومن ذي الرونق في كف البطل الشجاع » .

---

(١) يشير بذلك إلى مايرويه التاريخ من أن هند قد حملت به قبل أن تتزوج أبا سفيان ، وكان زواجها به ستراً عليها . وإن المتهمين بها جماعة من الأعراب .

ولما أظهر له المغيرة الإنقياد والخضوع لطاعته عرض عليه مهمته قائلا :

« يامغيرة إن زياداً قد أقام بفارس يكش لنـا كشيش الأفاعي (١) وهو رجل ثاقب الرأي ماضي العزيمة جوال الفكر مصيب إذا رمى ، وقد خفت منه الآن ماكنت آمنه إذ كان صاحبه حياً ، وأخشى مما لأنه حسنا : فكيف السبيل اليه ؟ وما الحيلة في إصلاح رأيه ؟ » .

ولما عرف الداهية الماكر مهمة معاوية أشار عليه بأن يخدعه ويمنيه ، ويكتب له بناعم القول وكان رأيه في ذلك مبنيـاً على دراسته لنفسية زياد ومعرفته باتجاهه وميوله قائلا له :

« ان زياداً رجل يحب الشرف والذكر وصعود المنابر ، فلو لاطفته المسألة وألنت له الكتاب لكان لك أميل وبك أوثق ، فاكتب اليه وأنا الرسول »

واستجاب معاوية لنصيحة المغيرة ، فكتب إلى زياد رسالة تمثلت فيها المواربة والخداع وهذا نصها :

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان ، أما بعد : فان المرء ربما طرحه الهوى في مطـارح العطب ، وانك للمرء المضروب به المثل قاطع الرحم ، وواصل العدو ، وحملك سوء ظنك بي وبغضك لي على أن عققت قرابتي ، وقطعت رحمي وبتت نسبي وحرمتي حتى كـأنك لست أخي ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي ، وشتان مابيني وبينك ، أطلب بدم ابن أبي العاص وأنت تقاتلني ، ولكن أدركك عرق الرخاوة من قبل النساء فكنت « كتـاركة بيضها بالعراء ، وملحفة بيض أخرى جناحها » وقد رأيت أن أعطف عليك ولا أواخذك بسوء سعيك ، وان أصل رحمك ، وأبتغي الثواب في أمرك ، فاعلم أبا المغيرة أنك

---

(١) كشيش الأفاعي : صوت جلدها .

لو خضت البحر في طاعة القوم فتضرب بالسيف حتى ينقطع متنه لما ازددت منهم إلا بعدا ، فان بني شمس أبغض إلى بني هاشم من الشفرة إلى الثور الصريع وقد أوثق للذبح ، فارجع رحمك الله إلى أصلك ، واتصل بقومك ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره ، فقد أصبحت ضال النسب ، ولعمري مافعل بك ذلك إلا اللجاج فدعه عنك ، فقد أصبحت على بينة من أمرك ووضوح من حجتك ، فان أحببت جانبي ووثقت بي فامرة بامرة وان كرهت جانبي ولم تثق بقولي ففعل جميل لاعليّ ولا لي والسلام » .

وأخذ المغيرة الرسالة التي كتبت على وفق رأيه وهي لاتحمل جانبا من الواقعية ، ولا بصيص فيها من نور الحق والصدق فغادر دمشق إلى فارس وأقبل إلى زياد فلما رآه رحب به وأدناه من مجلسه وأخذ الداهية الماكر يكلم زياداً بمختلف الطرق وشتى الأساليب حتى غزى قلبه وهيمن على مشاعره فأجابه إلى ماأراد.

وبعد ماوقع زياد في اشباك المغيرة غادر فارس إلى دمشق فلما انتهى اليها ومثل عند معاوية رحب به وادناه ، وأمر أخته جويرية بنت أبي سفيان أن تستدعيه ، فلما حضر عندها كشفت عن شعرها بين يديه ، وقالت له : « أنت أخي أخبرني بذلك أبو مريم » ثم أخرجه إلى المسجد وجمع الناس ليعلن أمامهم أن زياداً أخوه ، وقام أبو مريم السلولي الخمار أمام ذلك المجتمع الحاشد فادى شهادته بزنا أبي سفيان بسمية شهادة أخزت أبا سفيان ومعاوية والحقت العار بزياد وهذا نصها :

« أشهد أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف وأنا خمار في الجاهلية ، فقال أبغي بغيــاً . فاتيته وقلت : لم أجد إلا جارية الحرث بن كلدة ،

سمية . فقال أئتني بهـا على ذفرها (١) وقذرها » وثار زياد فقطع على أبي مريم شهادته قائلاً له بصوت يقطر غضباً :

« مهلاً ياأبا مريم ، إنما بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً » .

فقال أبو مريم :

« لو كنتم أعفيتموني لكان أحب إليّ ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت » .

ثم استرسل في بيان شهادته فقال :

« والله لقد أخذ بكم درعها ، وأغلقت الباب عليها ، وقعدت دهشانا فلم ألبث أن خرج عليّ يمسح جبينه ، فقلت ، مه ياأبا سفيان . فقال : ماأصبت مثلها ياأبا مريم لولا استرخاء من ثديها ، وذفر من فيها » .

هذه شهادة أبي مريم في فجور سمية وتندى لفضاعتها وخزيها وجه الإنسانية ولكن معاوية ماخجل منها وما أنف ولا استحى ، وكيف يخجل ابن هند من هذه المساوئ والمخازي وهو الذي جر ذيلـه على الرذائل والخداع كما يقول (٢) حتى صارت الرذيلة عنصراً من عناصره ومقوماً من مقوماته .

لقد ألحق معاوية زياد بن أبيه به ليستريح من خصومته ، ويستعين به على تحقيق أهدافه وتدعيم سلطانه .

الاستياء الشامل :

وأثر إستلحاق معاوية لزياد إستياءاً شاملاً في نفوس المسلمين ، فقد

---

(١) الذفر : الرائحة النتنة .

(٢) التاج للجاحظ ص ١٠٣ .

رؤا أن معاوية قد عمد إلى مخالفة النبي (ص) والى هجر سنته ، وقد خافوه على دينهم ، فاندفع جمع من الأحرار والمصلحين إلى إعلان سخطهم وإنكارهم عليه وعلى زياد ، ونشير إلى بعض المنكرين والناقدين له وهم :

١ ـ الإمام الحسن :

ورفع الإمام الحسن رسالة إلى زياد بين فيها فساد استلحاقه بمعاوية ، وأعرب له ان الإسلام لايقر ذلك بحال من الأحوال ، وهذا نصها :

« من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سمية أما بعد : فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الولد للفراش ، وللعاهر الحجر والسلام » (١)

وقال « ع » له في حضور معاوية وعمرو بن العاص ، ومروان بن الحكم : « وما أنت يازياد وقريشا ؟ لاأعرف لك فيها أديما صحيحاً ، ولا فرعاً نابتاً ، ولا قديما ثابتاً ، ولا منبتاً كريماً ، بل كانت أمك بغيا تداولها رجال قريش وفجار العرب فلما ولدت لم تعرف لك العرب والداً فادعاك هذا ـ يعني معاوية ـ بعد ممات أبيه ، مالك افتخار ، تكفيك سمية ويكفينا رسول الله (ص) » (٢) .

٢ ـ الإمام الحسين :

ولما رأى سيد الشهداء الإمام الحسين معاوية قد حمل معول الهدم على جميع الأسس الإسلامية اندفع (ع) ثائراً في وجهه ورفع له رسالة سجل فيها موبقاته ، وقد عرض فيها استلحاقه لزياد ، وهذا نص ماكتبه في ذلك :

« أولست المدعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف فزعمت أنه ابن أبيك ، وقد قال رسول الله (ص) الولد للفراش وللعاهر الحجر ،

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٧٣ .

(٢) المحاسن والمساوي للبيهقي ١ / ٥٨ .

فتركت سنة رسول الله تعمداً واتبعت هواك بغير هدى من الله »(١) .

٣ — يونس بن عبيد :

وكان يونس بن عبيد ممن حضر هذه المأساة ، وشاهد فصولها ، فانطلق إلى معارضة معاوية وإلى الإنكار عليه قائلاً :

« يامعاوية قضى رسول الله (ص) ان الولد للفراش ، وللعاهر الحجر وقضيت أنت أن الولد للعاهر مخالفة لكتاب الله تعالى ، وانصرافا عن سنة رسول الله بشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان » .

فانبرى إليه معاوية يتهدده ويتوعده بالقتل قائلاً :

« والله يايونس لتنتهي أو لأطيرن بك طيرة بطيئا وقوعها » .

فقال له يونس : « هل إلا إلى الله ، ثم أقع ؟ » .

قال له معاوية : — نعم —(٢) .

٤ — عبد الرحمن بن الحكم :

وما رضي بهذا الإستلحاق حتى بنو أمية ، فقد نقموا عليه ذلك فقد أقبل عبد الرحمن بن الحكم ومعه جماعة من بني أمية فقال عبد الرحمن لمعاوية :

« يامعاوية ، لولم تجد إلا الزنج لاستكثرت بهم علينا — يعني على بني العاص قلة — وذلة » .

فالتفت معاوية إلى مروان قائلاً :

« اخرج عنا هذا الخليع » .

« أي والله إنه لخليع مايطاق » .

---

(١) رجال الكشي ص ٣٣ .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣١١ .

فقال معاوية : « والله لولا حلمي وتجاوزي لعلمت أنه يطاق ، ألم يبلغني شعره في وفي زياد » .

قال مروان وماذا قال ؟ :

ــ إنه يقول :

ألا أبلغ معاوية بن حرب لقد ضاقت بما يأتي اليدان

أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زاني

فاشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان

وأشهد انهـا حملت زياداً وصخراً من سمية غير دان

وتألم معاوية حينما قرأها فقال : والله لأرضى عنه حتى يأتي زياداً فيترضاه ويعتذر اليه .

وخرج عبد الرحمن وقد غضب عليه معاوية ، فجاء إلى الكوفة وقصد زياداً يعتذرمنه فاستأذن عليه بالدخول فلم يأذن له ، وتوسط في شـأنه وجهاء قريش فسمح له بالدخول ، فلما دخل عليه أعرض عنه ، ثم التفت له قائلاً :

« أنت القائل ؟ ماقلت !! » .

ــ ماالذي قلت ؟ .

ــ قلت مالا يقال !!

ــ أصلح الله الأمير أنه لاذنب لمن أعتب ، وإنما الصفح عمن أذنب فاسمع مني ماأقول :

ــ هات ماعندك .

إليـك أبا المغيرة تبت مما جرى بالشام من خطل اللسان

وأغضبت الخليفة فيك حتى دعاه فرط غيظ أن هجـاني

وقلت لمن لجاني فى اعتذاري إليك أذهب فشأنك غير شاني

عرفت الحق بعد ضلال رأيي وبعد الغي من زيغ الجنان
زياد من أبي سفيان غصن تهادى ناضراً بين الجنان
أراك أخا وعما وابن عم فما أدري بعيب ماتراني
وإن زيادة في آل حرب أحب إلي من وسطى بناني
ألا بلغ معاوية بن حرب فقد ظفرت بما تأتي اليدان

فقال زياد :

« أراك أحمق صرفا شاعراً صنع اللسان ، يسوغ لك ريقك ساخطا ومسخوطا ولكنا قد سمعنا شعرك وقبلنا عذرك ، فهات حاجتك » .

ــ تكتب إلى أمير المؤمنين بالرضا عني .

ــ نعم .

ثم دعا كاتبه فرسم له العفو والرضا ، فأخذ الكتاب ومضى إلى معاوية فلما قرأ الأبيات قال :

« لحا الله زياداً ألم ينتبه لقوله : وإن زيادة في آل حرب ؟ » .

ثم رضي عن عبد الرحمن ورده إلى حالته الأولى (١) .

٥ ــ أبو العريان :

وكان أبو العريان شيخاً مكفوفاً ذا لسان وعارضة شديدة فاجتاز عليه زياد في موكبه فقال أبو العريان :

« ماهذه الجلبة ؟ » .

« إنه موكب زياد بن أبي سفيان » .

« والله ماترك أبو سفيان إلا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمدا فمن أين جاء زياد ؟ » .

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٧١ ، الإستيعاب ١ / ٥٥٢ ــ ٥٥٤ .

ونقل المؤلفون حديث أبي العريان إلى زياد فأشار عليه بعض خواصه أن يوصله بالمال حتى يكف لسانه عنه ، فاستصوب الرأي وأمر له بمائتي دينار فجاء بها الرسول اليه ، فقال له :

« ياأبا العريان ابن عمك زياد الأمير قد أرسل اليك مائتي دينار لتنفقها »

فلما سمع أبو العريان بذلك طار فرحاً فقال :

« وصلته رحم أى والله ابن عمي حقاً » .

واجتاز موكب زياد عليه في اليوم الثاني ، فسلم عليه زياد ، فبكى أبو العريان ، فقيل له :

« مايبكيك ؟ » .

« عرفت صوت أبي سفيان في صوت زياد » .

هكذا تفعل المادة بالضمائر القذرة التي لم تنطبع فيها العقيدة ، وكان أبو العريان عارياً من الإيمان فتغير بهذه الصلة الضئيلة ، ولما سمع حديثه معاوية كتب اليه :

ماألبثتك الدنانير التي بعثت ... أن لونتك أبا العريان الوانا

أمسى إليك زياد في أرومته ... نكراً فأصبح ماأنكرت عرفانا

لله در زياد لو تعجلها ... كانت له دون مايخشاه قربانا

فلما قرأت على أبي العريان هذه الأبيات أجابه :

احدث لنا صلة تحيا النفوس بها ... قد كدت يابن أبي سفيان تنسانا

أما زياد فقد صحت مناسبه ... عندي فلا أبتغي في الحق بهتانا

من يسد خيراً يصبه حين يفعله ... أو يسد شراً يصبه حيثما كانا (١)

٦ — أبو بكرة :

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٧١ .

ومن جملة الناقمين على معاوية والناقدين لزياد على هذا الإستلحاق الفظيع أبو بكرة (١) أخو زياد ، فقد أنكر على أخيه أشد الإنكار ، فقاطعه ولم يتصل به ، ولما عزم زياد على السفر إلى بيت الله الحرام أقبل اليه أبو بكرة فلما بصر به بعض الحرس أقبل مسرعا إلى زياد ، فقال له :

« أيها الأمير هذا أخوك أبو بكرة قد دخل القصر » .

ــ ويحك أنت رأيته ؟ .

ــ هاهو ذا قد طلع !! .

أقبل أبو بكرة فوقف على رأس زياد وكان قد احتضن غلاماً له فوجه أبو بكرة خطابا إلى الغلام ولم يوجهه إلى زياد ترفعاً واستحقاراً له :

« ياغلام ، إن أباك ركب في الإسلام عظيما ، زنى أمه وانتفى من أبيه ، ولا والله ماعلمت سمية رأت أبا سفيان قط ، ثم أبوك يريد أن يركب ماهو أعظم من ذلك يوافي الموسم غدا ، ويوافي أم حبيبة بنت أبي سفيان وهي من أمهات المؤمنين ، فان جاء ان يستأذن عليها فأذنت له فاعظم بها

---

(١) أبو بكرة : اسمه نفيع بن الحارث بن كلدة ، قيل اسم أبيه مسروح ، وكان عبداً للحارث ، فاستلحقه الحارث وهو أخو زياد ، وإنما لقب بأبي بكرة لأنه تدلى من حصن الطائف ببكرة إلى النبي (ص) فلذا سمي بهذا الإسم ، وارتكب جريمة هو وجماعة من أصحابه فجلدهم عمر بن الخطاب ثم تابوا ، فكان يقبل شهادتهم بعد التوبة إلا أبا بكرة فانه لم يجز شهادته ، قال ابن سعد مات بالبصرة في ولاية زياد ، وقال المدائني : مات سنة ٥٠ هجـ ، وقيل مات هو والحسن (ع) في سنة واحدة ، جاء ذلك في تهذيب التهذيب ١٠ / ٤٦٩ وجاء في الإستيعاب المطبوع على هامش الإصابة ٣ / ٥٣٧ أن أبا بكرة أوصى بنيه حين الوفاة فقال لهم : « إن أبي مسروح الحبشي » .

فرية على رسول الله (ص) ومصيبة وان هي منعته فاعظم بها على أبيك فضيحة » .

ثم تركه وانصرف ، فقال زياد :

« جزاك الله ياأخي عن النصيحة خيراً ساخطاً كنت أو راضياً » (١)

٧ — يزيد بن المفرغ :

وهجا هذا الشاعر العبقرى زياداً ببيتين من الشعر كانتا وصما عليه وعارا مدى الأجيال والأحقاب وهما :

فكر ففي ذاك إن فكرت معتبر　　هل نلت مكرمة إلا بتأمير

عاشت سمية ماعاشت وما علمت　　أن ابنها من قريش في الجماهير

وارتاع زياد وحزن من هذا الهجاء ، فقال :

« ماهجيت قط أشد علي من هذين البيتين » (٢) .

ولم يقتصر هذا الشاعر الفذ على ذلك فقد نظم أقسى الشعر واللذعه نقداً وهجاءاًلزياد ومعاوية على ارتكابهما هذه الجريمة التي انتهكت بها حرمة الإسلام واليك بعض ماجادت به قريحته وخياله الخصب :

شهدت بأن أمك لم تباشر　　أبا سفيــان واضعة القناع

ولكن كان أمر فيه لبس　　على حذر شديد وارتيـاع

إذا أودى معاوية بن حرب　　فبشر شعب قعبك بانصداع

وقال أيضاً :

إن زياداً ونافعـــا وأبا　　بكرة عندي من أعجب العجب

---

(١) ابن أبي الحديد ٤ / ٧٠ ، الإستيعاب ١ / ٥٥٠ مع اختلاف يسير .

(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب ٣ / ٢٨١ وفي رواية (ماهجيت بشيء أشد علي من قول ابن المفرغ) .

هم رجال ثلاثة خلقوا　　في رحم أنثى وكلهم لأب
ذا قرشي كما تقول وذا　　مولى وهذا ابن عمه عربي (١)

وذكر المسعودي في « مروج الذهب » ان هذه الأبيات إلى خالد النجاري وانه قال في هجاء زياد لما استلحق به عبادا :

اعباد ما اللؤم عنك محول　　ولا لك أم من قريش ولا أب
وقل لعبيد الله مالك والد　　بحق ولا يدري امرؤ كيف تنسب

لقد كان استلحاق زياد لعباد على غرار استلحاق معاوية له مخالفاً لسنة رسول الله وقد قال (ص) : « من ادعى أبا في الإسلام غير أبيه فالجنة عليه حرام » وما جرأ زياداً على ارتكاب هذه الموبقة إلا معاوية فهو الذي فتح باب الفساد ، وخالف أحكام الإســلام وتعاليمه وفروضه من دون خيفة ولا حذر .

٨ — الحسن البصري :

ومن جملة الناقمين على معاوية والناكرين عليه الحسن البصري (٢) فقد

---

(١) الإصابة ١ / ٥٦٣ .

(٢) الحسن البصري : أبوه أبو يسار كان مولى لزيد بن ثابت الأنصاري ، وأمه خيرة كانت مولاة لأم سلمة زوج النبي (ص) ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب ، بالمدينة يقال أنه ولد على الرق ، وكان من سادات التابعين وكبرائهم ، توفي بالبصرة مستهل رجب سنة ١١٠ ، وكان تشييعه حافلاً لم يشهد له أحد نظيراً ، قال حميد الطويل توفي الحسن عشية الخميس ، وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره ، وحملناه بعد صلاة الجمعة ودفناه فتبع الناس كلهم جنازته واشتغلوا به فلم تقم صلاة العصر بالجامع ، ولا أعلم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ لأنهم تبعوا كلهم جنازته ، ولم يبق بالمسجد من يصلي العصر ، ولم يحضر ابن سيرين —

جعل هذا الإستلحاق إحدى موبقاته وسيئآته ومردياته فقال : « اربع خصال كن في معاوية لولم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها (يعني الخلافة) بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير والديباج ، ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله (ص) : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ويلا له من حجر وأصحاب حجر مرتين » (١)

وهذه الجرائم الأربعة التي هي بعض موبقات معاوية تعد من أفظع الكبائر التي اقترفها ، وسيحاسب عليها حسابا عسيراً عند الله ، وذلك لما أحدثته من المضاعفات السيئة التى مني بها المسلمون .

٩ — السكتواري :

وقال العلامة السكتواري : « أول قضية ردت من قضايا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علانية دعوة معاوية زياداً ، وكان أبو سفيان تبرأ منه وادعى أنه ليس من أولاده ، وقضى بقطع نسبه ، فلما تأمر معاوية قربه واستأمره ، ففعل مافعل زيادا بن أبيه — يعني ابن زنية — من الطغيان والإساءة في حق أهل بيت النبوة » (٢) .

وهؤلاء بعض الناقمين على معاوية والمنكرين عليه في استلحاقه زياداً ،

— جنازته لشيء كان بينهما ، جاء ذلك في وفيات الأعيان ٤ / ١٢٤ وكان الحسن من المؤآزرين لبني مروان حتى قالوا عنه : لولا لسان الحسن وسيف الحجاج لوئدت الدولة المروانية في لحدها ، وأخذت من وكرها ، وذكر الحفاظ أنه كان مدلساً في حديثه .

(١) تاريخ الطبري ٦ / ١٥٧ ، تاريخ أبي الفداء ١ / ١٩٦ .

(٢) محاضرة الأوائل ص ١٣٦ .

وهم – من دون شك – كانوا مدفوعين بدافع العقيدة والغيرة على الإسلام فقد رأوا أن معاوية قد عمد بذلك إلى احياء سنن الجاهلية وبدعها، واماتة مافرضه الإسلام، استجابة لعواطفه ورغبته الملحة في السيطرة على المسلمين وإخضاع القوى المعارضة له بشتى الوسائل والأساليب.

وعلى أي حال فان زياداً قد استخدم جميع الوسائل لإثبات نسبه وإلحاقه بالعنصر الأموي فقد كتب إلى عائشة رسالة افتتحها بقوله: «من زياد بن أبي سفيان» وقد ظن أنها ستقر نسبه فيتخذ من ذلك دليلاً يستدل به على صحة نسبه، ولم يخف ذلك على عائشة فقد أجابته «من عائشة أم المؤمنين إلى ولدها زياد» (١) وقد خاب بذلك سعيه، وباء بالفشل والخزي، ولما ولي الكوفة قال لأهلها:

– قد جئتكم في أمر ماطلبته إلا لكم.

– أدعنا إلى ماشئت.

– تلحقون نسبي إلى معاوية.

فاعلن الأحرار والمؤمنون عدم اجابتهم له قائلين:

«أما بشهادة الزور فلا !!» (٢).

لقد أبت العرب من أن تلحق هذا الدعي بها، ولكن السلطة الأموية سجلته في ديوان قريش، وظل على هذا الحال هو وأبناؤه ولما انقرضت الدولة الأموية وجاءت دولة بني العباس الغى الخليفة المهدي هذا الإستلحاق وأمر باخراج آل زياد من ديوان قريش ومن العرب وذلك في سنة ١٥٩ هـ وبذلك فقد عادت ذرية زياد إلى جدها الأول عبيد الرومي.

---

(١) النصائح ص ٥٨.

(٢) الطبري ٦ / ١٢٣.

١٥ ـ عماله وولاته :

وعانت الشعوب الإسـلامية في أيام معـاوية ألوانا مريعة من المحن والخطوب لأن الحكم القائم فيها مبني على العنف والجبروت ، وعلى البطش والإرهاق ، واستنزاف الثروات ، وعلى التنكر لجميع القيم الإنسانية ، حتى ضج المجتمـع من الظلم والجور والإستبداد ، فلم تبق حاضرة من الحضر الإسلامية إلا عمها الخوف ، وساد فيها الإرهاب والإضطراب .

ومن مظاهر ذلك الظلم الإجتماعي أن معاوية سلط على المسلمين حثالة من شذاذ الجـلادين والسفاكين ، فاسرفوا في سفك الدماء ، وعمدوا إلى نهب امكانيات البلاد ، وحكموا البلاد حكماً كيفياً يستند إلى الأهواء والشهوات فلا عهد له بالدعة والعدل ، وقد وصف الخوارج قسوة ذلك الحكم ومدى شذوذه وجوره ، فقالوا : « إن بني امية فرقة بطشهم بطش الجبـارين ، يأخذون بالظنة ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب » (١) .

وهو وصف دقيق للسياسة الأموية الجائرة التي انتهجت منهج الشدة في جميع مجالاتهـا ، فلم تؤمن بحقوق الإنسان ، ولا بكرامته ، واستحقاقه الحياة ، فكانت تسوق المواطنين إلى المجـازر والسجون ، وتقضي بالهوى والشهوات ، فـلا تستند في حكمها إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وتقتل على الغيظ والغضب في سبيل مصالحها وأهدافها الضيقة .

وقد عبر عمرو بن العاص وزير معاوية ، ووالى مصر عما يكنه في نفسه الشريرة من الإستهتار والإستهانة بحقوق المسلمين ، فقال : « إنما السواد بستان لقريش » إن السواد الذي هو ملك للمسلمين ، وسائر الشؤون الإقتصادية

---

(١) البيان ١ / ٩٥ .

الأخرى فى رأيه ملك لقريش ، وأي حق لها في ذلك وهي التي ناجزت النبي (ص) وأعلنت الحرب على أهدافه ومبادئه ، ووقفت صامدة تدافع عن جاهليتها وأوثانها ، فأي حق لها بأموال المسلمين ، وأي حق لها في السيطرة على شؤونهم .

وعلى أي حال فان كسرى العرب ـ كما يقولون ـ قد مكن المجرمين والسفاكين من رقاب المسلمين ، فاسند لهم الحكم المطلق ، يتصرفون ف العباد والبلاد كيفما شاؤا ، قد أقر جورهم ، وأمضى ظلمهم ، وحمى جانبهم فقاموا بدورهم على استعباد المسلمين وإذلالهم وإرهاقهم ، ونذكر عرضا موجزاً من تراجم هؤلاء السفاكين مع بيان بعض ماصدر منهم من الأعمال البربرية ، وإلى القراء ذلك :

١ ـ سمرة بن جندب :

ومن سماسرة معاوية وأعوانه على نشر الظلم والجور سمرة بن جندب الشقي الأثيم ، فقد سودت جرائمه وجه التأريخ وصحائف السير ، وقبل التحدث عن سيرته فى زمن ولايته من قبل السلطة الأموية نذكر ـ بايجاز ـ سيرته أيام النبي (ص) ، لقد كان هذا الوغد في زمان النبي معروفاً بالنفاق والتمرد ، فقد ذكر الرواة انه زاحم أحد الأنصار في نخل ـ وما أهونها ـ كانت له في بستان ذلك الأنصاري فشكا أمره إلى رسول الله (ص) فاستدعى سمرة فلما مثل بين يديه قال (ص) له :

« بع نخلك من هذا وخذ ثمنه » .

ـ لاأفعل .

ـ خذ نخلا مكان نخلك .

ـ لاأفعل .

ــ فاشتر منه بستانه .

ــ لاأفعل .

ــ فاترك لي هذا ولك الجنة .

ــ لاأفعل .

ولما رأى رسول الله (ص) عناد سمرة وشره وخبثه وضراوته وإضراره للأنصاري التفت (ص) ــ والإستياء بادي عليه ــ إلى الأنصاري قائلاً :

« إذهب فاقطع نخله فانه لاحق له فيه » (١) .

وتدل هذه القصة على تمادي سمرة فى الأثم والشقاء ، وانعدام الانسانية والمثل الكريمة من نفسه فقد ترجاه سيد النبيين وأشرف المخلوقين في حسم النزاع والخصومة ، وضمن له عوض تلك النخيلات الزهيدة بقعة في الفردوس مقر الأنبياء والصالحين يتنعم فيها فلم يجبه وأصر على تمرده وعصيانه فحرم نفسه السعادة ورضى لها بالشقاء ، ومن موبقات سمرة ومردياته انه كان يبيع الخمر بعدما حرمها الإسلام فبلغ عمر بن الخطاب ذلك فقال :

« قاتل الله سمرة ان رسول الله قال لعن الله اليهود حرمت عليهم

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ / ٣٦٣ وذكر الزمخشري في الفائق ان رسول الله قال لسمرة انك رجل مضار لاضرر ولا ضرار في الاسلام ، وفي رواية زرارة عن أبي جعفر (ع) أن رسول الله (ص) قال للأنصاري إذهب فاقلعها وارم بها اليه فانه لاضرر ولا ضرار ، وادعى فخر المحققين في الايضاح في باب الرهن تواتر هذا الحديث ، والتواتر المدعى أما اجمالي أو معنوي ، وأما اللفظي فغير حاصل نظرا لاختلاف اللفظ في نقل الحديث وقد بسطنا الكلام في هذه القاعدة في الجزء الثالث من مؤلفنا (ايضاح الكفاية) .

الشحوم فباعوها » (١) هذا وضع سمرة في غلظته وجفائه وتمرده ولما آل الأمر إلى معاوية استعمله زياد على البصرة نائبا عنه فاسرف في قتل الأبرياء وإزهاق الأنفس بغير حق فقد حدث محمد بن سليم قال سألت أنس بن سيرين (٢) :

« هل كان سمرة قتل أحداً ؟ » .

فاندفع أنس بحرارة والتأثر بادي عليه قائلاً :

« وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب ؟ استخلفه زياد على البصرة وأتى الكوفة فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس ، فقال له (يعني زيادا)

« هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً !! » .

فانبرى الأثيم معلنا عدم اهتمامه باراقة دماء المسلمين قائلاً :

« لو قتلت إليهم مثلهم ماخشيت » (٣) .

وقال أبو سوار العدوي (٤) : قتل سمرة من قومي في غداة سبعة

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ١ / ٢٥ وفي رواية الزمخشري في « الفائق » قال لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها « أي أذابوها فباعوها » .

(٢) أنس بن سيرين الأنصاري ولد لسنة أو لسنتين بقيتا من خلافة عثمان روى عن جماعة من الصحابة وروى عنه جماعة . قال ابن معين وغيره إنه ثقة وقال ابن سعد إنه ثقة قليل الحديث وقال العجلي تابعي ثقة مات سنة « ١١٨ هـ » وقيل مات سنة « ١٢٠ هـ » جاء ذلك في تهذيب التهذيب « ١ / ٣٧٤ » .

(٣) الكامل ٣ / ١٨٣ الطبري ٦ / ١٣٢ .

(٤) أبو سوار العدوي : قيل اسمه حسان بن حريث وقيل حريث بن حسان وقيل منقذ روى عن أمير المؤمنين « ع » وعن الإمام الحسن وروى عنه جماعة آخرون قال ابن سعد كان ثقة وعن أبي داود انه من ثقات الناس وقال النسائي في الكنى —

وأربعين رجلا قد جمع القرآن (١) . وحدّث عوف عن اجرام سمرة قال : أقبل سمرة من المدينة فلما كان عند دور بني أسد خرج رجل من بعض أزقتهم ففاجأ أول القوم فحمل عليه رجل فاوجره الحربة « عبثاً وعتواً » قال ثم مضت الخيل فأتى عليه سمرة وهو متشحط بدمه فقال :

« ماهذا ؟ » .

« أصابته أوائل خيل الأمير !! » .

فقال « عتواً واستكباراً » : « إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتقوا أسنتنا (١)

وكان هذا الطاغي الظامىء إلى إراقة الدماء يقتل على الظنة والتهمة فقيل له :

« ياسمرة : ماتقول لربك غداً ؟ تؤتى بالرجل فيقال لك هو من الخوارج فتأمر بقتله ، ثم تؤتى بآخر فيقال لك ليس الذي قتلته بخارجي إنما وجدناه ماضيا في حاجته فشبه علينا وإنما الخارجي هذا فتأمر بقتل الثاني !! »

فأجاب سمرة عما انطوت عليه نفسه من الوحشية والإجرام وما طبع عليه من الزيغ والضلال قائلاً :

« وأي بأس في ذلك ؟ ! إن كان من أهل الجنة مضى إلى الجنة وإن كان من أهل النار مضى إلى النار » (٣) .

وحدث الحسن البصري قال جاء رجل من أهل خراسان إلى البصرة فزكى مالاً كان معه في بيت المال ، وأخذ براءة ثم دخل المسجد فصلى ركعتين ، فأخذه سمرة واتهمه برأي الخوارج فقدمه فضرب عنقه فنظروا

ــ ابوالسوار حسان بن حريث العدوي ثقة جاء ذلك في تهذيب التهذيب ١٢ / ١٢٣ .

(١) تأريخ الطبري ٦ / ١٣٢ وغيره .

(٢) الكامل ٣/١٨٣ وذكره الإمام شرف الدين في الفصول المهمة (ص١٢٢) .

(٣) ابن أبي الحديد ١ / ٣٦٣ .

فيما معه فاذا البراءة – أي البراءة من فكرة الخوارج – بخط بيت المال فاندفع أبو بكرة نحو سمرة وهو منكر عليه قائلاً :

« ياسمرة أما سمعت الله تعالى يقول : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ؟ » .

فقال سمرة : « أخوك (يعني زياداً) أمرني بذلك » (١) .

وبقي سمرة ملازماً لزياد فلما هلك صار بخدمة الأثيم الوغد ابنه (عبيد الله) فكان مديراً لشرطته واشترك معه في أفظع جريمة سجلها التأريخ وهي : قتل سيد شباب أهل الجنة وريحانة الرسول (ص) الحسين عليه أفضل الصلاة والسلام فكان يحرض الناس على حربه والخروج إلى قتله (٢) ومن اجرامه وموبقاته انه جيء اليه بجمهور من المسلمين فكان يقول للرجل مادينك ؟ فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، واني بريء من الحرورية ، فيأمر به فتضرب عنقه حتى أعدم في جلسة واحدة مايزيد على عشرين مسلما (٣) وما فعل سمرة هذه الموبقات إلا إرضاءً لمعاوية وقد قال بعدما عزله عن ولاية البصرة : « لعن الله معاوية ، والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ماعذبني أبداً » (٤) .

---

(١) شرح ابن أبي الحديد .

(٢) شرح ابن أبي الحديد .

(٣) النصائح ص ٥٤ .

(٤) نفس المصدر ، والعجب من البخاري حيث أخذ بأقوال سمرة واعتمد على حديثه في ٨ / ١٣٨ وبموجب هذه الأعمال التي ذكرتها رواة الأثر يجب أن يعد من جملة المارقين عن الدين ولا تؤخذ رواياته وأخباره ولكن قاتل الله العصبية فانها ألقت الناس في شر عظيم ، وحرفتهم عن الطريق القويم .

ومهما يكن من شيء فان هذه الفظائع التي صدرت من سمرة تدل نفس تجردت منها الإنسانية والرحمة وتمادت في العقوق والإجرام والشر .

٢ - بسر بن ارطاة :

ومن ولاة معاوية وأعوانه على تحقيق الظلم والجور والعسف والإرهاب بسر بن ارطاة الوغد الأثيم الذي فعل الأفاعيل المنكرة فقتل الشيوخ الركع وذبح الأطفال الرضع لتدعيم ملك معاوية وسلطانه ، فانه لما وجهه معاوية مع جيشه إلى اليمن فعل الأفاعيل المنكرة التي لم يشاهد التأريخ نظيراً لها في فظاعتها وقسوتها ، وقبل أن يتوجه هذا الأثيم إلى مهمته استدعاه معاوية فزوده بوصيته النارية التي احتوت على ترويع المسلمين وقتلهم وهذا نصها :

« سر حتى تمر بالمدينة فاطرد الناس وأخف من مررت به وانهب أموال كل من أصبت له مالاً ممن لم يكن دخل في طاعتنا فاذا دخلت المدينة فارهم أنك تريد أنفسهم واخبرهم أنه لابراءة لهم عندك ولا عذر حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكفف عنهم ثم سر حتى تدخل مكة ولا تعرض فيها لأحد وارهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة واجعلها شرودات حتى تأتي صنعاء والجند فان لنا بها شيعة وقد جاءني كتابهم » (١) .

وقد امتثل هذا المجرم وصية ابن هند فروع المسلمين وأدخل الفزع والخوف فيهم وأشاع القتل والفساد في الأرض ، فقد سبي نساء همدان وأقن في الأسواق فأيتهن كانت أعظم ساقا أشتريت فكن أول مسلمات سبين في الإسلام (٢) واجتاز على قوم واقفين على بئر لهم فالقاهم مع غلمانهم

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ / ١١٧ .

(٢) الإستيعاب ١ / ١٦٥ العلم الشامخ ص ٥٧٠ .

في ملك البشر (١) ثم ولى عنهم وزحف إلى يثرب فدخلها بغير حرب وصعد المنبر فاعرب عن طغيانه وكفره قائلاً : « والله لولا ماعهد إلي معـاوية ماتركت بها (يعني المدينة) محتلما » واستقام فيها شهراً فهدم دور أهلهـا وجعل يستعرض الناس فلا يقال له عن أحد أنه شرك في دم عثمان إلا قتله ثم زحف بجيشه إلى اليمن فقتل جمهوراً غفيراً من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وطلب طفلين لعبيد الله بن العباس فلما ظفر بهما أمر بقتلهما فقام اليه رجل من كنانة فقال له :

« على مَ تقتل هذين ؟ ولا ذنب لهما ، فان كنت قاتلهما فاقتلني »

فأمر بقتل الكناني ثم قتل الطفلين ، فانبرت اليه امرأة من كنانة وقد طاش لبها من هذا العمل الفظيع فقالت بنبرات تقطر ألما وحزنا :

(ياهذا قتلت الرجال ، فعلى مَ تقتل هذين والله ماكانوا يقتلون في الجاهلية والإسلام ، والله يابن أبي أرطاة إن سلطانا لايقوم إلا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الأرحام لسلطان سوء) (٢) .

نعم والله إن سلطة معاوية لسلطة سوء فقد قامت على الظلم والجور وأسست على إراقة الدماء وإدخال الرعب والفزع في نفوس الأبرياء .

وذكر الرواة أن هذا الأثيم قتل ثلاثين ألفـاً من المسلمين عدا من

---

(١) النصائح ص ٥٤ .

(٢) الكامل ٣ / ١٩٤ الطبري ٦ / ٨٠ وذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ١ / ١٢٠ أن بسراً التفت إلى نسوة كنانة فقال لهن : والله لهممت أن أضع فيكن السيف ، فقالت له : الناقدة لجوره : (والله لأحب إلي إن فعلت) ثم زحف هذا المجرم إلى صنعاء فقتل بها مائة شيخ من أبناء فارس لأن ابني عبيد الله بن العباس كانا متسترين في بيت امرأة من أبنائهم تعرف بابنة بزرج .

أحرقهم بالنار (١) .

٣ ـ أبو هريرة :

كان شيخ المضيرة أبو هريرة الدوسي ذليل الجانب محطم الكيان نشأ في صباه ، وهو عاشق للهرة ، مولع بحبها حتى لقب بها (٢) قضى شطراً من حياته وهو بائس فقير معدم يعيش على التسول فان لم يجده كان خادماً في البيوت يستأجر نفسه لشبع بطنه (٣) راضياً بهذه الضعة والهوان ، ولما انبثق نور الإسلام دخل فيمن دخل في الإسلام فكان على وضعه الأول من الفقر والبؤس وقد أدرج نفسه بفقراء الصفة (٤) يعيش بفضلات البيوت وصدقات المسلمين ، وقد وصف فقره وسوء حاله فقال : « كنت امرأ مسكينا من مساكين الصفة » (٥) وكان يتصل برسول الله (ص) ليشبع بطنه ويسد خلته (٦) وهكذا بقي على هذا الحال المرير حفنة من السنين وهو جائع عريان لامأوى له ولا مال فلما انتهى أمر الخلافة إلى عمر تفضل عليه

(١) ابن أبي الحديد ١ / ١٢٠ .

(٢) المعارف ١ / ٩٣ وجاء فيه أن أبا هريرة كان يقول : (وكنيت بأبي هرة بهرة صغيرة كنت العب بها) ولغرامه بالهرة وهيامه بحبها حدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان امرأة دخلت النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض) ذكره البخاري في صحيحه ٢ / ١٤٩ .

(٣) الإصابة ٤ / ٢٠٧ وذكره أبو نعيم في الحلية وابن سعد في الطبقات .

(٤) الصفة : موضع مظالل من مسجد النبي (ص) كان أضياف الاسلام يبيتون بها ، ذكر ذلك الفيروز آبادي في (القاموس) في مادة الصف .

(٥) صحيح البخاري ٢ / ١ .

(٦) الإصابة ٤ / ٢٠٤ .

فأنقذه من هوة الفقر وحضيض البؤس فاستعمله واليا على البحرين سنة احدى وعشرين من الهجرة فلما كانت سنة ثلاث وعشرين عزله لأنه ظهرت منه الخيانة ، ولم يكتف بعزله حتى استنقذ منه ما اختلسه من أموال المسلمين فقال له :

« علمت أني استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين ثم بلغني أنك ابتعت أفراسا بألف دينار وستمائة دينار » .

فقال أبو هريرة وقد استولى عليه الخوف :

« ياأمير المؤمنين ، كانت لنا أفراس تناتجت وعطايا تلاحقت » .

فقال له عمر وهو ثائر غضبان : « حسبت لك رزقك ومؤنتك وهذا فضل فأده » .

— ليس لك ذلك .

— بلى والله وأوجع ظهرك .

ثم قام عليه بالدرة فضربه حتى أدماه ، ولما أخذ الألم منه مأخذاً عظيما وافق على إرجاعها وقال :

« أئت بها وأحتسبها عند الله » .

فانبرى اليه عمر مبطلا زعمه في هذا الإحتساب قائلاً :

« ذلك لو أخذتها من حلال وأديتها طائعاً ، أجئت من أقصى حجر البحرين يجبي الناس لك لا لله ولا للمسلمين ؟ مارجعت بك أميمة (١) إلا لرعية الغنم » .

ثم أخذ الأموال التي اختلسها (٢) ورجع أبو هريرة إلى حاله الأول

(١) الرجع والرجيع : العذرة والروث (أميمة) أم أبي هريرة .

(٢) العقد الفريد ١ / ٢٥ .

قابعاً في زوايا الخمول قد وصم بالخيانة والإختلاس ولما انتهى الأمر إلى عثمان انضم اليه وصار من أعوانه وأخذ يفتعل الأحاديث في فضله، فقال قال رسول الله (ص) :

« إن لكل نبي خليلا من أمته وإن خليلي عثمان » (١) .

« لكل نبي رفيق في الجنة ورفيقي فيها عثمان » (٢) .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي زورها على رسول الله (ص) في فضل عثمان والأمويين، ولما انتفضت الأمة على عثمان وقتلته لسوء تصرفاته وعدم تدبيره، وصارت الخلافة إلى أمير المؤمنين (ع) رجع أبو هريرة إلى الذبول بعد النضارة، فهاجر من يثرب إلى دمشق فعقد صلته بمعاوية وأخذ يتزلف اليه ويعمل في إرضائه بكل طريق وجعل يروي لأهل الشام عن رسول الله قائلاً لهم إن رسول الله (ص) قال :

« إن الله ائتمن على وحيه ثلاثا أنا وجبرئيل ومعاوية !! » .

وقال لهم : « إن النبي (ص) ناول معاوية سهما، فقال له : خذ هذا السهم حتى تلقاني في الجنة » (٣) .

وهكذا أخذ أبو هريرة يفتعل الحديث تلو الحديث في فضل معاوية والأمويين والصحابة يتقرب بذلك إلى معاوية لينال من دنياه وقد أغدق

---

(١) ذكره الذهبي في ميزان الإعتدال في ترجمة اسحاق بن نجيح وجزم ببطلانه

(٢) أورده الذهبي في ميزان الإعتدال في ترجمة عثمان بن خالد وعده من منكراته .

(٣) رواهما الخطيب البغدادي في تأريخه وأثبتهما سماحة الإمام شرف الدين من الموضوعات في كتابه (أبو هريرة) ص ٢٧ .

عليه بالأموال الطائلة ورفع من شأنه فكساه الخز والبسه الكتان المشيق (١) ولما كان عام الجماعة قدم مع معاوية إلى العراق فلما رأى كثرة المستقبلين له جثا على ركبتيه ، ثم ضرب صلعته مراراً وقال :

« ياأهل العراق ، أتزعمون أني أكذب على الله ورسوله ، وأحرق نفسي بالنار ؟ !! والله لقد سمعت رسول الله (ص) يقول : إن لكل نبي حرماً ، وان المدينة حرمي فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وأشهد أن علياً أحدث فيها .. » .

فلما بلغ معاوية ذلك أجازه وأكرمه ، وولاه إمارة المدينة (٢) لقد استحق أبو هريرة هذا المنصب العظيم لأنه افتعل الحديث ضد أمير المؤمنين تقربا لمعاوية ، وسعيا وراء منافعه وأطماعه .

لقد فتك شيخ المضيرة بالإسلام فتكا ذريعاً بسبب رواياته المفتعلة التي شوهت الشريعة الإسلامية ، والصقت بها الخرافات والأوهام ، وأضافت الى الدين ماليس منه ، وشتتت شمل المسلمين ، وتركتهم أشياعا وأحزابا مختلفين في أصول الدين وفي فروعه وفي كل شيء ، وقد بحث سماحة الإمام المغفور له شرف الدين عن موضوعات أبي هريرة في كتابه الخالد « أبو هريرة » وكذلك تناوله بالنقد سماحة العلامة الكبير الشيخ محمود أبو رية في كتابه « شيخ المضيرة » وأثبت أنه في طليعة الوضاعين والمحرفين للسنة الاسلامية المقدسة ، والمسلمون في أمس الحاجة إلى أمثال هذه البحوث الحرة التي تكشف الغطاء عن هؤلاء الدجالين الذين لم يألوا جهداً في الكيد للإسلام ، والبغي للمسلمين بما وضعوه من الروايات التي لاواقعية ولانصيب

---

(١) صحيح البخاري ١ / ١٧٥ .

(٢) ابن أبي الحديد ١ / ٣٥٨ .

لها من الصحة .

٤ – زياد بن أبيه :

ومن أخطر ولاة معاوية وأكثرهم جوراً وظلماً زياد بن أبيه ، فقد ذكر الرواة أنه أول من شدد السلطة ، وأكد الملك لمعاوية فجرد سيفه ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة (١) وهو أول من مشى بين يديه بالأعمدة الحديدية ، وأول من جلس الناس بين يديه على الكراسي ، وأول من اتخذ العسس والحرس (٢) وقد زاد معاوية في ربقة سلطانه فولاه البصرة والكوفة وسجستان وفارس والسند والهند (٣) .

وقد ارتطمت هذه الأقطار الاسلامية الخاضعة لنفوذه بالبلاء والمحن والشقاء وعم فيها الهرج والمرج وانتزعت منها جميع الحريات واضطربت أفكار أهلها بالخوف والفزع من تلك السلطة الجائرة التي لم تعرف الرحمة والرأفة ، فقد أخذت بالظنة والتهمة وقطعت الأيدي والأرجل ، وسملت الأعين ، حتى خيم الموت على جميع الأحرار والنبلاء وبلغت الشدة والصرامة في الحكم إلى حد لاسبيل إلى تصويره ، وقد عبر زياد عن سياسته العمياء وخطته الارهابية في خطبته البتراء (٤) فقد جاء فيها :

« واني اقسم بالله لآخذن الولي بالولي ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : أنج سعد فقد هلك سعيد » .

---

(١) الكامل ١٠ / ١٨٣ .

(٢) صبح الأعشى ١ / ٤١٦ .

(٣) الطبري ٦ / ١٣٤ .

(٤) إنما سميت خطبة زياد بالبتراء لأنه لم يحمد الله فيها ؛

ومنها :

« وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتا نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفنته حياً . ثم قال : وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاي » (١) .

ومعنى هذا الخطاب أن مابينه الله ورسوله للمسلمين من الحدود لم يكن في رأي زياد كافياً لحمل أهل البصرة والكوفة على الجادة والرجوع بهم إلى الصراط المستقيم ، فالاسلام لايغرق من أغرق ، ولا يحرق من أحرق ولا ينقب عن قلب السارق وإن نقب عن البيوت والاسلام لايدفن الناس في القبور أحياءً وإن نبشوا عن الموتى في قبورهم والاسلام لايقيم الحدود بالشبهة وإنما يدرؤها بها فهذا من التشريع في الدين وهو أقل ماقام به زياد من الموبقات ، إن هذه السياسة المنكرة التي أعلنها زياد لم يعرفها المسلمون ولم يألفوهـا ، وقد دلت على أن صاحبها طاغية يريد أن يحكم الناس بالبغي ويملأ قلوبهم رعبا ورهبا ويغتصب منهم الطاعة والخضوع للسلطان اغتصابا

لقد قضت سياسة زياد الملتوية بأخذ الصحيح بذنب السقيم والمقبل بذنب المدبر وهو حكم كيفي يبرء من العدل والرحمة ، وحينما القى خطابه القاسي قام اليه أبو بلال مرداس بن أدية وهو يهمس ويقول :

« أنبأنا الله بغير ماقلت قال الله عز وجل « وابراهيم الذي وفى » (٢) « ألا تزروا وازرة وزرى أخرى » (٣) « وأن ليس للإنسان إلا

---

(١) الكامل ٣ / ٢٢٦ .

(٢) سورة النجم آية ٣٧ .

(٣) سورة النجم آية ٣٨ .

ماسعى » (١) فأوعدنا الله خيراً مما وعدت بأزياد .

فانبرى اليه زياد قائلاً بنبرات تقطر غضبا وانتقاما :

« إنا لانجد إلى ماتريد أنت وأصحابك سبيلا حتى تخوض إليها الدماء » (٢)

وسار زياد على هذه الخطة الارهابية الجائرة التي تحمل شارات الموت والاعدام لجميع الأحرار والمفكرين حتى ضرب الرقم القياسي للسلطة الجائرة وقد بلغ به الاجرام أنه كان يقتل بعض النفوس وهو يعلم ببراءتها وعدم تدخلها واشتراكها في أي أمر من الأمور السياسية ، فقد قبضت شرطته على أعرابي فجيء به مخفوراً اليه فقال له زياد :

ـ هل سمعت النداء ؟ .

ـ لا والله ، قدمت بحلوبة لي ، وغشيني الليل فاضطررتها إلى موضع فأقمت لأصبح ، ولا علم لي بما كان من الأمير .

ـ أظنك والله صادقا ولكن في قتلك صلاح هذه الأمة .

ثم أمر به فضربت عنقه صبراً (٣) من دون أن يقترف أي ذنب ، وهكذا كان زياد يلغ في دماء المسلمين ، لاحرمة لها عنده ، ولا حريجة له في سفكها ، وقد بالغ هذا الوغد الأثيم في سفك دماء شيعة آل محمد (ص) فقتلهم تحت كل كوكب ، وتحت كل حجر ومدر ، وقطع الأرجل والأيدي منهم ، وصلبهم على جذوع النخل ، وسمل أعينهم ، وطردهم وشردهم (٤) ففي ذمة الله تلك الدماء الزكية التي سفكت ، والنفوس الكريمة

---

(١) سورة النجم آية ٣٩ .

«٢» الطبري ٦ / ١٣٥ .

«٣» الطبري ٦ / ١٣٥ .

«٤» ابن أبي الحديد ٣ / ١٥ .

التي روعت ، والنساء التي رملت ، والأطفال التي يتمت .

هؤلاء بعض ولاة معاوية وجلاديه الذين سلطهم على الأمة الاسلامية فلبحوا أبناءها ، واستحيوا نساءها ، ونهبوا ثرواتها ، وعمدوا إلى اشاعة المنكرات والفساد فيهـا .

الجور الشامل :

وعمد ولاة ابن هند إلى نشر الجور والظلم في جميع أنحاء البلاد فكانت دوائرهم مصدراً للقلق والاضطراب وبابا من أبواب البلاء على الناس فما راجعها أحد إلا اكتوى بنارها ، يقول عبد الملك في وصفها : « أنعم الناس عيشاً من له مايكفيه ، وزوجة ترضيه ، ولا يعرف أبوابنا الخبيثة فتؤذيه » (١) .

لقد بالغ الولاة في ظلم المواطنين واضطهادهم فأخذوا ينهبون الاموال بغير حق ، ويشددون في أمر الخراج ، ويرغمون الناس على أدائها يقول « فان فلوتن » « وبدل أن يتخذ الخلفاء ـ أي ملوك الأمويين ـ التدابير لمحاسبة الولاة ، ومنعهم من الظلم نجدهم يقاسمونهم في فوائدهم من الأموال التي جمعوها بتلك الطرق المفضوحة ، وهذا معناه رضى الخلفاء بسوء تصرف العمال مع أهل البلاد بالاضافة إلى أنه دليل على أن بعضهم كان يهمه مصالح الخزينة المركزية بالدرجة الأولى » (٢) .

ان معاوية وسائر ملوك بني أمية لم يحاسبوا واليـا من ولاتهم ، ولم يمنعوهم من الظلم والإعتداء على الناس ، يقول عقبة بن هبيرة الأسدي لمعاوية

(١) الكامل ١٠ / ١٨٣ .

(٢) السيادة العربية : ص ٢٨ .

منددا بطمع ولاته واستصفائهم أموال الرعية :

معاوي إننا بشر فاسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد (١)
أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد
فهبنا أمة ذهبت ضياعا « يزيد » أميرها وأبو يزيد
أتطمع في الخلافة إذ هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود
ذروا خول الخلافة واستقيموا وتأمير الأراذل والعبيد
وأعطونا السوية لازركم جنود مردفات بالجنود (٢)

ويقول الشاعر الراعي النميري لعبد الملك بن مروان : مبينا له جور عماله واضطهادهم لقومه حتى افتقروا ، وهربوا في البيداء وليس معهم سوى إبل مهزولة يقول الراعي :

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
إن السعاة عصوك يوم أمرتهم وأتوا دواهي لو علمت وغولا
أخذوا العرين فقطعوا حيزومه بالأصبحية قائما مغلولا «٣»
حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا «٤»
جاؤا بصكهم واحدب أسأرت منه السياط يراعه اجفيلا «٥»
أخذوا حمولته فأصبح قاعدا لايستطيع عن الديار حويلا

«١» السجح : السهولة واللين .

«٢» خزانة الأدب ٢ / ٢٢٥ – ٢٢٦ .

«٣» الحيزوم : وسط الظهر ، الأصبحية : السياط جمع أصبح .

«٤» المعقول : الادراك .

«٥» أسأرت : أي بقيت في الإناء بقية ، الاجفيل : الخائف .

يدعو أمير المؤمنين ودونه خرق تجر به الرياح ذيولا (١)
كهداهد كسر الرماة جناحه يدعو بقارعة الطريق هديلا
أخليفة الرحمن إن عشيرتي أمسى سوامهم عزين فلولا (٢)
قوم على الإسلام لما يتركوا ماعونهم ويضيعوا التهليلا (٣)
قطعوا اليمامة يطردون كأنهم قوم أصابوا ظالمين قتيلا
شهرى ربيع ماتذوق لبونهم إلا حموضاً وخمة وذبيلا (٤)
وأتاهم يحيي فشد عليهم عقداً يراه المسلمون ثقيلا (٥)
كتبا تركن غنيهم ذا عيلة بعد الغنى وفقيرهم مهزولا
فتركت قومي يقسمون أمورهم إليك أم يتربصون قليلا (٦)

وهذا الشعر طافح بالأسى والألم قد صور فيه الشاعر الجور والمظالم التي صبها الولاة على الناس وقد استمر الجور حتى في دور عمر بن عبدالعزيز الذي هو أعدل ملوك بني أمية ـ كما يقولون ـ فان عماله لم يألوا جهداً في نهب أموال الناس وسلب ثرواتهم ، وفي ذلك يقول كعب الأشعري مخاطباً له :

إن كنت تحفظ مايليك فإنما عمال أرضك بالبلاد ذئاب
لن يستجيبوا للذي تدعو له حتى تجلد بالسيوف رقاب

«١» الخرق : الصحراء الواسعة .
«٢» عزين : الجماعات .
«٣» الماعون : أراد به الزكاة .
«٤» الحموض : المر المالح من النبات .
«٥» يحي : هو أحد السعاة الظالمين .
«٦» طبقات فحول الشعراء ص ٤٣٩ ـ ٤٤١ ، جمهرة أشعار العرب ص ٣٤١

باكف منصلتين أهل بصائر في وقعهن مزاجر وعقاب (١)

وانبرى لعمر رجل وهو على المنبر فقال له :

إن الذين بعثت في أقطارها نبذوا كتابك واُستحلّ المحرم

طلس الثياب على منابر أرضنا كل يجور وكلهم يتظلم (٢)

وأردت أن يلي الأمانة منهم عدل وهيهات الأمين المسلم (٣)

لقد امتحن المسلمون امتحانا عسيراً ، وأرهقوا إرهاقاً شديداً من الحكم الأموي الذي عمد إلى اماتة الحق ، ومناهضة العدل ، ونشر الفقر والبؤس في جميع انحاء البلاد .

ومهما يكن الأمر فان هذه البوادر التي ذكرناها عن معاوية وعن بني أمية قد شددت نقمة الناس عليهم في جميع مراحل التاريخ فقد أبرزت واقعهم الجاهلي الذي لاإلتقاء له مع النواميس الدينية ، وكان هذا هو الإنتصار الرائع الذي أحرزه الإمام الحسن (ع) في صلحه ، فقد عاد الصلح بالنكاية ببني أمية ، وبالتشهير والقدح بمعاوية حياً وميتاً ، وعاد الحكم الأموي مثالا للسلطة الجائرة التي تحمل شعار الظلم والإستبداد ، والإستهانة بحقوق الناس . ونكتفي بهذا العرض — الموجز — من موبقات معاوية التي سودت وجه التأريخ وقد ابرزها الإمام الحسن (ع) في صلحه .

سياسة أهل البيت :

ويجدر بنا ونحن في بيان أسباب الصلح ، وفي إيضاح علله أن نعرض

«١» البيان والتبيان ٣ / ٣٥٨ .

«٢» الطلس : الوسخ من الثياب .

«٣» البيان والتبيان ٣ / ٣٥٩ .

بعض الجوانب من سياسة أهـل البيت (ع) لنتبين مدى اصالة سياستهم البنّاءة، ونقف على الأهداف الرفيعة التي ينشدون تحقيقها في ظلال الحكم فان إيضاح هذه الجوانب – فيما نحسب – يعطينا أضواءً عن صلح الإمام الحسن مع طاغية زمانه، ويكشف لنا عن الأسباب التي أدت إلى تظافر القوى الباغية على مناجزته، ومناجزة أبيه من قبل، وإلى القراء ذلك .

السياسة البناءة :

إن السياسة التي يجب أن تسود جميع انحاء البلاد – عند أهل البيت – هي السياسة البناءة التي تضمن مصالح المجتمع، وتعمل على ايجاد الوسائل السليمة لرقيه وبلوغ أهدافه وآماله، وحمايته من الظلم والإعتداء، وتحقيق المساوات العادلة في ربوعه، والفرص المتكافئة بين أبنائه لوقايتهم من البؤس والحرمان .

إن سياسة أهل البيت قد تبنت العدل الخالص، والحق المحض، ومثلت وجهة الإسلام وأهدافه في عالم السياسة والحكم، فهي أرقى سياسة عرفها الناس وأجدرها بتحقيق العدل السياسي، والعدل الإجتماعي بين الناس لأنها في جميع مجالاتها تنشد الإطمئنان الذي لايشوبه قلق، والأمن الذي لايشوبه خوف، والعدل الذي لايشوبه ظلم، وهي بجميع مفاهيمها تباين السياسة الأموية الجائرة التي رفعت شعار الظلم والجور، وتذرعت بجميع وسائل المكر والخداع للمساومة على مصالح الشعوب، وابتزاز إمكانياتها والتغلب عليها .

إن السياسة الأصيلة عند أهل البيت هي التي لاتعتمد على المكر والموارية والخداع والتهريج والتضليل وغير ذلك من الأساليب التي لاتحمل جانبا من الواقعية، وانها لابد أن تكون صريحة واضحة في جميع أهدافها ومعالمها، لتحقق العدل في البلاد، ولصلابة سياستهم في الحق وصرامتها في العدل

ثار عليهم النفعيون والمنحرفون ، وطالبوهم أن ينهجوا منهجا خاصا لايتنافى مع مصالحهم وأطماعهم ، ولو أنهم استجابوا لهم لما آلت الخلافة الى غيرهم ولكنهم سلام الله عليهم آثروا رضا الله وسلكوا الطريق الواضح ، وابتعدوا عن الخطط الملتوية التي لايقرها الدين ،

نظرهم الى الخلافة :

ان الخلافة عندهم هي ظـــل الله في الأرض فيجب أن يتحقق في ظلالها العدل الشامل ، وتسود الرفاهية ، ويعم الأمن بين جميع المواطنين ، وإذا تجردت السلطة من هذه الأهداف فلا طمع ولا ارب لهم بها يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) لابن عباس ، وكان يخصف نعله بذي قار :

— يابن عباس ماقيمة هذا النعل ؟ .

— لاقيمة له ياأمير المؤمنين .

— والله لهي أحب إلي من إمرتكم إلا أن أقيم حقاً وأدفع باطلا .

إن حذاءه الذي كان من ليف أثمن عنده من الإمرة التي لايقام فيها الحق ، ولا يدفع فيها الباطل فضلا عن السلطة الجائرة التي تضيع العدل وتحي الجور وتميت الحق ، وقد كشف (ع) — في بعض كلماته — السر في إحجامه عن مبايعة أبي بكر في دور السقيفة قائلاً :

« اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنرد المعالم من دينك ، ونظهر الإصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك ، وتقام المعطلة من حدودك (١) » .

ولهذه الأسباب الوثيقة أعلن سخطه على أبي بكر ، وامتنع من مبايعته

---

(١) نهج البلاغة محمد عبده ٢ / ١٨ .

وأقام عليه سيلا من الأدلة على أحقيته بالخلافة دونه ، ولكنه لم يناجزه الحرب لأنه يرى أن الأمة من واجبها أن تنقاد اليه كما أمره رسول الله (ص) بذلك فقد قال له :

« ياعلي أنت بمنزلة الكعبة تؤتى ، ولا تأتي فان أتاك هؤلاء القوم فسلموها إليك ــ يعني الخلافة ــ فاقبل منهم ، وإن لم يأتوك فلا تأتهم حتى يأتوك » (١) .

إن الواجب على المسلمين كان هو الإنقياد لعترة نبيهم ، والرجوع اليهم ليحكموا فيهم بما أنزل الله ، ويردوهم إلى الحق الواضح ، وإلى الطريق المستقيم ، ولكن القوم قد غرتهم الدنيا ، وخدعتهم السلطة ، فانطلقوا وراء أطماعهم وأهوائهم فصرفوا الأمر عن أهله ، ووضعوه في غير محله ، فأدى ذلك إلى المحن الشاقة والخطوب السود التي منى بها المسلمون في جميع مراحل تأريخهم .

المثل العليا :

أما الأهداف السليمة والمثل العليا التي رفع شعارها أهل البيت ، وتبنوها في جميع المجالات فهي كما يلي .

أ ــ العدل :

إن السياسة الإسلامية بجميع مفاهيمها قد تبنت العدل ، وآمنت به إيمانا مطلقا ، وركزت جميع أهدافها على أضوائه ، فأهابت بالحكام والأمراء أن يطبقوه على مسرح الحياة ، وأن لايكون الحكم الصادر منهم مبعثه الهوى وسائر الأغراض التي لاتمت بصلة للعدل قال تعالى : « وإذا حكمتم بين

«١» أسد الغابة ٤ / ٣١ .

الناس أن تحكموا بالعدل » (١) وقال تعالى : « ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » (٢)

وقد أجمع المسلمون على أن الحاكم إذا انحرف في حكمه وجب عزله ، وقد عزل أمير المؤمنين أحد ولاته حينما أخبرته سودة بنت عمارة الهمدانية بأنه قد جار في حكمه فجعل الإمام يبكي ويقول :

« اللهم أنت الشاهد علي وعليهم إني لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا بترك حقك » .

ثم عزله في الوقت (٣) ويقول الإمام الصادق : « اتقوا الله ، واعدلوا فانكم تعيبون على قوم لايعدلون » (٤) .

إن سعادة الأمة ورقيها بعدل حكامها ، فاذا جافى الحكام العدل وجاروا في الحكم تعرضت البلاد للأزمات والنكسات وسادت فيها الفوضى والنزعات ، ومن ثمّ فان الإسلام يحرص كل الحرص عل أن يكون الحكم بيد الصلحاء والثقات لأن للحكم أغراءً لايفلت من ربقته إلا ذوو النفوس الزكية الكريمة — وما أقل عددهم — وقد تحدثنا عن مظاهر العدل وبسطنا القول فيه في كتابنا « النظام السياسي في الإسلام » ولا نرى أن هنا حاجة في عرض تلك البحوث ، وانما نريد أن نقول إن سياسة أهل البيت (ع) قد تركزت على العدل الشامل وبنت جميع أهدافها عليه .

«١» سورة النساء : آية ٥٦ .

«٢» سورة ص : آية ٢٦ .

«٣» العقد الفريد ١ / ٢١١ .

«٤» أصول الكافي ٢ / ١٤٧ .

ب ــ المساواة :

إن الإسلام أسبغ نعمة المساواة على الإنسانية بصورة لم يسبق لها مثيل في تأريخ المجتمع العالمي ، فقد أعلن المساواة العادلة مابين الأفراد والجماعات وما بين الأجناس فلا فضل لأبيض على أسود ، ولا لعربي على أعجمي ، فالناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لبعضهم على بعض إلا بالتقوى والعمل الصالح يقول الأستاذ جيب :

« إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي مازال في قدرته أن ينجح نجاحا باهراً في تأليف العناصر والأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة . وإذا وضعت منازعات الشرق والغرب موضع الدرس فلا بد من الإلتجاء إلى الإسلام » (١) .

وقد طبق الامام أمير المؤمنين المساواة العادلة تطبيقاً شاملا في دور حكمه ، فامر عماله وولاته أن يساووا بين الناس حتى في اللحظة والنظرة فقد جاء في بعض رسائله مانصه :

« واخفض للرعية جناحك وأبسط لهم وجهك وألن لهم جانبك ، وآس بينهم في اللحظة والنظرة (٢) والإشارة والتحية ، حتى لايطمع العظماء في حيفك ولا ييأس الضعفاء من عدلك » (٣) .

وهذه السياسة العادلة هي التي أثارت عليه الأحقاد والضغائن وأدت إلى تكتل القوى الباغية وتظافرها على مناجزته ، وقد نص على ذلك المدائني بقوله :

«١» النظام السياسي في الإسلام ص ٣١٩ .

«٢» آس : أي شارك بين الرعية حتى في هذه الأمور البسيطة .

«٣» النهج محمد عبده ٣ / ٨٥ .

« إن من أهم الأسباب في تخاذل العرب عن علي بن أبي طالب (ع) كان أتباعه لمبدأ المساواة بين الناس حيث كان لايفضل شريفاً على مشروف ولا عربياً على عجمي ولا يصانع الرؤساء والقبائل » (١) .

إن طغاة قريش ، ومن سار في ركابهم من جبابرة العرب لم يكونوا بأي حال قد وعوا الأهداف الأصيلة التي جاء بها الإسلام لتعميم المساواة وبسط العدل والقضاء على الغبن ، إنهم يريدون الإمتيازات والإستئثار بأموال المسلمين ، والإستعلاء على الفقراء والضعفاء وكل ذلك يتنافى مع سيرة ابن أبي طالب رائد العدالة الإجتماعية الكبرى في الأرض ، وقد سار الإمام الحسن على خطته وسيرته ولم يتحول عن نهجه فأثار ذلك عليه الأحقاد والأضغان .

ج – الحرية :

وتبنى الإسلام الحرية العامة لجميع المواطنين ، وألزم الدولة بحمايتها ، وتطبيقها على مسرح الحياة سواء أكانت الحرية في العقيدة أو في التفكير ، والتعبير عن الرأي ، أو في المناحي السياسية ، واعتبر الإسلام كل ذلك من الحقوق الطبيعية للانسان التي لا غنى عنها بحال من الأحوال ، وقد طبق الإمام أمير المؤمنين الحرية بأرحب مفاهيمها في دور خلافته ، فانه لم يرغم القعاد على مبايعته ، ولم يكرههم على طاعته ، وإنما تركهم وشأنهم يتمتعون بحريتهم من دون أن يتعرض لهم بأذى أو مكروه ، وكذلك عامل الخوارج فانه لم يناجزهم الحرب حتى أنذرهم وأعذر فيهم ، وحاججهم فأبطل شبههم ولما صمموا على فكرتهم ولم يتنازلوا عنها خلّى سبيلهم ، وأطلق سراحهم ولكن لما عاثوا فساداً في الأرض ، وأخلّوا بالأمن العام ناجزهم عملاً

«١» شرح ابن أبي الحديد ١ / ١٨٠ .

بقوله تعالى : « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » . ولما فرغ من حربهم كان في المجتمع العراقي جمهور غفير ممن يعتنق فكرتهم ، فلم يتعرض لهم بمكروه ، ولم يمنعهم من الفيء ، ولم يرد أحداً منهم عن الخروج إن أراده ، ومنحهم الحرية التامة ، فلم تراقبهم السلطة ، ولم تتبعهم أو تنكل بأحد منهم ، وكذلك أعطى الحرية الواسعة الى الحزب الأموي ، فلم يتعرض لهم بأذى أو مكروه مع العلم أنهم كانوا من ألدّ خصومه وأعدائه.

وهذه الحرية الواسعة التي أعطاها الإمام للأحزاب المناوئة له كانت أوسع حرية عرفها التأريخ ، لقد قضت سياسته البنّاءة على عدم استكراه الناس على الطاعة ، وعدم ارغامهم على ما لا يحبون .

د — الصراحة والصدق :

ان السياسة الرشيدة التي رفع شعارها أهل البيت تسير على ضوء الصدق والواقع فلا توارب ، ولا تنافق ، ولا تغري الشعوب بالوعود الكاذبة ، ولا تمنيها بالأماني المعسولة ، رائدها في جميع مخططاتها الصراحة والصدق .

لقد حفلت سياستهم بالصراحة في جميع الميادين ، فليس من منطقها الخداع والنفاق ، وقد صارح الإمام الحسين (ع) سبط النبي وممثل الإسلام الجماهير التي صحبته من مكة والتي التحقت به فى أثناء الطريق حينما بلغه مقتل سفيره وممثله فى العراق الشهيد العظيم مسلم بن عقيل (ع) صارحهم بمقتله ، وخيانة أهل الكوفة به ، وغدرهم بعهودهم ومواثيقهم ، وانه متوجه فى سفره الى ساحة الموت ، فتفرّق ذوو الأطماع والأهواء عنه ، لقد أدلى (ع) في تلك الساعة الرهيبة بالحقيقة الراهنة ، وكشف لهم الستار عن خطته وأهدافه ، ليكونوا على بصيرة من أمرهم عملاً بأوامر الإسلام التي

تلزم بالصراحة والصدق ولا تبيح أي وسيلة من وسائل الغدر والخداع .

إن المواربة لو كانت سائغة في الإسلام بأي شكل من الأشكال لما تغلب معاوية بن أبي سفيان خصم الإسلام على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فكان بامكانه أن يساومه بعد مقتل عثمان ويبقيه على ولايته في دمشق ، ثم يعزله بعد ذلك عن منصبه ويتخلص من شرّه وتمرده ، ولكن الإسلام يأبى له تلك المساومة الرخيصة فامتنع من بقائه في جهاز الحكم ولو زمناً قصيراً ، وهناك أمر آخر هو أعمق أثراً ، وأبعد مدى في عالم الصراحة من ذلك هو امتناع الإمام من اجابة عبد الرحمن بن عوف أحد أعضاء الشورى الذين رشحهم الخليفة الثاني لانتخاب الخليفة الجديد من بعده ، فقد ألحّ عبد الرحمن على الإمام إلحاحاً بالغاً أن يبايعه وينتخبه لمركز الخلافة الإسلامية العظمى ، ولكن شرط عليه أن يسير بسيرة الشيخين ، ويقتفي بسياستهما فامتنع (ع) من اجابته على هذا الشرط وأبى إلا أن يسير على كتاب الله ، ويقتدي بسنة نبيه في سياسته وأعماله الأدارية وغيرها ، لقد كان بامكانه أن يوافق على ذلك الشرط ابتداءً ثم يعدل عنه ويسير في سياسته على وفق الأهداف التي رسمها الإسلام ويحتمل كل من يعارضه ويقف في وجه حكومته ، ولكنه أبى إلا الصراحة والصدق في القول والفعل .

إن الإسلام يأمر بالتمسك بالصدق ، ولا يسيغ استعمال الطرق الملتوية التي لا تمت بصلة الى الواقع في تثبيت الحكم ، وتدعيم السلطة .

يقول الرسول صلى الله عليه وآله :

« عليكم بالصدق ، فان الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما زال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فان الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور

يهدي الى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (١) .

إن أهل البيت قد ركزوا سياستهم على الصدق والصراحة ، وجنبوها من المكر والخداع .

يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) :

« لولا ان المكر والخداع في النار لكنت أمكر الناس » .

وكان (ع) كثيراً ما يتنفس الصعداء من الآلام المرهقة التي يلاقيها من خصومه ويقول :

« وا ويلاه ، يمكرون بي ويعلمون أني بمكرهم عالم ، وأعرف منهم بوجوه المكر ، ولكني أعلم أن المكر والخديعة فى النار ، فأصبر على مكرهم ولا أرتكب مثل ما ارتكبوا .. » (٢)

ويقول فى الغدر :

« لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة » (٣) .

إن الغدر إنما ينبعث عن نفس لا تؤمن بالمثل الإنسانية ، والقيم الدينية ، ويصف الإمام أمير المؤمنين الغادر بأنه قد نسخ من كيان نفسه الإيمان بالله يقول :

« ولا يغدر من علم كيف المرجع ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً ، ونسبهم أهل الجهل فيه الى حسن الحيلة ، ما لهم قاتلهم الله !! قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله

(١) رواه مسلم .

(٢) جامع السعادات ١ / ٢٠٢

(٣) نهج البلاغة

ونهيه فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين .. »

وتحدث عمن قال في دور حكومته من عبيد الشهوات والمناصب : بأنه لا دراية له في شؤون السياسة ، وإن معاوية خبير بها ، وخليق بادارة دفة الحكم . قال (ع) :

« والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس » (١) .

ان سياسة الإمام أمير المؤمنين وأئمة أهل البيت في جميع شؤونها قد عبرت عن جميع القيم السياسية الخيرة التي أعلنها الإسلام ، فهي لا تقرّ الغدر ، ولا المكر ، ولا الخداع ، ولا تؤمن بأي وسيلة من وسائل النفاق الاجتماعي وإن توقف عليها النجاح السياسي المؤقت ، لأن الخلافة الإسلامية من أهم المراكز الحساسة في الإسلام ، فلا بد لها من الاعتماد على الخلق الرصين والإيمان العميق بحق المجتمع والأمة .

وسار الإمام الحسن (ع) على مخططات أبيه ومقرراته في عالم السياسة والحكم ، فلم يعتمد على أي وسيلة لا يقرّها الدين ، وتجنب جميع الطرق الشاذة التي لا تلتقي مع الواقع ، ولو أنه سلك بعض الأساليب التي سلكها معاوية لما تغلب عليه ، وقد أدلى (ع) بذلك الى سليمان بن صرد فقال له :

« ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا ، وللدنيا أعمل ، وأنصب ، ما كان معاوية بأبأس مني ، وأشد شكيمة ، ولكان رأيي غير ما رأيتم .. »

ودلّ ذلك على أنه لو كان يعمل للدنيا لكان أقوى عليها من خصومه ولكن التغلب على الأحداث والظفر بالحكم يتوقف على اتخاذ الوسائل التي

---

(١) نهج البلاغة ٢ / ٢٠٦ .

لا تتفق مع الدين وهو (ع) أحرص المسلمين على صيانة الاسلام ورعايته.

هـ - الولاة والعمال :

ويرى أهل البيت (ع) أن الموظفين في جهاز الحكم لابد أن يكونوا من خيرة الرجال في الجدارة والنزاهة والكفاءة والقدرة على إدارة شؤون البلاد، ليضعوا المصلحة العامة نصب أعينهم، ويسيروا بين الناس سيرة قوامها العدل الخالص، والحق المحض، ويكونوا أمناءً فيما يجبونه من الناس وفيما ينفقونه على المرافق العامة، وأن يكونوا - قبل كل شيء - بعيدين عن الرشوة، وعما في أيدي الناس، فان الرشوة تؤدي الى انهيار الأخلاق وشيوع الباطل، والفساد في الأرض، وقد بعث الامام أمير المؤمنين (ع) الى أمراء الأجناد بهذه الرسالة :

« أما بعد : فانما هلك من كان قبلكم، إنهم منعوا النـاس الحق فاشتروه، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه. »(١)

إن من أهم الأسباب التي تؤدي الى دمار الحكومة وزوالها هي أن تحجب المواطنين عن الحق حتى يضطروا الى استنقاذه بالرشوة، ومن الطبيعي ان ذلك يؤدي الى فقدان الأمن، واضطراب المجتمع، وانتشار الظلم والجور.

وقد نظر أهل البيت (ع) الى ما هو أبعد من ذلك وأعمق بكثير، فقد فرضوا على ولاتهم أن يبتعدوا عن الناس بكل نحو من أنحاء الصلة، ولو كانت موجبة للربط الودي أو العاطفي لما عسى أن يكون لذلك أثر على مجرى العدل، ولذلك ان أمير المؤمنين (ع) لما بلغه ان عامله بالبصرة سهل بن حنيف قد دُعي الى مأدبة فأجاب اليها، فكتب اليه يستنكر منه

---

(١) نهج البلاغة ١ / ١٥١ .

ذلك ، ويوبخه على ما صدر منه ، وهذا نص ما كتبه اليه :

« أما بعد : يابن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة فأسرعت اليها تستطاب لك الألوان ، وتنقل اليك الجفان وما ظننت أنك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو (١) ، وغنيهم مدعو ، فانظر الى ما تقضمه من هذا المقضم (٢) فما اشتبه عليك علمه فالفظه ، وما أيقنت بطيب وجوهه (٣) فنل منه . » (٤) .

وأراد الأشعث بن قيس أن يتقرب الى أمير المؤمنين ويتصل به فصنع له حلوى جيدة فقدمها اليه ، ولندعه (ع) يحدثنا عن موقفه تجاه هـذا الأمر يقول :

« وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعائها (٥) ، ومعجونة شنئتها كأنما عجنت بريق حية أو قيئها ، فقلت : أصلة أم زكاة أم صدقة؟ فذلك محرم علينا أهل البيت ، فقال : لا ذا ولا ذاك ، ولكنها هدية ، فقلت : هبلتك الهبول (٦) أعن دين الله أتيتني لتخدعني ؟ أمختبط ، أم ذو جنة ، أم تهجر (٧) ؟ والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها

---

(١) عائلهم : أي محتاجهم ، مجفو : أي مطرود من البؤس والجفاء .

(٢) المقضم : المأكل .

(٣) بطيب وجوهه : أي بالحل في طرق كسبه .

(٤) نهج البلاغة محمد عبده ٣ / ٧٨ .

(٥) الملفوفة : نوع من الحلواء .

(٦) هبلتك ـ بكسر الباء ـ : ثكلتك ، الهبول ـ بفتح الهاء ـ : المرأة لا يعيش لها ولد .

(٧) المختبط : من اختل نظام ادراكه ، تهجر : أي تهذي بما لا معنى له .

على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة (١) ما فعلت ، وإن دنيا كم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها ما لعلي ولنعيم يفني ، ولذة لا تبقى ، نعوذ بالله من سبات العقل (٢) ، وقبح الزلل وبه نستعين (٣)

وبهذه السياسة البناءة تتحقق العدالة الاجتماعية ، ويسود الأمن والرخاء ويقضى على جميع أفانين الظلم والغبن .

د ـ الخدمة العسكرية :

ولم تقض سياسة أهل البيت بارغام الناس على الخدمة العسكرية ، فلم يؤثر عنهم أنهم أكرهوا الناس على الخروج الى الحرب ، وإنما كانوا يدعون الى الجهاد كفرض من فروض الله فمن شاء أن يخرج خرج مؤدياً لما فرض عليه ، ومن قعد فانما يقعد غير ممتثل لما أوجبه الله عليه من دون أن ينال عقوبة أو يتعرض للسخط والارهاب ، وكانت هذه خطة الحسن (ع) لما أراد مناجزة معاوية ، فانه لم يكره أحداً على ذلك ، وإنما ندبهم الى الجهاد ، وقد فعل ذلك أمير المؤمنين من قبل في حرب الجمل وصفين ، والنهروان ، وقد أرادوا بذلك أن يكون الناس مندفعين بدافع الايمان والعقيدة لما أوجبه الله عليهم من الفرض ، وعلى عكس ذلك سار بنو أمية ، فانهم كانوا يفرضون أشد العقاب على من تخلف عن الحرب ، كما يحدثنا التأريخ بذلك في سيرة عبيد الله بن زياد لما امر بالخروج لحرب

---

(١) جلب الشعيرة ـ بكسر الجيم ـ : قشرها ، وأصل الجلب : غطاء الرحل فتجوز في اطلاقه على غطاء الحبة .

(٢) سبات العقل : نومه .

(٣) النهج محمد عبده ٢ / ٢٤٤ .

سيد الشهداء (ع) فقتل الشامي على أنه لم يكن ممن أمر بالخروج الى الحرب وقتل الحجاج عمرو بن ضابي البرجي لأنه لم يستجب للالتحاق بجيش المهلب ابن أبي صفرة ، وفي ذلك يقول الشاعر :

تخير فأما ان تزور ابن ضابي عميراً وأما أن تزور المهلبا

وأدت هذه الخطة الارهابية الى ارغام الناس على الاستجابة لهم عن كره ، ولو أن الامام الحسن (ع) أجبر جيشه على الطاعة ، وأنزل العقاب الصارم بالمتمردين والمتخاذلين ، وعاقب على الظنة والتهمة لما اصيب جيشه بتلك الزعازع والانتكاسات ، ولكنه سلام الله عليه قد سلك الطريق الواضح الذي لا تعقيد فيه ولا التواء ، وآثر رضاء الله في كل شيء .

هـ ـ السياسة المالية :

أما السياسة المالية التي انتهجها أهل البيت فكانت تلزم بصرف الخزينة المركزية على المصالح العامة كانشاء المؤسسات ، وايجاد المشاريع الحيوية التي تنتظم بها الحياة ، ويقضى بها على شبح الفقر والحرمان ، ولا يسوغ عندهم صرف درهم واحد فيما لا تعود فيه منفعة أو فائدة للأمة ، وقد احتاطوا في هذه الجهة احتياطاً بالغاً ، فقد اطفأ الامام أمير المؤمنين سراج بيت المال عن طلحة والزبير لما أرادا أن يفاوضاه في مصالحهما الشخصية ، فان الضياء الذي في بيت المال ملك للمسلمين ، فلا يجوز استعماله إلا في مصالحهم .

وقد أثارت عليه هذه السياسة الصارمة أحقاد العرب ، وأضغان قريش ، وأقبلت اليه طائفة من أصحابه يطلبون منه أن يغير سياسته قائلين :

« يا أمير المؤمنين ، إعط هذه الأموال ، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ، واستمل من تخاف خلافه من الناس » .

فلذعه هذا المنطق الرخيص وانبرى قائلاً :

« أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور .. » (١)

ان تفضيل العرب على الموالي ، ومنح الأموال للوجوه كل ذلك جور واعتداء على حقوق المسلمين في نظر ابن أبي طالب رائد المساواة والعدالة الكبرى في الأرض ،

ان أموال المسلمين يجب أن تنفق على مصالحهم ، وضمان عائلهم ومحرومهم ، وليس لزعيم الدولة أن يصطفي منها ، أو يؤثر بها أقاربه ومن يمت اليه ، فان ذلك خيانة لله وللمسلمين ، وقد طبق الامام أمير المؤمنين هذه السياسة العادلة على واقع الحياة حينما آل اليه الأمر ، فانه لم يقتن الدور والضياع ، ولم يرفه على نفسه فيعير لبالي ثوبه اهتماماً ، أو يأكل ما لذّ من الطعام ، أو يتمتع بشيء من متع الحياة ، وإنما كان يعيش عيشة الفقراء والبؤساء ، فقد روى هارون عن أبيه عنترة قال دخلت على علي وهو بالخورنق ، وعليه خلق قطيفة ، وكان الوقت شديد البرد فقلت له :

« يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك » .

فانبرى (ع) مجيباً له :

« والله ما أرزأكم شيئاً وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة . » (١)

انه ليس عنده من اللباس ما يقيه من البرد سوى خلق قطيفة جاء بها من يثرب ، وفي استطاعته أن يلبس الحرير الموشى ، ولكنه أبى أن يصطفي من أموال المسلمين شيئاً ، كما انه لم يؤثر بها أحداً من أهل بيته وأبنائه ،

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ / ١٨٢ .

(١) الكامل ٨ / ١٧٣ .

فقد روى أبو رافع (١) وكان خازناً لبيت المال ، قال : دخل عليّ أمير المؤمنين وقد أعطيت ابنته لؤلؤة من بيت المال ، فلما رآها عرفها ، وقد تغير لونه ومشت الرعدة بأوصاله فقال :

« من أين لها هذه ؟ والله لأقطعن يدها . »

فلما رأى أبو رافع جده في الأمر ، وعزمه على ذلك قال له :

« أنا والله يا أمير المؤمنين أعطيتها وهي عارية مضمونة » .

فهدأ روعه ، وسكن غضبه ، واندفع قائلاً :

« لقد تزوجت بفاطمة وما لي فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه ناضحنا بالنهار ، وما لي خادم غيرها . » (٢)

إن مُثله الرفيعة لم تسمح له أن يؤثر ابنته على بنات المسلمين ، وهذا هو منتهى العدل الذي لم يحققه أحد غيره ، ومن مساواته بين المسلمين ، واحتياطه البالغ في أموالهم ما رواه عاصم بن كليب (٣) عن أبيه قال :

---

(١) أبو رافع : قيل اسمه ابراهيم ، وقيل أسلم ، كان قبطياً ، قيل كان ملكاً للعباس فوهبه الى رسول الله (ص) ، ولما أسلم العباس بشر أبو رافع رسول الله باسلامه فأعتقه توفي في خلافة عثمان ، وقيل في خلافة أمير المؤمنين ، الأستيعاب ٤ / ٧٠ .

(٢) الكامل ٨ / ١٧٣ .

(٣) عاصم بن كليب بن شهاب الجرمي الكوفي ، روى عن جماعة من أعيان الصحابة ، وروى عنه جماعة آخرون ، قال ابن معين والنسائي : إنه ثقة ، وقال ابن شهاب : إنه من العباد ، ومن أفضل أهل الكوفة ، اتهم بالمرجئة ثم نزّه من ذلك ، وعدّه ابن حبان في الثقات ، وقال : إنه ثقة مأمون توفي سنة ١٣٧ هـ تهذيب التهذيب ٥ / ٥٥ .

« قدم على عليٍّ مال من اصبهان فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة أقسام ، ودعا امراء الأسباع فأقرع بينهم لينظر أيهم يعطى أولاً ... »(١)

إن هذا هو العدل الذي لم تحققه الانسانية فى جميع مراحل تاريخها فانها على ما جربت من تجارب . وبلغت من رقي وابداع في فنون الحكم فانها لا تستطيع بأي حال من الأحوال أن تنشىء نظاماً سياسياً تتحقق فيه العدالة الكبرى كهذا النظام الذي وضعه ابن أبي طالب ، وسار على منهاجه أبناؤه من بعده .

الى هنا ينتهي بنا الحديث عن بعض المثُل العليا التي ينشدونها أهل البيت فى ظلال الحكم ، ولو أن الامام الحسن (ع) انحرف عنها ، ونهج في سياسته منهج من يعمل للدنيا ، وسلك مسلك من يبغي الملك والسلطان ، فراوغ وداهن ، وأنفق المال في غير محله ، لما آل الأمر الى ابن هند الذي سلك جميع الوسائل في سبيل الوصول الى الحكم ، ولكنه سلام الله عليه آثر صيانة الاسلام ، والحفاظ على مقدراته ومعنوياته ، فسار بسيرة جده وأبيه التي لا تقر كل طريق يتصادم مع الدين .

وبقي هنا شيء ذكره الناقدون للصلح ، وهو عدم استشهاد الامام فقد كان الأجدر به أن يناجز معاوية حتى ينال الشهادة ، كما استشهد أخوه سيد الشهداء الحسين (ع) ، وسنذكر جواب ذلك مشفوعاً بالتفصيل عند التحدث عن موقف الامام الحسين عليه السلام من الصلح .

---

(١) الكامل ٨/١٧٣ .

بُنودُ الصُّلح



واختلف المؤرخون اختلافاً كثيراً فيمن بادر لطلب الصلح فابن خلدون وجماعة من المؤرخين ذهبوا الى أن المبادر لذلك هو الامام الحسن عليه السلام بعد ما آل أمره الى الانحلال (١) ، وذهب فريق آخر الى أن معاوية هو الذي بادر لطلب الصلح بعد ما بعث اليه برسائل أصحابه المتضمنة للغدر والفتك به متى شاء معاوية أو أراد (٢) ، وذكر السبط ابن الجوزي أن معاوية قد راسل الامام سراً يدعوه الى الصلح فلم يجبه ، ثم أجابه بعد ذلك (٣) ، وأكبر الظن ان معاوية هو الذي استعجل الصلح وبادر اليه وذلك خوفاً من العراقيين أن ترجع اليهم أحلامهم ، ويثوب اليهم رشدهم وذلك لما عرفوا به من سرعة الانقلاب وعدم الاستقامة على رأي ، ومما يدل على ان معاوية هو الذي ابتدأ في طلب الصلح ، خطاب الامام الحسن الذي ألقاه في المدائن فقد جاء فيه « ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة » .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢ / ١٨٦ ، وفي الاصابة انه لما طعن الامام بخنجر دعا عمرو بن سلمة الأرحبي وأرسله الى معاوية يشترط عليه ، وفي الكامل ٣/٢٠٥ قال لما رأى الامام الحسن تفرق الأمر عنه كتب الى معاوية ، وذكر ذلك ابن أبي الحديد ٤ / ٨ .

(٢) الارشاد ص ١٧٠ ، كشف الغمة ص ١٥٤ ، مقاتل الطالبيين ص ٢٦

(٣) تذكرة الخواص ص ٢٠٦ ، وذكر الحاج احمد افندي في فضائل الأصحاب ص١٥٧ انه يمكن الجمع بين الأخبار بأن معاوية أرسل له أولاً في الصلح فكتب الحسن اليه ثانياً يطلب ما ذكر ، وأجملت بعض المصادر الأمر ، فقال اليعقوبي في تأريخه ٢ / ١٩٢ : لما رأى الحسن أن لا قوة به وأن أصحابه قد افترقوا عنه فلم يقوموا له صالح معاوية ، وكذا ذكر غيره .

ومهما يكن من شيء فان تحقيق ذلك ليس بذي أهمية ، لأن الامام إن كان هو الذي استعجل الصلح فلا ضير عليه نظراً للمحن الشاقة التي أحاطت به حتى ألجأته الى المسالمة ، وإن كان معاوية هو الذي استعجل الصلح فلا ضير على الامام ايضاً لما أوضحناه في أسباب الصلح ، والمهم البحث عن الشروط التي اشترطها الأمام على خصمه .

فقد اختلف التأريخ فيها اختلافاً فاحشاً ، واضطربت كلمات المؤرخين في ذلك ، وفيما يلي بعض تلك الاقوال .

١ — ذكر بعض المؤرخين ان الامام أرسل سفيرين الى معاوية ، هما عمرو بن سلمة الهمداني ، ومحمد بن الأشعث الكندي ليستوثقا من معاوية ويعلما ما عنده . فأعطاهما معاوية هذا الكتاب وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب للحسن بن علي من معاوية بن أبي سفيان ، إني صالحتك على ان لك الأمر من بعدي ، ولك عهد الله وميثاقه وذمته ، وذمة رسوله محمد (ص) ، وأشد ما أخذه الله على أحد من خلقه من عهد وعقد ، لا أبغيك غائلة ولا مكروهاً ، وعلى أن أعطيك في كل سنة ألف ألف درهم من بيت المال ، وعلى أن لك خراج بَسا ودار ابجرد ، تبعث اليهما عمالك ، وتصنع بهما ما بدا لك » . شهد بهما عبد الله بن عامر ، وعمرو بن سلمة الكندي ، وعبد الرحمن بن سمرة ، ومحمد ابن الأشعث الكندي ، كتب في شهر ربيع الآخر سنة إحدى واربعين هجرية .

وتنص هذه الوثيقة على اعطاء معاوية للحسن ثلاثة أشياء :

١ — جعله ولي عهده .

٢ — للإمام من بيت المال راتب سنوي ألف ألف درهم .

٣ — منحه كورتين من كور فارس يرسل اليهما عماله ، ويصنع بهما ما شاء .

واحتفظ الامام برسالة معاوية ، فأرسل اليه رجلاً من بني عبد المطلب وهو عبد الله بن الحارث بن نوفل وأمّه اخت معاوية فقال له : إئت خالك وقل له إن أمنت الناس بايعتك .

ولما انتهى عبد الله الى معاوية وعرض عليه مهمة الامام وهي طلب الأمن العام لعموم الناس ، إستجاب له وأعطاه طوماراً وختم في أسفله وقال له : فليكتب الحسن فيه ما شاء ، فجاء عبد الله بن الحارث بهذا التفويض المطلق الى الامام ، فكتب (ع) ما رامه من الشروط ، وسنذكر نص ما كتبه عند التعرض لبعض الروايات ، لأنه لا يختلف عنها ، وقد عول على هذه الرواية الدكتور طه حسين (١) .

٢ - وروى كل من الطبري وابن الأثير صورة غير هذه وخلاصتها ان الامام راسل معاوية في الصلح واشترط عليه اموراً فان التزم بها ونفذها أجرى الصلح وإلا فلا يبرمه ، فلما وصلت رسالة الامام الى معاوية أمسكها واحتفظ بها ، وكان معاوية قبل ورود هذه الرسالة عليه قد بعث للامام صحيفة بيضاء مختوماً في أسفلها ، وكتب اليه أن اشترط في هذه الصحيفة ما شئت وقد وصلت هذه الصحيفة الى الامام بعد ما بعث الى معاوية الوثيقة التي سجل فيها ما أراده ، وسجل الامام في تلك الصحيفة البيضاء اضعاف الشروط التي اشترطها أولاً ثم أمسكها ، فلما سلم له الأمر طلب منه الوفاء بالشروط التي اشترطها أخيراً ، فلم يف له بها وقال له : « لك ما كنت كتبت إليّ أولاً تسألني أن أعطيكه فاني قد أعطيتك حين جاءني كتابك ، فقال له الحسن (ع) : وأنا قد اشترطت حين جاءني كتابك وأعطيتني العهد على

---

(١) الفتنة الكبرى ٢ / ٢٠٠ .

الوفاء بما فيه ، فاختلفا في ذلك ، فلم ينفذ للحسن من الشروط شيئاً » (١) .

وهذه الرواية لم تذكر لنا الشروط التي اشترطها الامام « أولاً » ولا ما سجله . « ثانياً » في الصحيفة البيضاء التي بعث بها معاوية اليه إلا أن أبا الفداء في تأريخه نص على الشروط الاولى التي اشترطها الامام فقال : « وكتب الحسن الى معاوية واشترط عليه شروطاً وقال : إن أجبت اليها فأنا سامع مطيع ، فأجاب معاوية اليها ، وكان الذي طلبه الحسن أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة ، وخراج دار ابجرد من فارس ، وأن لايسب علياً ، فلم يجبه الى الكف عن سب علي فطلب الحسن أن لا يشتم علياً وهو يسمع فأجابه الى ذلك ، ثم لم يف له به » (٢) .

وعندي ان ما ذكره ابن الأثير والطبري بعيد عن الصحة كل البعد وذلك لأن الشروط التي اشترطها الامام أخيراً إن كانت ذات أهمية بالغة فلماذا أهملها ولم ينص عليها في بداية الأمر ؟ ولو اغمضنا النظر عن ذلك فأي فائدة في تسجيلها مع عدم اطلاع معاوية عليها وإقراره لها ، مضافاً لذلك ان معاوية في تلك المرحلة لو سأله الإمام أي شيء لأجابه اليه .

٣ — وروى ابن عبد البر : « ان الإمام كتب الى معاوية يخبره أنه يصيرّ الأمر اليه على أن يشترط عليه أن لايطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز ولا أهل العراق بشيء كان في أيام أبيه ، فأجابه معاوية وكاد يطير فرحاً إلا أنه قال : أما عشرة انفس فلا أؤمنهم ، فراجعه الحسن فيهم فكتب اليه يقول : إني قد آليت متى ظفرت بقيس بن سعد أن أقطع لسانه ويده ، فراجعه الحسن إني لا أبايعك أبداً وأنت تطلب قيساً

(١) الكامل ٣ / ٢٠٥ ، الطبري ٦ / ٩٣ .

(٢) تأريخ ابي الفداء ١ / ١٩٢ .

أو غيره بتبعة ، قلت : أو كثرت ! فبعث اليه معاوية حينئذ برق أبيض وقال : اكتب ما شئت فيه وأنا التزمه ، فاصطلحا على ذلك ، واشترط عليه الحسن أن يكون له الأمر من بعده ، فالتزم ذلك كله معاوية » (١) .

وقد احتوت هذه الرواية على أن أهم ما طلبه الامام الأمن العام لعموم اصحابه واصحاب أبيه ، ولا شك ان هذا الشرط من أوليات الشروط وأهمها عند الامام أما ان الصلح جرى بهذا اللون فأنا أشك في ذلك .

٤ ــ وذكر جماعة من المؤرخين ان الإمام ومعاوية اصطلحا وارتضيا بما احتوته الوثيقة الآتية وقد وقّع عليها كل منهما وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ما صالح عليه الحسن بن علي بن أبي طالب ، معاوية بن أبي سفيان ، صالحه على أن يسلم اليه ولاية أمر المسلمين على ان يعمل فيهم بكتاب الله ، وسنّة رسوله ، وسيرة الخلفاء الصالحين ، وليس لمعاوية بن ابي سفيان ان يعهد الى احد من بعده عهداً ، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين ، وعلى ان الناس آمنون حيث كانوا من ارض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم ، وعلى ان اصحاب علي وشيعته آمنون على انفسهم واموالهم ونسائهم واولادهم ، وعلى معاوية بن ابي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه ، وما أخذ الله على احد من خلقه بالوفاء ، وبما اعطى الله من نفسه ، وعلى ان لا يبغي للحسن بن علي ، ولا لأخيه الحسين ، ولا لأحد من اهل بيت رسول الله (ص) غائلة سراً ولا جهراً ، ولا يخيف احداً منهم في افق من الآفاق ، شهد عليه فلان ابن فلان بذلك ، وكفى

(١) الاستيعاب ١ / ٣٧٠ .

بالله شهيداً » (١) .

وهذه الصورة افضل صورة وردت مبينة لكيفية الصلح فقد احتوت على امور مهمة يعود صالح الأكثر منها الى عموم المسلمين إلا انا نشك في ان ما احتوت عليه هذه الوثيقة هو مجموع ما طلبه الإمام واراده ، ونذكر فيما يلي مجموع الشروط التي ذكرها رواة الأثر وإن كان كل واحد منهم لم يذكرها بأسرها إلا ان بعضهم نص على طائفة منها ، والبعض الآخر ذكر طائفة اخرى ، وقد اعترف الفريقان ان ما ذكره كل واحد من الشروط ليس جميع ما اشترطه الإمام وإنما هي جزء من كل ، وها هي :

١ ـ تسليم الأمر الى معاوية على ان يعمل بكتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وآله (٢) وسيرة الخلفاء الصالحين (٣) .

٢ ـ ليس لمعاوية ان يعهد بالأمر الى احد من بعده والأمر بعده للحسن (٤)

---

(١) الفصول المهمة لابن الصباغ ص ١٤٥ ، كشف الغمة للأربلي ص ١٧٠ البحار ١٠ / ١١٥ ، فضائل الأصحاب ص ١٥٧ ، الصواعق المحرقة ص ٨١ .

(٢) ذكرت هذه المادة في صورة المعاهدة التي ذكرناها ، وذكرها ابن ابي الحديد في شرح النهج ٤ / ٨ .

(٣) البحار ١٠ / ١١٥ ، النصائح الكافية ص ١٥٩ (الطبعة الثانية) اخذه عن فتح الباري ، وصحيح البخاري .

(٤) الاصابة ١ / ٣٢٩ ، الطبقات الكبرى للشعراني ص ٢٣ ، حياة الحيوان للدميري ١ / ٥٧ ، تهذيب التهذيب ٢ / ٢٢٩ ، تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١ / ١٩٩ ، ذخائر العقبى ص ١٣٩ ، الامامة والسياسة ١ / ١٧١ ، ينابيع المودة ص ٢٩٣ ، وجاء فيه ان يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين .

فان حدث به حدث فالأمر للحسين (١) .

٣ – الأمن العام لعموم الناس الأسود والأحمر منهم سواء فيـه ، وان يحتمل عنهم معـاوية ما يكون من هفواتهم ، وان لا يتبع احداً بما مضى ، وان لا يأخذ اهل العراق بإحنة (٢) .

٤ – ان لا يسميه امير المؤمنين (٣) .

٥ – ان لا يقيم عنده الشهادة (٤) .

٦ – ان يترك سب امير المؤمنين (٥) وان لا يذكره إلا بخير (٦) .

٧ – ان يوصل الى كل ذي حق حقه (٧) .

٨ – الأمن لشيعة امير المؤمنين وعدم التعرض لهم بمكروه (٨) .

٩ – يفرق في اولاد من قتل مع ابيه في يوم الجمل وصفين الف الف درهم ، ويجعل ذلك من خراج دار ابجرد (٩) .

---

(١) عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب لجمال الحسني ص ٥٢ .

(٢) الدينوري ص ٢٠٠ ، مقاتل الطالبيين ص ٢٦ .

(٣) تذكرة الخواص لابن الجوزي ص ٢٠٦ .

(٤) اعيان الشيعة ٤ / ٤٣ .

(٥) نفس المصدر .

(٦) مقاتل الطالبيين ص ٢٦ ، شرح النهج ٤ / ١٥ .

(٧) الفصول المهمة لابن الصباغ ص١٤٤، ومناقب ابن شهراشوب ٢/١٦٧.

(٨) اعيان الشيعة ٤ / ٤٣ ، الطبري ٦ / ٩٧ ، علل الشرائع ص ٨١ .

(٩) البحار ١٠ / ١٠١ ، تأريخ دول الإسلام ١ / ٥٢ ، الامامة والسياسة ص ٢٠٠ ، تاريخ ابن عساكر ٤ / ٢٢١ ، وجاء فيـه ان يعطيـه خراج بسا ودار ابجرد .

١٠ — ان يعطيه ما في بيت مال الكوفة (١) ويقضي عنه ديونه ويدفع اليه في كل عام مائة الف (٢) .

١١ — ان لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأهل بيت رسول الله (ص) غائلة سراً ولا جهراً ولا يخيف احداً منهم في افق من الآفاق (٣) .

هذه بنود الصلح ومواده التي ذكرها رواة الأثر اما ان الإمام قد اشترطها كلها او بعضها فسوف نذكر ذلك عند دراسة الشروط وتحليلها ، وقبل ان نلقي الستار على هذا الفصل لابد لنا من التعرض الى انه في اي مكان جرى الصلح وفي اي زمان نفذ ؟

مكان الصلح :

اما المكان الذي جرى فيه الصلح فقد كان في مسكن حسب ما ذكرته اوثق المصادر ، في تلك البقعة ابرم الصلح ونفذ امام جمع حاشد من الجيش العراقي والشامي ، وذهب بعض المؤرخين إلى انه وقع في بيت المقدس (٤) ، وذهب بعض آخر إلى انه وقع بأذرح من ارض الشام (٥) وهذان القولان من الشذوذ بمكان فلا يعول عليهما .

---

(١) تأريخ دول الإسلام ١ / ٥٣ .

(٢) جوهرة الكلام في مدح السادة الأعلام ص ١١٢ .

(٣) البحار ١٠ / ١١٥ ، النصائح الكافية ص ١٦٠ .

(٤) تأريخ الخميس ٢ / ٣٢٣ ، دائرة المعارف للبستاني ٧ / ٣٨ .

(٥) تذكرة الخواص ص ٢٠٦ .

عام الصلح :

وكما اختلف المؤرخون في المكان الذي وقع فيه الصلح فقد اختلفوا في الزمان ايضاً ، فقد قيل : إنه كان سنة ٤١ هجرية في ربيع الأول ، وقيل : في ربيع الآخر ، وقيل : في جمادى الأولى ، وعلى الأول تكون خلافته خمسة أشهر ونصف ، وعلى الثاني فستة أشهر وأيام ، وعلى الثالث فسبعة أشهر وايام (١) ، وقيل : وقع الصلح سنة اربعين من الهجرة فى ربيع الأول (٢) ، وقيل غير ذلك ، والأصح ان مدة خلافته كانت ستة اشهر حسب ما ذكره اكثر المؤرخين .

وعلى أي حال فقد اصطلح بعض المؤرخين على تسمية ذلك العام ـ الخالد في دنيا الأحزان ـ بتسميته بعام الجماعة ، نظراً لاجتماع كلمة المسلمين بعد الفرقة ، ووحدتهم بعد الإختلاف ، ولكن الحق ان هذه التسمية من باب تسمية الضد باسم ضده لأن المسلمين منذ ذلك العام قد وقعوا في شر عظيم ، وانصبت عليهم الفتن كقطع الليل المظلم ، حتى تغيرت معالم الدين ، وتبدلت سنن الإسلام ، وآلت الخلافة الإسلامية الى المصير المؤلم تنتقل بالوراثة من ظالم الى ظالم حتى اغرقت البلاد فى الدماء والمآسي والشجون ، يقول الجاحظ : « فعندها استوى معاوية على الملك واستبد على بقية

---

(١) تأريخ أبي الفداء ١ / ١٩٣ .

(٢) تهذيب التهذيب ٢ / ٢٩٩ ، وجاء فى الاستيعاب ان الإمام سلم الأمر الى معاوية فى النصف من جمادى الاولى سنة ٤١ هـ وكل من قال : إنه كان سنة اربعين فقد توهم ، وفي تأريخ سينا ان الامام تنازل عن الخلافة في ٢٦ ربيع الثاني سنة ٤١ هـ .

الشورى ، وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين في العام الذي سموه (عام الجماعة) وما كان عام جماعة بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً ، والخلافة منصباً قيصرياً » (١).

لقد انفتح باب الجور على مصراعيه منذ ذلك العام الذي تم فيه الملك الى (كسرى العرب) فقد لاقى المسلمون وخصوصاً شيعة آل محمد (ص) من العناء والظلم والإرهاق ما لم يشاهد له التاريخ نظيراً في فظاعته وقسوته يقول ابن أبي الحديد عما جرى على المسلمين بعد عام الصلح : « ولم يبق أحد من المؤمنين إلا وهو خائف على دمه أو مشرد في الأرض ، يطلب الأمن فلا يجده » ، وبعد هذا الظلم الشامل والجور المرهق هل يصح أن يسمى ذلك العام عام الجماعة والألفة ؟

دراسة وتحليل :

ولابد لنا من وقفة قصيرة للنظر في تحقيق الشروط التي اشترطها الإمام على معاوية ، كما لابد من دراستها والإحاطة بها — ولو إجمالاً — لأنها قد احتوت على امور بالغة الأهمية ، فقد الغمت نصر معاوية ببارود ، وعادت عليه بالخزي ، واخرجته من حكام العدل الى حكام الجور والظالمين .

اما الشروط التي ذكرت فانا نؤمن بجميعها سوى شرطين ، وهما : ان يكون للإمام ما في بيت مال الكوفة ، ومنحه راتب سنوي له ، ولأخيه

اما (الاول) فهو بعيد لأن ما في خزانة الكوفة من الأمتعة والأموال قد كانت تحت قبضة الإمام وبيده ، يتصرف فيها حيثما اراد ، ولم تكن

---

(١) الغدير ١٠ / ٢٢٧ .

محجوبة عنه أوممنوعة عليه حتى يشترط على معاوية أن يمكنه منها ، على أنا نشك ان خزانة الدولة قد احتوت على أموال كثيرة لأن سياسة أهل البيت تقضي بصرف المال فوراً على ما خصصه الإسلام لها .

وأما (الثاني) فهو بعيد لأن الإمام كان في غنى عن أموال معاوية ، وليس بحاجة لها ، ولو سلمنا ذلك فانه لا ضير على الإمام من أخذها ، لأن انقاذ أموال المسلمين من حكام الجور أمر لازم كما سنوضحه عند التعرض لسفر الإمام الى دمشق ، والذي أراه أن معاوية قد أعطى الامام فى بداية الأمر هذين الشرطين ، فتوهم بعض المؤرخين أنهما من جملة الشروط التي اشترطها الإمام عليه .

وعلى أي حال ، فان تلك الشروط كانت تهدف الى طلب الأمن العام ، والسلم الشامل لجميع المسلمين ، وتدعوهم في نفس الوقت الى اليقظة والتحرر من الاستعباد الأموي ، كما دلت على براعة الإمام في الإحتفاظ بحقه الشرعي ، والتدليل على غصب معاوية له ، وإنه لم يتنازل له عن حقه ، اما محتويات الشروط فهي كما يلي :

١ ــ العمل بكتاب الله :

ولم يخل الإمام بين معاوية وبين المسلمين يتصرف في شؤونهم حيثما شاء ، فقد أخذ عليه أن لا يعدو الكتاب والسنة في سياسته وسياسة عماله ، ولو كان يراه يسير على ضوء القرآن ، ويسير على منهج الإسلام لما شرط عليه ذلك ، وجعله من أهم الشروط الأساسية التي ألزمه بها .

٢ ـ ولاية العهد :

وعالج الإمام نقطة مهمـــة في تلك المعاهدة ، وهي مصير الخـلافة الاسلامية بعد هلاك معاوية ، فقد شرط عليه أن تكون الخلافة له ولأخيه من بعده ، وصرحت بعض المصادر ان الامام اشترط عليه أن يكون الأمر شورى بين المسلمين بعد هلاك معاوية ، وعلى كلا القولين فقد أرجع الامام الخلافة الى كيانها الرفيـع ، وإنما شرط عليه ذلك لعلمه باتجاهاته السيئة ، وانه لابد أن ينقل الخـلافة الاسلامية من واقعهـا الى الملك العضوض ، ويجعلها في عقبه من شذاذ الآفاق والمجرمين ، فأراد الامام ايقاظ المجتمع ، وبعثه الى مناجزته إن قدم على ذلك .

٣ ـ الأمن العام :

وأهم ما ينشده الإمام من تلكم الشروط هو بسط الأمن ، ونشر العافية بين جميع المسلمين سواء الأسود منهم والأحمر ، وقد دلَّ ذلك على مدى حنانه وعطفه على جميع المسلمين ، كما نصت هذه المادة على أن لا يتبع أحداً بما مضى ، وأن لا يأخذ أهل العراق بإحنة مما قد مضى ، وإنمـا شرط عليه ذلك لعلمه بما سيعاملهم به من الارهاق والتنكيل انتقاماً لما صدر منهم في أيام صفين .

٤ ـ عدم تسميته بأمير المؤمنين :

وفي رفض الامام (ع) تسمية معاوية بأمير المؤمنـين تجريد له من

السلطة الدينية عليه وعلى سائر المسلمين ، ولم يلتفت معاوية الى هذه الطعنة النجلاء ، فانه إذا لم يكن على الحسن أميراً لم تكن له بالطبع على المسلمين امرة أو سلطان ، وكان بذلك حاكم جور وبغي ، وقد جرده بذلك من منصب الامامة والخلافة ، وأثبت له الغصب لهذا المركز العظيم .

٥ ـ عدم اقامة الشهادة :

وهذه المادة قد فضحت معاوية وأخزته ، ودلت على أنه من حكام الجور ، فان اقامة الشهادة حسب ما ذكره الفقهاء إنما تقام عنـد الحاكم الشرعي ، فهي من الوظائف المختصة به ، وإذا لم تصح إقامة الشهادة عند معاوية فهو ليس بحاكم عدل وإنما هو حاكم جور ، وحكام الجور لايكون حكمهم نافذاً ، ولا تصرفهم ماضياً عنـد الشرع ، ويجب على الأمة أن تزيلهم عن هذا المنصب الذي انيط به حفظ الدماء ، وصيانة الاعراض ، وحفظ الأموال . وفي هـذا الشرط بيّن الامام أنه صاحب الحق ، وان معاوية غاصب له ،

٦ ـ ترك سب أمير المؤمنين :

وأظهر (ع) بهذا الشرط تمادي معاوية في الاثم ، فقد علم أنه لايترك سبّ أمير المؤمنـين والحطّ من كرامته ، فأراد (ع) أن يبيّن للمجتمع الاسلامي مدى استهتاره ، وعدم اعتنائه بشؤون الأسلام وتعاليمه ، فان سب المسلم وانتقاصه قـد حرّمه الاسلام ، ولكن ابن هنـد لم يقم للإسلام وزناً ، فقد أخذ بعد إبرام الصلح يسب أمير المؤمنين على رؤوس الأشهاد

كما سنبين ذلك عند التعرض لخرقه شروط الصلح. ولا يخفى أن الامام قد فضحه بهذا الشرط وأماط عنه الستر الصفيق الذي تستر به باسم الدين.

٧ ـ الامن العام للشيعة :

كان الامام (ع) حريصاً أشد الحرص على شيعته وشيعة أبيه، فقد صالح معاوية حقناً لدمائهم، وحفظاً عليهم، وقد اشترط على معاوية أن لايتعرض لهم بمكروه وسوء، وهذا الشرط عنده من أهم الشروط وأعظمها قال سماحة المغفور له آل ياسين : «واعتصم فيها ـ أي في المعاهدة ـ بالأمان لشيعته وشيعة أبيه وإنعاش أيتامهم ليجزيهم بذلك على ثباتهم معه، ووفائهم مع أبيه، وليحتفظ بهم امناء على مبدئه، وانصاراً مخلصين لتمكين مركزه ومركز أخيه يوم يعود الحق الى نصابه» (١).

إن أغلب الشروط التي اشترطها الامام كانت تهدف لصالح شيعته وضمان حقوقهم وعدم التعرض لهم بأذى أومكروه.

٨ ـ خراج دار ابجرد :

واشترط الامام على معاوية أموالاً خاصة ينفقها على شيعته وشيعة أبيه وهي خراج دار ابجرد (٢) والوجه في هذا التخصيص إن الذي يجلب الى الدولة من الأموال يسمى بعضه بالفيء، وهو المال المأخوذ من الأراضي

---

(١) صلح الحسن ص ٢٥٨ .

(٢) دار ابجرد : اراض واسعة بفارس على حدود الأهواز قد فتحها المسلمون عنوة .

المفتوحة عنوة ، وهذا يصرف على المصالح العامة ، وعلى الشؤون الاجتماعية وذلك كتحسين الجيش ، وإنشاء المؤسسات وما شاكل ذلك من المشاريع الحيوية ، وقسم من الأموال يسمى (بالصدقة) وهي الضرائب المالية التي فرضها الاسلام في اموال مخصوصة وانواع من الواردات يدور عليها رحى سوق التجارة في العالم فرضها على الأغنياء تجلب منهم وتدفع الى الفقراء لمكافحة الفقر وقلع بذور البؤس ، فقد قال (ص) : « أمرت في الصدقة ان آخذها من اغنيائكم واردها في فقرائكم » ، وقد كره الحسن ان يأخذ من هذه الأموال لنفسه أو لشيعته ، اما له فانها محرمة عليه لأن الصدقة حرام على آل البيت ، واما كراهة اخذها لشيعته فلأن اموال الصدقة لا تخلو من حزازة عليهم لأنها اوساخ الناس ، وقد كره (ع) ان يأخذ منها لشيعته ، وخص ما يأخذه لهم من دار ابجرد ، لأنها قد فتحت عنوة ، وما فتح عنوة فهو ليس بصدقة ، وبذلك قد اختار لشيعته من الأموال ما هو ابعد عن الشبهة الشرعية وهي خراج دار ابجرد التي هي للمسلمين وعلى الامام أن ينفقها على صالحهم .

٩ ــ عدم البغي عليهم :

ومن مواد المعاهدة أن لا يبغي معاوية للحسن والحسين ، ولا لأهل بيت النبي (ص) غائلة ، ولا يخيف أحداً منهم ، وإنما شرط عليه ذلك لعلمه بما سيبغيه لهم من الشر والمكر ، فكان من غوائله لهم أنه دس السم للامام ــ كما سنبينه ــ فأراد الإمام بهذا الشرط وبغيره من بنود الصلح أن يكشف الستار عن معاوية ، ويبدي عاره وعياره ، وانه لا ذمة ولا حريجة له في الدين .

هذه بعض بنود الصلح ، وقد حفلت بعناصر ذات أهمية بالغة دلت على براعة الإمام ، وقابلياته الفذة في التغلب على خصمه ، يقول سماحة المغفور له آل ياسين في هذه المعاهدة :

« ومن الحق أن نعترف للحسن بن علي على ضوء ما أثر عنه من تدابير ودساتير هي خير ما تتوصل اليه اللباقة الدبلوماسية لمثل ظروفه من زمانه وأهل زمانه بالقابليات السياسية الرائعة التي لو قدر لها أن تلي الحكم في ظرف غير هذا الظرف ، وفي شعب أو بلاد رتيبة بحوافزها ودوافعها لجاءت بصاحبها على رأس القائمة من السياسيين المحنكين ، وحكام الاسلام اللامعين ، ولن يكون الحرمان يوماً من الأيام ، ولا الفشل في ميدان من الميادين بدوافعه القائمة على طبيعة الزمان دليلا على ضعف أو منفذاً الى نقد ، ما دامت الشواهد على بعد النظر وقوة التدبير ، وسمو الرأي ، كثيرة متضافرة تكبر على الريب وتنبو عن النقاش .

وللقابليات الشخصية مضاؤها الذي لا يعدم مجال العمل ، مهما حدّ من تيارها الحرمان أو ثنى من عنانها الفشل ، وها هي من لدن هذا الرجل تستجد — منذ الآن — ميدانها البكر القائم على الفكرة الجديدة القائمة على صيانة حياة أمّة بكاملها في حاضرها ومستقبلها ، بما تضعه المعاهدة من خطوط وبما تستقبل به خصومها من شروط » (١) .

---

(١) صلح الحسن ص ٢٥٧ .



مَوْقِفُ الإمام الحُسَين

كان موقف سيد الشهداء الامام الحسين (ع) من قضيــة الصلح كموقف أخيه الحسن (ع)، فكان يرى ضرورة المهادنة، ولزوم المسالمة، وانه ليس من الحكمة، ولا من الصالح فتح باب الحرب مع معاوية، فانه يعود بالمضاعفات السيئة على الإسلام، ويجر الويلات والخطوب للمسلمين وذلك لتفلل الجيش الذي نزح معهم، فقد ذكرنا في البحوث السابقــة الخيانات المفضوحة التي ظهرت من أغلب الأمراء والوجوه، والتحاقهم بمعسكر معاوية، وضمانهم له الفتك بالامام الحسن، أو تسليمه أسيراً له، فكيف يحاربه بهذه القوى الغادرة التي تبغي له الغوائل، وتتربص به الفرص للفتك به؟

إن الإمام الحسين (ع) كان من رأيـه أن يستجيب أخوه للصلح، ولا يناجز معــاوية نظراً للعوامل المريرة التي أحاطت به حتى جعلت من المستحيل التغلب على معاوية، والانتصار عليه، فما عمله الامام الحسن من الصلح كان أمراً متعيناً، ولا سبيل لغـــيره ـ كما أوضحنا ذلك في أسباب الصلح ـ، فكيف يخالف الإمام الحسين أخاه في ذلك، ولا يقره عليه.

وزعم بعض المؤرخين ان الإمام الحسين (ع) كان كارهاً لما فعله أخوه، وانه قال له:

«أنشدك الله أن تصدق احدوثة معاوية، وتكذب احدوثة أبيك!!»

فأجابه الحسن:

«أنا أعلم بهذا الأمر منك» (١).

ورووا أيضاً: «ان الحسن (ع) قال لابن عمه عبد الله بن جعفر: «إني رأيت رأياً أحب أن تتابعني عليه» فانبرى اليه ابن جعفر قائلاً:

---

(١) أسد الغابة وغيره.

« ما هو » ؟

« رأيت أن أعمد الى المدينة فأنزلها ، وأخلي بين معاوية ، وبين هذا الحديث ، فقد طالت الفتنة ، وسفكت فيها الدماء ، وقطعت الأرحام ، وعطلت الفروج » (١) .

فأيد ابن جعفر رأيه قائلاً :

« جزاك الله عن أمّة محمد خيراً ، وأنا معك » .

ثم بعث نحو الحسين ، فلما مثل بين يديه قال له :

« إني رأيت رأياً ، وأحب أن تتابعني عليه » .

« ما هو؟ »

فذكر له رأيه في ذلك .

فانبرى الحسين وهو غضبان قائلاً :

« أعيذك بالله أن تكذب علياً في قبره ، وتصدق معاوية » .

فتأثر الحسن من كلامه ، وقال له :

« والله ما أردت أمراً إلا خالفتني عليه الى غيره ، والله لقد هممت أن أقذفك في بيت فأطينه عليك ، حتى أقضي أمري » .

فلما رأى الحسين غضب أخيه وجدّه في الأمر انسحب عن فكرته وتنازل عن رأيه وقال له بصوت خافت : « أنت أكبر ولد عليّ ، وأنت خليفتي ، وأمرنا لأمرك متبع ، فافعل ما بدا لك » (٢) .

لا شك في افتعال ذلك كله وانه من الموضوعات لأن الامام الحسين عليه السلام كان عالماً بالعلل والأسباب التي الجأت أخاه الى الصلح والزمته

---

(١) الفروج : الثغور .

(٢) تأريخ ابن عساكر الكبير ٤ / ٢١ .

بالمسالمة ، فان رأيه في الصلح كان موافقاً لرأي أخيه لا يخالفه ولا يختلف عنه ، ويدل على ذلك ان الإمام الحسن لما أبرم الصلح أقبلت الى الامام الحسين طائفة من الزعماء والوجوه يطلبون منه أن ينقض ما أبرمه أخوه ويناجز معاوية فأبى (ع) وامتنع ، ولو كان رأيه مخالفاً لرأي أخيه لأجابهم الى ذلك ، ولما انتقل الإمام الحسن (ع) الى حظيرة القدس رفعت اليه طوائف من زعماء العراق عدة رسائل يطلبون منه اعلان الثورة على معاوية فامتنع من اجابتهم وقال لهم :

« ما دام معاوية في قيد الحياة فلا أتحرك بكل شيء ، وإذا مات نظرت في الأمر » (١) .

إن امتناعه من القيام بالأمر ما دام معاوية حياً يدل بصراحة أنه كان يرى ضرورة المهادنة والمسالمة المؤقتة ، فان الثورة لا تنتج ولا التضحية تجدي شيئاً مع وجود معاوية لأنه يلبسها ثوباً يخرجها عن اطار الإصلاح كما أوضحنا ذلك فيما تقدم ، نعم لا شك ان الصلح قد ترك في نفس الحسين أسى مريراً وحزناً مرهقاً كما ترك في نفس الحسن أيضاً لوعة وحزناً ، ولكنهما سلام الله عليهما ما ذا يصنعان والظروف لم تكن مواتية لهما حتى يقوما بمناجزة معاوية .

ومما يدل على وضع ذلك وعدم صحته انه جاء في الرواية الثانية ان الإمام قال لأخيه الحسين .

« ما أردت أمراً إلا خالفتني عليه » .

ان هذا الكلام شاهد على الافتعال والوضع لأن الإمام الحسين عليه السلام تصده مثله العليا عن مخالفة أخيه وعدم طاعته له فقد تربيا معاً

---

(١) الارشاد ص ٢٠٦ وغيره .

في حجر المشرع الأعظم ، وأفاض عليهما مثله وتهذيبه وهديه حتى صارا صورة صادقة عنه ، فكيف يخالف أوامر أخيه ولا يطيعـه في أمر يعود بالصالح العام لجميع المسلمين ، إن الامام الحسين كان يكبر أخاه ويجله ولا يخالف له أمراً . فقد روى حفيده الإمام الباقر (ع) عن مدى اجلاله وتعظيمه له قال :

« ما تكلم الحسين بين يدي الحسن اعظاماً له » (١) .

وبعد هذا التقدير والإكبار هل يصح أن يقـول الحسن لأخيه ما أردت أمراً إلا خالفتني عليه .

وانجرف الدكتور طه حسين بهذه الرواية المفتعلة فقال :

« كره صلح أخيـه وهمّ أن يعارض ، فأنذره أخوه بأن يشدّه في الحديد حتى يتم الصلح » .

وقال : « وكان الحسين يعيب الصلح لأنه إنكار لسيرة أبيه » .

وقال أيضاً : « رأى الوفاء لأخيه حقاً فوفى له ، وأطاعه كما أطاع أباه من قبله . وما أشك في أنه أثناء هذه السنين التي قضاها في المدينة بعد صلح أخيه كان يتحرق تشوقاً الى الفرصة التي تتيـح له استئناف الجهاد حيث تركه أبوه » (٢) .

أما قوله : « كره صلح أخيه وهمّ بالمعـارضة ، فأنذره أخوه بأن يوثقه في الحديد ، وانه كان يعيب عليه لأنه إنكار اسيرة أبيـه » ، فيرده انه لو كان كارهاً لذلك لأجاب الكوفيين الى مناجزة معاوية بعدما جرى

(١) مناقب ابن شهراشوب ٢ / ١٤٣ .

(٢) الفتنة الكبرى ٢ / ٢١٣ وعول على الروايات المصطنعة الاستاذ محمود العقاد في أبي الشهداء .

الصلح ، ولأعلن الثورة عليه بعد موت أخيه ، مضافاً الى انه لو كان الصلح مخالفاً لسيرة أمير المؤمنين (ع) لما سكت الحسين لحظة واحدة لأن السكوت عن الحق جبن ومعصية ، ولو كان مخالفاً لسيرة أمير المؤمنين التي هي سيرة رسول الله (ص) لما أبرم الحسن (ع) الصلح ونفذه ، نعم كان الحسين يتحرق شوقاً الى الجهاد تحرق الظمآن الى الماء ، قد انطوى قلبه على شجى مكتوم وحزن مرهق ولكنه لم ينفرد بذلك ، فقد شاركه أخوه في جميع محنه وأشجانه ، وكانا معاً يترقبان بفارغ الصبر الفرصة السانحة للثورة على حكومة أمية ، ولكن الفرصة التي يؤمل بها النصر والفتح كانت معدومة ما دام معاوية حياً ، فان فتح باب الحرب معه يعود بالضرر البالغ على الإسلام والمسلمين .

بقي هنا شيء لم نذكره في أسباب الصلح ، وهو انه لماذا لم يفتح الإمام الحسن باب الحرب مع معاوية ، وإن عدم الناصر والمعين فيستشهد كما استشهد أخوه سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام ، وهذه الشبهة قد ذهب اليها بعض الناقدين للصلح ، ولندع الجواب الى إمام من أئمة المسلمين وهو آية الله المغفور له السيد عبد الحسين شرف الدين فقد كشف الغطاء عنها في مقال عنوانه (ثورة الحسين صدى لصلح الحسن) وقد نشر في أغلب الصحف المحلية ، نذكره بأسره لما فيه من مزيد الفائدة قال رحمه الله :

« كان بنفسي من قديم أن أعني ببحث هذه المسألة بحثاً يدفع هذه الشبهة عن أبي محمد ، في نفوس غير المتمكنين في فهم التأريخ فهماً صحيحاً وكثير من هؤلاء لا يرجعون الى مصدر علمي في وزن هؤلاء النفر من أهل البيت ، واخضاع حركاتهم في حالتي مدها وجزرها للمبدأ الأسمى ،

الذي طوعهم لخدمته ، وأفنى ذواتهم في ذاته ، فكانوا ينقبضون حين يشاء لهم الإنقباض ، وينبسطون حين يشاء لهم الإنبساط كذلك ...

كان بنفسي أن أرد هـذه الشبهة عن أبي محمد السبط باقامة هـذا الميزان العلمي الذي يجلو هذه الحقيقة ، ويكشف خدرها ، غير أن وارداً ثقيلاً من المشاغل التي تنتهي كان يصرفني عما بنفسي من ذلك ، .. فها أنا الآن أوجزالإشارة الى هذه الشبهة ودفعها ، وعسى أن تعود هذه النواة غرساً أتعهده أنا بما ينميه إن سنحت الفرصة أولا فيتميه قلم من هـذه الأقلام الصقيلة ، المغموسة بقلوب الأحرار ، وعقول العلمـاء من خدام الحقائق .

أما الشبهة فقديمـة كقدم النظر القاصر فيمن يأخذون من الأشياء بالظاهر والملمون بتأريخ الحسن (ع) يعرفون أن قوماً من صحابته أخذوا عليه قعوده عن حرب معاوية ، ومناجزته إياه القتـال ، حتى لأوشك أن يذهب يومئذ ضحيـة هذه الفتنة ، وحتى دخل عليه خاصته بسلام غليظ يقولون فيه : « السلام عليك يا مذل المؤمنين » .. !

وقد يكون لهؤلاء عذر بحماستهم التي نعرفها لذوي النجدة من فتيان الايمان الذين تغلب فيهم عاطفة الحماسة ، واستقرار الروية وبُعد النظر .

وقد يكون ذلك ولكنا لا نقصد الآن الى الاعتـذار لهم بل نريد أن نثبت طرف هذه الشبهة عن الأول لنراها تتسلسل منـه فتظهر بين حين وآخر طوراً على لسان أوليائه ، وتارة على لسان أعدائه ، وهي هنا وهناك لا تظهر إلا لتدل على جهل هؤلاء وأولئك .

فنحن حين نزن صلحه عليه السلام وحربه ترجح كفة الصلح من حيث اعتبرت المعايير المرعية ، وكن إن شئت (مادياً) ، أو كن (روحياً)

تتجاوز بإيمانك وفهمك مدى المحسوسات المرئية .

كن أول الأمر مادياً وناقش حرب الحسن في جيش حكم على نفسه بالهزيمة ، قبل أن يخوض المعركة ، وغزاه معاوية الذي ثبت لعلي من قبل ولعلي معنوية عسكرية ترجف الأرض من خيفتها ، مضـافاً الى معنوياته الأخرى التي لم يكن الحسن يتمتع بمثلها فى نفوس معاصريه ، بحكم انضوائه الى لواء أبيه .

نعم لك أن تقول كان على الحسن أن يستشهـد فيموت عزيزاً ، ولكن أعد النظر في تاريخ هذه الفترة لترى أن الاستشهاد فيها ينمسخ الى معنى من معاني (الخروج) فلم تكن يومئذ حقيقة وطنية ثابتة ، ولا روح مبدئية مستقرة لتكون التضحية تضحية مقررة القواعد وليس أنفـه — فى هذه الحال — من الموت يعين على صاحبه ويميته مرة أخرى فى معناه .

كانت الحياة الإسلامية تنتكس حقاً ، وتتحول الى ملك عضوض وكانت المطامع تتجند في ركاب الملك هاربة من حواشي الخلافة ولكنها كانت ما تزال تحتفظ بوسيلة الإسلام وظاهر مبادئه في (وصولية) صاغها معاوية بدهائه ، وكان هذا وحده عذراً للحسن من ناحيتين .

١ — كان عذره في الصلح لأن (الدنيا) كانت تظاهر معـاوية فتستلب منه ابن عمه وقائد عسكره .

٢ — ثم كان عذره في القعود عن الشهادة لأن ذلك بعينـه ليس ظرف الشهادة ، لأنه كان قادراً على مسخها .

فأي ربح مادي في الموت لو اختاره الحسن كما يريد هؤلاء ، غير انه يعين معاوية على نفسه حياً وميتاً .

إنى لا أرى شيئاً أدل على عظمة الحسن من هذه السياسة المادية التى

حددت موقفه على هــذا النحو في أخطر دور مرّ به الإسلام . فكانت نواة لقلب الحكم الأموي ، وفضح ،كما كانت مادة ذلك البارود الجبار الذي انفجر في مصرع الحسين (ع) ذلك الإنفجار ، ولولم يكن موقف الحسن هذا لأتيح لمعاوية سلطان لا يعرف الناس منطوياته ، ولمــا اتيح للحسين أن يكون الفداء الخالد للمبدأ الخالد .

وبعد إن كنت مادياً فكن (روحياً) وناقش حرب الحسن لتجتمع لك الاعتبارات كلها على رجحان كفة الصلح .

الحسن (ع) ليس من طلاب (الامرة) لذات الامرة ، بل هو ممن يريدون الخلافة وسيلة للإصلاح ، وإقامة العدل والسلام بين الناس ، وما أظن هذه العقيدة الروحية تعدم دليلها المادي ، فأبوه وجده أثبتا فى الإسلام انهما كذلك ، وله قبل الإسلام إرث ينهض دليلاً على انه من معــدن مصلح لا يطلب النفوذ إذا استغنى عن فعل الخير .

ومن هنا كان سهلاً عليه أن يتنازل عن الخلافة لأنه في فترة لاتقدر هي على ابداء الخير في ظل ذلك الجيل المكبوت المشتاق الى الشهوات يصيب منها فوق كفايته على موائد معاوية ، بل لقد كان الواجب عليه أن يتنازل مع عدم القدرة على تذليل العقبة من اخضاع (الأموية) المندفعــة ، لأن تنازله يأتي وفق الخطة التي رسمتها له مبادؤه .

وليس عائبو تنازله أشد احساساً منه بآلام التنــازل وهو المجروح ، ولكنها التضحية الضخمة فرضت عليه أن يتحمل آلام القعود التي كتبتها عليه مُثُله العليا ، ومبادؤه الحسنى .

وهي تضحية لا تقل قدراً — إن لم تزد — عن تضحية الحسين (ع) وكن الآن ما شئت ، كن مادياً ، أو كن روحيــاً فستنتهي آخر الأمر

الى نتيجة رائعة ، وهي ان صلح الحسن مصدر من أكبر مصادر ثورة الحسين التحريرية ، والى أن جوهر التضحية واحد عند الامامين وإن اختلف مظهرهما .

والحق ان يوم الطف كان صدى ليوم المدائن صلى الله على سيدي شباب أهل الجنة ، ونفع المسلمين بذكرياتهما المجددة المتجددة ، ووفق العرب والمسلمين الى الإهتداء بهديهما في مرحلتهم الصعبة هذه » (١) .

ورأي سماحة الامام شرف الدين رأي وثيق تعضده الأدلة ويسنده المنطق العلمي من جميع جهاته ، والحق إنه (ع) لو ضحّى بنفسه لذهبت تضحيته معدومة الأثر ، لا تقيم حقاً ، ولا تغير باطلاً ، لأن معاوية بمكره وخداعه ، يلقي المسؤلية على الحسن ، ويبرىء نفسه عن ارتكاب الجريمة ، فيقول للناس : « إني دعوت الحسن للصلح ، ولكن الحسن أبى إلا الحرب وكنت اريد له الحياة ، ولكنه أراد لي القتل ، وأردت حقن الدماء ، ولكنه أراد هلاك الناس بيني وبينه .. » ومعاوية له هذه القابليات التي يظهر بها نفسه مظهر العادل المنصف ، وبذلك تكون التضحية مسلوبة الأثر معدومة الفائدة .

وأما الحسين (ع) فقد جاءت تضحيته الخالدة موافقة لظرفها الملائم ومنسجمة مع مقتضيات الزمن ، لأن الأثيم يزيد ليس معه من يدير شؤونه ويردعه عن طيشه وغروره ، فقد هلكت تلك العصابة التي كان يعتمد عليها معاوية في تدبير شؤونه كابن العاص ، والمغيرة وأمثالها من دهاة العرب ،

---

(١) جريدة الساعة الغراء عددها الخاص بسيد الشهداء (ع) من السنة ٤ بعدد ٩٠٨ ، ونشرتها مجلة الغرى الزاهرة بعددها الخاص بالامام الحسين (ع) من السنة ٩ العدد ١١ .

ولم يبق منهم معه أحد ، فلذا نهض الامام الحسين عليه السلام بتلك النهضة الموفقة التي جاءت بالنهاية المحتومة لدولة أميّة .

وبالجملة إن مهادنة الحسن وشهادة الحسين عليهما السلام قائمتان على فكرة عميقة منبعثة من وحي جدهما الرسول صلى الله عليه وآله ، ولولا صلح الامام الحسن ، وشهادة أخيه سيد الشهداء لما بقي للإسلام إسم ولا رسم ، وقد صرّح بهذا الامام كاشف الغطاء في مقدمته للجزء الأول من هذا الكتاب ، قال رحمه الله :

« إنه كما كان الواجب والمتعين الذي لا محيص عنه في الظروف التي ثار بها الحسين سلام الله عليه على طاغوت زمانه أن يحارب ويقاتل حتى يقتل هو وأصحابه ، وتسبى عياله وودايع رسول الله (ص) كما كان هذا هو المتعين في فن السياسة ، وقوانين الغلبة والكياسة مع قطع النظر عن الأوامر الالهية ، والمشيئة الأزلية ، كذلك كان المتعين والواجب الذي لا محيص عنه في ظروف الحسن (ع) وملابساته هو الصلح مع فرعون زمانه ؛ ولولا صلح الحسن ، وشهادة الحسين عليهما السلام لما بقي للإسلام إسم ، ولا رسم ، ولضاعت كل جهود محمد (ص) وما جاء به للناس من خير وبركة ورحمة » .

نعم : لولا صلح الحسن ، وشهادة الحسين لقضي على الاسلام ولف لواؤه ، فإن الحسن عليه السلام بصلحه فضح معاوية وأظهر عداءه السافر للإسلام والمسلمين ، والحسين عليه السلام بتضحيته وشهادته فتك بدولة أميّة وقضى عليها وعلى كل ظالم مستبد ، وأعطى الدروس الخلاقة لكل مصلح يريد أن يثور على الظلم والطغيان والاستغلال .



اجتماع الإمام بمعاوية

لعل أقسى محنة اجتازتها نفس أي انسان كان هي التي ألمّت بالامام الحسن (ع) حينما اجتمع بابن أبي سفيان ، فقد أودع ذلك الاجتماع ألماً مرهقاً ، وأسى مرّاً ، استوعب نفسه الشريفة ، ذلك لأنه رأى باطل معاوية قد استحكم وجوره قد انتصر ، وزاد في أساه ما ستعانيه الأمّة في دور هـذا الطاغية من المآسي والشجون ، فترك ذلك أعمق الألم والحزن في نفسه .

لقد اجتمع الامام ـ على كره ـ بمعاوية ، وكان الاجتماع بالنخيلة (١) وقيل بالكوفة (٢) ، وقد حضرته جموع حاشدة من المسلمين ، تنتظر بفارغ الصبر ما يفوه به الملك الظافر من الأمن والرفاهية وما يبسطه على الناس من العدل ، وما عسى معاوية أن يفعل في هذه الساعة الرهيبة ، إنه اعتلى المنبر فأظهر خبث ذاته ، وسوء سريرته ، واعلن ما يضمره للمسلمين من الشر والارهاق ، كما أظهر هم السر في الحرب التي أثارها على أمير المؤمنين وولده الحسن قائلاً :

« أيها الناس ، ما اختلف أمر أمّة بعد نبيها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها » .

ولما افتتح خطابه بهذا القول الذي حكى فيه الواقع التفت الى أنه قد عنى به نفسه فندم على ذلك فاستدرك قائلا :

« إلا هذه الأمّة » .

ثم وجه خطابه القاسي الى العراقيين معرباً لهم عن حقيقة الحرب التي أثارها عليهم ، وإن الهدف الأقصى الذي ينشده من وراء ذلك إنما هو

---

(١) ابن أبي الحديد ٤ / ١٦ وذكر ان خطبة معاوية الآتية القاها في النخيلة

(٢) اليعقوبي ٢ / ١٩٢ الارشاد ١٧٠ .

الملك ، لا الطلب بدم عثمان قائلاً :

« والله إني ما قاتلتكم لتصلوا ، ولا لتصوموا ، ولا لتحجوا ، ولا لتزكوا ، إنكم لتفعلون ذلك ، وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم ، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون » .

ثم صرح بعد ذلك بعدم التزامه ووفائه بالشروط التي أعطاها للإمام فقال :

« ألا إن كل دم أصيب في هذه الفتنة مطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين (١) ولا يصلح الناس إلا ثلاث : اخراج العطاء عند محله ، وإقفال الجنود لوقتها ، وغزو العدو في داره ، فان لم تغزوهم غزوكم » .

حقاً ان هذا هو التمادي في الإثم ، وكان عبد الرحمن بن شريك (٢) إذا حدّث بذلك يقول : « والله هذا هو التهتك » . ويقول أبو اسحاق السبيعي ، وهو ممن روى خطاب معاوية : « كان والله غداراً » .

وأخذ معاوية يكيل السب والشتم الى أمير المؤمنين (ع) وولده الحسن غير مستأثم من ذلك ولا متحرج ، وقد خرق بذلك أبرز بنود المعاهدة التي وقع عليها .

---

(١) وفي رواية أبي اسحاق السبيعي : « ألا وإن كل شيء اعطيت الحسن ابن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به » ، ذكر ذلك ابن أبي الحديد في النهج ، وقريب منه ذكره المفيد في الارشاد .

(٢) عبد الرحمن بن شريك النخعي الكوفي ، روى عن أبيه ، وروى عنه البخاري في كتاب الأدب ، عدّه ابن حبان في الثقات ، وقال : ربما أخطأ ، توفي سنة ٢٢٧ هـ جاء ذلك في تهذيب التهذيب ٦ / ١٩٤ .

خطاب الامام الحسن :

وطلب معـاوية من الإمام أن يعتلي منصة الخطابة ليبين للنـاس تنازله عن الأمر . وقيل ان ابن العاص أشار عليه بذلك ليظهر للنـاس — بحسب زعمه — عي الإمام وعدم مقدرته على الخطاب ، وقد أخطأ في ذلك ، فان الإمام قد خطب الناس غير مرة في حياة أبيه ، وبعد وفاته ولم يُعرف عنه العي والحصر ، لأنه من أهل بيت كانوا معدن الفصاحة والبلاغة ، وفصل الخطاب ، وانبرى الإمام الى أعواد المنبر والناس كلهم أذنٌ صاغية وهم ما بين راغب وراغم ، فخطبهم خطبة طويلة كانت فى منتهى الروعة والبلاغة ، وعظ فيها الناس ، ودعاهم الى الالفة والمحبـة ، وصوّر فيها الأحداث الرهيبة التي جرت على أهل البيت بعد وفاة النبي (ص) وعزى ما جرى عليهم من المحن والخطوب الى الصدر الأول الذين نزعوا الخلافة منهم ، وردّ في آخر خطابه على معاوية ، وهذا نص خطابه :

« الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ، وأئتمنه على الوحي صلى الله عليه وآله وسلم .

أما بعد : فوالله إني لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنّه وأنا أنصح خلق الله لخلقه ، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ، ولا مريداً له سوءاً ، ولا غائلة . ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة ألا وإني ناظر لكم خير من نظركم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمري ، ولا تردوا عليّ رأيي غفر الله لي ولكم ، وأرشدني وإياكم لما فيه

المحبة والرضا . » (١)

ثم التفت الى الجماهير فقال لها :

« أيها الناس ، إن أكيس الكيس التقي ، وأحمق الحمق الفجور ، والله لو طلبتم ما بين جابلق (٢) وجابرس(٣) رجلا جده رسول‌الله صلى‌الله عليه وآله‌ما وجدتموه غيري وغير أخي الحسين ، وقد علمتم أن الله هداكم بجدي محمد (ص) فأنقذكم به من الضلالة ، ورفعكم به من الجهالة ، وأعزكم به بعد الذلة ، وكثركم به بعد القلة ، إن معاوية نازعني حقاً هو لي دونه ، فنظرت لصلاح الأمة ، وقطع الفتنة ، وقد كنتم بايعتموني على أن تسالمون من سالمت ، وتحاربون من حاربت ، فرأيت أن أسالم معاوية ، واضع الحرب بيني وبينه ، وقد بايعته ، وقد رأيت أن حقن الدماء خير من سفكها ، ولم أرد بذلك إلا صلاحكم وبقاءكم ، وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » (٤) .

---

(١) الارشاد ص ١٦٩ .

(٢) جابلق : بالباء الموحدة المفتوحة واللام المسكنة ، رويَ عن ابن عباس أنها بأقصى المغرب واهلها من ولد عاد ، جاء ذلك في المعجم ٣ / ٣٢ .

(٣) جابرس : مدينة بأقصى المشرق ، زعم اليهود أن أولاد نبيهم موسى عليه السلام هربوا اما في حرب طالوت أو في حرب بخت نصر ، فسيرهم الله وأنزلهم في هذا الموضع فلا يصل اليهم أحد ، وقد طويت لهم الأرض وجعل عليهم الليل والنهار سواء حتى انتهوا الى (جابرس) فسكنوا فيها ، ولا يحصي عددهم إلا الله ، فاذا قصدهم أحد من اليهود قتلوه وقالوا : (لم تصل الينا حتى أفسدت سنتك) ، وبهذا الاعتبار يستحلون دمه جاء ذلك في المعجم ٣ / ٣٣ .

(٤) كشف الغمة ص ١٧٠ .

وأخذ (ع) يبين ظلامة أهل البيت فقال :

« وإن معاوية زعم لكم أني رأيته للخلافة أهلاً ولم أر نفسي لها أهلاً ، فكذب معاوية . نحن أولى الناس بالناس في كتاب الله عز وجل وعلى لسان نبيه ، ولم نزل ـ أهل البيت ـ مظلومين منذ قبض الله نبيه ، فالله بيننا وبين من ظلمنا ، وتوثب على رقابنا ، وحمل الناس علينا ، ومنعنا سهمنا من الفيء ، ومنع أمّنا ما جعل لها رسول الله ، واقسم بالله لو أن الناس بايعوا أبي حين فارقهم رسول الله لأعطتهم السماء قطرها ، والأرض بركتها ، ولما طمعت فيها يا معاوية ، فلما خرجت من معدنها تنازعتها قريش بينها ، فطمع فيها الطلقاء وأبناء الطلقاء ، أنت وأصحابك . وقد قال رسول الله : ما ولت أمّة أمرها رجلاً وفيهم من هو أعلم منه إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتى يرجعوا الى ما تركوا . فقد ترك بنو اسرائيل هارون وهم يعلمون أنه خليفة موسى فيهم واتبعوا السامري ، وتركت هذه الأمّة أبي وبايعوا غيره ، وقد سمعوا رسول الله يقول له : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة ، وقد رأوا رسول الله نصب أبي يوم غدير خم ، وأمرهم أن يبلغ أمره الشاهدُ الغائب ، وهرب رسول الله من قومه وهو يدعوهم الى الله حتى دخل الغار ، ولو انه وجد أعواناً لما هرب ، كفّ أبي يده حين ناشدهم ، واستغاث فلم يغث . فجعل الله هارون في سعة حين استضعفوه ، وكادوا يقتلونه ، وجعل الله النبي في سعة حين دخل الغار ولم يجد أعواناً . وكذلك أبي وأنا في سعة من الله حين خذلتنا هذه الأمّة . وإنما هي السنن والأمثال يتبع بعضها بعضاً . » (١)

والتفت الى حضار الحفل فقال لهم .

---

(١) البحار ١٠ / ١١٤ .

« فو الذي بعث محمداً بالحق ، لا ينقص من حقنا - أهل البيت - أحدٌ إلا نقصه الله من عمله ، ولا تكون علينا دولة إلا وتكون لنا العاقبة ولتعلمن نبأه بعد حين . »

والتفت (ع) الى معاوية فردّ عليه سبه لأبيه فقال له :

« أيها الذاكر علياً أنا الحسن وأبي علي ، وأنت معاوية وأبوك صخر وأمي فاطمة ، وأمك هند ، وجدي رسول الله ، وجدك عتبة بن ربيعة ، وجدتي خديجة ، وجدتك قُتيلة ، فلعن الله أخملنا ذكراً ، وألأمنا حسباً ، وشرنا قديماً وحديثاً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً !! »

وارتفعت الأصوات من جميع جنبات الحفل بقول :

« آمين آمين » .

وما سمع أحد هذا الخطاب إلا شاركهم بقول: آمين ونحن نقول: آمين آمين.

وهذه الخطبة أبلغ خطبة عرفها التأريخ ، فقد وضع الإمام فيها النقاط على الحروف - كما يقولون - وصوّر الموقف الدقيق الذي هو فيه ، وربط بين الأحداث التي واجهها ، وبين الأحداث التي جرت على أبيه وانها جميعاً تستند الى من تقمص الخلافة بعد وفاة النبي (ص) ، فلولاهم لما طمع معاوية في الخلافة ونازعه فيها .

موقف الزعيم قيس :

ولما سمع الزعيم الحديدي قيس بن سعد بالنبأ المؤلم جمد دمه واستولت عليه موجة من الهموم ، وغشيته سحب من الأحزان حتى تمنى مفارقة الحياة وجعل يردد في دخيلة نفسه :

كيف سالم أمير الحق أمير الباطل ؟!!!

ووقف وهو حائر اللب ، خائر القوى يريد أن ينقل قدمه من الأرض فلم يتمكن ، قد مشت الرعدة بأوصاله ، والحيرة بصدره ، وسرى الألم العاصف في محيّاه ، ثم انفجر باكياً وهو ينظم ذوب الحشا قائلاً :

أتاني بأرض العال من أرض مسكن بأن إمام الحق أضحى مسالما

فما زلت مذ بينتــه متلدداً أراعي نجوماً خاشع القلب واجما (١)

والتفت الى الجيش وقد علاه الإنكسار واستولى عليه الجزع والذهول قائلاً بصوت خافت حزين النبرات :

« اختاروا إحدى اثنتين ، اما قتال بغير إمام ، واما أن تبايعوا بيعة ضلال؟!! »

فأجابوه وقد علاهم الذل والهوان قائلين :

« بل نقاتل بغير إمام » .

وزحفوا الى جموع أهل الشام فضربوهم حتى أرجعوهم الى مصافهم واضطرب معاوية من ذلك أشد الاضطراب ، فراسل قيساً يمنّيه ويتوعّده فأجابه قيس :

« لا والله ، لا تلقاني إلا وبيني وبينك السيف أو الرمح » .

ولما يئس منــه معاوية أرسل اليه رسالة يشتمه فيها ويتوعّده وهذا نصها :

« أما بعد : فإنك يهودي تشقى نفسك ، وتقتلهــا فيما ليس لك ، فإن ظهر أحب الفريقين اليك نبذك وغدرك ، وإن ظهر أبغضهم اليك نكّل بك وقتلك ، وقد كان أبوك أوتر غير قوسه ، ورمى غير غرضه ، فأكثر الجذ ، وأخطأ المفصل ، فخذله قومه ، وأدركه يومه ، فمات بحوران غريباً والسلام » .

فاجابه قيس :

---

(١) المناقب ٢ / ١٦٧ .

« أما بعد : فإنما أنت وثن ابن وثن ، دخلت في الإسلام كرهاً ، وأقمت فيه فرقاً ، وخرجت منه طوعاً ، ولم يجعل الله لك فيــه نصيباً ، لم يقدم إسلامك ، ولم يحدث نفاقك ، ولم تزل حرباً لله ولرسوله ، وحزباً من أحزاب المشركين ، وعدواً لله ولنبيه وللمؤمنين من عباده . وذكرت أبي فلعمري ما أوتر إلا قوسه ، ولا رمى إلا غرضـه ، فشغب عليـه من لا تشق غباره ، ولا تبلغ كعبه ، وزعمت أني يهودي ابن يهودي وقــد علمت وعلم الناس أني وأبي أعــداء الدين الذي خرجت منه ، وانصار الدين الذي دخلت فيه وصرت اليه والسلام » .

وحكت هذه الرسالة حقيقة معاوية وواقعه ، ولمّــا قرأها انتفخت أوداجه ، وورم أنفه ، فأراد أن يجيبه ، ولكن الداهية الماكر وزيره ابن العاص نهاه عن ذلك قائلاً له :

« !! فإنك إن كاتبته أجابك بأشد من هذا ، وإن تركته دخل فيما دخل فيه الناس » .

واستصوب معاوية رأي ابن العاص فأعرض عن الشدة والعنف (١) وبعث اليه رسالة جاء فيها :

« على طاعة من تقاتل ؟ وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك » .

ولم يقتنع قيس بذلك وبقي مصراً على رأيه ، ولـكن معاوية خاف من الفتنة ومن تطور الأحداث فبعث اليه طوماراً ختم في أسفله ، وقال للرسول قل له فليـكتب فيه ما شاء وغاظ ذلك ابن العاص ، لأن فيه نوعاً

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ١٥ ، وذكر المسعودي في مروج الذهب ٢ / ٣١٩ ، إن هذا الحديث دار بين معاوية وقيس في حياة أمير المؤمنـين (ع) حينما كان قيس عاملاً له على مصر .

من التكريم والحفاوة بقيس ، فالتفت الى معاوية قائلاً :

« لا تأته هذا وقاتله !! »

ولم يخف على معاوية حقد ابن العاص لقيس وعدم نصحه في مقاله فأجابه :

« على رسلك فانا لا نخلص الى قتلهم حتى يقتل اعدادهم من أهل الشام فما خير في العيش بعد ذلك واني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بُدّاً » .

وأوصل الرسول الطومار الى قيس ، وابلغه بمقالة معاوية ، فتأمل قيس وأطال التفكير ، وأخيراً لم يجد بداً من الدخول فيما دخل فيه الناس إذ لم تكن عنده قوة يستطيع بها على مناجزة معاوية ، ولم يكن هناك ركن شديد يأوى اليه حتى يتخلص من بيعته ، فأجاب الرسول بالموافقة وسجل في الطومار الأمان له ولشيعته ، ولم يسأل غير ذلك (١) ولكنه امتنع من الاجتماع معه لأنه قد عاهد الله أن لا يجتمع معه إلا وبينهما السيف والرمح فلما علم معاوية ذلك أمر باحضار سيف ورمح ليجعل بينهما حتى يبر قيس بيمينه ولا يحنث ، فعند ذلك التجأ قيس الى الاجتماع به فأقبل وقد أحاطت به الجماهير ، وشخصت نحوه الأبصار ، وهو مطأطئ الرأس ، مثقل الخطى لا يبصر طريقه من الأسى والذل ، يتنفس فيلفظ شظايا قلبه مع أنفاسه ، ولما استقر به المجلس التفت الى الجموع الحاشدة قائلاً :

« يا معشر النـــاس ، لقد اعتضتم الشر من الخير ، واستبدلتم الذل من العز ، والكفر من الإيمان ، فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنـــين وسيد المسلمين ، وابن عم رسول رب العالمين ، وقد وليكم الطليق ابن الطليق ، يسومكم الخسف ، ويسير فيكم بالسيف ، فكيف تجهل ذلك أنفسكم ، أم

(١) الكامل ٣ / ٢٠٧ ، الطبري ٦ / ٩٤ .

طبع الله على قلوبكم وأنتم لا تعقلون »(١) .

ثم التفت الى الإمام (ع) وقد استولى عليه الذل والإنكسار قائلاً بصوت خفيض وبنبرات مرتعشة .

« أفي حل أنا من بيعتك ؟ »

والتاع الإمام أشد اللوعة من حديث قيس فأجابه بكلمه واحدة :

« نعم » .

ولم يكتف معاوية بذلك فقد دفعته الوقاحة وصفاقة الوجه ، وضيق الوعاء أن يقول له :

« أتبايع يا قيس ؟ »

فأجابه بصوت خافت حزين :

« نعم » .

ثم أطرق برأسه ووضع يده على فخذه لم يمدها اليه ، وقام معاوية من سريره وأكب عليه ومسح يده ، وقيس لم يرفع يده .

الىهنا ينتهي بنا الحديث عن اجتماع الإمام بمعاوية ، وقدكان الإجتماع من أعظم المحن وأقساها عليه ، وأقبل (ع) بعد ذلك يتهيأ للسفر الى يثرب ليترك العراق الذي غدر به وبأبيه من قبل ، فلم يف لهما بعهد ووعد يتركه الى معاوية ولبني أميّة يتصرفون فيه حسبما شاءت لهم أهواؤهم الخاصة ، فقد أخرجوه من الدعة والرفاهية والأمن ، الى الشدة والقسوة والعذاب ، وجعل العراقيون بعد نزوح الإمام عنهم يذكرون أيام حياتهم تحت ظلال الحكومة الهاشمية فيحزنون أشد الحزن ، ويندمون أشد الندم على تفريطهم في جنب أمير المؤمنين ، وولده الإمام الحسن عليهما السلام .

---

(١) اليعقوبي ٢ / ١٩٢ .



المُندَدُونَ بالصُّلح

ولم تقتصر محنة الإمام وبلواه الخالدة على ما لاقاه من عظيم البلاء وشدة المحنة في صلحه مع معاوية واجتماعه به ، فقد تجاوز بلاؤه الى ما هو أعظم من ذلك وأشد أثراً في نفسه وهو كلام المنددين بصلحه من أعدائه وأصحابه فقد جابهوه بكلام أشد عليه من وقع الحسام المهند ، فقد رأى منهم غلظة في القول وقسوة في الحديث وجفاء أي جفاء ، فاستاء (ع) من شيعته أشد مما استاء من اعدائه لأنهم على علم بالظروف السود ، والعوامل المرة التي ألجأته الى الصلح والهدنة ، وفيما يلي كلام المنددين في ذلك مع جواب الإمام (ع) لهم .

١ — حجر بن عدي :

وأقبل بطل العقيدة ومثال الإيمان حجر بن عدي الى الامام وقد مشت الرعدة بأوصاله ، واستولى عليه الحزن قائلاً :

« أما والله ، لوددت أنك مت في ذلك اليوم ومتنا معك ولم نر هذا اليوم ، فإنا رجعنا راغمين بما كرهنا ، ورجعوا مسرورين بما أحبوا » .

ولا أدري كيف فاه حجر بهذا الكلام القاسي وهو أعلم بمركز الإمام وبواقعه من غيره ، وأدرى بالظروف العصيبة والمصاعب الشديدة التي أحاطت به (ع) حتى اضطرته الى الصلح ، ولكنه بعذر لأن لوعة المصاب وذهول النفس تخرج الإنسان عن موازين الاعتدال والاستقامة ، وقام الإمام (ع) فأخذ بيد حجر واختلى به في زاوية من زوايا البيت فبين له الحكمة التي من أجلها صالح معاوية قائلاً :

« يا حجر ، قد سمعت كلامك في مجلس معاوية ، وليس كل انسان يحب ما تحب ، ولا رأيه كرأيك ، وإني لم أفعل إلا إبقاءً عليكم ، والله

تعالى كل يوم في شأن » (١) .

وقد أبان (ع) عدم وجود المخلصين له في الجيش العراقي ولو كان هناك أمثال حجر في عقيدته وايمانه ورأيه واخلاصه لما صالح معاوية ، كما بيّن (ع) انه إنما صالح خصمه محافظة على حجر وأمثاله من المؤمنين .

٢ — عدي بن حاتم :

وعدي بن حاتم هو الفذ المثالي الذي ضرب الرقم القياسي للعقيدة والايمان والفداء في سبيل الله ، وقد اندفع هذا الصحابي العظيم بثورة نفسية عارمة الى انكار الصلح ، وكانت لهجة حديثه لهجة مؤدب كامل ، فقال للإمام وقد ذابت حشاه من الحزن والمصاب :

« يا ابن رسول الله ، لوددت أني مت قبل ما رأيت ، أخرجتنا من العدل الى الجور ، فتركنا الحق الذي كنّا عليه ، ودخلنا في الباطل الذي كنّا نهرب منه ، وأعطينا الدنيـة من أنفسنا ، وقبلنا الخسيس التي لم تلق بنا » .

وترك كلام عدي في نفس الامام بالغ الأسى والحزن ، فانبرى (ع) مبيناً له العلة التي صالح من أجلها قائلاً :

« يا عدي ، إني رأيت هوى معظم الناس في الصلح ، وكرهوا الحرب فلم أحب أن أحملهم على مايكرهون ، فرأيت دفع هذه الحروب الى يوم ما فان الله كل يوم هو في شأن » .

وأعرب (ع) في جوابه عن سأم جيشه من الحرب ، وحبه للعافية وايثاره للسلم ، وإنه عازم على إثارة الحرب ومناجزة معاوية ، ولكن في

(١) مناقب ابن شهراشوب ٢ / ١٦٩ .

وقت مناسب يضمن له النجاح والنصر ، ولم يقتنع عدي بكلام الامام ، فمضى وهو مثقل الخطى نحو الإمام الحسين (ع) وقلبه يلتهب ناراً وحماساً وكان معه عبيدة بن عمر ، فلما انتهى الى الإمام قال له بنبرات تقطر حماساً وعزماً الى اثارة الحرب .

« يا أبا عبد الله شريتم الذل بالعز ، وقبلتم القليل وتركتم الكثير ، أطعنا اليوم واعصنا الدهر ، دع الحسن وما رأى من هذا الصلح ، واجمع اليك شيعتك من أهل الكوفة وغيرها ، وولني وصاحبي هذه المقدمة ، فلا يشعر ابن هند إلا ونحن نقارعه بالسيوف » .

فقال له (ع) :

« إنا قد بايعنا وعاهدنا ولا سبيل لنقض بيعتنا » (١) .

٣ ـ المسيب بن نجبة :

والمسيب بن نجبة (٢) من عيون المؤمنين وخيار الصالحين الذين عرفوا بالولاء والاخلاص لآل البيت (ع) وقد تأثر من الصلح وتألم بكل ما للتألم من معنى فقد أقبل الى الامام وهو محزون النفس مكلوم القلب قائلاً :

« ما ينقضي تعجبي منك !!! بايعت معاوية ومعك اربعون ألفاً ،

---

(١) الدينوري ص٢٠٣ .

(٢) المسيب بن نجبة : كوفي روى عن أمير المؤمنين (ع) وحذيفة ، وروى عنه جماعة ، خرج مع سليمان بن صرد في الطلب بثأر الحسين فقتل سنة ٦٥هـ وقال ابن سعد : في الطبقة الأولى من أهل الكوفة ، المسيب بن نجبة بن ربيعة بن رياح ، شهد القادسية ، ومشاهد علي (ع) ، وقتل يوم عين الوردة ، وقال العسكري : روى المسيب عن النبي (ص) مرسلاً وليست له صحبة ، جاء ذلك في تهذيب التهذيب ١٠ / ١٥٤ .

ولم تأخذ لنفسك وثيقة ، وعهداً ظاهراً ، أعطاك أمراً فيما بينك وبينه ، ثم قال : ما قد سمعت ، والله ما أراد بها غيرك » .

فقال له الامام : « ما ترى ؟ »

« أرى أن ترجع الى ما كنت عليه ، فقدكان نقض ما بينك وبينه »

فانبرى اليه الإمام مبيناً له أن المصلحة كانت تقضي بالصلح قائلاً :

« يا مسيب ، إني لو أردت — بما فعلت — الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ، ولا أثبت عند الحرب مني ، ولكني أردت صلاحكم ، وكف بعضكم عن بعض » (١) .

وأعرب الإمام (ع) في حديثه أنه لو كان من طلاب الدنيا وعشاق الملك والسلطان ما كان معاوية بأصبر منه ، ولا أثبت في الحرب ، ولكن الإنتصار عليه يتوقف على الاعتماد على الطرق التي لا يقرها الدين كالمواربة والمداهنة والخداع وما شاكل ذلك ، ولكنه (ع) أبى أن يسلك ذلك وسار على خطة أبيه الداعية الى ملازمة الحق والعدل ، ومتابعة الشرع .

٤ — مالك بن ضمرة :

ودخل على الإمام مالك بن ضمرة (٢) فتكلم معه بكلام مر كان في

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٢ / ٢٢٥ .

(٢) مالك بن ضمرة الضمري : كان معروفاً بسعة العلم والفضل ، وكان ملازماً للصحابي العظيم أبي ذر ، وقد أدرك النبي (ص) ، ولما حضرته الوفاة أوصى بسلاحه الى المجاهدين من بني ضمرة ، واشترط عليهم أن لا يقاتلوا به أهل البيت (ع) . فقال له أخوه : يا أخي عند الموت تقول هذا ؟ فقال له : هو ذاك ، ولما أقبل سيد الشهداء الى العراق وخرج أهل الكوفة لقتاله ، جاء أحد أعوان ابن زياد الى موسى بن مالك مستعيراً منه رمح أبيه ليقاتل به ريحانة —

منتهى الشدة فأجابه الامام (ع) .

« إني خشيت أن يجتث المسلمون عن وجـه الأرض ، فأردت أن يكون للدين ناعي »(١) .

وأدلى الامام (ع) في حديثـه عن حرصه على دماء المسلمين وانه لو فتح باب الحرب بينه وبين معاوية لما بقي مسلم على وجـه الأرض ، فصالح حفظاً على دماء المسلمين وابقاءً عليهم .

٥ ـ سفيان بن أبي ليلى :

وسفيان بن أبي ليلى كان ممن يدين بفكرة الخوارج ، فقد دخل على الامام وتكلم بكلمات تنمّ عن نفس مترعة بالجفاء والجهل قائلاً :

« السلام عليك يا مذل المؤمنين » ،

فتأثر (ع) منه واندفع قائلاً :

« ويحك أيها الخارجي ، لا تعنفني ، فان الذي أحوجني الى ما فعلت قتلكم أبي ، وطعنكم إياي ، وانتهابكم متاعي ، وإنكم لما سرتم الى صفين كان دينكم أمام دنياكم ، وقد أصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ، ويحك أيها الخارجي !!! إني رأيت أهل الكوفة قوماً لا يوثق بهم ، وما اعتز بهم إلا من ذل ، وليس أحد منهم يوافق رأي الآخر ، ولقـد لقي أبي منهم اموراً صعبة ، وشدائداً مرّة وهي أسرع البلاد خراباً ، وأهلها هم الذين

ـ رسول الله ، فأعطاه إياه ، فلما خرج قالت اليه امرأة من أهله : يا موسى أما تذكر وصية أبيك ، فلما سمع بذلك طلبه حتى أخذ منـه الرمح فكسره ، جاء ذلك في الاصابة ٣ / ٤٦٠ .

(١) البحار .

فرقوا دينهم وكانوا شيعاً » (١) .

٦ — بشير الهمداني :

ودخل بشير الهمداني على الامام وكان (ع) في يثرب فقال له :

« السلام عليك يا مذل المؤمنين » .

« وعليك السلام ، اجلس » .

فلما استقر به المجلس التفت (ع) له قائلاً :

« لست مذلاً للمؤمنين ، ولكني معزّهم ، ما أردت بمصالحتي إلا أن أدفع عنكم القتل عند ما رأيت تباطؤ أصحابي ونكولهم عن القتال » (٢) .

٧ — سليمان بن صرد :

وسليمان بن صرد من صفوة أصحاب الامام في إيمانه وعقيدته وولائه لآل البيت عليهم السلام ، ولم يكن حاضراً في المدائن حينما جرى الصلح فلما وافته الأنباء المؤلمة توجه الى الامام وكان في يثرب فلما انتهى اليه اندفع قائلاً :

« السلام عليك يا مذل المؤمنين » .

« عليك السلام ، اجلس » .

فلما جلس اندفع قائلاً :

« إن تعجبنا لا ينقضي من بيعتك لمعاوية !! ومعك مائة ألف مقاتل من أهل العراق وكلهم يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم ومواليهم سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك ثقة في العهد ، ولا حظاً من

(١) تذكرة الخواص ص ٢٠٧ ، وروى ابن أبي الحديد في شرح النهج والكشي في رجاله صورة أخرى غير هذه الصورة .

(٢) الدينوري ص ٢٠٣ .

القضية ، فلو كنت إذ فعلت ما فعلت ، وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد والميثاق كنت كتبت عليه بذلك كتاباً ، وأشهدت عليه شهوداً من أهل المشرق والمغرب ، أن هذا الأمر لك من بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به من قوله ، ثم قال وزعم على رؤوس الناس ما قد سمعت : إني كنت شرطت لقوم شروطاً ، ووعدتهم عدات ، ومنيتهم أماني ، إرادة إطفاء نار الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ، إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفتنا ، فان كل ما هنالك تحت قدمي هاتين ، والله ما أعني بذلك إلا نقض ما بينك وبينه ، فأعد للحرب خدعة ، واذن لي أشخص الى الكوفة ، فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلعه ، وأنبذ اليه على سواء إن الله لا يهدي كيد الخائنين » .

وقد دل حديث سليمان على ولائه واخلاصه للإمام (ع) وقد حفزه الى الثورة على حكومة معاوية ونقض البيعة لأنه لم يف بالعهد ولم يلتزم ببنود الصلح ، كما أعلن ذلك أمام الرأي العام ، وصادف حديث سليمان هوى في نفوس من حضر نادي الامام فهتفوا بالتأييد لمقالته قائلين :

« ابعث سليمان بن صرد ، وابعثنا معه ، ثم الحقنا إذا علمت أنا قد أشخصنا عامله ، وأظهرنا خلعه » .

ولما كانت المصلحة العامة للمسلمين لا تساعد على خلع معاوية ونقض المعاهدة ، لأن ذلك غير ممكن نظراً لتلبد الجو بالفتن والاضطرابات ، ولقلة الناصر ، وخذلان المحب ، وكثرة العدو ، فقد أمرهم (ع) بالسكون وهدأ ثورتهم النفسية قائلاً لهم بعد حمد الله والثناء عليه :

« أما بعد : فإنكم شيعتنا ، وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة والصحبة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم في

أمر الدنيا . وللدنيا أعمل وأنصب ، ما كان معـاوية بأبأس مني بأساً ، وأشد شكيمة ، ولكان رأيي غير ما رأيتم ، ولكني أشـهد وإياكم أني لم أرد بما رأيتم إلا حقن دمائكم ، وإصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله وارضوا بقضـاء الله ، وسلموا الأمر لله ، والزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح بر ، أو يستراح من فاجر ، مع ان أبي كان يحدثني أن معـاوية سيلي الأمر ، فو الله لو سرنا اليه بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر إن الله لامعقب لحكمه ولا راد لقضائه ، وأما قولك : يا مذل المؤمنين . فو الله لأن تذلوا وتعافوا أحب إلي من أن تعزوا وتقتلوا ، فان رد الله علينا حقنا في عافية قبلنا ، وسألنا الله العون على أمره وان صرفه عنـا رضينا وسألنا الله أن يبارك في صرفه عنا فليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ، ما دام معاوية حياً ، فان يهلك ونحن وأنتم أحياء سألنا الله العزيمة على رشدنا ، والمعونة على أمرنا ، وأن لا يكلنا الى أنفسنا ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . » (١)

لقد أمر الامام شيعته بالخلود الى الصبر والسكون ما دام معاوية في قيد الحياة ، وعلل صلحه بأمور تقدم بيانها بالتفصيل .

٨ — عبد الله بن الزبير :

وعبد الله بن الزبير وغد خبيث عرف بالبغض والعداء لآل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد عاب على الامام صلحه مع معاوية ، فأجابه (ع) قائلاً :

« وتزعم أني سلمت الأمر ، وكيف يكون ذلك — ويحك — كذلك وانا ابن أشجع العرب ، وقد ولدتني فاطمة سيدة نساء العالمين ، لم أفعل

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقي ١ / ٦٠ — ٦٥ .

ذلك — ويحك — جبناً ولا ضعفاً ، ولكنه بايعني مثلك ، وهو يطلبني بترة ويداجيني المودة ، ولم أثق بنصرته » .

لقـد اتهم ابن الزبير الإمام بالجبن ، وحاشاه من ذلك ، فمن أين جاءه الجبن « أمن أبيه أسد الله وأسد رسوله ، أم من جديه رسول الله صلى الله عليه وآله وشيخ البطحاء ، أم من عميه سيدي الشهداء العظمين حمزة وجعفر ، أم من أخيه أبي الشهداء ، أم من مواقفه المشهورة في مختلف الميادين ، يوم الدار ، ويوم البصرة ، وفي مظلم ساباط ، وهو ذلك الرئبال الذي (إذا سار سار الموت حيث يسير) على حد تعبير عدوه فيه ؟؟ » .

٩ — أبو سعيد :

وأقبل أبو سعيد إلى الإمام يعاتبه على صلحه ، ويؤنبه على ذلك قائلاً :

« يا ابن رسول الله لِمَ هادنت معاوية وصالحته ، وقـد علمت أن الحق لك دونه ، وان معاوية ضال باغ ؟ »

— يا أبا سعيد ألست حجة الله على خلقه ، وإماماً عليهم بعد أبي ؟

— بلى .

— يا أبا سعيد علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله لبني ضمرة وبني أشجع ، ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية ، أولئك كفار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل .

يا أبا سعيد ، إذا كنت إماماً من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يسفه رأيي فيما أتيته من مهادنة أو محاربة ، وإن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبساً ، ألا ترى الخضر لمّا خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وأقام الجدار ، سخط موسى فعله لاشتباه الحكمة عليه ، حتى أخبره فرضي . هكذا أنا سخطتم عليّ بجهلكم وجه الحكمة ، ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على

وجه الأرض أحد إلا قُتل .. »

إن شأن الإمام كشأن النبي ، لا يفعل إلا ما فيه الصالح العام ، ولكن المصلحة قد تخفى أحياناً على الناس فلا يعقلونها إلا بعد حين ، وقد شبه صلحه بفعل الخضر (ع) لما خرق السفينة ، وهدم الجدار ، وقتل الغلام ، ولما لم يفهم صاحبه المصلحة في ذلك نقم عليه ، وراح يشتد في معارضته والإنكار عليه ، وحينما تبين له الحال أذعن له وأطاع ، وكذلك الإمام في صلحه ، فإن الحكمة قد خفيت على كثير من شيعته فاندفعوا الى اعـلان سخطهم وإلى الإنكار عليه .

١٠ – بعض أصحابه :

ودخل على الإمام بعض أصحابه ، وهو مندلع الثورة قد أخذ منـه الوجد والأسى مبلغاً ليس بالقليل فقال له :

« يا ابن رسول الله ، أذللت رقابنا بتسليمك الأمر الى هذا الطاغية : »

فأجابه الإمام :

« والله ، إني ما سلمت الأمر إلا لأني لم أجد أنصاراً ، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه ، ولكن عرفت أهل الكوفة ، وبلوتهم ، ولا يصلح لي منهم من كان فاسداً ، إنهم لا وفاء لهم ولا ذمة في قول ، ولا فعل ، إنهم لمختلفون ، ويقولون لنا : إن قلوبهم معنا ، وإن سيوفهم لمشهورة علينا .. »

لقد بيّن (ع) انه لا ناصر له ولا معين ليناجز معاوية ، إذ لم يكن معه سوى أهل الكوفة الذين لا وفاء لهم ولا ذمة في قول ولا فعل فكيف يحارب بهم معاوية ؟

لقد رد عليه السلام شبه الناقدين ، وأوضح لهم الحكمة في ذلك ، وأجاب كلاً على عتابه ببراعة الحجة ، وروعة العرض واصالة والرأي .



الى يثرب

بقي الإمام (ع) في الكوفة أياماً وهو مكلوم القلب قد طافت به الهموم والآلام يتلقى من شيعته مرارة الكلام ، وقسوة القول ، ومن معاوية وحزبه الاستهانة بمركزه الرفيع وهو مع ذلك صابر محتسب ، قد كظم غيظه ، وأوكل أمره الى الله ، وقد عزم على مغادرة العراق — البلد الذي غدر به وبأبيه من قبل — والشخوص الى مدينة جده ، وقد أظهر عزمه ونيته الى أصحابه ، ولما أذيع ذلك دخل عليه المسيب بن نجبة الفزاري ، وظبيان ابن عمارة التميمي (١) ليودّعاه ، فالتفت لهما ونفسه الشريفة مترعة بالألم والحزن على ما آل اليه أمر المسلمين قائلاً :

« الحمد لله الغالب على أمره ، لو أجمع الخلق جميعاً على أن لا يكون ما هو كائن ما استطاعوا » .

ويلمس في كلامه التسليم لقضاء الله وقدره والحزن واللوعة على ضياع حقه الشرعي ولما رأى المسيب الشجا قد بدا على غصني النبوة ، وفرعي الإمامة ، وذلك لخوفهم على شيعتهم من أن يضاموا في عهد هذا الطاغية التفت لهما مهدئاً روعهما قائلاً :

« إنه والله ما يكبر علينا هذا الأمر إلا أن تضاموا وتنتقصوا ، فأما نحن فإنهم سيطلبون مودتنا بكل ما قدروا عليه » .

فانبرى اليه الإمام الحسين (ع) يشكره على ولائه وإخلاصه قائلاً :

« يا مسيب ، نحن نعلم أنك تحبنا » .

---

(١) ظبيان بن عمارة التميمي : روى عن أمير المؤمنين (ع) ذكره البخاري في الصحابة ، وذكره في التابعين ابن حاتم وابن حبان ، جاء ذلك في الاصابة ٢ / ٢٣٢ . وجاء في لسان الميزان ٣ / ٢١٥ ان ابن حبان عدّ ظبياناً من الثقات وان ابن حاتم لم يذكر فيه جرحاً .

والتفت اليه الإمام الحسن (ع) فبشره بحبه لهم قائلاً :

« سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله (ص) يقول : من أحب قوماً كان معهم » .

وطلب منه المسيب وظبيان المكث في الكوفة فأمتنع (ع) من اجابتهم وقال :

« ليس الى ذلك من سبيل » (١) .

وأخذ (ع) يعمل في تهيئة سفره ، وبعدها توجه هو وأهل بيته الى عاصمة جده ، وقد خرج أهل الكوفة بجميع طبقاتهم الى توديعه وهم ما بين باك وآسف (٢) يندبون حظهم التعيس وسعادتهم التي حطموها بأيديهم ، فقد نقلت الخلافة ومعها بيت المال من بلدهم الى دمشق ، وقد أقض ذلك مضاجعهم ، ولكن بعد أن سبق السيف العذل ، فقد كانوا أصحاب الدولة وإذا ببلدهم — بعد غدرهم بالامام وعدم مناصرته — قد أصبحت مصراً من الأمصار ، وإذا القطع السورية من الجيش تدخل مصرهم وتسيطرعليهم ويقام في بلدهم حكم ارهابي عنيف لايعرف الرحمة والرأفة .

لقد رحل (ع) عن الكوفة هو وأهل بيته ومعه أبو رافع خازن بيت المال ، وقد غشيتها الكآبة ، وخيم عليها الحزن ، وحل بها الشقاء والوبال والدمار ، فلقد صبّ الله عليها بعد خروج الامام الطاعون فقضى على كثير من أبنائها ، وفرّ منها المغيرة بن شعبة واليها ثم بعد مدة عاد اليها فلما وصل جرفه الطاعون فمات به (٣) .

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٦ .

(٢) تحفة الأنام للفاخوري ص ٦٧ .

(٣) المسعودي على هامش ابن الأثير ٦ / ٩٧ .

وسارت قافلة الامام تطوي البيداء ، فلما انتهت الى دير هند (١) التى الامام (ع) على عاصمته نظرة ملؤها الأسى واللوعة ، ثم تمثل ببيت من الشعر يلمس فيه مدى استيائه وحزنه قائلاً :

ولا عن قلى فارقت دار معاشري هم المانعون حوزتي وذماري (٢)

لقد ودع الامام الكوفة بالأسى والحسرات ، ولم يذكر ما لاقاه من الغدر والخيانة به ، فأي « نفس ملائكية هذه التي لقيت من نشوز هذه الحاضرة ومن بوائقها ما لقيت ، ثم هي تودعها بهذا البيت من الشعر فلا تذكر من تاريخها الطويل العريض ، إلا وفاء الأوفياء « المانعين الحوزة والذمار » ، وهم الذين منعوا عنه من أراده في المدائن ، والذين ثبتوا على طاعته يوم العسرة في مسكن فكانوا اخوان صدق ، وخيرة الأنصار على قلتهم » وسار موكب الامام ولكنه لم يبعد كثيراً حتى أدركه رسول معاوية يريد أن يرده الى الكوفة ليقاتل طائفة من الخوارج خرجت عليه ، فأبى عليه السلام أن يعود وكتب الى معاوية :

« لو آثرت أن أقاتل أحداً من أهل القبلة لبدأت بقتالك ، فإني تركتك لصلاح الأمة وحقن دمائها » (٣) .

ثم مضى (ع) ولم يعتن بمعاوية ، وما اجتاز موكبه على حي أو قرية إلا وخف من فيهما الى استقباله والتشرف بمقابلته ، وكان أول حديث يبدأون به السؤال عما صار اليه أمره مع معاوية فيخبرهم (ع) بالحال

---

(١) دير هند : يقع بالحيرة ترهبت به هند بنت النعمان بن المنذر فسمي بها .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٦ .

(٣) الكامل ٣ / ٢٠٨ .

فيظهرون له الاستياء والتذمر وعدم الرضا وذلك لخوفهم من سلطة معاوية ولكنه (ع) ما يصنع وقد مني جيشه وشعبه بالتمرد والخذلان حتى التجأ الى الصلح والمسالمة .

وانتهت قافلة الامام الى يثرب فلما علم أهلها بتشريفه (ع) خفوا جميعاً لاستقباله فقد أقبل اليهم الخير وحلت في ديارهم السعادة والرحمة ، وعاودهم الخير الذي انقطع عنهم منذ نزح أمير المؤمنين عليه السلام عنهم ، جاء الى يثرب فاستقام فيها عشر سنين ، فملأ رباعها بعطفه المستفيض ، ورقيق حنانه وحلمه ، ونقدم عرضاً موجزاً لبعض أعماله وشؤونه حين مكثه فيها .

مدرسته :

وأنشأ الامام مدرسته الكبرى في يثرب ، وراح يعمل مجداً في نشر الثقافة الاسلامية ، وتوجيه المجتمع الاسلامي نحو الدين ، وافهامه بالنظم الاسلامية ، وقد انتمى لمدرسته كبار العلماء ، وعظماء المحدثين والرواة ، وقد وجد بهم خير عون لأداء رسالته الاصلاحية الخالدة التي بلورت عقلية المجتمع ، وأيقظته بعد الغفلة والجمود ، وقد ذكر المؤرخون بعض أعلام تلامذته ورواة حديثه وهم :

ابنه الحسن المثنى ، والمسيب بن نجبة ، وسويد بن غفلة ، والعلا ابن عبد الرحمن ، والشعبي ، وهبيرة بن بركم ، والأصبغ بن نباتة ، وجابر ابن خلد ، وأبو الجوزا ، وعيسى بن مأمون بن زرارة ، ونفالة بن المأموم وأبو يحيي عمير بن سعيد النخعي ، وأبو مريم قيس الثقفي ، وطحرب العجلي ، واسحاق بن يسار ، والد محمد بن اسحاق ، وعبد الرحمن بن عوف

وسفين بن الليل ، وعمرو بن قيس الكوفيون (١) وقد ازدهرت يثرب بهذه الكوكبة من العلماء والرواة فكانت من أخصب البـلاد الإسلامية علماً ، وأدباً ، وثقافة .

وكما كان يتولى نشر العلم في يثرب ، كان يدعو الناس الى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، والتأدب بسنة النبي (ص) ، وقد رفع (ع) منار الأخلاق التي جاء بها جده الرسول لإصلاح المجتمع وتهذيبهم فمن سمو أخلاقه انه كان يصنع المعروف والاحسان حتى مع أعدائه ومناوئيه ، وقد بلغه أن الوليد بن عقبة قد ألم به السقم فمضى لعيادته مع ما عرف به الوليد من البغض والعداء لآل البيت ، فلما استقر المجلس بالإمام انبرى اليه الوليد قائلاً :

« إني أتوب الى الله تعالى مما كان بيني وبين جميع الناس إلا ما كان بيني وبين أبيك فاني لا أتوب منه . » (٢)

وأعرض الإمام عنه ولم يقابله بالمثل ولعله أوصله ببعض ألطافه وهداياه.

عطفه على الفقراء :

وأخذ (ع) يفيض الخير والبر على الفقراء والبائسين ، وينفق جميع ما عنده عليهم وقـد ملأ قلوبهم سروراً باحسانه ومعروفه ، ومن كرمه انه جاءه رجل في حاجة فقال له : « اكتب حاجتك في رقعة وادفعها الينا » فكتبها ذلك الشخص ورفعها اليه ، فأمر (ع) بضعفها له ، فقال بعض الحاضرين :

---

(١) تأريخ ابن عساكر ج ١٢ ، صورة فوتوغرافيـة في مكتبة الامام أمير المؤمنين .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ / ٣٦٤ .

« ما كان أعظم بركة هذه الرقعة عليه يا ابن رسول الله ؟ ! »

فأجابه (ع) :

« بركتها علينا أعظم ، حين جعلنا للمعروف أهلاً . أما علمت أن المعروف ما كان ابتداءاً من غير مسألة ، فأما من أعطيته بعد مسألة ، فإنما أعطيته بما بذل لك من وجهه . وعسى أن يكون بات ليلته متململا أرقاً يميل بين اليأس والرجاء ، لا يعلم بما يرجع من حاجته ، أ بكآبة أم بسرور النجح ، فيأتيك وفرائصه ترعد ، وقلبه خائف يخفق ، فان قضيت له حاجته فيما بذل من وجهه ، فان ذلك أعظم مما نال من معروفك . »

لقد كان موئلاً للفقراء والمحرومين ، وملجأ للأرامل والأيتام ، وقد تقدم في الجزء الأول من هذا الكتاب بعض بوادر جوده ومعروفه ، التي كان بها مضرب المثل للكرم والسخاء .

الاستجارة به :

كان (ع) في عاصمة جده كهفاً منيعاً لمن يلجأ اليه ، وملاذاً حصيناً لمن يلوذ به ، قد كرّس أوقاته على قضاء حوائج النـــاس ، ودفع الضيم والظلم عنهم ، وقد استجار به سعيد بن سرح من زياد فأجاره ، فقـــد ذكر الرواة انه كان معروفاً بالولاء لأهـــل البيت (ع) فطلبه زياد من أجل ذلك فهرب الى يثرب مستجيراً بالإمام ، ولما علم زياد ذلك عمد الى أخيه وولده وزوجه فحبسهم ، ونقض داره ، وصادر أمواله ، وحينما علم الامام الحسن ذلك شقّ عليه الأمر ، فكتب رسالة الى زياد يأمره فيها بأن يعطيه الأمان ، ويخلي سبيل عياله وأطفاله ، ويشيّد داره ، ويرد عليه أمواله ، وهذا نص كتابه :

« أما بعد : فانك عمدت الى رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، فهدمت داره ، وأخذت ماله ، وحبست أهله وعياله ، فان أتاك كتابي هذا فابن له داره ، واردد عليه ماله ، وشفعني فيه ، فقد أجرته والسلام » .

وقد أمر الامام زياداً في هذه الرسالة بالمعروف ونهاه عن المنكر ، فقد أوصاه أن يردّ على سعيد ما أخذه منه ، وأن لا ينكّل به ، لأنه لم يحدث فساداً في الأرض حتى يستحق العذاب والتنكيل ، ولما قرأ زياد هذه الرسالة ورم أنفه من الغضب ، لأن الامام لم ينسبه الى أبي سفيان ، فأجاب الامام بجواب ينم عن مدى خبثه ، ولؤم عنصره ، وهذا نصه :

« من زياد بن أبي سفيان الى الحسن بن فاطمة .

أما بعد : فقد أتاني كتابك ، تبدأ فيه بنفسك قبلي وأنت طالب حاجة وأنا سلطان ، وأنت سوقة وتأمرني فيه بأمر المطاع المسلّط على رعيته كتبت إليّ في فاسق آويته إقامة منك على سوء الرأي ، ورضا منك بذلك وأيم الله لا تسبقني به ولو كان بين جلدك ولحمك ، وإن نلت بعضك غير رفيق بك ، ولا مرع عليك ، فإن أحب لحم عليّ أن آكله اللحم الذي أنت منه ، فسلمه بجريرته إلى من هو أولى به منك ، فان عفوت عنه لم أكن شفعتك فيه ، وإن قتلته لم أقتله إلا لحبه أباك الفاسق والسلام » .

وقد أعرب زياد بهذه الرسالة عن صفاقته ، وعدم حيائه ونكرانه المعروف فقد تناسى الأيادي البيضاء التي أسداها عليه أمير المؤمنين وولده الحسن (ع) في توليته فارس ، فقابل ذلك المعروف بالاساءة ، والنعمة بالكفران .

أف لك يا زمان ، وتعساً لك يا دهر ، أمثل ابن سمية يتطاول على

سبط النبي وريحانته ، وينال من كرامته ؛ إن الذي دعاه لأن يشمخ بأنفه ليس إلا السلطة التي يتمتع بها ، وإلا فأي فضيلة أو مكرمة ماثلة فيه حتى يعتز بها ويفتخر ، ولما وصلت رسالته الى الامام (ع) قرأها وتبسم وعلم سر غضبه وثورته ، لأنه لم ينسبه الى أبي سفيان ، وانبرى (ع) فكتب الى معاوية كتاباً عرّفه فيه بمهمته ، وأودع في جوفه رسالة زياد ، ورسم (ع) رسالة أخرى الى زياد حطم بها كيانه ، ورد غلواءه ، وأفسد التحاقه بأبي سفيان ، وقد تقدم ذكرها (١) .

ولما وصلت رسالة الامام الى معاوية واطلّع على جراءة زياد واستهتاره واستخفافه بمركز الامام رفع من فوره رسالة الى زياد ، وهذا نصها :

« أما بعد : فان الحسن بن علي بعث إليّ بكتابك اليه جواباً عن كتاب كتبه اليك في ابن سرح ، فأكثرت العجب منك !!! وعلمت أن لك رأيين أحدهما من أبي سفيان ، والآخر من سمية ، فأما الذي من أبي سفيان حلم وحزم ، وأما الذي من سمية فما يكون رأي مثلها ، من ذلك كتابك الى الحسن ، تشتم أباه ، وتعرض له بالفسق ، ولعمري انك أولى بالفسق من أبيه ، فأما ان الحسن بدأ بنفسه ارتفاعاً عليك ، فان ذلك لا يضعك لو عقلت ، وأما تسلطه عليك بالأمر فحق لمثل الحسن أن يتسلط وأما تركك تشفيعه فيما شفع فيه اليك فحظ دفعته عن نفسك الى من هو أولى به منك ، فاذا ورد عليك كتابي فخل ما في يديك لسعيد بن أبي سرح وابن له داره ، واردد عليه ماله ، ولا تعرض له فقد كتبت الى الحسن عليه السلام أن يخيره إن شاء أقام عنده ، وإن شاء رجع الى بلده ، ولا سلطان لك عليه لا بيد ولا لسان ، وأما كتابك الى الحسن (ع) باسمه

---

(١) يراجع ص ١٧٥ .

واسم أمّه ولا تنسبه الى أبيه ، فان الحسن ويحك من لا يرمى به الرجوان والى أي أم وكلته لا أم لك ، أما علمت أنها فاطمة بنت رسول الله (ص) فذاك أفخر له لو كنت تعلمه وتعقله » .

ثم كتب في آخر الكتاب أبياتاً في مدح الإمام من جملتها :

أما حسن فابن الذي كان قبله ... إذا سار سار الموت حيث يسير

وهل يلد الرئبال إلا نظيره ... وذا حسن شبه له ونظير

ولكنه لو يوزن الحلم والحجا ... بأمر لقالوا يذبل وثبير (١)

وقد اعترف معاوية بهذه الرسالة بمواهب الإمام وملكاته وشرفه وعظيم شأنه ، وإنه لو وزن حلمه بثبير لرجح عليه ، فتعساً للزمن المزيل الذي جرّأ زياداً أن ينال من كرامته ، ويعتدي عليه .

مع حبيب بن مسلمة :

وحبيب بن مسلمة الفهري (٢) من أوغاد قريش ومن عملاء معاوية الذين يحقدون على آل البيت ، التقى به الإمام في الطواف فقال له (ع) :

« يا حبيب رب مسير لك في غير طاعة الله » .

فانبرى اليه حبيب بسخرية قائلاً :

« أما مسيري من أبيك فليس من ذلك » .

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٧٢ .

(٢) حبيب بن مسلمة بن مالك القرشي الفهري ، كان يقال له حبيب الروم لكثرة دخوله اليهم ونيله منهم ، وكان من خلص أصحاب معاوية ولم يفارقه في حروبه بصفين وغيرها ، وجهه معاوية والياً الى أرمينية فمات بها سنة ٤٢ هـ جاء ذلك فى الإستيعاب ١ / ٣٢٧ .

فردّ عليه الإمام مقالته قائلاً :

« بلى والله ، ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة ، فلئن قام بك في دنياك ، لقد قعد بك في آخرتك ، ولو كنت إذ فعلت قلت خيراً كان ذلك كما قال الله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً » (١) . ولكنك كما قال الله سبحانه : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (٢) ، ثم تركه وانصرف (٣) .

رفضه لمصاهرة الامويين :

ورام معاوية أن يصاهر بني هاشم ليحوز بذلك الشرف والمجد ، فكتب الى عامله على المدينة مروان بن الحكم أن يخطب ليزيد زينب بنت عبد الله بن جعفر على حكم أبيها في الصداق ، وقضاء دينه بالغاً ما بلغ ، وعلى صلح الحيين بني هاشم وبني أمية ، فبعث مروان خلف عبد الله ، فلما حضر عنده فاوضه في أمر كريمته ، فأجابه عبد الله :

« إن أمر نسائنا بيد الحسن بن علي فاخطب منه » .

فأقبل مروان الى الإمام فخطب منه ابنة عبد الله ، فقال (ع) : اجمع من أردت ، فانطلق مروان فجمع الهاشميين والأمويين في صعيد واحد وقام فيهم خطيباً قائلاً :

« أما بعد : فان أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أخطب زينب بنت عبد الله بن جعفر ليزيد بن معاوية على حكم أبيها في الصداق ، وقضاء دينه

---

(١) سورة التوبة : آية ١٠٢ .

(٢) سورة المطففين : آية ١٣ .

(٣) أحكام القرآن للرازي ٣ / ١٨١ ، وزهر الآداب لأبي اسحاق ١ / ٥٥ .

بالغاً ما بلغ ، وعلى صلح الحيين بني هاشم وبني أميّة ، ويزيد بن معاوية كفؤ من لا كفؤ له ، ولعمري لمن يغبطكم بيزيد أكثر ممن يغبط يزيد بكم فيزيد ممن يستسقى بوجهه الغمام » .

ومروان يرى أن قيم الرجال إنما هي بالأمرة والسلطان ، وقد أعرب بذلك عن حماقته وجهله ، فردّ الإمام عليه أباطيله ، وعلّق على كل جملة من كلامه ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

« أما ما ذكرت من حكم أبيها في الصداق ، فانا لم نكن لنرغب عن سنّة رسول الله (ص) فى أهله وبناته » (١) .

« وأما قضاء دين أبيها فمَن قضت نساؤنا بمهورهن ديون آبائهن » .

« وأما صلح الحيين ، فنحن عادينا كم لله وفي الله ، فلا نصالحكم للدنيا » .

« وأما قولك يزيد كفؤ من لا كفؤ له ، فأكفاؤه اليوم أكفاؤه بالأمس لم يزده سلطانه » .

« وأما قولك : من يغبطنا بيزيد أكثر ممن يغبطه بنا ، فان كانت الخلافة قادت النبوة (٢) ، فنحن المغبطون ، وإن كانت النبوة قادت الخلافة فهو المغبوط بنا » .

« وأما قولك : إن الغمام يستسقى بوجه يزيد ، فان ذلك لم يكن إلا لآل رسول الله (ص) » .

وقد فنّد (ع) بكلامه مزاعم مروان ، ورد عليه بهتانه ، ثم أخذ عليه السلام في إحباط مساعيه ، وتحطيم آماله قائلاً :

« وقد رأينا أن نزوجها (يعني زينب) من ابن عمها القاسم محمد بن

---

(١) كانت سنّة رسول الله (ص) في مهر أزواجه وبناته اربعمائة درهم .

(٢) كذا فى الأصل ، ولعل المراد ان الخلافة تابعة للنبوة والنبوة قائدة لها .

جعفر ، وقد زوجتها منه ، وجعلت مهرها ضيعتي التي لي بالمدينة ، وقد أعطاني بها معاوية عشرة آلاف دينار » .

ولما سمع ذلك مروان فَقَدَ شعوره وصاح بلا اختيار :

« أغدراً يا بني هاشم » .

إن مروان أولى بالغدر والخبث ، وقد صنع الإمام خيراً حيث لم يزوج العلوية من يزيد الفاسق الفاجر .

ورفع مروان في الوقت رسالة الى معاوية أخبره بالحادث ، فلما وصلت اليه قال متأثراً :

« خطبنا اليهم فلم يفعلوا ، ولو خطبوا الينا لما رددناهم » (١) .

لقد كان (ع) يعلم بدوافع معاوية وبما يبغيه من تشييد أسرته فكان يسعى لإحباط الوسائل التي يتخذها ويفسد عليه أمره وقد بلغه أنه قال :

« لا ينبغي أن يكون الهاشمي غير جواد ، ولا الأموي غير حليم ، ولا الزبيري غير شجاع ، ولا المخزومي غير تياه » .

وعرف (ع) أن غرض معاوية بذلك إنما هو تحطيم هذه الأسر ،

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ١ / ١٢٤ ، وجاء في مجمع الزوائد ٤ / ٢٧٨ عن معاوية بن خديج قال : أرسلني معاوية بن أبي سفيان الى الحسن بن علي أخطب على يزيد بنتاً له — أو أختاً له — فأتيته فذكرت له يزيد فقال : إنا قوم لا نزوج نساءنا حتى نستأمرهن ، فأتيتها فذكرت لها يزيد فقالت : والله لا يكون ذلك حتى يسير فينا صاحبك كما سار فرعون في بني اسرائيل يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، فرجعت الى الحسن فقلت له : أرسلتني الى فلقة تسمي أمير المؤمنين فرعون ، قال (ع) : يا معاوية إياك وبغضنا ، فان رسول الله (ص) قال : لا يبغضنا ولا يحسدنا أحد إلا ذيد يوم القيامة عن الحوض بسياط من نار .

وتشييد أسرته ، فردّ عليه مقالته وقال .

« قاتله الله ، أراد أن يجود بنو هاشم فينفذ ما بأيديهم ، ويحلم بنو أمية فيتحببوا إلى الناس ، ويتشجع آل الزبير فيفنوا ، ويتيه بنو مخزوم فيبغضهم الناس » (١) .

وهكذا كان عليه السلام يندد بأعمال معـــاوية ويكشف الستار عن خبثه وسوء سريرته ، غير مكترث بسلطته ، ولا هياب لسلطانه .

مع معاوية في يثرب :

وروى الخوارزمي أن معـــاوية سافر الى يثرب فرأى تكريم النـاس وحفاوتهم بالإمام وإكبارهم له ، فساءه ذلك فاستدعا أبا الأسود الدؤلي ، والضحاك بن قيس الفهري ، فاستشارهم في أمر الحسن وأنه بمـاذا يوصمه ليتخذ من ذلك وسيلة الى الحط من شأنه ، والتقليل من أهميته أمام الجماهير فأشار عليه أبو الأسود بالترك قائلاً :

« رأي أمير المؤمنين أفضل ، وأرى ألا يفعل فان أمير المؤمنين لن يقول فيه قولاً إلا أنزله سامعوه منـــه به حسداً ، ورفعوا به صعــــداً ، والحسن يا أمير المؤمنين معتدل شبابه ، أحضر ما هو كائن جوابه ، فأخاف أن يرد عليك كلامك بنوافذ تردع سهامك ، فيقرع بذلك ظنوبك (٢) ، ويبدي به عيوبك ، فاذن كلامك فيه صار له فضـــلاً ، وعليك كلاًّ ، إلا أن تكون تعرف له عيباً في أدب ، أو وقيعـــة في حسب ، وإنه لهو المهذب ، قد أصبح من صريح العرب في عز لبابها ، وكريم محتدها ، وطيب عنصرها ، فلا تفعل يا أمير المؤمنين » .

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ١ / ١٩٦ .

(٢) الظنوب : العظم اليابس من الساق .

وقد أشار عليه أبو الأسود بالصواب ، ومنحه النصيحة ، فأي نقص أو عيب في الإمام حتى يوصمه به ، وهو المطهّر من كل رجس ونقص كما نطق بذلك الذكر الحكيم ، ولكن الضحاك بن قيس قد أشار على معاوية بعكس ذلك فحبذ له أن ينال من الإمام ويتطاول عليه قائلاً :

« امض يا أمير المؤمنين فيه برأيك ولا تنصرف عنه بدائك ، فانك لو رميته بقوارص كلامك ، ومحكم جوابك ، لذل لك كما يذل البعير الشارف(١) من الإبل » .

واستجاب معاوية لرأي الضحاك ، فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم ذكر أمير المؤمنين وسيد المسلمين علي بن أبي طالب (ع) فانتقصه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إن صبية من قريش ذوي سفه وطيش ، وتكدر من عيش ، أتعبتهم المقادير ، فاتخذ الشيطان رؤوسهم مقاعد ، وألسنتهم مبارد فباض وفرخ في صدورهم ، ودرج في نحورهم ، فركب بهم الزلل ، وزين لهم الخطل ، وأعمى عليهم السبل ، وأرشدهم الى البغي والعدوان ، والزور والبهتان ، فهم له شركاء وهو لهم قرين (ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا) ، وكفى لهم مؤدباً ، والمستعان الله » .

فوثب اليه الإمام الحسن مندفعاً كالسيل راداً عليه افتراءه وأباطيله قائلاً :

« أيها الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن ابن علي بن أبي طالب ، أنا ابن نبي الله ، أنا ابن من جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً ، أنا ابن السراج المنير ، أنا ابن البشير النذير ، أنا ابن خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وامام المتقين ، ورسول رب العالمين ، أنا ابن من بعث الى الجن والأنس ، أنا ابن من بعث رحمة للعالمين » .

---

(١) البعير الشارف : المسن الهرم .

وشق على معاوية كلام الإمام فبادر الى قطعه قائلاً :

« يا حسن عليك بصفة الرطب » . فقال عليه السلام : الريح تلقحه ، والحر ينضجه ، والليل يبرده ويطيبـــه ، على رغم أنفك يا معـاوية ، ثم استرسل عليه السلام في تعريف نفسه قائلاً :

« أنا ابن مستجاب الدعوة ، أنا ابن الشفيـع المطاع ، أنا ابن أول من ينفض رأسه من التراب ، ويقرع باب الجنـــة ، أنا ابن من قاتلت الملائكة معه ولم تقاتل مع نبي قبله ، أنا ابن من نصر على الأحزاب ، أنا ابن من ذلت له قريش رغماً » .

وغضب معاوية واندفع يصيـح :

« أما انك تحدث نفسك بالخلافة » .

فأجابه الإمام عليه السلام عمن هو أهل للخلافة قائلاً :

« أما الخلافة فلمن عمل بكتاب الله وسنة نبيه ، وليست الخـــلافة لمن خالف كتاب الله ، وعطل السنة ، إنما مثل ذلك مثل رجل أصاب ملكاً فتمتع به ، وكأنه انقطع عنه وبقيت تبعاته عليه » .

وراوغ معاوية ، وانحط كبرياؤه فقال :

« ما في قريش رجل إلا ولنا عنده نعم جزيلة ويد جميلة » .

فرد عليه الإمام قائلاً :

« بلى ، من تعززت به بعد الذلة ، وتكثرت به بعد القلة » .

« من أولئك يا حسن ؟ » .

« من يلهيك عن معرفتهم » .

ثم استمر (ع) في تعريف نفسه الى المجتمع فقال :

« أنا ابن من ساد قريشاً شاباً وكهلا ، أنا ابن من ساد الورى كرماً

ونبلا ، أنا ابن من ساد أهل الدنيا بالجود الصادق ، والفرع الباسق ، والفضل السابق ، أنا ابن من رضاه رضى الله ، وسخطه سخطه ، فهل لك أن تساميه يا معاوية ؟ » . فقال معاوية : أقول لا ، تصديقاً لقولك . فقال الحسن : « الحق أبلج ، والباطل لجلج ، ولم يندم من ركب الحق ، وقد خاب من من ركب الباطل ، (والحق يعرفه ذوو الألباب) » .

فقال معاوية على عادته من المراوغة : لا مرحباً بمن ساءك .

الحزب السياسي :

واعتقد الدكتور طه حسين ان الإمام أيام مكثه في المدينة قد شكل حزباً سياسياً وتولى هو رئاسة الحزب ، ومن الخير سوق كلامه قال :

« واعتقد أنا ان اليوم الذي لقي الحسن فيه هؤلاء الوفد من أهل الكوفة فسمع منهم ما سمع ، وقال لهم ما قال ، ورسم لهم خطتهم ، هو اليوم الذي أنشىء فيه الحزب السياسي المنظم لشيعة علي وبنيه . نُظم الحزب في ذلك المجلس ، وأصبح الحسن له رئيساً ، وعاد أشراف أهل الكوفة الى من وراءهم ينبؤنهم بالنظام الجديد والخطة المرسومة ، ويهيؤنهم لهذا السلم الموقوت ولحرب يمكن أن تثار حين يأتي الأمر باثارتها من الإمام المقيم في يثرب .

وكان برنامج الحزب في أول إنشائه كما ترى واضحاً يسيراً ، لا عسر فيه ولا تعقيد ، طاعة الإمام من بني علي والإنتظار في سلم ودعة حتى يؤمروا بالحرب فيثيروها . ورأى الدكتور رأي وثيق ويدل عليه سفر الإمام (ع) الى دمشق لنقد معاوية واذاعة مساوئه ومخازيه في عاصمته وبلاطه ، فان من جملة أهداف ذلك السفر التبشير بالحزب الذي عقده لقلب الحكم الأموي وارجاع الدولة الإسلامية الى نظامها العادل .



إلى دمشق

واتفق جمهور المؤرخين ان الإمام الحسن (ع) قد وفد على معاوية في دمشق ، واختلفوا في أن وفادته كانت مرة واحدة أو أكثر ، واطالة الكلام في تحقيق هذه الجهة لا تغنينا شيئاً ، وإنما المهم البحث عن سر سفره ، فالذي نذهب اليه ان المقصود منه ليس إلا الدعاية لمبدأ أهل البيت وابراز الواقع الأموي أمام ذلك المجتمع الذي ظلله معاوية وحرفه عن الطريق القويم ، أما الاستدلال عليه فانه يظهر من مواقفه ومناظراته مع معاوية — التي سنذكرها — فانه قد هتك بها حجابه . وأبدا عاره وعياره ، وفلّ بها عروش دولته ، ثم انه على تقدير أن يكون سفره لأخذ العطاء من معاوية — كما يقول به البعض — فقد قيل إنه كيف جاز له أن يأخذ صلاته مع أن جلها أموال مغصوبة ، وقد كفانا مؤنة البحث عن هذه المسألة علماء الفقه الإسلامي فقد ذكروا أن صلاة السلطان الجائر وهداياه جائزة ما لم تشتمل على أموال مغصوبة يعلم غصبها على نحو التعيين ، فحينئذ لا يجوز أخذها ، وإن أخذت وجب ردها الى أهلها(١) ، وأكثر الأموال التي كانت بيد معاوية إنما هي من أموال الخراج والزكاة وما شاكل ذلك من الأموال التي تجبيها الدولة فان استيلاء معاوية عليها وإن كان غير مشروع لأنه من حكام الظلم والجور إلا ان لخيار المسلمين الحق في استنقاذها وردها الى أهلها ، فضلاً عن الإمام الذي له الولاية العامة على جميع المسلمين .

أما الذاهبون الى أن سفره كان لأخذ العطاء فقد استندوا الى إحدى الروايات الموضوعة — فيما نحسب — فقد روي أنه كان يفد في كل سنة الى معاوية فيوصله بمائة ألف ، فلم يمض في بعض السنين فنساه معاوية ولم يبعث له بصلة فهمّ الإمام أن يكتب له فرأى رسول الله (ص) في منامه

(١) المكاسب للشيخ الأنصاري وقد بسط الكلام في هذه الجهة .

وهو يقول له :

« يا حسن أتكتب الى مخلوق تسأله حاجتك وتدع أن تسأل ربك ؟ »

فقال له : « ما أصنع يا رسول الله ؟ »

فعلمه رسول الله (ص) بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك من كل أمر ضعفت عنه حيلتي ، ولم تنته اليه رغبتي ، ولم يخطر ببالي ، ولم يجر على لساني من الشيء الذي أعطيته أحداً من المخلوقين الأولين المهاجرين ، والآخرين الأنصار . »

وانتبه الحسن من منـــامه وهو حافظ للدعاء ، فدعا به ، فلم يلبث معاوية أن بعث اليه بصلته بعد ما نبهه بعض خواصه ان الإمام لم يفد عليه في تلك السنة (١) . وهـذه الرواية لا يمكن الإعتماد عليها لأن الإمام قـد عرف بالعزة والإباء والشمم ، فكيف يتنـازل لابن هند فيهم أن يكتب له ويسأله العطاء ، فينهاه رسول الله (ص) عن ذلك ، على انه كان في غنى عن صلاة معاوية لأن له ضياعاً كبيرة في يثرب كانت تدرعليه بالأموال الطائلة مضـافاً الى ما كان يصله من الحقوق التي يدفعها خيـــار المسلمين وصلحاؤهم له ، على أن الأموال التي كان يصله بها معـــاوية على القول بذلك لم يكن ينفقها على نفسه وعياله . فقد ورد أنه لم يكن يأخـذ منها مقـــدار ما تحمله الدابة بفيها (٢) ، ومع هذا فكيف يكون سفره لمعاوية لأخذ العطاء منه ؟ !!

---

(١) تأريخ ابن عساكر ، مشارق الأنوار ، نور الأبصار .

(٢) جامع أسرار العلماء مخطوط بمكتبة كاشف الغطاء العامة .

مناظراته :

وضاق معاوية ذرعاً بالإمام حينما كان في دمشق ، فقد رأى من اقبال الناس واحتفائهم به ما ساءه فعقد عدة مجالس حشدها بالقوى المنحرفة عن أهل البيت والمعادية لهم كابن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومروان بن الحكم والوليد بن عقبة ، وزياد بن أبيه ، وعبد الله بن الزبير ، وأوعز لهم بالتطاول على ريحانة الرسول ، والنيل منه ، ليزهد الناس فيه ، ويشفي نفسه من ابن فاتح مكة ، ومحطم أوثان قريش ، وقد قابله هؤلاء الأوغاد بمرارة القول وبذائة الكلام ، وبالغوا في الاستهتار والإعتداء عليه ، وكان (ع) يسدد لهم سهاماً من منطقه الفياض فيرديهم صرعى ، يلاحقهم العار والخزي ، ويلمسهم مساوءهم وما عرفوا به من الزيغ والإنحطاط ، كان يجيبهم — وهو مكره — ، ويرد على بذائتهم وهو يقول : « أما والله لو لا أن بني أميّة تنسبني الى العجز عن المقال لكففت تهاوناً » ، ولروعة كلامه ، وقوة حجته كان عبد الله بن عباس يقبل ما بين عينيه ويقول له : « أفديك يا ابن العم والله ما زال بحرك يزخر وأنت تصول حتى شفيتني من أولاد ... »

لقد كان الإمام في جميع تلك المناظرات هو الظافر المنتصر وخصومه الضعفاء قد عرتهم الإستكانة والهزيمة والذهول ، وقد أوصاهم كبيرهم بعدما شاهد أشلاءهم مضرجة بطعناته ، أن يجتنبوا محاوراته (١) .

وعلى أي حال فان « نصوص هذه المشاجرات بصيغها البلاغية ، وقيمها الأدبية جديرة بالعرض ، كتراث عربي أصيل يدل بنفسه على صحة نسبه ، وتعطينا بأسلوبه وصياغته صورة عن (أدب المشاجرات) في عصره »

---

(١) أعلام الزركلي ٢ / ٢١٥ .

وقد تركت نوادي دمشق ومحافلها مشغولة بها ترددهـــا مقرونة بالإكبار والتقدير للإمام ، وبالإستهانة والإحتقار لخصومه ، وفيما يلي نصوصها :

١ — وأقبل معاوية على الإمام (ع) فقال له :

« يا حسن ، أنا خير منك !! »

— وكيف ذاك يا ابن هند ؟!!

— لأن الناس قد أجمعوا عليّ ، ولم يجمعوا عليك .

وحيث أن الامرة لم تكن في الإسلام موجبة للتمايز ، وإنما توجبـــه التقوى وعمل الخير ، وقد انبرى (ع) مبطلاً دعوى معاوية :

« هيهات !! لشر ما علوت به يا ابن آكلة الأكباد ، المجتمعون عليك رجلان ، بين مطيع ومكره ، فالطائع لك عاص لله ، والمكره معـــذور بكتاب الله ، وحاشا لله أن أقول أنا خير منك لأنك لا خير فيك ، فان الله قد برّأني من الرذائل كما برّأك من الفضائل » (١) .

ان هذا هو منطق الثورة ، ومنطق الأحرار الذين يشجبون الظلم ، ويقاومون المنكر ، وليس هذا هو منطق من يريد العطاء والأموال .

٢ — ودخل الإمام على معاوية ، فلما رأى ابن العاص ما في الإمام من عظيم الهيبة والوقار ساءه ذلك ، وتميز من الغيظ والحسد فاندفع قائلاً :

« قد جاءكم الفهه العي ، الذي كأن بين لحييه عقاه . »

وكان عبد الله بن جعفر حاضراً فلذعه قوله فصاح به :

« مه ، والله لقد رمت صخرة ململمة ، تنحط عنها السيول ، وتقصر دونها الوعول ، ولا تبلغها السهام ، فإياك والحسن إياك ، فانك لا تزل راتعاً في لحم رجل من قريش ، ولقد رميت فما برح سهمك ، وقدحت

(١) روضة الواعظين لأبي علي النيسابوري .

فما أورى زندك » .

وسمع الإمام الحديث ، فلما اكتظ مجلس معاوية بالناس انبرى (ع) فوجّه خطابه الى معاوية ، فألقى عليه ذنب وزيره ابن العاص ، وتهدده باعلان الحرب عليه إن لم ينته عن مكره وغيه ، وذكر له الصفات الرفيعة الماثلة في شخصيته الكريمة قائلاً :

« يا معاوية لا يزال عندك عبد راتعاً في لحوم الناس ، أما والله لو شئت ليكونن بيننا ما تتفاقم فيه الامور ، وتحرّج منه الصدور » .

ثم أنشأ يقول :

أتأمر يا معاوي عبد سهم ... بشتمي والملا منّا شهود
إذا أخذت مجالسها قريش ... فقد علمت قريش ما تريد
أأنت تظل تشتمني سفاها (١) ... لضغن ما يزول وما يبيد
فهل لك من أب كأبي تسامى(٢) ... به من قد تسامى أو تكيد
ولا جد كجدي يا ابن حرب(٣) ... رسول الله إن ذكر الجدود
ولا أم كأمي من قريش ... إذا ما حصل الحسب التليد
فما مثلي تهكم يا ابن حرب ... ولا مثلي ينهنه الوعيد (٤)
فمهلاً لا تهيج منا أموراً ... يشيب لهولها الطفل الوليد (٥)

---

(١) وروي قصدت إلي تشتمني .

(٢) وروي فما لك من أب .

(٣) وروي ابن هند .

(٤) وروي ولا مثلي تجاريه العبيد .

(٥) المحاسن والأضداد للجاحظ ص ٩٥ ، والمحاسن والمساوى للبيهقي ١ / ٦٢ ، شرح ابن أبي الحديد ٢ / ١٠٢ ، جمهرة الخطب ١ / ٤٢٨ .

لقد عرض (ع) بعض فضائله ومآثره ، ونشر مساوىء معاوية ومخازيه بهذا الكلام الرائع الذي تمثلت فيه بلاغة الإعجاز ، وروعة الإيجاز، وسرعة البديهة ، وقوة الحجة ، فحط به من غلواء معاوية ، وأصاب أبرز مقوماته من حسبه المعروف ، ونسبه الموصوف ، فأين الفهاهة والعي يا ابن العاص ؟ .

٣ — وعظم أمر الإمام في الشام ، فقد أقبلت الناس تترى لزيارته والى الإستماع لحديثه ، فملك (ع) القلوب والمشاعر والعواطف ، وتحدثت الأندية والمجالس بعظيم فضله ومواهبه ، ولما رأى ذلك أذناب معاوية وعملاؤه وهم : عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة ، وعتبة بن أبي‌سفيان ، والمغيرة ابن شعبة ، فخافوا أن يحدث ما لا تحمد عقباه ، وينفلت الأمر من أيديهم ، وتندك عروش الدولة الأموية ، فعقدوا في البلاط الأموي اجتماعاً ، وذكروا لمعاوية حفاوة الجماهير بالإمام ، وتكريمهم له ، وازدحامهم على زيارته ، وان وجوده في دمشق خطر على الدولة الأموية ، وقد رأوا أن خير وسيلة للحط من كرامته ، ولإعراض الناس عنه ، أن يستدعوه فيتهمون أباه بقتل عثمان ، ويسبّونه على ذلك ، وهذا نص حديثهم :

« إن الحسن قد أحيا أباه وذكره ، وقال فصدّق ، وأمر فأطيع ، وخفقت له النعال ، وان ذلك لرافعه الى ما هو أعظم منه ، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوؤنا » .

فقال لهم معاوية : ما تريدون ؟

قالوا : « إبعث عليه فليحضر لنسبه ونسب أباه ، ونعيّره ونوبخه ، ونخبره أن أباه قتل عثمان ، ونقرره بذلك ، ولا يستطيع أن يغير علينا شيئاً من ذلك . »

ولم يخف على معاوية سخافة رأيهم ، وبُعد تفكيرهم عن الصواب ، وذلك لعلمه ان الإمام سوف يفلجهم ، ويخرج ظافراً بخزيهم ، فقال لهم :

« إني لا أرى ذلك ولا أفعله » .

« عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلن » .

« ويحكم لا تفعلوا ، فو الله ما رأيتــه قط جالساً عندي إلا خفت مقامه ، وعيبه لي . »

« إبعث اليه على كل حال » .

« إن بعثت اليه لأنصفنه منكم . »

فقال ابن العاص : أتخشى أن يأتي باطله على حقنا ، أو يربى قوله على قولنا ؟ .

ولما رأى معاوية إصرارهم عليه قال لهم : أما إني إن بعثت اليــه لآمرنه أن يتكلم بلسانه كله .

فقالوا له : مره بذلك .

وأجابهم الى ما أرادوا ، وأمرهم أن يسلكوا خطة خاصة في حديثهم مع الإمام قائلاً :

« أما إذا عصيتموني وبعثتم اليه ، وأبيتم إلا ذلك ، فلا تمرضوا له في القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يعيبهم العائب ، ولا يلصق بهم العار ولكن أقذفوه بحجره ، تقولون له : إن أباك قتل عثمان ، وكره خلافة الخلفاء من قبله » .

ثم بعث خلف الإمام ، فقام (ع) واستدعا بثيــابه فلبسها وعرف الغاية من هذه الدعوى فخرج وهو يدعو بهذا الدعاء :

« اللهم إني أعوذ بك من شرورهم ، وأدرأ بك في نحورهم ، وأستعين

بك عليهم ، فاكفنيهم كيف شئت ، وأنّى شئت ، بحول منك وقـوة يا أرحم الراحمين » .

ثم سار (ع) حتى انتهى الى معاوية ، فلما رآه مقبلاً قابله بحفاوة وتكريم ثم التفت اليه معتذراً :

« يا أبا محمد ، إن هؤلاء بعثوا اليك وعصوني » .

فانبرى اليه الإمام مبيناً له عدم واقعية هذا الإعتذار قائلاً :

« سبحان الله !! الدار دارك ، والإذن فيها اليك ، والله إن كنت أجبتهم الى ما أرادوا وما في أنفسهم إني لأستحي لك من الفحش ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحي لك من الضعف ، فأيهما تقر وأيهما تنكر ؟ أما أني لو علمت بمكانهم لجئت بمثلهم من بني عبد المطلب ، وما لي أن أكون مستوحشاً منك ومنهم ، إن وليي الله ، وهو يتولى الصالحين » .

فقال معاوية : « إني كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له ، وإن لك منهم النصف ومني ، وإنما دعوناك لنقررك أن عثمان قُتل مظلوماً ، وان أباك قتله فاستمع منهم ثم أجبهم ، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك » .

ولما سكت معاوية ابتدأ بالحديث أولاً :

عمرو بن العاص :

واندفع ابن العاص فسب الإمام أمير المؤمنين ، واتهمه بسب أبي بكر وكراهته لخـلافته ، وانه شرك في دم عمر بن الخطاب ، وقتـل عثمان ظلماً ولا أبقى شيئاً من صفات الذم إلا وألصقها به ، ثم التفت الى الإمام الحسن قائلاً :

« إنكم يا بني عبد المطلب ، لم يكن الله ليعطيكم الملك على قتلكم

الخلفاء واستحلالكم ما حرّم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ، ثم إنك يا حسن تحدّث نفسك أن الخلافة صائرة اليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا لبّه ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك ، وترك أحق قريش يسخر منك ، ويهزأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك ، وإنما دعوناك لنسبك وأباك ، فأما أبوك فقد تفرد الله به وكفانا أمره ، وأما أنت فانك في أيدينا نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ولا عيب من الناس ، فهل تستطيع أن تردّ علينا وتكذبنا ؟ فان كنت ترى أنا كذبنا في شيء فاردده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان » .

وليس في هذا الكلام سوى القذف والسب المنبعث عن نفس مترعة بالباطل والعداء لآل البيت (ع) ثم انبرى من بعده .

الوليد بن عقبة :

وانطلق هذا الأثيم قائلاً :

« إنكم كنتم أخوال عثمان فنعم الولد كان لكم فعرف حقكم وكنتم أصهاره فنعم الصهر كان لكم ، يكرمكم فكنتم أول من حسده ، فقتله أبوك ظلماً لا عذر له ولا حجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه وأنزلكم منزلتكم والله إن بني أميّة خير لبني هاشم من بني هاشم لبني أميّة وإن معاوية خير لك من نفسك » .

ثم سكت وتكلم من بعده عتبة بن أبي سفيان :

وانبرى عتبة فأظهر خبث سريرته وعداءه لآل البيت قائلا :

« يا حسن ، كان أبوك شر قريش لقريش لسفكه لدمائها ، وقطعه لارحامها ، طويل السيف واللسان ، يقتل الحي ويعيب الميت ، وانك ممن

قتل عثمان ، ونحن قاتلوك به ، وأما رجاؤك الخلافة فلست في زندها قادحاً ولا في ميراثها راجحاً ، وإنكم يا بني هاشم قتلتم عثمان ، وإن في الحق أن نقتلك وأخاك به ، فأما أبوك فقد كفانا الله أمره ، وأقاد منه ، وأما أنت فو الله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان » .

واندفع من بعده المغيرة بن شعبة :

وابتدأ المغيرة أولاً بشتم أمير المؤمنين (ع) ثم قال :

« والله ما أعيبه في قضية يخون ، ولكنه قتل عثمان » .

ثم سكتوا عن الكلام ، فانبرى اليهم الإمام فوضعهم على طاولة التشريح ، فنشر عيوبهم ومخازيهم ، وأشاد بفضل أبيه أمير المؤمنين (ع) .

جوابه لمعاوية :

وقد وجّه خطابه أولاً الى معاوية قائلاً :

« يا معاوية ، ما هؤلاء شتموني ، ولكنك شتمتني ، فحشاً ألفته ، وسوء رأي عرفت به ، وخلقاً سيئاً ثبت عليه ، وبغياً علينا عداوة منك لمحمد صلى الله عليه وآله ، ولكن اسمع يا معاوية واسمعوا فلأقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم . أنشدكم الله أيها الرهط ، أتعلمون ان الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كلتيهما ؟ وأنت يا معاوية بهما كافر تراهما ضلالة ، وتعبد اللات والعزى غواية . وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كلتيهما بيعة الفتح وبيعة الرضوان ؟ وأنت يا معاوية باحداهما كافر ، وبالأخرى ناكث . وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً ؟ وإنك يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم ، تسرّون الكفر ، وتظهرون الإسلام ، وتستمالون بالأموال . وأنشدكم الله ألستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله (ص) يوم بدر وإن راية المشركين كانت مع معاوية ومع

أبيه ، ثم لقيكم يوم أُحد ، ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله (ص) ومع أبيك راية الشرك ، وفي كل ذلك يفتح الله له ويفلج حجته (١) ، وينصر دعوته ، ويصدق حديثه ، ورسول الله (ص) في تلك المواطن كلها عنه راض ، وعليك وعلى أبيك ساخط . وأنشدك بالله يا معاوية أتذكر يوم جاء أبوك على جمل أحمر وأنت تسوقه وأخوك عتبة هذا يقوده فرآكم رسول الله (ص) فقال : « اللهم العن الراكب والقائد والسائق » . أتنسى يا معاوية الشعر الذي كتبته الى أبيك لمّا همّ أن يسلم تنهاه عن ذلك ؟.

يا صخر لا تسلمن يوماً فتفضحنا	بعد الذين ببدر أصبحوا مزقا
خالي وعمي وعم الأم ثالثهم	وحنظل الخير قد أهدى لنا الارقا
لا تركنن الى أمر تكلفنا	والراقصات به في مكة الخرقا
فالموت أهون من قول العداة لقد	حاد ابن حرب عن العزى إذا فرقا

والله لما أخفيت من أمرك أكبر مما أبديت . وأنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن علياً حرم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله (ص) فأنزل فيه : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم »(٢) وإن رسول الله (ص) بعث أكابر أصحابه الى بني قريضة فنزلوا من حصنهم فهزموا ، فبعث علياً بالراية فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل في خيبر مثلها ، ثم قال : يا معاوية أظنك لا تعلم أني أعلم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله فيك لما أراد أن يكتب كتاباً الى بني خزيمة فبعث اليك فلم تأته فدعا عليك بالنهم الى أن تموت . وأنتم أيها الرهط نشدتكم الله ألا تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن

(١) وفي رواية ويعلم صحته .

(٢) سورة المائدة : آية ٨٧ .

لا تستطيعون ردها :

(أولها) يوم لقي رسول الله (ص) خارجاً من مكة الى الطائف يدعو ثقيفاً الى الدين فوقع به وسبه وسفهه وشتمه وكذبه وتوعده وهمّ أن يبطش به فلعنه الله ورسوله وصرف عنه .

(الثانية) يوم العير إذ عرض لها رسول الله صلى الله عليه وآله وهي جائية من الشام فطردها أبو سفيان ، وساحل بها فلم يظفر المسلمون بها ، ولعنه رسول الله (ص) ودعا عليه فكانت واقعة بدر لأجلها .

(الثالثة) يوم أُحد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله (ص) في أعلاه وهو ينادي أعل هبل مراراً فلعنه رسول الله (ص) عشر مرات ، ولعنه المسلمون .

(الرابعة) يوم جاء بالأحزاب وغطفان اليهود فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وابتهل .

(الخامسة) يوم جاء أبو سفيان في قريش فصدوا رسول الله (ص) عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله يوم الحديبية فلعن رسول الله أبا سفيان ، ولعن القادة والأتباع ، وقال : ملعونون كلهم وليس فيهم من يؤمن ، فقيل : يا رسول الله أفما يرجى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة؟ فقال : لا تصيب اللعنة أحداً من الأتباع ، وأما القادة فلا يفلح منهم أحد

(السادسة) يوم الجمل الأحمر .

(السابعة) يوم وقفوا لرسول الله (ص) في العقبة ليستنفروا ناقته وكانوا اثني عشر رجلاً منهم أبو سفيان ، فهذا لك يا معاوية » .

وأنزل (ع) بكلامه معاوية من قصره الى قبره ، ومن عرشه الى نعشه وتركه والحزن يحز في نفسه . ثم التفت (ع) الى عمرو بن العاص فقال له :

« وأما أنت يا ابن العاص فان أمرك مشترك ، وضعتك أمك مجهولا من عهر وسفاح فتحاكم فيك أربعة من قريش فغلب عليك جزارها الأمهم حسباً ، وأخبثهم منصباً ، ثم قام أبوك فقــال : أنا شانىء محمد الأبتر ، فأنزل الله فيـه ما أنزل . وقاتلت رسول الله (ص) في جميع المشاهد ، وهجوته وآذيتــه بمكة ، وكدته كيدك كله ، وكنت من أشد النـاس له تكذيباً وعداوة ، ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة لتأتي بجعفر وأصحابه الى أهل مكة ، فلما أخطأك ما رجوت ، وأرجعك الله خائبـاً ، وأكذبك واشياً ، جعلت حدك على صاحبك عمارة بن الوليـد فوشيت به الى النجاشي حسداً لما ارتكب من حليلته ، ففضحك الله وفضح صاحبك فأنت عــدو بني هاشم فى الجاهلية والإسلام ، ثم انك تعلم وكـل هؤلاء الرهط يعلمون انك هجوت رسول الله (ص) بسبعين بيتاً من الشعر ، فقال رسول الله (ص) : اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي ، اللهم العنه بكل حرف الف لعنة ، فعليك إذاً من الله ما لا يحصى من اللعن . وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سعرت عليه الدنيا ناراً ثم لحقت بفلسطين فلما أتاك قتله قلت : أنا أبو عبد الله إذا نكأت قرحة أدميتها ثم حبست نفسك الى معاوية وبعت دينك بدنياه فلسنا نلومك على بغض ، ولا نعاتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثمان حياً ولا غضبت له مقتولا ، ويحك يا ابن العاص ألست القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة الى النجاشي :

تقول ابنتي أين هذا الرحيل ... وما السير مني بمستنكر

فقلت ذريني فاني امرؤ ... اريد النجاشي فى جعفـــر

لأكويه عنــده كيــة ... اقيم بهــا نخوة الأصعر

وشأني أحمــد من بينهم ... وأقولهم فيــه بالمنــكر

وأجرى الى عتبة جاهداً ولو كان كالذهب الأحمر
ولا أنثني عن بني هاشم وما اسطعت في الغيب والمحضر
فان قبل العتب مني له وإلا لويت له مشفري

فهذا جوابك هل سمعته ؟

لقد ذكر (ع) ما هو ماثل في ابن العاص من الرذائل والمخازي ، ومن الحقد العارم للإسلام والمسلمين ، واشتراكه في دم عثمان ، وانضمامه بعد ذلك الى معاوية طمعاً بدنياه . ثم التفت (ع) الى الوليد بن عقبة فقال له :

« وأما أنت يا وليد فو الله ما ألومك على بغض علي ، وقد جلدك ثمانين جلدة في الخمر ، وقتل أباك بين يدي رسول الله (ص) ، وأنت الذي سماه الله الفاسق ، وسمى علياً المؤمن حيث تفاخرتما فقلت له : أسكت يا علي فأنا أشجع منك جناناً ، وأطول منك لساناً . فقال لك علي : أسكت يا وليد فأنا مؤمن وأنت فاسق فأنزل الله في موافقة قوله : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون » (١) . ثم أنزل على موافقة قوله : « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » (٢) ويحك يا وليد مهما نسيت فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه ، ثم ذكر (ع) الأبيات التي قيلت فيه :

ليس من كان مؤمناً عمرك الله كمن كان فاسقاً خوانا
سوف يدعى الوليد بعد قليل وعلي الى الحساب عيانا
فعلي يُجزى بذاك جنانا ووليد يُجزى بذاك هوانا

وما أنت وقريش إنما أنت علج من أهل صفورية ، وأقسم بالله لأنت

(١) سورة السجدة : آية ١٨ .

(٢) سورة الحجرات : آية ٦ .

أكبر في الميلاد واسن ممن تدعى اليه » .

ان السبب الداعي الى بغض الوليد وعدائه الى أمير المؤمنين (ع) ان الإمام مثال للإيمان والوليد رمز للكفر ، ومن المعلوم ان التضاد بين الإيمان والكفر تضاد ذاتي وتنافر طبيعي ، ومضافاً الى ذلك فان أمير المؤمنين قد جلده ثمانين جلدة لشربه الخمر ، وقد أولد ذلك في نفسه عداء لأميرالمؤمنين أي عداء ، وبعد ما أخزى (ع) الوليد . التفت الى عتبة بن أبي سفيان فقال له :

« وأما أنت يا عتبة ، فو الله ما أنت بحصيف فأجيبك ، ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك ، وما عندك خير يُرجى ، ولا شر يُتقى ، وما عقلك وعقل أمتك إلا سواء ، وما يضر علياً لو سببته على رؤوس الأشهاد ، وأما وعيدك إياي بالقتل فهلا قتلت اللحياني إذ وجدته على فراشك . أما تستحي من قول نصر بن الحجاج فيك :

يا للرجال وحادث الأزمان ولسبة تخزي أبا سفيان

نبئت عتبة خانه في عرسه جنس لئيم الأصل من لحيان

وبعد هذا ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه ، فكيف يخاف أحد سيفك ولم تقتل فاضحك ؟!! وكيف ألومك على بغض علي وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر ، واشترك مع حمزة في قتل جدك عتبة وأوحدك من أخيك حنظلة في مقام واحد ؟!! » .

لقد بين (ع) سفاهة عتبة وعدم عقله ، وفقدانه الشرف ، وان أمير المؤمنين (ع) قد حصد ببتاره رأس جده وخاله وأخيه يوم بدر ، فلهذا كان يكنّ في نفسه الحقد والبغض له ، ثم التفت (ع) بعد ذلك الى المغيرة بن شعبة فقال له :

« وأما أنت يا مغيرة ، فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة : « استمسكي فاني طائرة عنك . فقالت النخلة : وهل علمت بك واقعــة عليّ فأعلم بأنك طائرة عني » . والله ما نشعر بعداوتك إيانا ، ولا اغتممنا إذ علمنا بها ، ولا يشق علينا كلامك وإن حدّ الله في الزنا لثابت عليك ، ولقد درأ عمر عنك حقاً الله سائله عنه ، ولقد سألت رسول الله (ص) هل ينظر الرجل الى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ، ما لم ينو الزنا لعلمه بأنك زان ، وأما فخركم علينا بالامارة فان الله تعالى يقول : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) » (١) .

وانتهى بذلك حديث الإمام مع خصومه ، وقــد دلهم (ع) على عيوبهم ورذائلهم النفسية والنسبية ، وكشف الستار عن مخازيهم ، وسلبهم ثوب الإفتخار ، وترك (ع) الكمد والحزن يحزان في نفوسهم ، فلما أراد الإنصراف تعلق بطرف ثوبه ابن العاص وهو يقول :

« يا أمير المؤمنين : قد شهدت قوله في قذف أمي ، وأنا مطالب له بحق القذف » .

فصاح به معاوية في غيظ :

« خل عنه لا جزاك الله خيراً » .

ثم التفت الى بطانته مندداً بهم ولائماً لهم على عصيانهم ومخالفتهم له قائلاً :

« قد أنبأتكم أنه ممن لايطاق عارضته ، ونهيتكم أن تسبوه فعصيتموني والله ما قام حتى أظلم عليّ البيت ، قوموا عني ، فلقد فضحكم الله وأخزاكم

---

(١) سورة بني اسرائيل آية ١٦ .

بتركـكم الحزم وعدولكم عن رأي الناصح المشفق ، والله المستعان » (١) .

٤ ــ واجتمع معــاوية مع بطانته فجعل بعضهم يفخر على بعض ويتطاولون فيا بينهم ، فأراد معاوية أن يضحك على ذقونهم فقال لهم :

« أكثرتم الفخر ، فلو حضركم الحسن بن علي (ع) وعبــد الله بن عباس لقصرا من أعنتكم ما طال » .

فاندفع زياد بن سمية فقال :

« وكيف ذلك يا أمير المؤمنــين ؟ ما يقومان لمروان بن الحكم في غرب منطقه (٢) ، ولا لنا في بواذخنا (٣) ، فابعث اليهما في غد حتى تسمع كلامنا » .

فالتفت معاوية الى وزيره ابن العاص يستشيره في ذلك :

« ما تقول ؟ » .

« إبعث اليهما في غد » .

وبعث معاوية ابنه يزيد خلفهما ، فلما حضرا قال لهما معاوية :

« إني أجلكما وارفع قدركما عن المسامرة بالليل ولا سيما أنت يا أبا محمد فانك ابن رسول الله (ص) وسيد شباب أهل الجنة » .

فشكر الإمام وابن عباس مقالته ، واندفع ابن العاص قائلاً :

« يا حسن ، إنا قد تفاوضنا فقلنا إن رجال بني أمية أصبر عنــد اللقاء وأمضى في الوغى ، وأوفى عهداً ، وأكرم خيماً (٤) ، وأمنع لما وراء

---

(١) ابن أبي الحديد ٢ / ١٠١ .

(٢) غرب منطقه : أي في حدة منطقه .

(٣) البواذخ : جمع مفرده البذخ بالتحريك : الفخر والتطاول .

(٤) الخيم : الطبيعة والسجية .

ظهورهم من بني عبد المطلب » .

ثم سكت ، وتكلم من بعده مروان بن الحكم فقال :

« وكيف لا نكون كذلك وقد قارعناكم فغلبناكم ، وحاربناكم فملكناكم فان شئنا عفونا وإن شئنا بطشنا » .

وسكت مروان فتكلم زياد فقال :

« ما ينبغي لهم أن ينكروا الفضل لأهله ، ويجحدوا الخير في سلطانه نحن أهل الحملة في الحروب ، ولنا الفضل على سائر الناس قديماً وحديثاً » .

فانبرى اليهم الامام كالأسد محطماً لكيانهم ، ومبيداً لفخرهم قائلاً :

« ليس من العجز أن يصمت الرجل عند إيراد الحجة ، ولكن من الإفك أن ينطق الرجل بالخنا ، ويصور الباطل بصورة الحق ، ثم وجّه عليه السلام خطابه الى عمرو بن العاص فقال له :

« يا عمرو ، افتخاراً بالكذب ، وجرأة على الإفك ، ما زلت اعرف مثالبك الخبيثة ، أبديها مرة وأمسك عنها اخرى ، فتأبى إلا إنهماكاً فى الضلالة ، أتذكر مصابيح الدجى ، واعلام الهدى ، وفرسان الطراد ، وحتوف الأقران ، وابناء الطعان ، وربيع الضيفان ، ومعدن النبوة ، ومهبط العلم ؟ وزعمتم انكم أحمى لما وراء ظهوركم ، وقد تبين ذلك يوم بدر حين نكصت الأبطال ، وتساورت الأقران ، واقتحمت الليوث ، واعتركت المنية ، وقامت رحاها على قطبها ، وأفترت عن نابها ، وطار شرار الحرب ، فقتلنا رجالكم ، ومنّ النبي (ص) على ذراريكم فكنتم لعمري في ذلك اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم من بني عبد المطلب » .

ثم التفت (ع) الى مروان فقال له :

« وأما أنت يا مروان ، فما أنت والإكثار فى قريش وأنت طليق

وأبوك طريد يتقلب من خزاية الى سوأة ، ولقد جيء بك الى أمير المؤمنين فلما رأيت الضرغام قد دميت براثنه ، واشتبكت أنيابه كنت كما قال القائل :

ليث إذا سمع الليوث زئيره   بصبصن ثم قذفن بالأبعار (١)

فلما منّ عليك بالعفو وأرخى خناقك بعد ما ضاق عليك ، وغصصت بريقك لم تقعد معنا مقعد أهل الشكر ، ولكن تساوينا وتجارينا (٢) ونحن مما لا يدركنا عار ، ولا تلحقنا خزاية » .

ثم وجّه (ع) خطابه إلى زياد فقال له :

« وما أنت يا زياد وقريشاً لا أعرف لك فيها أديماً صحيحاً (٣) ، ولا فرعاً نابتاً ، ولا قديماً ثابتاً ، ولا منبتاً كريماً ، بل كانت أمك بغياً تداولها رجال من قريش ، وفجار العرب ، فلما ولدت لم تعرف لك العرب والداً فادعاك هذا — وأشار الى معاوية — بعد مماته أبيه مالك افتخار ، تكفيك سمية ، ويكفينا رسول الله (ص) وأبي علي بن أبي طالب (ع) سيد المؤمنين الذي لم يرتد على عقبيه وعمي حمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار وأنا وأخي سيدا شباب أهل الجنة » .

وبعد ما ألقم الحجر أفواه خصومه التفت الى ابن عباس قائلاً :

« يا ابن العم ، إنما هي بغاث الطير إنقضّ عليها أجدل » .

وأراد ابن عباس أن يتكلم فخاف معاوية من حديثه فأقسم عليه أن يسكت فسكت ، ثم خرج الإمام وابن عباس ، فالتفت معاوية الى بطانته مستهزئاً بهم :

---

(١) ويروى رمين بالأبعار .

(٢) هكذا جاء في الأصل والأصح ، ولكن كيف تساوينا .

(٣) أديماً صحيحاً : أي نسباً صحيحاً .

« أجاد عمرو الكلام لولا أن حجته دحضت ، وتكلم مروان : لولا انه نكص » .

ثم التفت الى زياد فأنكر عليه هذا التدخل قائلاً :

« ما دعاك الى محاورته ما كنت إلا كالحَجَل في كف البازي » .

والتفت ابن العاص الى معاوية :

« ألا رميت من ورائنا ؟ » .

« إذاً كنت شريككم في الجهل ، أفاخر رجلاً رسول الله جده ، وهو سيد من مضى ومن بقي ، وأمه فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين » .

ثم التفت الى ابن العاص :

« والله لئن سمع به أهل الشام لهي السوءة السوآء » .

فقال عمرو : لقد أبقى عليك ولكنه طحن مروان وزياداً طحن الرحا بثفالها ، ووطأهما وطئ البازل القراد بمنسمه .

واندفع زياد يؤيد مقالة ابن العاص في تحطيم الإمام لهم قائلاً :

« قد والله فعل ، ولكن معاوية يأبى إلا الإغراء بيننا وبينهم ، لا جرم والله لا شهدت مجلساً يكونان فيه إلا كنت معهما على من فاخرهما » .

وخلا ابن عباس بالإمام فقبّل ما بين عينيه وأظهر له الإعجاب بحديثه ورده على هؤلاء الأوغاد قائلاً :

« أفديك يا ابن العم ، والله ما زال بحرك يزخر ، وأنت تصـول حتى شفيتني من أولاد البغايا » .

٥ — وغاب الإمام عن دمشق أياماً ثم رجع اليها فدخل على معاوية وكان في مجلسه عبد الله بن الزبير ، فلما رأى معاوية الإمام قام اليه فاستقبله ، وبعد ما استقر به المجلس التفت اليه قائلاً :

« يا أبا محمد ، إني أظنك تعباً نصباً فأت المنزل فأرح نفسك فيه » .

وخرج الإمام من عنـده ، والتفت معاوية الى عبد الله بن الزبير مغرياً له :

« لو افتخرت على الحسن ، فانك ابن حواري رسول الله (ص) وابن عمته ، ولأبيك في الإسلام نصيب وافر » .

فانخدع ابن الزبير بمقالة معاوية فأظهر له الإستعداد على مطاولة الإمام ومفاخرته قائلاً :

« أنا ، له » .

وانصرف ابن الزبير وقد انفق ليله ساهراً وهو يفكر بماذا سيوصم به الإمام ؟ فلما أصبح جاء يشتد الى مجلس معاوية ليطاول الإمام ويعتدي عليه حتى يرضي عواطف معاوية ، وأقبل الامام (ع) فقام اليه معـاوية واحتفى به ، ولما استقر به المجلس اندفع ابن الزبير قائلاً :

« لولا انك خوار في الحرب غير مقدام ما سلمت لمعاوية الأمر ، وكنت لا تحتاج الى اختراق السهوب (١) ، وقطع المفاوز ، تطلب معروفه وتقوم ببابه ، وكنت حرياً أن لا تفعل ذلك وأنت ابن علي فى بأسه ونجدته فما أدري ما الذي حملك على ذلك ؟ أضعف في الرأي أم وهن نحيزة (٢) فما أظن لك مخرجاً من هاتين الخلتين ، أما والله لو استجمع لي ما استجمع لك لعلمت أني ابن الزبير ، وإني لا أنكص عن الأبطال ، وكيف لا أكون كذلك وجدتي صفية بنت عبد المطلب ، وأبي الزبير من حواري رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأشد الناس بأساً ، وأكرمهم حسباً فى الجاهلية ،

---

(١) السهوب : جمع ، مفرده سهب ، وهو الأرض البعيدة .

(٢) النحيزة : الطبيعة .

وأطوعهم لرسول الله (ص) » .

واندفع الامام فردّ عليه أباطيله وبهتانه قائلاً :

« أما والله ، لولا أن بني أميّة تنسبني الى العجز عن المقال لكففت عنك تهاوناً ، ولكن سأبين لك ذلك لتعلم أني لست بالعي ، ولا الكليل اللسان إياي تعيّر ، وعليّ تفتخر ؟! ولم يكن لجدك بيت في الجاهلية ولا مكرمة فزوجته جدتي صفية بنت عبد المطلب فبذخ على جميع العرب بها ، وشرف بمكانها ، فكيف تفاخر من هو من القلادة واسطتها ، ومن الأشراف سادتها نحن اكرم أهل الأرض زنداً ؟ لنا الشرف الثاقب ، والكرم الغالب ، ثم تزعم أني سلمت الأمر ، فكيف يكون ذلك ويحك ـ كذلك .؟ ـ وأنا ابن أشجع العرب ، وقد ولدتني فاطمة سيدة نساء العالمين (ع) وخيرة الاماء ، لم أفعل ذلك ويحك جبناً ولا ضعفاً ، ولكنه بايعني مثلك ، وهو يطلبني بترة ، ويداجيني المودة ، ولم أثق بنصرته ، لأنكم أهل بيت غدر ، وكيف لا يكون كما أقول : ؟ وقد بايع أبوك أمير المؤمنين ثم نكث بيعته ونكص على عقبيه ، واختدع حشية من حشايا رسول الله (ص) ليضل بها الناس ، فلما دلف نحو الأعنة ورأى بريق الأسنة قتل مضيعة لا ناصر له ، وأتى بك أسيراً ، قد وطأتك الكماة بأظلافها ، والخيل بسنابكها ، واعتلاك الأشتر فغصصت بريقك وأقعيت على عقبيك كالكلب إذا احتوشته الليوث ، فنحن ويحك نور البلاد وأملاكها ، وبنا تفخر الأمة ، والينا تلقى مقاليد الأزمة ، أتصول وأنت تخدع النساء !! ثم تفخر على بني الأنبياء ، لم تزل الأقاويل منا مقبولة ، وعليك وعلى أبيك مردودة ، دخل الناس في دين جدي طائعين وكارهين ، ثم بايعوا أمير المؤمنين (ع) فسار الى

أبيك وطلحة حين نكثا البيعة ، وخدعا عرس رسول الله (ص) (١) فقتل أبوك وطلحة وأتي بك أسيراً فبصبصت بذنبك وناشدته الرحم أن لا يقتلك فعفا عنك ، فأنت عتاقة أبي ، وأنا سيدك وسيد أبيك فذق وبال أمرك » .

وخجل ابن الزبير وندم على ما فرط في أمره ، فتقدم الى الإمام باسلوب لين ناعم يلتمس فيه العفو والرضا ، معرباً له ان معاوية هو الذي أغراه بذلك قائلاً :

« أعذر يا أبا محمد ، فإنما حملني على محاورتك هذا — وأشار الى معاوية — فهلا إذ جهلت أمسكت عني ، فإنكم أهل بيت سجيتكم الحلم والعفو » .

والتفت الامام الى معاوية فقال له :

« انظر هل أكيع عن محاورة أحد ؟ ويحك أتدري من أي شجرة أنا ؟ والى من أنتمي ؟ انته قبل أن أسمك بميسم تتحدث به الركبان في الآفاق والبلدان » .

فقال ابن الزبير :

« هو لذلك أهل » .

فالتفت معاوية الى ابن الزبير قائلاً :

« أما انه قد شفي بلابل صدري منك ، ورمى مقتلك ، فصرت كالحجل في كف البازي يتلاعب به كيف أراد ، فلا أراك تفتخر على أحد بعدها » (٢) .

---

(١) أراد (ع) بذلك عائشة زوج النبي (ص) .

(٢) المحاسن والمساوى للبيهقي ١ / ٥٨ — ٦١ ، والمحاسن والأضداد للجاحظ ٩٢ - ٩٤ .

٦ ـ ومن مناظراته القيّمة ، ومشاجراته مع خصومه التي حطّم بها كيانهم انه (ع) أقبل الى معاوية فلما بصر به حاجبه أسرع اليه فعرّفه بتشريف الامام ، فالتفت معاوية الى بطانته قائلاً .

« إنه إن دخل علينا أفسد ما نحن فيه » .

فقال له مروان : « إءذن له ، فاني أسأله عما ليس عنده جواب » .

فنهره معاوية وقال له : « لا تفعل ، انهم قوم ألهموا الكلام » .

وأذن معاوية للإمام ، فلما دخل قام اليه فرحب به والتفت مروان قائلاً باستهزاء .

« أسرع الشيب الى شاربك ياحسن ، ويقال إن ذلك من الخرق » (١)

فأجابه الامام قائلاً :

« ليس كما بلغك ، ولكنا معشر بني هاشم طيبة أفواهنا ، فنساؤنا يقبلن علينا بأنفاسهن ، وأنتم معاشر بني أميّة فيكم بخر شديد (٢) فنساؤكم يصرفن أفواههن ، وأنفاسهن عنكم الى أصداغكم (٣) فانما يشيب موضع العذار من أجل ذلك » .

فغضب معاوية وصاح بأصحابه :

« قد كنت أخبرتكم فأبيتم حتى سمعتم ما أظلم عليكم بيتكم ، وأفسد مجلسكم »

وخرج الامام من عندهم وقد ترك الكمد ملأ نفوسهم وهو يقول :

ومارست هذا الدهر خمسين حجة وخمساً أرجي قائلاً بعد قائل

---

(١) الخرق (بالضم) ضعف الرأي ، سوء التصرف ، الجهل .

(٢) البخر : الرائحة الكريهة في الفم .

(٣) الأصداغ : جمع ، مفرده صدغ (بالضم) وهو ما بين العين والأذن أو الشعر المتدلى على هذا الموضع .

فما أنا في الدنيا بلغت جسيمها ولا في الذي أهوى كدحت بطائل
وقد أسرعت في المنايا أكفها وأيقنت أني رهن موت معاجل(١)

٧ ـ وتحـدث (ع) في مجلس معاوية عن عظيم فضله، وشرف نسبه قائلاً:

« قد علمت قريش بأسرها أني منها في عز أرومتها، لم أطبع على ضعف، ولم أعكس على خسف، أعرف بشبهي، وأدعى لأبي ».

وساء ذلك ابن العاص فانبرى قائلاً:

« قد علمت قريش أنك من أقلها عقلاً، وأكثرها جهلاً، وإن فيك خصالاً لو لم يكن فيك إلا واحدة منهن لشملك خزيها كما شمل البياض الحالك (٢) لعمر الله، لتنتهين عما أراك تصنع أو لأكبسن لك حافة كجلد العائط (٣) أرميك من خللها بأحر من وقع الأثافي (٤) أعرك منها أديمك عرك السلعة (٥) فانك طالما ركبت صعب المنحدر، ونزلت في اعراض الوعر التماساً للفرقة، وارصاداً للفتنة، ولن يزيدك الله إلا فظاعة ».

فرد عليه الامام مقالته:

« أما والله لو كنت تسمو بحسبك، وتعمل برأيك، ما سلكت فج قصد، ولا حللت رابية مجد، وأيم الله لو أطاعني معـاوية لجعلك بمنزلة

---

(١) وفيات الأعيان ٤ / ١٢١ .

(٢) الحالك : شدة السواد .

(٣) العائط : الناقة .

(٤) الأثافي : الأحجار التي توضع عليها القدور .

(٥) السلعة : المتاع وما يتاجر به، وباعتبار تقلب الأيدي عليها فهي في عراك .

العدو الكاشح (١) ، فانه طال ما طويت على هذا كشحك ، وأخفيته في صدرك ، وطمع بك الرجاء الى الغاية القصوى التي لا يورق لها غصنك ، ولا يخضرّ لها مرعاك ، أما والله ليوشكن يا ابن العاص أن تقع بين لحيي ضرغام من قريش ، قوي ممتنع ، فروس ذي لبد ، يضغطك ضغط الرحا للحب ، لا ينجيك منه الروغان (٢) إذا التقت حلقتا البطان » (٣) .

لقد كان ابن العاص يتحرى في كل مناسبة انتقاص أهل البيت ، ويعلن عداءه وبغضه لهم وما سبب ذلك إلا لخبث ذاته ، وعدم طهارة اناثه ، وقد رأى الامام في الطواف فجعل يشتد نحوه ، فلما انتهى اليه رفع عقيرته :

« يا حسن أزعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك ، فلقد رأيت الله عز وجل أقامه بمعاوية فجعله راسياً بعد ميله ، وبيّناً بعد خفائه ، أفرضي الله قتل عثمان أم من الحق أن تدور بالبيت كما يدور الجمل بالطحين عليك ثياب كغرقىء البيض (٤) وأنت قاتل عثمان ، والله إنه لألم للشعث وأسهل للوعث (٥) أن يوردك معاوية حياض أبيك » .

فوجّه (ع) اليه سهاماً من قوله قائلاً :

« ان لأهل النار علامات يعرفون بها ، وهي الالحاد لأولياء الله ، والموالاة لأعداء الله ، والله إنك لتعلم أن علياً (ع) لم يتريب في الأمر

---

(١) الكاشح : هو الذي يضمر العداء في نفسه للغير .

(٢) الروغان : الحيلة والمكر .

(٣) المحاسن والمساوي ١ / ٦٥ .

(٤) الغرقىء : القشرة المتصلة ببياض البيض ، أو بياض البيض الذي يؤكل .

(٥) الوعث : الأمر الشاق .

ولم يشك في الله طرفة عين ، وأيم الله لتنتهين يابن أم عمرو أو لأقرعن جبينك بكلام تبقى سمته عليك ماحييت ، فاياك والابراز علي فاني من قد عرفت لست بضعيف الغميزة (١) ولا بهش المشاشة (٢) ولا بمرىء المأكلة واني من قريش كاوسط القلادة ، يعرف حسبي ، ولا أدعى لغير أبي وقد تحاكمت فيك رجال من قريش فغلب عليك ألأمهم نسباً وأظهرهم لعنة فاياك عني فانك رجس ، وأما نحن بيت الطهارة أذهب الله عنا الرجس ، وطهرنا تطهيرا » (٣).

٨ — ومما وقع للإمام في دمشق انه دخل على معاوية فلما رآه قام إليه واحتفى به فساء ذلك مروان واضطرب غيظاً وموجدة واندفع قائلا :

ياحسن ، لولا حلم أمير المؤمنين وما قد بنى له آباؤه الكرام من المجد والعُلا ماأقعدك هذا المقعد ، ولقتلك وأنت له مستوجب بقودك الجماهير فلما أحسست بنا وعلمت أن لاطاقة لك بفرسان أهل الشام ، وصناديد بني أمية اذعنت بالطاعة ، واحتجزت بالبيعة ، وبعثت تطلب الأمان ، أما والله لولا ذلك لأريق دمك ، وعلمت أنا نعطي السيوف حقها عند الوغى فاحمد الله اذا ابتلاك بمعاوية فعفا عنك بحلمه ثم صنع بك ماترى ! . » .

فرد عليه الإمام قائلا:

ويحك يامروان ، لقد تقلدت مقاليد العار في الحروب عند مشاهدتها والمخاذلة عند مخالطتها ، نحن — هبلتك الهوابل — لنا الحجج البوالغ ، ولنا إن شكرتم عليكم النعم السوابغ ندعوكم إلى النجاة وتدعوننا إلى النار ، فشتان مابين المنزلتين تفخر ببني أمية وتزعم أنهم صبر في الحروب أسد عند اللقاء

---

(١) الغميزة : ضعف العقل أو العمل .

(٢) المشاشة : الأرض اللينة كنى (ع) بذلك عن مقدرته وحزمه .

(٣) شرح ابن ابي الحديد ٤ / ١٠ المحاسن والمساوي .

ثكلتك أمك أولئك البهاليل السادة والحماة الذادة والكرام القادة بنو عبد المطلب أما والله لقد رأيتهم وجميع من في هذا البيت ماهالتهم الأهوال ولم يحيدوا عن الأبطال كالليوث الضارية الباسلة الحنقة فعندها وليت هاربا وأخذت أسيراً فقلدت قومك العار لأنك في الحروب خوار ، أيراق دمى زعمت ؟ ! ! أفلا أرقت دم من وثب على عثمان في الدار فذبحه كما يذبح الجمل ؟ وأنت تثغو ثغاء النعجة ! ! وتنادي بالويل والثبور كالأمة اللكعاء ألا دفعت عنه بيد أو ناضلت عنه بسهم ؟ ! لقد أرتعدت فرائصك ! ! وغشي بصرك فاستغثت بي كما يستغيث العبد بربه فأنجيتك من القتل ومنعتك منه ثم تحث معاوية على قتلي ؟ ولو رام ذلك معك لذبح كما ذبح ابن عفان ، أنت معه أقصر يداً وأضيق باعاً وأجبن قلباً من أن تجسر على ذلك ثم تزعم أني ابتليت بحلم معاوية أما والله لهو أعرف بشأنه ، وأشكر لما وليناه هذا الأمر فمتى بدا له ، فلا يغضين جفنه على القذى معك فوالله لاعقبن أهل الشام بجيش يضيق عنه فضاؤها ويستأصل فرسانها ثم لاينفعك عند ذلك الهرب والروغان ، ولا يرد عنك الطلب تدريجك الكلام فنحن من لا يجهل آباؤنا القدماء الأكابر ، وفروعنا السادة الأخيار ، أنطلق إن كنت صادقاً » .

فقال ابن العاص مستهزءاً بمروان :

« ينطق بالخنا وتنطق بالصدق » . ثم أنشأ يقول :

قد يضرط العير والمكواة تأخذه   لايضرط العير والمكواة في النار

« ذق وبال أمرك يامروان » .

وصاح معاوية بمروان :

« قدكنت نهيتك عن هذا الرجل وأنت تأبى إلا إنهما كما فيما لايعنيك أربع على نفسك فليس أبوك كأبيه ولا أنت مثله ، أنت ابن الطريد الشريد وهو ابن

رسول الله (ص) الكريم ، ولكن رب باحث عن حتفه وحافر عن مديته » .

وانتفخت أوداج مروان غضبا وحنقاً فاندفع نحو معاوية قائلاً :

« ارم من دون بيضتك ، وقم بحجة عشيرتك » .

ثم التفت إلى ابن العاص قائلا :

« وطعنك أبوه فوقيت نفسك بخصييك فلذلك تحذره » .

ثم قام وهو محطم الكيان قد أهين وحقر فقال معاوية :

« لاتجار البحور فتغمرك ، ولا الجبال فتبهرك » (١) .

٩ ـ ودخل الإمام على معاوية وكان في مجلس ضيق فجلس (ع) عند رجليه فتحدث معاوية بما شاء أن يتحدث به ثم قال « عجباً لعائشة !! تزعم أني في غير ماأنا أهله ، وان الذي أصبحت فيه ليس لي بحق ، ماالها ولهذا يغفر الله لها ، انما كان ينازعني أبو هذا الجالس ـ وأشار إلى الحسن ـ وقد استأثر الله به » .

فقال (ع) : « أوعجب ذلك يامعاوية ! ! » .

ـ أي والله !

ـ أفلا اخبرك بما هو أعجب ؟ ! ! .

ـ ماهو ؟

ـ جلوسك في صدر المجلس وأنا عند رجليك .

فضحك معاوية وراوغ على عادته وقال :

« يا ابن أخي بلغني أن عليك دينا ، كم هو ؟ » .

ـ مائة الف .

ـ أمرنا لك بثلثمائة ألف ، مائة ألف منها لدينك ، ومائة ألف تقسمها

---

(١) المحاسن والمساوى ١ / ٦٣ ـ ٦٥ .

في أهل بيتك خاصة ، ومائة ألف لخاصة نفسك ، فقم مكرما فاقبض صلتك.

وخرج الإمام من عنده وكان يزيد حاضراً في مجلس أبيه فلما رأى حفاوته بالإمام ساءه ذلك وحينما انصرف من في المجلس اندفع قائلاً :

«تالله مارأيت رجلامثلك ، استقبلك بما استقبلك به ثم أمرت له بثلثمائةألف !»

— يابني ، إن الحق حقهم فمن جاءك منهم فاحث له (١) .

وقد اعترف معاوية أن الخلافة الإسلامية لأهل البيت وانه قد غصبها منهم .

هذه بعض مناظرات الإمام مع خصومه ، قد روى أكثرها البيهقي والجاحظ ، ونص عليها غيرهما من المؤرخين ، وقد فضح بها الإمام معاوية وأتباعه ، وأبدا عارهم وعيارهم ، وأظهر لأهل الشام مخازي بنى أمية ، وعيوب آل أبي سفيان ، فهي بحق ثورة على حكومة معاوية ، فقد حطمت كيانه ، وأنزلته من عرشه إلى قبره .

وشكك بعض أهل العلم في بعض تلك المناظرات ، واحتمل فيها الوضع لأنها قد اشتملت على تعيير الإمام لخصومه باسلوب يستبعد صدوره منه وقد استدل على ذلك بما روى من أن الإمام لم تسمع منه كلمة فحش قط إلا قوله لمروان : « ليس لك عندي إلا مارغم به أنفك » ومع هذا فكيف يصدر ذلك منه ، وهو احتمال موهوم لأن خصومه الحقراء قد تجرؤا عليه وجابهوه بألفاظ قاسية بذيئة ، فرد عليهم اعتداءهم ، ولكن لم يستعن بالكذب ، ولم يتذرع بالبذاء كما تذرعوا به .

وعلى أي حال فان معاوية بالرغم مما انزله الإمام به من الذل والهوان فانه كان يحذر جانبه ويخشاه وذلك لما له من المكانة المرموقة في نفوس المسلمين ، وتقديمهم له بالفضل على غيره ، وكانوا يعلنون ذلك أمام معاوية

---

(١) شرح ابن ابي الحديد ٤ / ٤ .

فقد ذكر رواة الأثر ان معاوية تحدث في مجلسه فقال :

« اخبروني بخير الناس أباً وأماً ، وعماً وعمة ، وخالاً وخالة ، وجداً وجدة ».

وانما قال ذلك ليرى مدى انطباع المسلمين عن الإمام ، فقام اليه مالك بن عجلان فقال له : « هذا — وأشار إلى الحسن — خير الناس أبوه علي بن أبي طالب ، وأمه فاطمة بنت رسول الله (ص) ، وعمه جعفر الطيار في الجنان ، وعمته أم هاني بنت أبي طالب ، وخاله القاسم بن رسول الله ، وخالته زينب بنت رسول الله ، وجده رسول الله (ص) ، وجدته خديجة بنت خويلد . . . » .

فسكت معاوية ولم يطق جواباً ، ولما انصرف الإمام انبرى ابن العاص الى مالك فانكر عليه قوله ، قائلاً له :

« أحبُ بني هاشم حملك على أن تكلمت بالباطل ؟ ! » .

فرد عليه مالك قائلاً :

« ما قلت إلا حقاً ، وما أحد من الناس يطلب مرضاة المخلوق بمعصية الخالق ، إلا لم يعط أمنيته في دنياه ، وختم له بالشقاء في آخرته ، بنو هاشم أنضرهم عوداً ، واوراهم زنداً » .

والتفت إلى معاوية فقال له : « اليس هم كذلك ؟ » ولم يسع معاوية إلا التصديق لكلامه (١) .

ان معاوية كان يخشى من الإمام ويحذر من انتفاضته عليه ، ولا تزال ذكريات صفين ماثلة امامه فيفزع منها ، ويخاف ان تعود عليه مرة اخرى ، ولهذا كان يرعى عواطف الإمام ، وقد ذكر المؤرخون ان عمرو ابن عثمان بن عفان ، واسامة بن زيد مولى رسول الله (ص) تخاصما عند

(١) المحاسن والمساوى ١ / ٦٢ .

معاوية في ارض فقال عمرو لأسامة : « كأنك تنكرني ؟ ! » فرد عليه اسامة مقالته ، وكثر التشاجر بينهما فهدده اسامة بالهاشميين ، ثم قام فجلس إلى جانب الحسن (ع) وقام الهاشميون فجلسوا إلى جانبه ، ولما راى الأمويون ذلك انضموا إلى ابن عثمان ، وخاف معاوية من اثارة الفتنة فبادر الى حسم النزاع قائلاً :

« لاتعجلوا أنا كنت شاهداً إذ أقطعها رسول الله (ص) اسامة » .

وقد حكم بذلك لأسامة وقدمه على عمرو ولما خرج الإمام اقبل الأمويون على معاوية يلومونه على ذلك ، وقالو له : « الا كنت اصلحت بيننا ؟ » فأجابهم معاوية بما ينم عن فزعه وخوفه قائلاً :

« دعوني فوالله ماذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين إلا لبس علي عقلي ، وإن الحرب اولها نجوى ، واوسطها شكوى ، وآخرها بلوى » .

ثم تمثل بأبيات لامرىء القيس قائلاً :

الحرب اول ماتكون فتيـة ... تدنو بزينتها لكـل جهول

حتى إذا حميت وشب ضرامها ... عادت عجوزاً غير ذات حليل

شمطاء جزت راسها وتنكرت ... مكروهة للثم والتقبيـل

ثم قال : مافي القلوب يشب الحروب ، والأمر الكبير يدفعه الأمر الصغير ، وتمثل بقول الشاعر :

قد يلحق الصغير بالجليـل ... وإنما القرم من الأفيـل

وتسحق النخل من الفسيل (١)

إلى هنا ينتهي بنا الحديث عن سفر الإمام إلى دمشق ، وعن مناظراته فيها.

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٣٠٩ .



خَرْقُ مُعَاوِيَة شُرُوطَ الصُّلح

والتزمت أغلب الأمم والشعوب على اختلاف عناصرها وأديانها بالوفاء بالعهود ، وتنفيذ الشروط ، وعدم مجافاتها لما تلتزم به ، وذلك حرصاً منها على الروابط الإجتماعية ، وحفظا على النظام العام ، وقد اهتم الإسلام بهذه الناحية اهتماماً بالغاً فأكد رعاية العهود ، وضرورة الوفاء بها قال تعالى : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلا » (١) وقال تعالى : « وإن استنفروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » (٢) لقد دعا تعالى المسلمين — بهذه الآية — إلى أن يهبوا إلى نصرة أخوانهم في الدين وإلى الإشتراك معهم في عمليات الحروب إذا دعوهم إلى ذلك وقد استثنى تعالى المسلمين الذين بينهم وبين المشركين عهد وميثاق فانه لايجوز لهم خرق ذلك الميثاق ، وذلك لما للعهود من الأهمية عند الله ، يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « المؤمنون عند شروطهم ، وقال (ص) : « المؤمن إذا وعد وفى » ويقول أمير المؤمنين (ع) في عهده لمالك الأشتر :

« وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، أو ألبسته منك ذمة ، فحط عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جُنّة دون ماأعطيت . فانه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم ، من تعظيم الوفاء بالعهود .

وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استبلوا من عواقب الغدر . فلا تغدرن بذمتك ، ولا تخيسن بعهدك ، ولا تختلن عدوك فانه لايجترىء على الله إلا جاهل شقي . وقد جعل الله عهده وذمته أمنا أفضاه بين العباد برحمته ، وحريماً يسكنون إلى منعته ، ويستفيضون إلى

---

(١) سورة بني إسرائيل : آية ٣٤ .

(٢) سورة الأنفال : آية ٧٢ .

جواره . . » .

هذا هو موقف الإسلام تجاه المعاهدات والشروط فقد الزم بوفائها ورعايتها ، وحرم نكثها ، ولنرجع بعد هذا إلى اتفاقية الصلح التي تمت بين الإمام ومعاوية ، لنرى مدى الألتزام بها من الجانبين ، أما مايخص الإمام الحسن (ع) من الشروط التي اشترطها معاوية عليه فانه لم يكن سوى شرط واحد وهو أن لايخرج الإمام عليه ، وقد وفى له بذلك ، فقد خف اليه خلص شيعته بعد أن أعلن معاوية نقضه للشروط التي أعطاها للإمام ، فعرضوا عليه أن يخرج على معاوية ، ويناجزه فأبى (ع) أن ينقض ما أعطاه من العهد ، وبعد خروجه من الكوفة وشخوصه إلى يثرب جاءه زعماء شيعته فطلبوا منه مناجزة معاوية ، وضمنوا له احتلال الكوفة وإخلائها من عامل معاوية ، فامتنع (ع) من إجابتهم وأمرهم بالخلود الى الصبر - كما تقدم بيان ذلك - .

وأما مايخص معاوية فانه قد خان بعهده ، وحنث بيمينه ، وكذب بمواعيده ، بالرغم من أنه الزم نفسه بالإيمان المغلظة والعهود المؤكدة على الوفاء بما أعطاه للإمام من شروط فقد جاء في ختام المعاهدة بتوقيعه : « وعلى معاوية بن أبي سفيان ، عهد الله وميثاقه ، وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء ، وبما أعطى الله من نفسه . » فلم تمض أيام على امضاء المعاهدة حتى أعلن نقضها فقال أمام المسلمين : « الا ان كل شيء أعطيته للحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به ! » يقول الحصين بن نمير : « ماوفى معاوية للحسن بشيء مما أعطاه ، قتل حجراً وأصحاب حجر ، وبايع لابنه وسم الحسن . » (١) .

---

(١) شرح ابن ابي الحديد ١٦/٤ .

إن جميع ما شملته بنود المعاهدة من شرط قد نقضها « كسرى العرب » فلم يف بشيء منها ، وقد أسفر بذلك عن سياسته التي رفعت شعار الغدر ونكث الذمم ونقض العهود ، وفيما يلي الشروط التي نقضها ولم يف بها .

١ — سب لأمير المؤمنين :

إذا مات الإنسان وجب أن تموت معه الحزازات ، وتنطوي معه الأحقاد ، وسائر المؤثرات ، وقد جرت سيرة الناس على ذلك منذ فجر التأريخ ، ولكن ابن هند قد جافى ذلك ، فقد أخذ بعد إبرام الصلح يعلن سب أمير المؤمنين عليه السلام ويبالغ في انتقاصه ، لم يمنعه عنه أنه قد اشترط عليه تركه في اتفاقية الصلح ، ولم يمنعه عنه انتقال الإمام إلى جوار الله ، وقد قيل :

واحترام الأموات حتم وإن كا نوا بعاداً فكيف بالقرباء (١)

لقد اندفع معاوية بجميع طاقاته وقواه إلى النيل من الإمام والحط من شأنه ، وقد سخر جميع أجهزة دولته في ذلك حتى جعل سب العترة الطاهرة سنة من سنن المسلمين يحتجون على تركها ، ويتنادون عليها ويأثمون على عدم أدائها .

ومما لاشبهة فيه أن سب أمير المؤمنين (ع) إنما هو سب للنبي (ص) وانتقاص له فقد أثر عنه (ص) أنه قال : « من سب علياً فقد سبني ، ومن سبني فقد سب الله » (٢) وأثر عنه أنه قال : من آذى علياً فقد

---

(١) ديوان الرصافي ص ٥٨٩ .

(٢) مستدرك الحاكم ٣ / ١٢١ ، ذخائر العقبى ص ٦٦ .

آذاني . »(١) وقال (ص) : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله » .

وتواترت الأخبار عنه (ص) في أن الإمام أخوه ، ووصيه ، وخليله وباب مدينة علمه ، ولولا جهاده ودفاعه عن دين الله لما قام الإسلام ، وما عبد الله عابد ، ولا وحّده موحد ، وقديما قيل :

أعلى المنابر تعلنون بسبه وبسيفه نصبت لكم أعوادها

أما بواعث سبه ، فان معاوية علم أنه لايستقيم له الأمر إلا بانتقاص الإمام والنيل منه وقد صرح بذلك مروان بن الحكم فقال :

« لايستقيم لنا الأمر إلا بذلك — أي بسب علي — » . (٢)

وعلى أي حال فان معاوية حينما رجع إلى دمشق بعد الصلح أمر بجمع الناس فقام فيهم خطيباً فقال :

« أيها الناس ، إن رسول الله (ص) قال لي : إنك ستلي الخلافة من بعدي فاختر الأرض المقدسة فان فيها الأبدال ، وقد اخترتكم فالعنوا أبا تراب . . . » .

---

(١) مسند الامام أحمد بن حنبل ٣ / ٤٨٣ ، أسدالغابة ٤ / ١١٣ ، وجاء في مجمع الهيثمي ٩ / ١٢٩ عن سعد بن أبي وقاص قال كنت جالساً في المسجد أنا ورجلين معي ، فنلنا من علي فأقبل رسول الله (ص) غضبان يعرف فى وجهه الغضب ، فتعوذت بالله من غضبه ، فقال (ص) : مالكم ومالي ؟ من آذى علياً فقدآذاني ، وفي ذخائرالعقبى ص ٦٥ عن عمرو بن شاس الأسلمي قال : قال رسول الله (ص) : « من أحب علياً فقد أحبني ، ومن أبغض علياً فقد أبغضني ، ومن آذى علياً فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله » .

(٢) الصواعق المحرقة ص ٣٣ .

فأخذ الناس في لعنه وانتقاصه (١) ثم اتخذ سبه سنة جارية في خطب الجمعة والأعياد ، فكان يخطب على الناس ويقول في آخر خطبته :

« اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك وصد عن سبيلك ، فالعنه لعنا وبيلا وعذبه عذاباً اليما » فكانت هذه الكلمات يشاد بها على المنابر (٢) ثم كتب إلى جميع عماله وولاته بلعن أخي رسول الله وسيد هـــذه الأمة ، فانبرت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنونه ويبرؤن منه (٣)

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٣ / ٣٦١ .

(٢) النصائح الكافية ص ٧٢ نقله عن أبي عثمان الجاحظ فى كتاب « الرد على الإمامية » .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣ / ١٥ ومن الخيرأن نذكر موقف أمير المؤمنين وولده الحسن من سب معاوية فقد جاء في شرح النهج ١ / ٤٢٠ أن أمير المؤمنين عليه السلام سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام صفين فنهرهم ونهاهم وقال لهم :

« إني أكره لكم أن تكونوا سبابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب فى القول وأبلغ فى العذر ، وقلتم مكان سبكم إياهم اللهم احقن دماءنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به » .

وأما موقف الإمام الحسن من سب معاوية فقد جاءه رسول معاوية فلما رأى الرسول هيبة الإمام وعظمته قال له :

« أسأل الله أن يحفظك ويهلك هؤلاء القوم » .

فنهره الإمام وقال له : « رفقاً لاتخن من ائتمنك ، وحسبك أن تحبني لحب رسول الله (ص) ولأبي وأمي ، ومن الخيانة أن يثق بك قوم وأنت عدو لهم وتدعو عليهم » الملاحم والفتن ص ١٤٣ .

وسار عمـاله على ذلك ، ومن أبى منهم عزله ، فقد عزل سعيد بن العاص عن إمارة يثرب لأنه امتنـع من سب الإمام ، وجعل في مكـــانه مروان بن الحـكم ، وقد بالغ هذا الوغد الخبيث في لعن الإمام وانتقاصه حتى امتنع الإمام الحسن (ع) من الحضور فى الجامع (١) وكان المغيرة بن شعبة يبـالـغ فى كثرة السب حتى لم يحص أحد كثرة سبه له (٢) وكان زياد يحرض الناس على ذلك ، ومن أبى عرضه على السيف (٣) .

لقد بالغ الولاة في لعن الإمام حتى جعلوا سبه من أجزاء صلاة الجمعة وبلغ الحال أن بعضهم نسي اللعن في خطبة الجمعة فذكره وهو في السفر فقضاه ، وبنوا مسجداً سموه « مسجد الذكر » (٤) وخطب هشام بن عبد الملك بعرفة فلم يتناول الإمام بسوء فانكر عليه عبد الملك بن الوليد قائلاً :

« يا أمير المؤمنين ، هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب »

فقال له هشام : « ليس هذا جئنا » (٥) ولما ولي عبد الملك بن مروان جعل في طليعة مهامه سب أمير المؤمنين ، وتعميم لعنه على جميع الحضُر الإسلامية ، وقد رُمي بالفجور فى مجلسه ، وكان خالد بن عبد الله القسرى (٦) وهو أحـــد ولاة الأمويين على مكة والعراق يجاهر في لعن

---

(١) تطهير الجنان واللسان ص ١٤٢ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ / ٣٦١ .

(٣) المسعودي على هامش ابن الأثير ٦ / ٩٩ .

(٤) مقتل الحسين للمقرم ص ١٩٨ .

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٣ / ٤٧٦ .

(٦) خالد بن عبدالله القسري كان امير العراقين من قبل هشام بن عبدالملك وكانت أمه نصرانية فبنى لها كنيسة تتعبد بها وفي ذلك يقول الفرزدق فى هجائه : —

أمير المؤمنين والحسن والحسين فكان ينزو على المنبر ويقول :

« اللهم إلعن علي بن ابي طالب بن عبد المطلب بن هاشم صهر رسول الله (ص) على ابنته ، وأبا الحسن والحسين » .

ثم يلتفت إلى الناس ويقول لهم :

« هل كنيت ؟ » (١) .

وذكر الحافظ السيوطي أنه كان في أيام بني أمية أكثر من سبعين الف منبر يلعن عليها ابن أبي طالب (ع) وذلك بما سنه لهم معاوية ، وفي ذلك يقول العلامة أحمد حفظي مصطفى الشافعي في إرجوزته :

وقد حكى الشيخ السيوطي أنه   قد كان فيما جعلوه سنة

سبعون الف منبر وعشرة   من فوقهن يلعنون حيدرة

وهذه في جنبها العظائم   تصغر بل توجه اللوائم (٢)

ولما رأى سواد الناس والطبقة الواطئة في الشعب أن أحب شيء

= ألا قبح الرحمن ظهر مطية   أتتنا تهادى من دمشق بخالد

وكيف يؤم الناس من كانت امه   تدين بأن الله ليس بواحد

بنى بيعة فيها الصليب لأمه   ويهدم من بغض منار المساجد

وعزله هشام عن العراقين لأنه قد أكره امرأة مسلمة على الزنا ثم قتله في أيام الوليد ، جاء ذلك في وفيات الأعيان ٥ / ١٥٢ — ١٦٢ وقريب منه ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ١٠ / ٢٠ والعجب من ابن حبان حيث عد هذا المجرم الأثيم من الثقات كما ذكر ذلك ابن حجر في تهذيب التهذيب ٣ / ١٠١ قاتل الله العصبية فانها تلبس الباطل لباس الحق .

(١) النصائح ص ٨٠ .

(٢) النصائح ص ٧٩ .

للسلطة الأموية وأقوى سبب للإتصال بها سب أمير المؤمنين (ع) وانتقاصه أخذوا يتقربون إليها بذلك فقد أقبل بعض الأوغاد إلى الحجاج وهو رافع عقيرته قائلاً :

« أيها الأمير ، إن أهلي عقوني فسموني علياً ، وإني فقير بائس وأنا إلى صلة الأمير محتاج » .

فأنس الحجاج بذلك وتضاحك وقال له :

« للطف ماتوصلت به فقد وليتك موضع كذ » (١) .

لقد انتشر سب أمير المؤمنين ولعنه في جميع الأقطار الإسلامية سوى سجستان فانه لم يلعن على منابرها إلا مرة واحدة ولما أصر الأمويون على ذلك امتنعوا عليهم حتى أضطر الأمويون أخيراً إلى موافقتهم (٢) وبذلك فقد حاز أهل سجستان الشرف والمجد وسجلت لهم هذه المأثرة بمداد من الشرف والنور .

وظل الأمويون مصرين على سب بطل الإسلام وحامي حوزته وقد بذلوا قصارى جهودهم في نشر ذلك إلى أن جاء دور عمر بن عبد العزيز فمنع السب وكتب بالمنع إلى جميع عماله وولاته ، وأمر أن يجعل بدل اللعن في خطبة الجمعة والأعياد قوله تعالى : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » (٣) .

وقيل بل جعل مكان ذلك قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل

---

(١) النصائح الكافية وشرح ابن أبي الحديد ١ / ٣٥٦ .

(٢) معجم البلدان .

(٣) سورة الحشر : آية ١٠ .

والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » (١) .

وقيل بل جعلهما معاً (٢) وقد سجل بذلك مكرمة لاتنسى مدى الأجيال والأحقاب ، وقد مدحه شاعر العبقرية والنبوغ السيد الشريف الرضي رحمه الله على ذلك وشكر له هذه اليد البيضاء التي أسداها على عموم المسلمين فقال :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العـ ـين فتى من أمية لبكيتك

---

(١) سورة النحل : آية ٩٠ .

(٢) الغدير ١٠ / ٢٦٦ وذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ١ / ٣٥٦ ان عمر حدث عن السبب في تركه لسب أمير المؤمنين قال : كنت غلاماً أقرأ القرآن على بعض ولد عتبة بن مسعود فمر بي يوماً وأنا العب مع الصبيان ونحن نلعن علياً فكره ذلك ودخل المسجد فتركت الصبيان وجئت اليه لأدرس عليه وردى فلما رآني قام فصلى وأطال في الصلاة شبه المعرض عني حتى أحسست منه بذلك فلما انفتل من صلاته كلح في وجهي فقلت له مابال الشيخ ؟ فقال لي أنت اللاعن علياً منذ اليوم ؟ قلت نعم قال فمتى علمت أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضى عنهم ؟ فقلت له يا أبت وهل كان علي من أهل بدر ؟ فقال ويحك وهل كانت بدر كلها إلا له ، فقلت له لاأعود ، فقال بالله عليك لاتعود فقلت له نعم وقال كنت أحضر تحت منبر المدينة وأبي يخطب يوم الجمعة وهو حينئذ أمير المدينة فكنت أسمع أبي يمر في خطبه تهدر شقاشقه حتى يأتي إلى لعن علي (ع) فيجمجم ويعرض له من الفهاهة والحصر ما الله عالم به ، فكنت أعجب من ذلك ، فقلت له يوماً ياأبت أنت أفصح الناس ، وأخطبهم فما بالي أراك أفصح خطيب يوم حفلك حتى إذا مررت بلعن هذا الرجل صرت ألكن عييا ، فقال يابني لوعلم من تحت منبرنا من —

غير أني أقول إنك قد طبـ ـت وإن لم يطب ولم يزك بيتك
أنت نزهتنا عن السب والقذ ف فلو أمكن الجزاء جزيتك
ولو اني رأيت قبرك لاستحيـ ـت من أن أرى وما حييتك
وقليل ان لو بزأت دماء الـ بدن ضربا على الذرى وسقيتك
دير سمعان فيك مأوى أبي حفص فبودي لو أنني آويتك
دير سمعان لاأغبك غيث خير ميت من آل مروان ميتك(١)

لقد قدم له السيد الشريف آيات الشكر والثناء بهذه الأبيات الرائعة وشكره على محوه لهذه البدعة التي أثبتت جاهلية معاوية، ومروقه من الدين

المنكرون ذلك :

وأثار سب الامام أمير المؤمنين سخط الأخيار والمتحرجين فى دينهم لأن الامام نفس النبي (ص) وأخوه وأبو سبطيه، وصاحب العناء فى الاسلام، ولأن سب المسلم من أفحش المحرمات، فقد أثر عن النبي أنه

ــ أهل الشام وغيرهم فضل هذا الرجل مايعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد، فقال عمر فوقرت كلمته فى صدري مع ماقال لي معلمي أيام صغري فأعطيت الله عهداً لئن كان لي في هذا الأمر نصيب لأغيرنه فلما من الله علي بالخلافة اسقطت ذلك، وجاء فى « الاسلام بين السنة والشيعة » ص ٢٥ أن عمر بن عبد العزيز لما ألغى سب أمير المؤمنين خطب بعض الخطباء بجامع « حران » ولما ختم خطابه لم يسب أمير المؤمنين فتصايح الناس من كل جانب ويحك السنة السنة، تركت السنة وذكرت بعض المصادر ان جميع الحضر الاسلامية تركت سب أمير المؤمنين بعد تحريم عمر بن عبد العزيز له سوى أهل حمص فإنهم أصروا على ذلك .

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ / ٣٥٧ .

« سباب المسلم فسوق » (١) ، وقال (ص) : « لا يكون المؤمن لعاناً » (٢) الى غير ذلك من الأحاديث التي وردت عنه (ص) في تحريم سب المسلم وقذفه ، فلذا اندفعوا الى اعلان سخطهم والى الانكار عليه وعلى ولاته ، ونسوق نص كلامهم في ذلك :

١ - سعد بن أبي وقاص :

وعزّ على سعد أن يسمع سب أمير المؤمنين وهو يعير ذلك أذناً صماء من دون أن ينكر عليه ، فقد ذكر المؤرخون ان معاوية بعد عام الصلح قصد بيت الله الحرام ، وبعد فراغه من الطواف توجه الى دار الندوة فلما استقرّ به المجلس شرع في سبّ أمير المؤمنين فغضب سعد والتفت الى معاوية قائلاً :

« يا معاوية أجلستني على سريرك ثم شرعت في سبّ عليّ ، والله لان يكون فيّ خصلة واحدة من خصال كانت لعلي أحبُّ إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن أكون صهراً لرسول الله (ص) ولي من الولد ما لعلي أحب إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس والله لأن يكون رسول الله (ص) قال لي ما قال له فيه يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ليس بفرّار ، يفتح الله على يديه » أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله (ص) قال لي ما قال له في غزوة تبوك : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس ، وأيم الله

(١) الترغيب والترهيب ٣ / ٣٩٤ ، وفيض القدير ٤ / ٨٤ .

(٢) صحيح الترمذي .

ما دخلت لك داراً ما بقيت ، ثم نهض وهو غضبان ثائر » (١) .

٢ - السيدة أم سلمة :

وكانت السيدة أم سلمة عالمة بمنزلة أمير المؤمنين (ص) ولما له من المنزلة الكريمة عند رسول الله (ص) ولما رأت أن معاوية يسبه علانيــة وجهراً اندفعت الى انكار ذلك وقد رفعت الى معاوية مذكرة جاء فيها : « إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم ، وذلك أنكم تلعنون علي بن أبي طالب (ع) ومن أحبه ، وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله » .

ولكن انكارها لم يجد شيئاً فقد بقي معاوية مصرّاً على غيه وإثمه (٢).

٣ - عبد الله بن عباس :

واجتاز حبر الأمّة عبد الله بن عباس على قوم يسبون أمير المؤمنين فقال لقائده : ادنني منهم فأدناه ، فانبرى اليهم وقد قُدّ قلبــه قائلاً لهم بنبرات تقطر غضباً وألماً :

- أيكم الساب رسول الله ؟

- نعوذ بالله أن نسب رسول الله !!

- أيكم الساب علي بن أبي طالب !

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٣١٧ ، وذكره ابن كثير في تاريخه ، ومسلم في صحيحه ، والترمذي في صحيحه مع اختلاف يسير بين الروايات ، وذكر المسعودي جواب معاوية لسعد ما يقبح التصريح به رأينا من المناسب تركه .

(٢) العقد الفريد ٣ / ١٢٧ ، وجاء في مستدرك الصحيحين ١ / ١٢١ . عن أبي عبدالله الجدلي قال : دخلت على أم سلمة فقالت لي : أيسب رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم ؟ فقلت : معاذ الله ، أو سبحان الله ، أو كلمة نحوها فقالت : سمعت رسول الله (ص) يقول : من سبّ علياً فقد سبني .

ـ أما هذه فنعم .

ـ أشهد لقد سمعت رسول الله (ص) يقول : « من سبني فقد سب الله ومن سب علي بن أبي طالب فقد سبني » .

فأطرقوا برؤوسهم الى الأرض خجلاً لا يطيقون جواباً ثم تركهم وانصرف وقد ترك الحزن يحز في نفوسهم والتفت الى قائده فقال له :

« كيف رأيتهم ؟ »

فأجابه وهو جذلان بما فعله بهؤلاء المجرمين قائلاً :

نظروا إليـــك بأعين محمرة　　　نظر التيوس الى شفار الجـــازر

فأنس ابن عباس وقال له : زدني فداك أبي وأمي !؟

خزر العيون منكسي أذقانهم　　　نظر الذليل الى العزيز القاهر

ـ زدني فداك أبي وأمي !؟

ـ ما عندي مزيد ، ولكن عندي :

أحيــاؤهم تخزي على أمواتهم　　　والميتون فضيحة للغابر (١)

وجرت محاورة بين ابن عباس وبين معــاوية ، وهي تكشف عن الخطط الرهيبة التي سلكها معاوية في اخفاء مآثر الامام وفي حجب مناقبه وفضائله ، نسوق نصها لما لها من الأهمية البالغة ، فقد ذكر المؤرخون ان معاوية بعد عام الصلح حج بيت الله الحرام فاجتاز على جماعة من قريش فقاموا اليه سوى ابن عباس ، فبادره معاوية قائلاً :

ـ يا ابن عباس ما منعك من القيام كما قام أصحابك إلا لموجدة علي بقتالي إياكم يوم صفين ؟ يا ابن عباس ، إن ابن عمي عثمان قتل مظلوماً .

ـ فعمر بن الخطاب قد قُتل مظلوماً ، فسلم الأمر الى ولده ، وهذا

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٢٩٩ ، الرياض النضرة ٢ / ١٦٦ .

ابنـــه ـ وأشار الى عبد الله بن عمر ـ .

ـ إن عمر قتله مشرك .

ـ فمن قتل عثمان ؟

ـ قتله المسلمون .

ـ فذلك أدحض لحجتك ، إن كان المسلمون قتلوه ، وخذلوه فليس إلا بحق !!

ـ فانا كتبنـا الى الآفاق ننهى عن ذكر مناقب علي وأهل بيتـه ، فكف لسانك يا ابن عباس .

ـ فتنهانا عن قراءة القرآن ؟

ـ لا .

ـ فتنهانا عن تأويله ؟

ـ نعم .

ـ فنقرأه ، ولا نسأل عما عنى الله به ؟

ـ نعم .

ـ فأيهـا أوجب علينا قراءته أو العمل به ؟

ـ العمل به .

ـ فكيف نعمل به ، حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا ؟

ـ سل عن ذلك من يتأوله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك .

ـ إنما أنزل القرآن على أهـل بيتي ، فاسأل عنه آل أبي سفيان ، وآل أبي معيط ؟ ؟

ـ فاقرؤا القرآن ، ولا ترووا شيئاً مما أنزل الله فيكم ، ومما قال رسول الله ، وارووا ما سوى ذلك .

ـ قال الله تعالى « يريدون أن يطفؤوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

ـ يا ابن عباس أكفني نفسك ، وكفّ عني لسانك ، وإن كنت فاعلاً فليكن سراً ، ولا تسمعه أحداً علانية (١) .

ودلت هذه المحاورة على عمق الأساليب التي اعتمد عليها معاوية في محاربة أهل البيت ، وفي ستر فضائلهم ، وحجب المسلمين عنهم .

٤ ـ الأحنف بن قيس :

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية فلما استقر به المجلس قام وغد أثيم من الشاميين خطيباً فافتتح خطابه بسب أمير المؤمنين وثقل ذلك على الأحنف ، فالتفت الى معاوية وقد اسودّ الفضاء في وجهه مما داخله من الحزن قائلا :

« إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين لعنهم ، فاتق الله يا معاوية ، ودع عنك علياً فلقد لقي ربه ، وأفرد بقبره ، وخلي بعمله كان والله مبروراً في سبقه ـ أي الى الإسلام ـ طاهر الثوب ، ميمون النقيبة ، عظيم المصيبة » .

فالتاع معاوية من هذا التقريع ، وتألم من هذا الثناء العاطر على أمير المؤمنين أمام أهل الشام ، فالتفت الى الأحنف قائلاً :

« يا أحنف . لقد أغضيت العين على القذى وقلت ما ترى ، أما والله لتصعدن المنبر وتلعن علياً كرهاً أو طوعاً » .

فقال له الأحنف : إن تعفني فهو خير لك ، وإن تجبرني على ذلك فو الله لا تجري شفتاي به أبداً .

---

(١) شرح النهج ابن ابي الحديد ٣ / ١٥ ، وسليم بن قيس .

فلم يعتن معاوية بكلامه وقال له بشدة :

« قم فاصعد المنبر » .

— أما والله لأنصفنك في القول والفعل .

— وما أنت قائل إن أنصفتني ؟!

— أصعد المنبر فأحمد الله وأثني عليه ، وأصلي على نبيه محمد (ص) ثم أقول أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمر أن إلعن علياً ، وإن علياً ومعاوية اختلفا واقتتلا فادعا كل واحد منهما أنه بغي عليه وعلى فئته ، فاذا دعوت فأمنوا رحمكم الله ، ثم أقول اللهم إلعن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه ، وإلعن الفئة الباغية ، اللهم ألعنهم لعناً كثيراً ، أمنوا رحمكم الله ، يا معاوية لا ازيد على هذا ولا انقص حرفاً ، ولو كان فيه ذهاب روحي .

فراوغ معاوية وقال : « إذاً نعفيك يا أبا بحر » (١) .

٥ — كثير بن كثير :

ومن جملة المنكرين لسب الإمام الشاعر العبقري كثير بن كثير السهمي (٢)

---

(١) العقد الفريد ٢/١٤٤ ، المستطرف ١/٥٤ ، ثمرات الأوراق ص ٥٩ .

(٢) كثير بن كثير بن المطلب بن ابي وداعة القرشي السهمي ، روى عن ابيه وعن سعيد بن جبير وجماعة ، وروى عنه جماعة آخرون ، قال ابن سعد كان شاعراً قليل الحديث ، وقال احمد وابن معين إنه ثقة ، وذكره ابن حبان في الثقات ، جاء ذلك في تهذيب التهذيب ٨ / ٤٢٦ . وذكره المرزباني في معجم الشعراء ٢ / ٣٤٨ وقال إن السبب في نظمه لهذه الأبيات انه سمع عبد الله بن الزبير يتناول اهل البيت فنظمها ، وقيل إن السبب في نظمها ان هشام بن عبد الملك كتب الى عامله بالمدينة أن يأخذ الناس بسب امير المؤمنين فمن اجل ذلك نظم كثير هذه الأبيات . —

فقد دفعته عقيدته الدينية وشعوره الحي الى شجب ذلك ، واعلان سخطه وقد نظم ذلك بأبيات تمثلت فيها الروعة والرقة :

لعن الله من يسب علياً وحسيناً من سوقة وإمام
أيسب المطهرون جدوداً والكرام الأخوال والأعمام
يأمن الطير والحمام ولا يأمن آل الرسول عند المقام
طبت بيتاً وطاب أهلك أهلاً أهل بيت النبي والإسلام
رحمة الله والسلام عليهم كلما قام قائم بسلام (١)

٦ — أنيس الأنصاري :

ولما أقام معاوية الخطباء يعلنون سب أمير المؤمنين (ع) وانتقاصه اندفع أنيس الأنصاري وهو من أطائب الصحابة ، فأنكر على معاوية ذلك فقد خطب ، وقال بعد حمد الله والثناء عليه :

« إنكم قد أكثرتم اليوم في سب هذا الرجل — يعني علياً — وشتمه وإني أقسم بالله إني سمعت رسول الله (ص) يقول : « إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على الأرض من مدر وشجر » ، وأقسم بالله ما أحد أوصل لرحمه منه ، أفترون شفاعته تصل اليكم وتعجز عن أهل بيته » (٢) .

٧ — زيد بن أرقم :

ورأى الصحابي زيد بن أرقم المغيرة بن شعبة يعلن سب أمير المؤمنين

— وذكر ابن أبي الحديد هذه الأبيات ونسبها الى عبد الله بن كثير السهمي وهو اشتباه إذ لم يوجد في كتب التراجم هذا الاسم ، والموجود كثير بن كثير ، وان هذه الأبيات له .

(١) شرح ابن أبي الحديد ٣ / ٤٧٥ .

(٢) الاصابة ١ / ٨٩ ، أسد الغابة ١ / ١٣٤ .

فانبرى اليه منكراً سبه للإمام قائلاً :

« يا مغيرة ، ألم تعلم أن رسول الله (ص) نهى عن سب الأموات؟ فلِمَ تسب علياً وقد مات ؟ » (١) .

٨ — أبو بكرة :

وخطب بسر بن أبي ارطاة الأثيم المجرم في البصرة فشتم أمير المؤمنين عليه السلام على المنبر ، ثم التفت الى الناس فقال لهم :

« ناشدت الله رجلا علم أني صادق إلا صدقني أو كاذب إلا كذبني ».

فقال أبو بكرة :

« اللهم لا نعلمك إلا كاذباً !! » .

فطاش عقل بسر وأمر بأبي بكرة فخنق ثم أنقذوه منه (٢) .

وعلى أي حال ، فإن هؤلاء الناقين على معاوية كانوا مدفوعين بدافع الحرص على كرامة الإسلام المتمثلة في الإمام أمير المؤمنين ، فقد رأوا أن معاوية قد عمد الى إبادة مآثر الإمام ، فاندفعوا الى الإنكار عليه .

لقد حاول معاوية وأتباعه القضاء على أمير المؤمنين ، وتحطيم شخصيته الرفيعة ، ولكن الله بارادته الأزلية قد حكم ببقاء الحق وخلوده . وبزوال الباطل وانعدامه ، وإنه وإن انتصر على الحق زماناً ، فان انتصاره لابد أن يتلاشى كما يتلاشى الدخان في الفضاء ، فها هو أمير المؤمنين قد استوعب ذكره جميع لغات الأرض ، وعجت المحافل والنوادي بذكره ومدحه ، وبالإفتخار والإعتزاز بشخصيته المقدسة ، وها هو قبره الشريف قد أصبح كعبة للوافدين وملجأ للملهوفين ، وملاذاً للمؤمنين ، تؤمه الملايين من المسلمين

---

(١) الأغاني ٦ / ٢ ، شرح ابن أبي الحديد ١ / ٣٦٠ .

(٢) الطبري ٦ / ٩٦ .

كما تؤم بيت الله الحرام يتبركون بزيارته ، ويتقربون الى الله بالوفادة عليه حقاً هذا هو الظفر والفتح ، والعاقبة للمتقين .

وها هو معاوية لا يذكر إلا مع الإحتقار والإستخفاف وسوء المصير وخز الضمير ، وها هو قبره المحطم في مزبلة من مزابل الشام قد استولى عليه الهوان ، وخيم عليه الذل ، حقاً هذه هي الميتة ، وهذا هو الخزي والعار.

وقد وقف الشاعر الكبير محمد مجذوب السوري على قبر معاوية ، فرأى قذارة ذلك القبر المهان ، ورأى الذباب تعربد فيه ، فاندفع الى نظم قصيدته العصماء وقد جاء فيها :

هذا ضريحك لو بصرت ببؤسه	لأسال مدمعك المصير الأسود
كتل من الترب المهين بخربة	سكر الذباب بها فراح يعربد
خفيت معالمها على زوارها	فكأنها في مجهل لا يقصد
ومشى بها ركب البلى فجدارها	عار يكاد من الضراعة يسجد
والقبة الشماء نكس طرفها	فبكل جزء للفناء بها يد
تهمي السحائب من خلال شقوقها	والريح في جنباتها تتردد
حتى المصلى مظلم فكأنه	مذ كان لم يجتز به متعبد

لقد مشى موكب الزمن ، وإذا بالإمام أمير المؤمنين هو عملاق الإنسانية ورائد العدالة الاجتماعية الكبرى في الأرض ، وإذا بمعاوية قد عاد في عرف المسلمين وغيرهم هو الباغي الأثيم الذي تلاحقه النقمة والاحتقار .

٢ ـ خراج دار ابجرد :

ومن جملة الشروط التي اشترطها الإمام على معاوية أن يعطيه خراج دار ابجرد ليرفه بذلك على الفقراء والمعوزين من شيعته ، ولكن معاوية قد

خاس بذلك ولم يف به كما صرح بذلك أبو الفــداء . وذكر الطبري ان أهـل البصرة حالوا بين الإمام وبين خراج دار أبجرد . ونص ابن الأثير ان منعهم كان بايعاز من معاوية ، والغرض منه لئلا تقوى شوكة الإمام ويعظم أمره .

٣ ـ شيعة أمير المؤمنين :

ومن أهم الشروط التي اشترطها الإمام على خصمه الأمن العام لشيعته وشيعة أبيه وعدم التعرض لهم بسوء أو مكروه ولكن ابن أبي سفيان قـد نقض عهده فلم يف للإمام بذلك ، وجعل أهم أهدافه القضاء على هــذه الطبقة المؤمنــة التي آمنت بحق أهل البيت (ع) ، لقد أسرف معاوية في ارهابها وارهاقهـا ، فأذاق بعضها كأس الحمام ، وأودع البعض الآخر في ظلمات السجون ، وقد وجد الشيعة من العناء والمحن والخطوب ما تنوء بحمله الجبـال ، وما نحسب أن أمة من الأمم لاقت من الأذى والإضطهاد كما لاقته شيعة أهل البيت ، وكان أشدهم بلاءً وأعظمهم محنة وشقاءً أهل الكوفة ، فقد استعمل عليهم معاوية زياداً بعـد هلاك المغيرة ، وكان بهم عالماً ، فأشاع فيهم القتل والاعدام ، فقتلهم تحت كل حجر ومدر ، وقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل عيونهم ، وصلبهم على جذوع النخل ، وشردهم وطردهم (١) ، ورفع معاوية مذكرة الى جميع عماله وولاته جاء فيهــا : « انظروا الى من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه » ، ثم شفع ذلك بنسخة أخرى جاء فيها : « ومن اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به وأهدموا داره » .

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٣ / ١٥ .

وتحدث الامام الباقر (ع) عما جرى على أهل البيت وعلى شيعتهم من الإضطهاد والأذى في زمن معاوية فقال: «وقتلت شيعتنا بكل بلدة وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكان من يذكر بحبنا والإنقطاع الينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره» (١).

انه منذ ولي الأمر ابن هند انفتح باب الظلم والجور على شيعة أمير المؤمنين (ع) فلقد جابهوا من المشكلات السياسية والمعضلات الاجتماعية ولاقوا من الهوان والعذاب والتنكيل الى حد لا سبيل الى تصويره في فضاعته ومرارته، فقد بلغ الحال أن حب أهل البيت (ع) أصبح عاراً ومنقصةأوذنباً وخطيئة يقترفها الشخص، وحكم بعضهم أن مودة أهل البيت كفر والحاد ومروق من الدين، وقد حكى لنا ذلك شاعر الإسلام والعقيدة الكميت بقوله:

يشيرون بالأيدي إلي وقولهم	ألا خاب هذا والمشيرون أخيب
فطائفة قد كفرتني بحبكم	وطائفة قالوا مسيء ومذنب
يعيبونني من خبهم (٢) وضلالهم	على حبكم بل يسخرون وأعجب
وقالوا ترابي هواه ورأيه	بذلك أدعى فيهم وألقب (٣)

ويقول أبو الأسود الدؤلي:

أحب محمداً حباً شديداً	وعباساً وحمزة والوصيا (٤)
هوى أعطيته منذ استدارت	رحى الإسلام لم يعدل سويا (٥)

---

(١) نفس المصدر.

(٢) الخب: الخداع.

(٣) الهاشميات.

(٤) الوصي: هو الإمام أمير المؤمنين.

(٥) أي لا مثيل له.

بنو عم النبي وأقربوه أحب الناس كلهم إليّا
فان يك حبهم رشداً أصبه ولست بمخطيء إن كان غيا (١)

وبرد عبد الله بن كثير السهمي على من عابه على موالاة آل النبي صلى الله عليه وآله بقوله :

إن امرءً أمست معايبه حب النبي لغير ذي ذنب
وبني أبي حسن ووالدهم من طاب في الأرحام والصلب
أيعد ذنباً أن أحبهم !! بل حبهم كفارة الذنب (٢)

وقد سار على منهاج معاوية في ظلم الشيعة واحتقارهم خلفاؤه الأمويون وملوك بني العباس من بعدهم ، ولو أردنا أن نستعرض الى ما لاقوه من المحن والخطوب السود لاحتجنا في بيان ذلك الى مجلد ضخم .

ومهما يكن من شيء فان الشيعة لم يعتنوا بارهاب معاوية وتنكيله وتعذيبه لهم ، فقد قدموا أنفسهم قرابين وضحايا لفكرتهم الدينية المقدسة وها نحن نقدم أسماء بعض الشهداء الذين قتلهم معاوية صبراً لا لذنب اقترفوه ، سوى مودتهم لأهل البيت وهم :

حجر بن عدي :

وحجر بن عدي من أهم الشخصيات الإسلامية الرفيعة فقد كان في طليعة صحابة النبي (ص) في فضله وعلمه وقداسته وزهده وعبادته ، فقد بلغ من عظيم طاعته الى الله انه ما أحدث إلا توضأ وما توضأ إلا صلى ، وكان يصلي في اليوم والليلة الف ركعة ، وكان مستجاب الدعوة فانه لما

---

(١) الكامل للمبرد ص ٥٤٥ .

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٣٦٠ .

أخذ اسيراً الى معاوية اصابته جنابة في أثناء الطريق فقــال للموكّل به : اعطني شرابي اتطهر به ، فأجابه الموكّل به : اخاف ان تموت عطشاً إذا اعطيته لك فيقتلني معاوية ، فشقّ على حجر أن يبقى جنباً ، فدعا الله ان يمكنه من الماء ، فاستجاب الله دعاءه ، فبعث سحابة اسكبت ماءاً غزيراً ، فأخذ منه ما احتاجه (١) ، إن فضائل حجر ومآثره أكثر من أن تحصى وعلينا ان نبحث عن سبب شهادته :

بقي حجر بعد صلح الإمام الحسن (ع) ينسج من خيوط محنتــه بلواه الخالدة في التأريخ ، ويضرب الرقم القياسي لنكران السياسة الأموية العمياء التي تهدد المجتمع الإسلامي بفقدان الحياة والتي تحي العصبيات الجاهلية التي حطمها الإسلام ، وتهدم الكفاءات والمواهب ، وتحتكر الصلاحيات وتنتهب الأقوات ، وتروع المجتمع بعد أمنه وتفرقه بعد اجتماعه ، وتفقره بعد غناه ، وتذله بعد عزه ، وتستعبده بعد حريته ، وتتجــاهر بارتكاب البــاطل والمنكر ، وقــد رأى حجر واصحــابه الصفوة المؤمنون أن السكوت وعدم النقد لهذه السياسة المجرمة ما هو إلا التمادي في البــاطل ، والتعزيز للمنكر والاستهانة بالحق ، وعلى المسلم الذي فهم الإسلام حقاً أن يسير على سنّة الرسول (ص) الداعيــة الى مناجزة الظــالمين والمستبدين وأعداء الشعوب .

ان حجراً هو الذي فهم الإسلام حقاً ، وعرف اهــدافه ، واحاط بقيمه كان تلميذاً في مدرسة النبي (ص) وخريجاً من مدرسة الإمام ، فكيف لا ينكر باطل معاوية ، ولا يقاوم ظلمه وظلم ولاته وعماله ، ولا يحارب بدعهم وأهواءهم .

---

(١) الاصابة ١ / ٣١٣ .

لقـــد رأى حجر المغيرة قد نزى على المنبر بجامع الكوفة وتعرض فى أثناء خطابه الى سب أمير المؤمنين (ع) فلم يسعه السكوت فانبرى اليه منكراً عليه قائلا : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، وأنا أشهد أن من تذمون وتعيرون لأحق بالفضل ، ومن تزكون اولى بالذم . . »

ووثب قوم من أصحاب حجر فقالوا بمثل مقالته فالتفت المغيرة الى حجر قائلاً : « يا حجر لقد رمى بسهمك إذ كنت أنا الوالي عليك يا حجر إتق غضب السلطان إتق غضبه وسطوته ، فإن غضبة السلطان ممـــا تُهلك أمثالك كثيراً .. »

ولم يزل حجر متحمساً على نكران السياسة الأموية ، حتى أشار على المغيرة جمع من المرتزقين والمتزلفين الى السلطة بقتـــل حجر ، فامتنع من اجابتهم وقال :

« لا أحب أن يبتدأ أهل هذا المصر بقتل خيارهم ، وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك ، وأشقى ، ويعز في الدنيا معاوية ، ويذل يوم القيامة المغيرة » .

ولم تزل بطانة المغـــيرة تلح عليه في أمر حجر ، فأجابهم جواب المنافق الخبير :

« إني قد قتلته » .

« كيف ذاك ؟ .. »

« إنه سيأتي أمير بعدي فيحسبه مثلي فيصنع به شبيهاً بما ترونه يصنع بي فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة .. »

وهلك المغيرة ، وولي الكوفة من بعده زياد بن سميـــة فجعل حجر ينكر عليه خططه الملتوية ، ويشدد النقمة على سياسته الإرهابيـــة ، فقد نزى زياد على المنبر يوم الجمعة فأطال في خطابه حتى ضاق وقت الصلاة

فانبرى اليه حجر منكراً عليه تأخير الفريضة قائلاً :

« الصلاة » .

فلم يعتن ابن سمية بمقالة حجر ولم يعر للصلاة أي اهتمام ثم مضى في خطبته ، فانبرى اليه حجر ثانياً رافعاً صوته « الصلاة » ولم يقم زياد وزناً لإنكار حجر ، فاسترسل في خطابه فخشي حجر فوت الصلاة ، فضرب بيده الى كف من الحصا ، وثار الناس معه ، فلما رأى ذلك زياد نزل عن المنبر وصلى بالناس ، وقد انتفخت أوداجه غيظاً وغضباً من حجر ، وعزم على التنكيل به ، وقد اعرب عن عزمه السيء فى خطابه الذي ألقاه فى الجامع قائلاً فيه :

« ما انا بشيء إن لم أمنع ساحة الكوفة من حجر وأدعه نكالاً لمن بعده ، وبل أمك يا حجر « سقط العشاء بك على سرحان » ثم تمثل بقول الشاعر :

إبلغ نصيحة أن راعي ابلها   سقط العشاء به على سرحان

وأرسل زياد الى جماعة من وجوه الكوفة وأشرافها فأمرهم أن يردوا حجراً عن خطته ، فامتنع عليهم حجر ، وأخيراً أمر الشرطة أن يأتوه به فانطلقت الشرطة للقبض عليـــه ، فحدثت بينهم وبين أصحابه مناوشات ، وأخيراً لم تستطع القبض عليه ، فقد التفت حوله جموع من المؤمنين تمنعه وتمنع أصحابه من تسليمهم الى زياد ، وكان قيس بن فهدان الكندي يلهب نار الحماس والثورة فى نفوس الكوفيين فكان يقوم خطيباً في المحافل والنوادي فيمجد حجراً وأصحابه ويدعو المسلمين الى حمايته ونصرته وكان يرتجز ويقول :

يا قوم حجر دافعوا وصاولوا   وعن أخيكم ساعة فقاتلوا

لا يلقين منكم لحجر خاذل   اليس فيـــكم رامح ونابـــل

وفارس مستلئم وراجـــل وضارب بالسيف لا يزايل

وتحصن حجر وأصحـــابه فلم يتمكن عليهم زياد فخاف منهم فجمع الزعماء وأبناء البيوت الذين تستعين بهم السلطة على تحقيق أهدافها فقال لهم :

« يا أهل الكوفة ، أتشجون بيد ، وتأسون بأخرى ، أبدانـكم معي وأهواءكم مع حجر الهجهاجـــة ، الأحمق المذبوب ، انتم معي وإخوانـكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر ؛ هذا والله من دحسكم (١) وغشكم والله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم » (٢) .

فانبروا اليه يظهرون له الطاعة والولاء قائلين : « معـاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما ههنا رأى إلا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين – يعني معاوية – وكل ما ظننا أن فيه رضاك وما يستبين به طاعتنا وخلافنا لحجر فمرنا به » .

فقـال لهم : « فليقم كل امرىء منكم الى هذه الجماعة حول حجر فليدع كل رجل منكم اخاه وابنه وذا قرابته ومن يطيعه من عشيرته حتى تقيموا عنه كل من استطعتم أن تقيموه ... »

وقام هؤلاء الأجلاف بافساد أمر حجر وخذلان الناس عنه وأمر زياد مدير شرطته العام شداد بن الهيثم الهلالي بالقبض على حجر وأصحـــابه ثم عرف أن مدير شرطته لا يتمكن عليه فاستدعا محمد بن الأشعث الكندي (٣)

---

(١) الدحس : الافساد .

(٢) الصعر : الميل الى احد الشقين .

(٣) محمد بن الأشعث بن قيس الكندي الكوفي أمّه فروة أخت أبي بكر قيل ولد على عهد رسول الله (ص) وهذا لا يصح لأن الأشعث تزوج بفروة في خلافة أبي بكر ، ولاّه ابن الزبير الموصل ، وقتله المختار سنة ٦٦ ، وقيل سنة ٧٠ جاء ذلك في تهذيب التهذيب ٩ / ٦٤ .

فقال له :

« يا أبا ميثاء أما والله لتأتيني بحجر ، أو لا أدع لك نخلة إلا قطعتها ولا داراً إلا هدمتها ثم لا تسلم حتى أقطعك إرباً إربا » .

« إمهلني ثلاثاً حتى أطلبه » .

« أمهلتك فان جئت به وإلا عد نفسك من الهلكى » .

وقام ابن الأشعث مع مدير الشرطة فتتبعوا حجراً واصحابه وبعد مصادمات عنيفة جرت بين الفريقين استطاعت جلاوزة زياد القبض على حجر واصحابه فجيء بهم اليه فأمر بايداعهم في السجن .

وطلب زياد من اهل الكوفة ان يشهدوا على حجر واصحابه ، فشهد قوم بأنهم تولوا علياً ، وعابوا عثمان ، ونالوا من معاوية ، فلم يرض زياد بهذه الشهادة وقال : إنها غير قاطعة ، فانبرى ابو بردة بن ابي موسى الأشعري الوغد فكتب شهادة هذا نصها :

« هذا ما شهد عليه ابو بردة بن أبي موسى الأشعري لله رب العالمين اشهد ان حجر بن عدي خلع الطاعة ، وفارق الجماعة ، ولعن الخليفة ، ودعا الى الحرب ، وجمع اليه الجموع يدعوهم الى نكث البيعة وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء » .

فرضي زياد بهذا وطلب الى الناس ان يمضوا هذه الشهادة فأمضاها خلق كثير حتى بلغ الشهود سبعين رجلا فيما قال المؤرخون : ورفع الوثيقة الى معاوية ، فأمره بأن يحمله اليه ويشده موثوقاً بالحديد ، وامر زياد باخراج حجر واصحابه ليلاً الى دمشق ، فاخرجوا ، ووقعت النياحة ، وعلا الصراخ المؤلم في دار حجر ، وصعدت ابنته ولا عقب له غيرها فوق سطح الدار تلقي على القافلة — التي تسير الى الموت — نظرة الوداع وهي تبكي أمر

البكاء والشجاه ، واخذت تناجي القمر وتبثّه احزانها ولوعتها وتصوغ من محنتها وبلواها ومصابها ابياتاً يلمس فيها ذوب قلبها :

ترفع ايهـا القمر المنير	لعلك أن ترى حجراً يسير
يسير الى معـاوية بن حرب	ليقتله كذا زعـم الأمـير
ويصلبه على بابي دمشق	وتأكل من محاسنه الطيور
تجبرت الجبابر بعـد حجر	وطاب لها الخورنق والسدير (١)
الا يا حجر حجر بني عدي	تلقتك السـلامة والسرور
اخاف عليك ما اردى علياً	وشيخاً في دمشق له زئير
الا ياليت حجراً مات موتاً	ولم ينحر كما نحر البعـير
فان تهلك فكل عميـد قوم	الى هلك من الدنيا يصير (٢)

وانتهت القافلة الى مرج عذراء فلما عرف حجر انه بهذه القرية قال : « والله اني لأول مسلم نبحته كلابها ، واول مسلم كبر بواديها » (٣) ، وتقدم البريد بأخبارهم الى معاوية ، فأنس وارتاح بذلك ، فأرسل اليهم رجلاً

(١) الخورنق والسدير : قصران بقعـان بالقرب من الحيرة بناهما النعمان ابن امرىء القيس ، ويقال : ان السبب في بنائهما ان يزدجرد بن سابور كان لا يعيش له ولد فسأل عن مكان صحيح الهواء فذكروا له ظهر الحيرة ، فدفع ابنه بهرام الى النعمان وامره ببناء الخورنق فبناه في عشرين سنة ، وكان الباني له رجل يسمى سنمار جاء ذلك في نهاية الارب ١ / ٣٧٢ .

(٢) مروج الذهب ٣٠٧/٢ ، وقيل ان الأبيات الى هند بنت زيد الأنصارية ترثي بها حجراً ، وكانت تتشيع .

(٣) الكامل ٣ / ١٩٢ ، وذكر ابن حجر في الاصابة ان حجراً هو الذي فتح مرج عذراء واخيراً كانت شهادته بها .

اعور فأمره باعدامهم إن لم يتبرأوا من أمير المؤمنين ويسبوه ، فلما قـدم عليهم رآه بعضهم فقال متنبئاً :

« ان صدق الزجر (١) فانه سيقتل منا النصف وينجو الباقون » .

« وكيف ذاك !!؟ »

« أما ترون الرجل المقبل مصاباً بإحدى عينيه ؟ »

وقدم عليهم الجلاد فالتفت الى حجر قائلا :

« إن أمير المؤمنين أمرني بقتلك يا رأس الضلال ، ومعدن الكفر والطغيان ، والمتولي لأبي تراب ، وقتل أصحابك إلا ان ترجعوا عن كفركم وتلعنوا صاحبكم وتتبرأوا منه » .

فانبرى اليه حجر مع الزمرة الصالحة التي آمنت بايمانه وهم يضربون أمثلة للعقيدة وللفداء في سبيل الله قائلين بلسان واحد :

« إن الصبر على حدّ السيف لأيسر علينا مما تدعونا اليه ثم القدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيه احب الينا من دخول النار » .

ورجع نصف من اصحاب حجر عن عقيدتهم والنصف الآخر بقوا على عقيدتهم وولائهم لأمير المؤمنين (ع) ، وصدق زجر من قال منهم انه يقتل منهم النصف ، ثم حفرت قبورهم وقام الجلادون لتنفيذ حكم الاعدام فيهم فطلب منهم حجر حاجة — قبل تنفيذ اعدامه — غالية عنده رخيصة عند القوم قائلاً :

« اتركوني أتوضأ واصلي ، فأني ما توضأت إلا صليت » .

فسمحوا له بذلك فصلى حجر وأطال في صلاته وبعد الفراغ منها التفت الى القوم قائلاً :

---

(١) الزجر : الحدس .

« والله ما صليت صلاة أخف منها ولو لا أن تظنوا فيّ جزعاً من الموت لاستكثرت منها » .

وأخذ يناجي ربه ويبثه شكواه واحزانه من هذه الأمّة التى اسلمته الى عدوه الماكر قائلاً :

« اللهم إنا نستعديك على امتنا فان اهل الكوفة شهدوا علينا وان اهل الشام يقتلوننا ، أما والله لئن قتلتموني بها فاني لأول فارس من المسلمين هلك في واديها واول رجل من المسلمين نبحته كلابها » .

وانطلق اليه الخبيث الأعور هدبة بن فياض القضـاعي شاهراً سيفه فلما رآه حجر ارتعدت اوصاله ، وخارت قواه فقالوا له :

« زعمت انك لا تجزع من الموت ، فابرأ من صاحبك وندعك !؟ »

فقال لهم حجر :

« وما لي لا اجزع واری قـبراً محفوراً ، وكفنا منشوراً ، وسيفاً مشهوراً ، وإني والله إن جزعت من القتل لا اقول ما يسخط الرب » (١) .

ثم اجري عليه الاعدام فكان آخر ما انطلق من حنجرته :

لا تطلقوا عني حديداً ، ولا تغسلوا عني دماً ، فاني ملاق معـاوية على الجادة » (٢) ، والقي حجر الى الأرض جثة هامدة يتخبط بدمه مع ستة من اصحابه الشهـداء الأبرار ، ففي ذمة الله يا حجر أنت وأصحابك ، فقد مضيتم الى عالم الخلود وانتم شهداء العقيدة ، وشهداء الانسانية الكاملة فأنتم من اروع امثلة البطولة الفذة التي ثارت على الظلم والطغيان ، وقاومت جور الحاكمين واستبداد الطغاة الظالمين .

---

(١) الكامل ٣ / ١٩٢ .

(٢) الاستيعاب ١ / ٢٥٦ .

ضحايا العقيدة من اصحاب حجر :

ولم يذق حجر الحمام ويقتل صبراً وحده فقد قتل معه ومن بعده جماعة من اصحابه المثاليين الذين ضحّوا بحياتهم الغالية تجاه عقيدتهم الدينية، ومبدأهم المقدس غير مبالين بالموت، وبهؤلاء وامثالهم من ابطال الخلود، وعظماء العالم ترتكز العقائد، ويستقيم الحق، ويعم العدل ويزول الظلم، وها نحن نذكر اسماءهم مع ما جرى عليهم من العسف والتنكيل من قبل معاوية وولاته :

أ ـ عبد الرحمن :

وكان عبد الرحمن بن حسان العنزي في طليعة اصحاب حجر، وأخذ معه مكبلا بالحديد الى مرج عذراء، فطلب من الجلاوزة مواجهة معاوية لعله ان يعفو عنه فاستجابوا لقوله، فجيء به اليه، فلما مُثل عنده قال له معاوية :

« إيه أخا ربيعة، ما تقول في علي ؟ »

ـ دعني ولا تسألني، فهو خير لك !!

ـ والله لا ادعك.

ـ أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيراً، والآمرين بالحق، والقائمين بالقسط، والعافين عن الناس.

ولم يجد معاوية بعد هذا وسيلة يستبيح بها اراقة دمه، فعرج الى دم عثمان الذي بلي به المسلمون حياً وميتاً فقال له :

ـ ما قولك في عثمان ؟.

ـ هو أول من فتح باب الظلم، وارتج أبواب الحق.

– قتلت نفسك !!

– بل إياك قتلت ولا ربيعة بالوادي .

لقد ظن أن أسرته تتشفع به وتفك أسره ، وتدفع عنه ظلامته ، فلم يجبه أحـد ، وأشاح معاوية بوجهه عنه ثم رفع رسالة الى عامله زياد جاء فيها :

« أما بعد : فان هذا العنزي شر من بعثت فعاقبه عقوبته التي هو أهلها واقتله أشر قتلة » .

ولما وردت رسالته الى زياد بعث به الى قس الناطف (١) وأمر بدفنه حياً فيه فدفن وهو حي (٢) .

ب – صيفي بن فسيل :

وصيفي بن فسيل الشيباني من أبطال المسلمين وعباقرتهم وأفذاذهم ومن خيرة أصحاب حجر سعى به الى زياد فبعث الدعي خلفه ، فلما حضر عنده بادره بالسؤال عن أمير المؤمنين (ع) ليتخذ من ذلك وسيلة يستحل بهـا دمه فقال له بنبرات تقطر غيظاً وغضباً .

– يا عدو الله !! ما تقول في أبي تراب ؟

– ما أعرف أبا تراب .

– ما أعرفك به !!

– ما أعرفه ،

– أما تعرف علي بن أبي طالب ؟

– بلى .

---

(١) موضع قريب من الكوفة .

(٢) الطبري ٦ / ١٥٥ .

ـ فذاك أبو تراب .

ـ كلا ، ذاك أبو الحسن والحسين (ع) .

والتفت مدير شرطة زياد الى صيفي منكراً عليه مقاله ليتقرب الى ابن سمية قائلاً :

« يقول لك الأمير : هو ابو تراب ، وتقول أنت : لا ؟!! »

فنهره صيفي ورد عليه وهو غير معتن به ولا بأميره قائلا :

« وإن كذب الأمير أتريد أن اكذب وأشهد له على باطل كما شهد ! »

فثار ابن سمية وانتفخت اوداجه غضباً ، فقال له :

« وهذا أيضاً مع ذنبك » .

والتفت الى شرطته وهو مغيظ فقال لهم : « علي بالعصا » فأتي بها فالتفت الى صيفي :

« ما قولك ؟ » .

فقال له بكل شجاعة وايمان :

« أحسن قول أنا قائله في عبد من عباد الله المؤمنين . »

وأمر زياد جلاوزته بضرب عاتقه حتى يلصق بالأرض ، فبادروا اليه وضربوه ضرباً عنيفاً حتى وصل عاتقه الى الأرض ، ثم أمرهم بالكف عنه والتفت اليه :

« إيه ما قولك في علي ؟ »

وأصر بطل العقيدة على ايمانه فقال :

ـ والله لو شرحتني بالمواسي والمدى ما قلت إلا ما سمعت مني .

ـ لتلعننه أو لأضربن عنقك !

ـ إذاً تضربها والله قبل ذلك فان أبيت إلا أن تضربها . رضيت

بالله وشقيت أنت !

« ادفعوا في رقبته » .

ثم أمر به ثانياً أن يوقر في الحديد ويلقى في ظلمات السجون (١) وأخيراً بعثه مع حجر فاستشهد معه في مرج عذراء .

ج — قبيصة بن ربيعة :

ومن جملة أصحاب حجر الذين أرهقهم زياد قبيصة بن ربيعة العبسي فقد بعث اليه مدير شرطته شداد بن الهيثم فهجم عليه خفية فلما أحس به قبيصة أخذ سيفه ووقف للدفاع عن نفسه ولحق به فريق من قومه فقال مدير الشرطة الى قبيصة مخادعاً :

« أنت آمن على دمك ومالك ، فلم تقتل نفسك ؟ »

ولما سمع بذلك اصحابه انخدعوا فلم يحاموا عنه ولم ينقذوه لأن خوفهم من سلطة زياد كان اشد وقعاً في نفوسهم من خطر الموت ، فاندفعوا قائلين :

« قد امنت فعلام تقتل نفسك وتقتلنا معك ؟ »

ولم يذعن لمقالة اصحابه وذلك لعلمه بغدر الأمويين وعدم وفائهم بالعهد والوعد فقال لهم :

« ويحكم إن هذا الدعي ابن العاهرة ، والله لئن وقعت في يده لا افلت ابداً أو يقتلني » .

— كلا .

ولما لم يجد بداً من ذلك وضع يده في ايديهم وأخذ اسيراً الى زياد فلما مُثل عنده قال له :

« أما والله لأجعلن لك شاغلا عن تلقيح الفتن والتوثب على الامراء »

---

(١) الطبري ٤ / ١٩٨ ، الكامل ٣ / ١٣٩ .

ــ إني لم آتك إلا على الأمان .

ــ انطلقوا به الى السجن (١) .

لقد نقض زياد الأمان وخاس بالميثاق ، ثم أمر به أن يحمل مع حجر وأصحابه الى مرج عذراء ، فحمل معهم ، فلما انتهت قافلتهم الى جبانة (عرزم) وكانت فيها داره ، نظر اليها وإذا بناته قد أشرفن من أعلا الدار ينظرن اليه ، وهن يخمشن الوجوه ، ويخلطن الدموع بالدعاء ، قد أخذتهن المائقة ، ومزق الأسى قلوبهن ، فلما نظر الى ذلك المنظر الرهيب طلب من الشرطة الموكلة بخفارته أن يسمحوا له بالدنو من بناته ليوصيهن بما أراد ، فسمحوا له بذلك ، فلما دنا منهن علا صراخهن فأمرهن بالسكوت والخلود الى الصبر ، وأوصاهن بوصيته التي مثلت الإيمان والرضا بقضاء الله قائلاً :

« اتقين الله عز وجل ، واصبرن ، فاني أرجو من ربي في وجهي هذا إحدى الحسنيين إما الشهادة وهي السعادة ، وإما الإنصراف اليكن في عافية ، وإن الذي كان يرزقكن ويكفيني مؤنتكن هو الله تعالى ، وهو حي لا يموت ، أرجو أن لا يضيعكن ، وأن يحفظني فيكن » .

ثم ودعهن وانصرف ، ولما رأى من معه شجو بناته وما داخلهن من الفزع والمصاب رقوا لهن ، ثم رفعوا أيديهم بالدعاء والإبتهال الى الله تعالى طالبين منه العافية والسلامة الى قبيصة فانبرى اليهم قائلاً :

« إنه لمما يعدل عندي خطر ما أنا فيه هلاك قومي حيث لا ينصرونني » (٢) .

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ١٤٩ .

(٢) نفس المصدر .

أراد بذلك عدم نصرة قومه وخذلانهم له ، وان ذلك أشد وقعاً على نفسه من هلاكه ، وسار قبيصة مع حجر الى مرج عذراء فاستشهد معه ، وأما بقية اصحاب حجر الذين استشهدوا معه فلم نعثر على معلومات وافية عنهم ، ونشير الى أسمائهم وهم :

شريك بن شداد الحضرمي .

كدام بن حيان العنزي .

محرز بن شهاب التميمي .

وهؤلاء الحماة الذين قدموا نفوسهم ضحايا للعقيدة ، وقرابين للحق كانوا من خيار المسلمين ومن صلحائهم ، قد ساقتهم السلطة الأموية الى ساحة الإعدام ، فاستباحت دماءهم ، لا لذنب اقترفوه ، سوى مودتهم للعترة الطاهرة التي هي عديلة القرآن الكريم في لزوم مراعاتها ومودتها .

صدى الفاجعة :

وذُعر المسلمون لهذا الحادث الخطير ، وعم السخط جميع ارجاء البلاد لأن حجراً من أعلام الإسلام ، ومن خيار صحابة النبي (ص) ، وقد انتهكت في قتله حرمة الإسلام ، لأنه لم يحدث فساداً في الأرض ، وإنما رأى منكراً فناهضه ، وجوراً فناجزه ، رأى زياداً يؤخر الصلاة فطالبه باقامتها ورآه يسب امير المؤمنين فطالبه بالكف عنه ، فقُتل من اجل ذلك ، وقد اندفعت الشخصيات الرفيعة في العالم الإسلامي الى اعلان سخطها على معاوية والى الإنكار عليه ، ومن الخير ان نذكر بعضهم ونستمع الى نقدهم وهم :

أ ــ الإمام الحسين (ع) .

ورفع الإمام الحسين (ع) من يثرب رسالة الى معاوية أنكر فيها

اشد الإنكار على ما ارتكبه من قتل حجر واصحابه الأبرار وهذا نصها :

« الست القاتل حجراً اخا كندة ، والمصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم ، ويستعظمون البدع ، ولا يخافون في الله لومة لائم ؟ قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما كنت اعطيتهم الإيمان المغلظة ، والمواثيق المؤكدة أن لا تأخذهم بحدث ، كان بينك وبينهم ولا بإحنة تجدها في نفسك عليهم » (١) .

لقد انكر الإمام (ع) برسالته على معاوية استباحته لدم حجر واصحابه المثاليين الذين انكروا الظلم وناهضوا الجور، واستعظموا البدع وقد قتلهم ظلماً وعدواناً ، بعد ما أكد على نفسه واعطاهم المواثيق المؤكدة ان لا يأخذهم بحدث ولا بإحنة فيما مضى ، ولكن ابن هند قد خاس بذلك ولم يف به .

ب ـ عائشة :

ومن جملة المنكرين على معاوية عائشة ، فقد دخل عليها في بيتها بعد منصرفه من الحج فقالت له :

« أ أمنت ان اخبأ لك من يقتلك ؟ »

فقال لها مخادعاً :

« بيت الأمن دخلت » .

ـ اما خشيت الله في قتل حجر واصحابه ؟ (٢) .

وكانت دوماً تتحدث عن مصاب حجر فقد حدثت عما سمعته من رسول الله (ص) في فضله قالت : سمعت رسول الله (ص) يقول :

---

(١) البحار ١٠ / ١٤٩ .

(٢) الطبري ٦ / ١٥٦ .

سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء »(١) وقالت منددة بأهل الكوفة : « أما والله لو علم معاوية أن عند أهل الكوفة منعة ما اجترأ على أن يأخذ حجراً وأصحابه من بينهم حتى يقتلهم بالشام ، ولكن ابن آكلة الأكباد علم أنه قد ذهب الناس ، أما والله إن كانوا لجمجمة العرب عزاً ومنعة وفقهاً ولله در لبيد حيث يقول :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم   وبقيت في خلف كجلد الأجرب
لا ينفعون ولا يرجى خيرهم   ويعاب قائلهم وان لم يشغب (٢)

ج – الربيع بن زياد :

ومن الناقمين على معاوية الربيع بن زياد البصري (٣) عامله على خراسان فانه لما سمع بالنبأ المؤلم طاش لبّه وذهبت نفسه حسرات فقال والحزن باد عليه :

« لا تزال العرب تُقتل صبراً بعده – أي بعد مقتل حجر – ولو نفرت عند قتله لم يقتل واحد منهم صبراً . ولكنها أقرت فذلت !! »

إن أهل الكوفة لو منعوا السلطة الأموية من قتل حجر وأصحابه لما

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ٥٥ ، الاصابة ١ / ٣١٤ .

(٢) الاستيعاب ١ / ٣٥٧ .

(٤) الربيع بن زياد بن أنس الحارثي البصري كان عاملا لمعاوية على خراسان وكان كاتبه الحسن البصري ، روي عن أُبي بن كعب ، وعن جماعة وروى عنه قوم ، توفي سنة ٥١ ، جاء ذلك في تهذيب التهذيب ٣ / ٤٣ ، وجاء في الاصابة ١ / ٤٩١ ، ان الربيع وفد على عمر بن الخطاب فقال له : يا أمير المؤمنين والله ما وليت هذه الأمّة إلا ببلية ابتليت بها ، ولو أن شاة ضلت بشاطيء الفرات لسئلت عنها يوم القيامة ، فبكى عمر حينما سمع منه هذا الكلام .

تمكن الأمويون من قتل أحرارهم وأخيارهم ، ولكنهم رضوا بالخمول والذل وكرهوا الموت في سبيل الله ، فهان أمرهم وذلوا ، وعمل فيهم الأمويون ما أرادوا من اخضاعهم للذل والهوان .

وبقي الربيع ذاهل النفس ، خائر القوى ، قد مزق الأسى قلبه ، فلما صار يوم الجمعة صلى بالناس صلاة الجمعة ، وبعد الفراغ منها خطب الناس فقال في خطابه :

« أيها الناس ، إني قد مللت الحياة وإني داع فأمنوا » ثم رفع يديه بالدعاء فقال :

« اللهم ، إن كان للربيع عندك خير فاقبضه اليك وعجل » .

فاستجاب الله دعاءه فما فارق المجلس حتى وافاه الأجل المحتوم (١) .

د ــ الحسن البصري :

وعدّ الحسن البصري قتل حجر إحدى الموبقات الأربعة التي ارتكبها معاوية ، فقال فيما يخص حجراً :

« ويل له من حجر وأصحاب حجر » مرتين » (٢) .

هـ ــ عبد الله بن عمر :

لقد ذعر ابن عمر حينما علم بمقتل حجر ، فقد أخبر بقتله وهو بالسوق وكان محتبي فأطلق حبوته وولى وهو يبكي أشد البكاء وأمرّه (٣) .

و ــ معاوية بن خديج :

---

(١) الكامل ٣ / ١٩٥ .

(٢) ذكرنا حديثه بكامله مع ترجمته في فصول هذا الكتاب .

(٣) الاصابة ١ / ٣١٤ .

وانتهى الخبر المؤلم الى معاوية بن خديج (١) وكان في افريقية مع الجيش ، فقال لقومه الذين كانوا معه من كندة :

« ألا ترون أنا نقاتل لقريش ونقتل أنفسنا لنثبت ملكها ، وأنهم يثبون على بني عمنا فيقتلونهم » .

لقد كان قتل حجر من الأحداث الكبار وكان صدعاً في الاسلام وبلاءً على عموم العرب ، وكان معاوية نفسه لا يشك فى ذلك فكان ينظر اليه شبحاً مخيفاً ويردد ذكره في خلواته ، وقد ذكره كثيراً في مرضه الذي هلك فيه فكان يقول : « ويلي منك يا حجر » وكان يقول : « يوم لي من ابن الأدبر – يعني حجراً – طويل » قال ذلك ثلاث مرات (٢) .

نعم ، أن يومه لطويل من حجر وأمثاله من المؤمنين والصالحين الذين سفك دماءهم لا لذنب اقترفوه ، سوى حبهم لأهل البيت ، وهنا ينتهي بنا الحديث عن محنة حجر وأصحابه لنلتقي بزملاء له آخرين .

رشيد الهجري :

ورشيد الهجري يُعد في طليعة رجال الإسلام ورعاً وتقى وعلماً وفضلاً ، فقد تتلمذ فى مدرسة أمير المؤمنين ونال الكثير من علومه ومعارفه فكان (ع) يسميه (رشيد البلايا) وحدثت ابنته قنو قالت : سمعت أبي يقول :

---

(١) معاوية بن خديج بن جفنة السكوني ، وقيل الكندي : هو الذي قتل العبد الصالح الطيب محمد بن أبي بكر بأمر ابن العاص ، وقد غزا افريقية ثلاث مرات ، جاء ذلك في الاستيعاب ٣ / ٣٨٩ .

(٢) الطبري ٦ / ١٥٦ .

« قال لي أمير المؤمنين ، يا رشيد كيف صبرك إذا أرسل اليك دعي بني أمية فقطع يديك ورجليك ولسانك ؟ »

ـ يا أمير المؤمنين آخر ذلك الى الجنة ؟

ـ يا رشيد أنت معي في الدنيا والآخرة .

وخرج رشيد مع أمير المؤمنين الى بستان فاستظلا تحت نخلة ، فقام صاحب البستان الى نخلة ، فأخذ منها رطباً وقدمه الى أمير المؤمنين فأكل عليه السلام منه ، فالتفت رشيد الى الإمام قائلاً له :

« ما أطيب هذا الرطب !؟ »

ـ أما انك ستصلب على جذعها !!

فكان رشيد بعد حديث الإمام يتعاهد تلك النخلة التي أكل من رطبها فيسقيها ويتعبد تحتها واجتاز عليها يوماً فرأى سعفها قد قطع فشعر بدنو أجله ، واجتاز عليها مرة أخرى فرأى نصفها قد جعل زرنوقاً يستسقى عليه فتيقن بدنو الأجل المحتوم منه (١) ، وفي فترات تلك المدة الرهيبة بعث خلفه ابن سمية ، فلما حضر عنده قال له :

« ما قال لك خليلك إنا فاعلون بك ؟ »

ـ تقطعون يديّ ورجليّ وتصلبونني .

ـ أما والله لأكذّبن حديثه ، خلّوا سبيله .

فخلت الجلاوزة سراحه ، فلما خرج قال زياد لجلاوزته : ردّوه ، فردوه اليه ، فالتفت له قائلاً :

« لا نجد لك شيئاً أصلح مما قال صاحبك ، إنك لا تزال تبغي لنا سوءاً إن بقيت ، اقطعوا يديه ورجليه » ، فامتثلت الجلاوزة أمره ، فقطعوا

---

(١) التعليقات على منهج المقال ص ١٤٠ .

يديه ورجليه وهو يتكلم ، فغاظ كلامه زياداً ، فقال لجلاوزته : اصلبوه خنقاً ، فقال رشيد لهم : « قد بقي لي عندكم شيء ما أراكم فعلتموه ـ أراد بذلك قطع لسانه ـ » فأمر ابن سمية بقطع لسانه ولما أرادوا قطع لسانه قال لهم : « نفسوا عني حتى أتكلم كلمة واحدة » ، فأعطوه ذلك ، فقال : « هذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين (ع) أخبرني بقطع لساني » ، ثم قطع الجلاوزة لسانه (١) .

أي ذنب اقترفه هذا العابد العظيم حتى يستحق هذا التنكيل ويمثل به بذلك التمثيل الفظيع ، ولكن ابن سمية ومعاوية قد راما بذلك تصفية الحساب مع شيعة أهل البيت والقضاء على روح التشيع .

عمرو بن الحمق الخزاعي :

وكان عمرو بن الحمق يحمل شعوراً دينياً قوياً حياً ، وكان من خيرة الصحابة في ورعه وتقواه ، وهو الذي سقى النبي لبناً فدعا له (ص) بأن يمتعه الله بشبابه ، فاستجاب الله دعاء نبيه فأخذ عمرو بعنق الثمانين عاماً ولم تُر في كريمته شعرة بيضاء (٢) .

وكان من صفوة أصحاب أمير المؤمنين (ع) ومن خلص أصحابه ، وقد دعا عليه السلام له فقال : « اللهم نوّر قلبه بالتقى ، واهده الى صراطك المستقيم » (٣) ، وكان (ع) يكبره ويجله ويقدمه على غيره ، فقد قال

(١) سفينة البحار ١ / ٥٢٢ ، وقال الحافظ الذهبي في التذكرة قتل زياد رشيداً الهجري لتشيعه ، فقطع لسانه وصلبه .

(٢) الاصابة ٢ / ٥٢٦ .

(٣) سفينة البحار ٢ / ٣٦٠ .

له : « ليت في جندي مثلك مائة » . وقال لأمير المؤمنين معرباً له عن ولائه واخلاصه :

« يا أمير المؤمنين ، والله ما أحببتك للدنيا ولا للمنزلة تكون لي بها ، وإنما أحببتك لخمس خصال ، إنك أول المؤمنين إيماناً ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأعظم المهاجرين والأنصار ، وزوج سيدة النساء عليها السلام ، وأبو ذريته الباقية من رسول الله (ص) ، فلو قطعت الجبال الرواسي ، وعبرت البحار الطوامي في توهين عدوك وتلقيح حجتك لرأيت ذلك قليلاً من كثير ما يجب علي من حقك » (١) .

وقد دلّ حديثه على عقيدته وإيمانه وعظيم ولائه لأمير المؤمنين (ع) ولاءً يلتمس منه وجه الله ويبغي فيه الدار الآخرة .

ولما ولي زياد الكوفة وتتبع زعماء الشيعة ووجوههم خاف الخزاعي من سلطته الغاشمة ففرّ الى المدائن ومعه رفاعة بن شداد فمكثا فيها برهة من الزمن ثم هربا الى الموصل وقبل أن يصلا اليها مكثا في جبل هناك ليستجما فيه ، وبلغ بلتعة بن أبي عبد الله عامل معاوية أن رجلين قد كمنا في جبل من جبال الموصل فاستنكر شأنهما فسار اليهما مع فريق من أصحابه ، فلما انتهوا الى الجبل خرج اليهما عمرو ورفاعة ، فأما عمرو فقد كان مريضاً لأنه قد سقي سماً وليس عنده قوى يستطيع بها على خلاص نفسه فوقف ولم يهرب ، وأما رفاعة فقد كان في شرخ الشباب فاعتلى فرسه ثم التفت الى عمرو فقال له : « أقاتل عنك ؟ » .

فنهاه عن ذلك وقال له :

« وما ينفعني أن تقاتل انج بنفسك إن استطعت . »

---

(١) التعليقات ص ٢٤٦ .

ومضى رفاعة فهجم على القوم فأفرجوا له ، ثم خرجوا في طلبه فلم يتمكنوا عليه لأنه كان رامياً ، وأخذ عمرو أسيراً وطلبوا منه أن يعرفهم شخصيته فامتنع وقال لهم :

« أنا من إن تركتموه كان أسلم لكم ، وإن قتلموه كان أضر لكم » .

وأصروا عليه أن يعرفهم نفسه ، فأبى ، فارتابوا من أمره ، فأرسلوه مخفوراً الى عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي حاكم الموصل ، فلما رآه عرفه ورفع بالوقت رسالة الى معاوية عرفه بالأمر ، فأجابه :

« إنه زعم أنه طعن عثمان بن عفان تسع طعنات بمشاقص (١) كانت معه ، وإنا لا نريد أن نعتدي عليه ، فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان » .

فأخرجه عبد الرحمن وأمر بطعنه تسع طعنات فمات في الاولى أو الثانية منها (٢) ثم احتز رأسه وبعثه الى معاوية فأمر أن يطاف به في الشام وغيره فكان أول رأس طيف به في الإسلام (٣) ثم أمر به أن يبعث الى زوجته آمنة بنت الشريد وكانت في سجنه فجيء به فوضع فى حجرها وهي غافلة لا تعلم من أمره شيئاً ، فلما بصرت به إضطربت حتى كادت أن تموت ثم قالت ودموعها تتبلور على وجهها :

« وا حزناه لصغره في دار هوان ، وضيق من ضيمه سلطان ، نفيتموه عني طويلاً ، وأهديتموه إليّ قتيلاً ، فأهلاً وسهلاً بمن كنت له غير قالية ، وأنا له اليوم غير ناسية » .

---

(١) المشاقص : جمع مفرده - مشقص - النصل العريض ، أو سهم فيه نصل عريض .

(٢) تاريخ الطبري .

(٣) الاستيعاب ٢ / ٥١٧ .

ثم التفتت الى الحرسي فقالت له :

« إرجع به أيها الرسول الى معاوية فقل له : ولا تطوه دونه ، أيتم الله ولدك ، وأوحش منك أهلك ، ولا غفر لك ذنبك » .

ورجع الرسول الى معـــاوية فأخبره بمقالتها فغضب وغاظه كلامها فأمر باحضارها في مجلسه ، فجيء بها اليه فقال لها :

« أنت يا عدوة الله صاحبة الكلام الذي بلغني ؟ »

فانبرت اليه غير مكترثة ولا هيّابة لسلطانه قائلة :

« نعم ، غير نازعة عنه ، ولا معتذرة منه ، ولا منكرة له ، فلعمري لقد اجتهدت فى الدعاء ان نفع الاجتهاد وإن الحق لمن وراء العباد ، وما بلغت شيئاً من جزائك وإن الله بالنقمة من ورائك !! »

فالتفت إياس بن حسل الى معاوية متقرباً اليه :

« أقتل هذه يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ماكان زوجها أحق بالقتل منها » .

فقالت له : « تباً لك ، ويلك بين لحييك كجثمان الضفدع ، ثم أنت تدعوه الى قتلي كما قتل زوجي بالأمس !!! إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين » .

فضحك معاوية وقال متبهراً :

« لله درك اخرجي !! ثم لا أسمع بك في شيء من الشام » .

فقالت له : « وأبي لأخرجن ثم لا تسمع لي في شيء من الشام فما الشام لي بحبيب ولا اعرج فيها على حميم ، وما هي لي بوطن ، ولا أحن فيها الى سكن ، ولقد عظم فيها ديني ، وما قرت فيها عيني ، وما أنا فيها اليك بعائدة ، ولا حيث كنت بحامدة » .

وثقل كلامها على معاوية فأشار اليها ببنـــانه بالخروج ، فخرجت

وهي تقول :

وا عجبي لمعاوية يكف عنى لسانه ويشير الى الخروج ببنانه ، أما والله ليعارضنه عمرو بكلام مؤيد شديد أوجع من نوافد الحسديد ، أو ما أنا بابنة الشريد » .

ثم خرجت من مجلسه (١) لقد كان قتل عمرو من الأحداث الجسام في الإسلام لأنه من صحابة النبي (ص) وقد عمد معاوية الى اراقــة دمه فخـالف بذلك ما أمر الله به من حرمة سفك دماء المسلمين إلا بالحق ، ولم يشف قتله غليل معاوية فقد أمربأن يطاف برأسه في بلاد المسلمين وبعث به الى زوجته فروعها وكادت أن تموت من ألم المصاب ، وقد رفع الإمام الحسين (ع) من يثرب رسالة الى معاوية انكر فيها ارتكابه لهذا الحادث الخطير وهذا نصها :

« أو لست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله (ص) العبد الصالح الذي أبلته العبادة فنحل جسمه ، واصفر لونه بعد ما أمنته وأعطيتـــه من عهود الله ومواثيقه ما لو اعطيته طائراً لنزل اليك من رأس الجبل ثم قتلته جرأة على ربك ، واستخفافاً بذلك العهد » (٢) .

لقد اشاد الإمام بفضل عمرو فذكر أنه صاحب رسول الله (ص) وانه قد أبلت العبادة جسمه ، كما ذكر ان معاوية قد ابرم عهداً خاصاً في شأنه يتضمن أمنه وعدم البغي عليه ولكنه قد خاس بعهده ولم يف به .

---

(١) أعلام النساء ١ / ٤ .

(٢) التعليقات ص ٢٤٦ .

أوفى بن حصن :

وكان أوفى بن حصن من المنددين بالسياسة الأموية ، ومن الناقدين لسلطتهم ، وكان يذيع مساوئهم بين أوساط الكوفيين فبلغ ذلك زياداً فبعث في طلبه فاختفى أوفى واستعرض زياد الناس فاجتاز عليه أوفى فشك في أمره فقال لمن معه :

« من هذا ؟ »

— أوفى بن حصن .

— عليّ به .

فجيء به اليه فقال متبهراً : « أتتك بخائن رجــلاه تسعى » . ثم التفت اليه قائلاً :

— ما رأيك في عثمان ؟

— ختن رسول الله (ص) على ابنتيه .

— ما تقول في معاوية ؟

— جواد حليم .

— ما تقول فيّ ؟

— بلغني أنك قلت بالبصرة : « والله لآخذن البريء بالسقيم والمقبل بالمدبر »

— قد قلت ذلك .

— خبطتها خبط عشواء !!

— ليس النفاخ بشر الزمرة .

ثم أمر بقتله (١) ، إن نكران أوفى لسياسة زياد في ذلك الظرف

(١) الكامل ٣ / ١٨٣ .

العصيب من اعظم الأعمال التي قام بها ، ومن أفضل الجهاد الذي عنـاه رسول الله (ص) بقوله : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ، وأفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجـل تكلم عند سلطان جائر ، فأمر به فقتل » (١) .

جويرية بن مسهر العبدي :

وكان جويرية من خلّص أصحاب الإمام أمير المؤمنين ومن حملة حديثه ومن المقربين عنده فقد نظر اليه يوماً فناداه : يا جويرية إلحق بي فأني إذا رأيتك هويتك ، ثم حـدثه ببعض أسرار الإمامة وقـال له : « يا جويرية أحب حبيبنا ما أحبنا فاذا أبغضنا فابغضه ، وابغض بغيضنا ما ابغضنا فاذا أحبنا فأحبه » (٢) ، ودخل على أمير المؤمنين يوماً وكان مضطجعاً فقال له جويرية :

« أيها النائم استيقظ فلتضربن على رأسك ضربة تخضب منها لحيتك ».

فتبسم أمير المؤمنين (ع) وانبرى اليه فأخبره بما يجري عليه من بعده من ولاة الجور قائلاً :

« وأحدثك يا جويرية بأمرك ، أما والذي نفسي بيده لتعتلن (٣) الى العتل الزنيم ، فليقطعن يدك ورجلك وليصلبنك تحت جذع كافر » (٤) .

وما دارت الأيام حتى استدعا ابن سمية جويرية فأمر بقطع يده ورجله

---

(١) النصائح ص ٦٠ .

(٢) ابن أبي الحديد وقريب منه جاء في التعليقات ص ٣٦٦ .

(٣) لتعتلن : أي لتجذبن .

(٤) الكافر : القصير .

ثم صلبه على جذع قصير (١) ، وقد ألف هشام بن محمد السائب كتاباً في فاجعة جويرية ورشيد وميثم التمار (٢) .

عبد الله بن يحيى الحضرمي :

وكان عبد الله الحضرمي من أولياء أمير المؤمنين ومن صفوة أصحابه وكان من شرطة الخميس (٣) وقد قال (ع) له يوم الجمل :

« إبشر يا عبد الله فانك وأباك من شرطة الخميس حقاً لقد أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله باسمك واسم أبيك في شرطة الخميس (٤) .

ولما قتل أمير المؤمنين (ع) حزن عليه عبد الله حزناً مرهقاً فترك الكوفة وبنى له صومعة يتعبد فيها هو وأصحابه المؤمنون ، ولما علم ابن هند بجزعهم وحزنهم على موت أمير المؤمنين (ع) أمر باحضارهم عنده ، فلما جيء بهم أمر بقتلهم صبراً فقتلوا (٥) في ذمة الله هؤلاء الصلحاء الأخيار الذين سفكت دماؤهم ، وتقطعت أوصالهم ، ولم يرتكبوا ذنباً أو يحدثوا في الإسلام حدثاً سوى ولائهم لأمير المؤمنين (ع) امتثالاً لرسول الله صلى الله

---

(١) شرح ابن أبي الحديد .

(٢) التعليقات ص ٣٦٦ .

(٣) الخميس : اسم من أسماء الجيش سمي به لأنه قد قسم الى خمسة أقسام المقدمة والميمنة والميسرة والقلب والساقة ، وقيل : إنما سمي به لأن الغنائم تخمس فيه جاء ذلك في نهاية ابن الأثير ، وذكرت بعض المصادر أن شرطة الخميس كانوا معروفين بالثقة والعدالة حتى كانت شهادة أحدهم تعدل شهادة رجلين .

(٤) التعليقات ص ٢١٤ .

(٥) البحار ١٠ / ١٠٢ .

عليه وآله الذي فرض ودّه على جميع المسلمين .

ولم يقتصر معاوية في عدائه للشيعة على قتل زعمائهم ، فقد قام بأمور بالغة الخطورة وهي :

هدم دور الشيعة :

وبذل معاوية جميع جهوده في سبيل القضاء على شيعة أمير المؤمنين فأمر عماله أن يهدموا دورهم ، فقامت جلاوزته بهدمها (١) وقد تركهم بلا مأوى يأوون اليه كل ذلك لأجل القضاء على التشيع ومحو ذكر أهل البيت عليهم السلام .

عدم قبول شهادة الشيعة :

وعمل معاوية جميع ما يمكنه في اذلال الشيعة وقهرهم ، فقدكتب الى جميع عماله أن لا يجيزوا لأحد من شيعة أمير المؤمنين وأهل بيته شهادة (٢) فامتثل العمال أمره ، فلم تقبل شهادة الشيعة وهم من ثقات المسلمين وعدولهم وأخيارهم .

اشاعة الارهاب والاعتقال :

وأذاع معاوية الرعب والإرهاب في نفوس الشيعة فخلّد بعضهم في السجون حتى ماتوا ، وروّع جمعاً آخرين حتى تركوا أوطانهم وفرّوا هائمين على وجه الأرض يطاردهم الخوف والرعب ، وقد قبضت شرطته

(١) اعيان الشيعة ٤ / ٤٦ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٣ / ١٥ ، ذخيرة الدارين ص ١٩ .

على الكثيرين منهم فجيء بهم مخفورين اليه فقابلهم بالإستخفاف والإستهانة والتحقير ونحن نذكر أسماءهم مع ما جرى عليهم من العسف والظلم وهم :

١ ـ محمد بن أبي حذيفه :

محمد بن أبي حذيفة يعد في طليعة ثقات الإسلام ومن خيرة صلحاء المسلمين فقد كان من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وقد قال أمير المؤمنين (ع) في حقه : « ان المحامدة تأبى أن يعصى الله » ثم عده منهم ، وكان ملازماً لأمير المؤمنين وفي خدمته ، ولما قتل (ع) وانتهى الأمر الى معاوية أراد قتله ثم بدا له أن يسجنه فسجنه أمداً غير قصير ، والتفت يوماً الى أصحابه فقال لهم : « ألا نرسل الى هذا السفيه محمد بن أبي حذيفة فنبكته ونخبره بضلاله ، ونأمره أن يقوم فيسب علياً » فأجابوه الى ذلك ، ثم أمر باحضاره فلما مثل عنده التفت اليه قائلاً :

« يا محمد ألم يأن لك أن تبصر ما كنت عليه من الضلالة بنصرتك علي بن أبي طالب (ع) ألم تعلم أن عثمان قتل مظلوماً وان عائشة وطلحة والزبير خرجوا يطلبون بدمه وان علياً هو الذي دس الناس في قتله ونحن اليوم نطلب بدمه » .

فأجابه محمد : « إنك لتعلم أني أمس القوم بك رحماً وأعرفهم بك » .

فقال له معاوية : أجل . واندفع محمد فقال له :

« فوالله الذي لا إله غيره ما اعلم أحداً شرك في دم عثمان وألّب الناس عليه غيرك لما استعملك ، ومن كان مثلك فسأله المهاجرون والأنصار أن يعزلك فأبى ففعلوا به ما بلغك ، والله ما أحد شرك في قتله بدئاً وأخيراً إلا طلحة والزبير وعائشة فهم الذين شهدوا عليه بالعظمة وألّبوا عليه الناس وشركهم في ذلك عبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وعمار والأنصار جميعاً » .

فارتاع معاوية وقال منكراً عليه :

« قد كان ذلك ؟!! »

«أي والله ، وإني لأشهد أنك منذ عرفتك في الجاهلية والإسلام لعلى خلق واحد ، ما زاد الإسلام فيك لا قليلاً ولا كثيراً وإن علامة ذلك فيك لبينة تلومني على حبي علياً ، خرج مع علي كل صوام قوام مهاجري وانصاري وخرج معك ابناء المنافقين والطلقاء والعتقاء خدعتهم عن دينهم ، وخدعوك عن دنياك ، والله يا معاوية ما خفي عليك ما صنعت ، وما خفي عليهم ما صنعوا إذ احلوا انفسهم بسخط الله في طاعتك ، والله لا ازال احب علياً لله ولرسوله ، وابغضك في الله ورسوله ابداً ما بقيت !! »

ففزع معاوية وقال : « إني اراك على ضلالك بعد ردوه الى السجن »

فردوه للسجن فمكث فيه مدة من الزمن حتى مات فيه (١) .

لقد لاقى محمد حتفه وهو مروع في ظلمات السجون لأنه لم يرتض اعمال معاوية ولم يقره على منكراته ومساوئه ، وهكذا كان مصير الأحرار والنبلاء المعارضين لحكومة معاوية يلاقون التعذيب والتنكيل والتخليـــد في السجون .

٢ ـ عبد الله بن هاشم المرقال :

ومن زعماء الشيعة وعيونهم الذين روعهم معاوية الزعيم المثالي عبد الله ابن هاشم المرقال ، فقد كان معاوية يحمل في نفسه كمداً وحقداً عليه وذلك لولائه واخلاصه لأمير المؤمنين (ع) ولموقف ابيه هاشم في يوم صفين ذلك الموقف الخالد الذي اخافه وارهبه حتى صمم على الهزيمة والفرار ، وللتشفي والإنتقام منه فقد كتب الى عامله زياد رسالة يطلب فيها القبض على عبد الله

---

(١) رجال الكشي ص٤٧ .

لينكل به ، وهذا نص كتابه :

« أما بعد : فانظر عبد الله بن هاشم بن عتبة فشدّ يده الى عنقه ثم ابعث به إليّ » .

ولما وصلت رسالة معاوية الى زياد قام في طلبه وحينما علم بذلك عبد الله هرب واختفى منه ، وعلم به بعض الأوغاد فجاء الى معاوية ليتقرب اليه فأخبره انه قد اختفى عند امراة مخزومية ، فكتب معاوية الى زياد ما يلي :

« أما بعد : فاذا اتاك كتابي هذا فاعمد الى حي بني مخزوم ففتشه داراً داراً حتى تأتي الى دار فلانة المخزومية فاستخرج عبد الله بن هاشم المرقال منها ، فاحلق راسه والبسه جبة شعر وقيّده وغل يده الى عنقه واحمله على قتب بغير وطاء ولا غطاء واقدمه إليّ » .

وقام زياد ففتش حي بني مخزوم حتى ظفر بعبد الله فحمله اليه بالكيفية التي ارادها وهو مهان الجانب ، محطم الكيان فوصل الى دمشق في يوم الجمعة وهو يوم القبول الذي اعده معاوية لمقابلة اشراف قريش ووجوه العراقيين ولم يشعر معاوية إلا وابن هاشم قد ادخل عليه فعرفه ولم يعرفه ابن العاص فالتفت معاوية اليه قائلاً :

« يا أبا عبد الله ، هل تعرف هذا الفتى ؟ » قال : لا .

فقال معاوية هذا الذى يقول أبوه يوم صفين :

إني شريت النفس لما اعتلا وأكثر اللوم وما أقلا

أعور يبغي أهله محلا قد عالج الحياة حتى ملا

لابد أن يفل أو يفلا أسلهم بذي الكعوب سلا

لا خير عندي في كريم ولى

فبهر ابن العاص وقال متمثلاً :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وتذكر ابن العاص مواقف أبيه يوم صفين فقال لمعاوية :

« دونك يا أمير المؤمنين الضب المضب فاشخب اوداجه على أثباجه ولا ترده الى أهل العراق ، فانه لا يصبر على النفاق ، وهم أهل غدر وشقاق ، وحزب ابليس ليوم هيجانه ، وإن له هوى سيوديه ، ورأياً سيطغيه ، وبطانة ستقويه ، وجزاء سيئة سيئة مثلها .

فانبرى اليه عبد الله كالأسد الغضبان مسدداً له سهاماً من القول غير هياب له قائلاً :

« يا عمرو ، إن أقتل فرجل اسلمه قومه ، وأدركه يومه ، أفلا كان هذا منك إذ تحيد عن القتال ونحن ندعوك الى النزال ، وأنت تلوذ بشمال النطاف (١) ، وعقائق الرصاف (٢) كالأمة السوداء ، والنعجة القوداء ، لا تدفع يد لامس ؟ »

فالتاع ابن العاص ولم يستطع أن يقول شيئاً سوى التهديد والتوعيد له قائلاً :

« أما والله لقد وقعت في لهازم شدقم (٣) للأقران ذي لبد ، ولا أحسبك منفلتاً من مخالب أمير المؤمنين » .

فأجابه ابن هاشم غير معتن بتهديده قائلاً :

---

(١) النطاف : الماء القليل .

(٢) العقائق : سهام الإعتذار . والرصاف : الحجارة التي توضع عند مسيل الماء .

(٣) اللهازم : جمع مفرده لهزم وهي الأنياب . والشدقم : الأسد .

« أما والله يا ابن العاص إنك لبطر فى الرخاء ، جبان عند اللقاء ، غشوم إذا وليت ، هياب إذا لقيت ، تهدر كما يهدر العود المنكوس المقيد بين مجرى الشوك ، لا يستعجل في المدة ، ولا يرتجي في الشدة ، أفلا كان هذا منك إذ غمرك أقوام لم يعنفوا صغاراً ، ولم يمزقوا كباراً لهم أيد شداد وألسنة حداد ، يدعمون العوج ، ويذهبون الحرج ، يكثرون القليـل ، ويشفون الغليل ، ويعزون الذليل ؟ »

فلم يطق ابن العاص جواباً وبقي يفتش في حقيبـة مكره عيباً يوصم به عبد الله فلم يجد شيئاً سوى افتعال الكذب فقال :

« أما والله لقـد رأيت أباك يومئذ تخفق احشاؤه (١) وتبق أمعاؤه وتضطرب أصلاؤه (٢) كأنما انطبق عليه ضمد » .

فانبرى اليه عبد الله مجيباً عن بهتانه وكذبه قائلاً له :

« يا عمرو ، إنا قد بلوناك ومقالتك فوجدنا لسانك كذوباً غادراً ، خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجند لا يساومونك ، ولو رمت المنطق في غير أهل الشام لجحظ عليك عقلك (٣) ، ولتلجلج لسانك ، ولاضطرب فخذاك اضطراب القعود الذي أثقله حمله » .

والتفت اليهما معاوية فقطع حديثهما قائلاً : « إيهاً عنكما » ثم أمر باطلاق سراح عبد الله ، فاستاء ابن العاص لهذا العفو ، وانبرى الى معاوية يحرضه على الفتك والبطش به ويذكره مواقف أبيه هاشم في أيام صفين وقد نظم ذلك بأبيات من الشعر قال :

---

(١) تخفق : أي تضطرب .

(٢) الاصلاء : أواسط الظهر .

(٣) جحظ عقله : أي نظر الى رأيه فرأى سوء ما ارتأى .

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني … وكان من التوفيق قتل ابن هاشم

أليس أبوه يا معاوية الذي … أعان علياً يوم حز الغلاصم

فلم ينثن حتى جرت من دمائنا … بصفين أمثال البحور الخضارم

وهذا ابنه والمرء يشبه شيخه … ويوشك أن تقرع به سن نادم

فأجابه عبد الله :

معاوي إن المرء عمراً أبت له … ضغينة صدر غشها غير نائم

يرى لك قتلي يا ابن هند وإنما … يرى ما يرى عمرو ملوك الأعاجم

على انهم لا يقتلون أسيرهم … إذا منعت منه عهود المسالم

وقد كان منا يوم صفين نفرة … عليك جناها هاشم وابن هاشم

قضى ما قضى منها وليس الذي مضى … ولا ما جرى إلا كأضغاث حالم

فان تعف عني تعف عن ذي قرابة … وإن تر قتلي تستحل محارمي

واندفع معاوية قائلاً :

أرى العفو عن عليا قريش وسيلة … الى الله فى يوم العصيب القماطر

ولست أرى قتل العداة ابن هاشم … بإدراك ثاري في لؤي وعامر

بل العفو عنه بعد ما بان جرمه … وزلت به إحدى الجدود العواثر

فكان أبوه يوم صفين جمرة … علينا فأردته رماح نهابر (١)

لقد روع عبد الله وأفزعه معاوية وهو لم يقترف ذنباً سوى ولائه لأمير المؤمنين (ع) الذي جعله ابن هند من أعظم الموبقات والجرائم ، وصرحت بعض المصادر أنه لم يعف عنه بل أودعه فى ظلمات السجون .

٣ ـ عبد الله بن خليفة الطائي .

وعبد الله بن خليفة الطائي ممن عرف بالولاء والإخلاص لأمير المؤمنين

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٣١٢ ـ ٣١٤ ، وشرح ابن أبي الحديد .

فقد جاء اليه حينما توجه (ع) الى البصرة فقال له :

« الحمـــد لله الذي ردّ الحق الى أهله ، ووضعه في موضعه ، فان كره ذلك قوم فقد والله كرهوا محمداً (ص) ونابذوه وقاتلوه ، فرد الله كيدهم في نحورهم وجعل دائرة السوء عليهم ، والله لأجاهد معك في كل موطن تحفظاً لحق رسول الله (ص) » (١) .

وقد دلّ حديثه على تبصره في دينه ، وعلى طيب عنصره ، وحسن رأيه ، ولعظيم ايمانه ووفور عقله ، كان من المقربين عند الإمام ومن الذين يستشيرهم في مهام اموره (٢) .

وفي محنة حجر كان عبد الله في طليعة أصحابه ومن المعارضين للسياسة الأموية ، ومن المشتركين معه في ثورته ، ولما قبض زياد على حجر وأصحابه أمر شرطته أن يأتوه بعبد الله ، ففتشوا عنه فوجدوه ، فناجزهم عبد الله ، وبعد صراع جرى فيما بينهم لم يتمكن عبد الله على انقاذ نفسه منهم فاستولوا عليه ، فاستنجدت اخته النوار بقومها واسرتها فطلبت نصرة أخيها قائلة :

« يا معشر طيء أتسلمون سنانكم ولسانكم عبد الله بن خليفة ؟ »

فثار الطائيون على الشرطة فضربوهم وناجزوهم حتى انتزعوا منهم عبد الله فرجعت الشرطة الى زياد وأخبرته بالأمر فاستدعا زعيم طيء وعميدها عدي ابن حاتم فقال له :

« إئتني بعبد الله بن خليفة ؟ »

وبعد حديث جرى بينهما أجابه ابن حاتم بمنطق الأحرار قائلاً :

« لا والله لا آتيك به أبداً ، أجيئك بابن عمي تقتله ؟ والله لو كان

---

(١) الفوائد المطبوع على هامش التعليقات ص ٢٠٢ .

(٢) نفس المصدر .

تحت قدمي ما رفعتها عنه » .

فالتاع زياد وأمر به الى السجن ، ولم يبق بالكوفة يماني ولا ربعي إلا أتوا زياداً فكلموه في شأن عـدي ، وأخبروه بعظم شأنه وشرفه ، فاضطر زياد الى اطلاق سراحه ، ولكنه شرط عليه أن يغيب ابن عمه عن الكوفة فوافق عدي على ذلك ، وأمر عبد الله أن يغادر الكوفة ويلحق با (لجبلين) ، فغادر عبد الله الكوفة ، وقد سرى الألم العاصف في محياه على بعده عن وطنه وعلى فراقه لأصحابه وأهله ، وقد أرسل الى عدي بعد نفيه قصيدة عصماء يرثي بها حجراً وأصحابه ويذكر فيها ما يعانيـه من ألم الفراق فيقول في رثاء حجر :

ولاقى بها (١) حجر من الله رحمة	فقد كان أرضى الله حجر وأعذرا
ولا زال تهطال ملث وديمـة	على قبر حجر أو ينادى فيحشرا
فيا حجر من للخيل تدمى نحورها	وللملك المغزى إذا ما تغشمرا (٢)
ومن صادع بالحق بعدك ناطق	بتقوى ومن إن قيل بالجور غيرا
فنعم أخو الإسلام كنت وانني	لأطمع أن تؤتى الخلود وتحبرا
وقد كنت تعطي السيف في الحرب حقه	وتعرف معروفاً وتنكر منـكرا

ثم يسترسل في رثاء حجر فيذكر صفاته ومواهبه وملكاته ويبكيه أمر البكاء وينتهي في قصيدته الى وصف محنته وبلواه والى ما يلاقيه من الألم والأسى في غربته فيقول :

فها أناذا آوي بأجبال طيء	طريداً فلو شاء الإله لغيرا
نفاني عدوي ظالماً عن مهاجري	رضيت بما شاء الإله وقدرا

---

(١) الضمير يرجع الى مرج عذراء .

(٢) تغشمرا : أي أخذ قهراً وظلماً .

وأسلمني قومي بغير جنـــاية كأن لم يكونوا لي قبيلا ومعشرا

وذكر الطبري وابن الأثير بقية قصيدته التي أعرب فيهـا عن شجونه وأحزانه ، وظل عبد الله منفياً حتى مات بالجبلين قبل موت زياد (١) ؟

٤ ـ صعصعة بن صوحان :

وصعصعة بن صوحان من سادات العرب وفصحائهم النابهين وخطبائهم المفوهين كان من ذوي الفضيلة والدين ، أسلم على عهد رسول الله (ص) وهو صغير ولم يجتمع به لصغر سنه ، ووفد على عمر وكان يقسم أموال الغنائم وكان مقدارها ألف ألف درهم ففضها على المسلمين وبقيت منهـا فضلة فاختلفت الصحابة فيها فقام فيهم عمر خطيباً فقال في خطابه :

« أيها الناس ، قد بقيت لكم فضلة بعد حقوق الناس ، فما تقولون فيها ؟ »

فانبرى اليه صعصعة منكراً عليه تحيره فى هذه المسألة البسيطة قائلا :

« يا أمير المؤمنين ، إنما تشاور الناس فيما لم ينزل الله فيـــه قرآناً ، وأما ما أنزل الله به القرآن ووضعه مواضعه فضعه فى مواضعه التي وضعه الله تعالى » .

فاستحسن عمر رأيه وقال له : « صدقت أنت مني وأنا منك » ثم قسم المال بين المسلمين » (٢) .

وكان صعصعة من صفوة أصحاب أمير المؤمنين (ع) ومن الملازمين له ، وقال الإمام الصادق عليه السلام في حقه : « ما كان مع أمير المؤمنين من يعرف حقه إلا صعصعة وأصحابه » (٣) . ومرض صعصعة فعاده (ع) فقال له :

---

(١) الطبري ٦ / ١٥٧ ، الكامل ٣ / ٢٤١ .

(٢) الاستيعاب ٢ / ١٨٩ .

(٣) التعليقات ص ١٨٣ .

« يا صعصعة ، لا تتخذ عيادتي لك أبهة على قومك !! »

– بلى والله أعدها منّة من الله وفضلاً علي .

– إنك إن كنت على ما علمتك فأنت خفيف المؤنة حسن المعونة .

– وأنت والله يا أمير المؤمنين بالله عليماً وبالمؤمنين رؤوفاً رحيماً (١) .

ولحصافة رأيه ، وسداد منطقه كان الإمام (ع) يرسله في مهامه فقد أرسله مرة الى معاوية ومعه كتاب منه ، فلما انتهى اليه قال معاوية مشيداً بنفسه ومبرراً لأعماله :

« الأرض لله وأنا خليفة الله فما آخذ من مال الله فهو لي وما تركت منه كان جائزاً لي » .

وثقل على صعصعة هذا الكلام الملتوي فانبرى اليه مجيباً .

تمنيك نفسك ما لا يكو ن جهلاً معاوي لا تأثم

فتألم معاوية وقال منددا به :

« تعلمت الكلام ؟ »

– العلم بالتعلم ومن لا يعلم يجهل .

– ما أحوجك الى أن أذيقك وبال أمرك .

– ليس ذلك بيدك ، ذلك بيد الذي لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها .

– من يحول بيني وبينك ؟

– الذي يحول بين المرء وقلبه .

– اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير .

– اتسع بطن من لا يشبع ، ودعا عليه من لا يجمع (٢) .

---

(١) التعليقات .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٤٢ .

ودلت هذه المحاورة على قوة جنان صعصعة وانه ليس بالرعديد ولا الهياب ، فقد ردّ على معاوية مقالته بالمثل وقابله بالإستخفاف والإستهانة وهو غير خائف من سلطانه .

وخطب معاوية بعد ما تم له الأمر ، فقام اليه صعصعة فعلق على كل جملة من خطابه ، وفيما يلي خطاب معاوية مع رد صعصعة عليه .

قال معاوية :

— لو أن أبا سفيان ، ولد الناس كلهم كانوا أكياساً ..

— قد ولد الناس كلهم من هو خير من أبي سفيان آدم ، فمنهم الأحمق والكيّس !!

— إن أرضنا قريبة من المحشر .

— إن المحشر لا يبعد على مؤمن ، ولا يقرب من كافر .

— إن أرضنا أرض مقدسة .

— إن الأرض لا يقدسها شيء ، ولا ينجسها ، إنما تقدسها الأعمال .

— عباد الله اتخذوا الله ولياً ، واتخذوا خلفاءه جُنة تحرزوا بها .

— كيف ؟! وقد عطلت السنة ، واخفرت الذمة ، فصارت عشواء مطلخمة ، في دهياء مدلهمة ، قد استوعبتها الأحداث ، وتمكنت منها الانكاث .

فثار معاويه وصاح به :

— يا صعصعة ، لإن تقع على ضلعك خير لك من استبراء رأيك ، وإبداء ضعفك ، تعرض بالحسن بن علي ، ولقد هممت أن أبعث اليه ،

فأجابه صعصعة قائلاً :

« أي والله ، وجدتهم أكرمكم جدوداً ، وأحياكم حدوداً ، وأوفاكم

عهداً ، ولو بعثت اليه لوجدته في الرأي أديباً ، وفي الأمر صليباً ، وفي الكرم نجيباً ، يلذعك بحرارة لسانه ، ويقرعك بما لا تستطيع إنكاره !! »

ولسع قوله معاوية فراح يهدده قائلاً :

ــ لأجفينك عن الوساد ، ولأشردن بك في البلاد .

ــ والله إن في الأرض لسعة ، وإن في فراقك لدعة .

ــ والله لأحبسن عطاءك .

ــ إن كان ذلك بيدك فافعل ، إن العطاء وفضائل النعماء في ملكوت من لا تنفذ خزائنه ، ولا يبيد عطاؤه ، ولا يحيف في قضيته .

ــ لقد استقتلت !!

ــ مهلاً ، لم أقل جهلاً ، ولم أستحل قتلا ، لا تقتـل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ومن قُتل مظلوماً كان الله لقـاتله مقيماً ، يرهقـه أليماً ، ويجرعه حميماً ، ويصليه جحيماً (١) ..

وانصرف صعصعة وترك معاوية يتميز غيظاً وكمداً ، وعمد بعد ذلك الى سجنه مع جماعة من أصحابه ، وبقوا في سجنه مدة من الزمن فدخل عليهم قائلاً لهم :

« نشدتـكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقاً ، أي الخلفاء رأيتموني ؟ » .

فانبرى اليه عبد الله بن الكواء قائلاً :

« لولا انك عزمت علينا ما قلنا ، لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله في قتل الأخيار ، ولكنا نقول : قد علمنا أنك واسع الدنيا ضيق الآخرة قريب الثرى ، بعيد المرعى ، تجعل الظلمات نوراً والنور ظلمات !! »

فقال معاوية له : « إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذابين عن

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٦ / ٤٢٥ .

بيضته ، التاركين لمحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المنتهكين لمحارم الله ، والمحلين ما حرم الله ، والمحرمين ما أحل الله » .

فأجابه ابن الكواء : « يا ابن أبي سفيان ، إن لكل كلام جواباً ونحن نخاف جبروتك ، فان كنت تطلق السنتنا ذببنا عن أهل العراق بألسنة حداد لا يأخذها في الله لومة لائم ، وإلا فإنا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فرجه » .

فقال له معاوية : « لا والله لا يطلق لك لسان » .

وسكت عبد الله فتكلم صعصعة :

« تكلمت يا ابن أبي سفيان فأبلغت ، ولم تقصر عما أردت ، وليس الأمر كما ذكرت ، أنى يكون الخليفة من ملك الناس قهراً ، ودانهم كبرا واستولى بأسباب الباطل كذباً ومكراً !! أما والله مالك في يوم بدر مضرب ولا مرمى وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لا حلي ولا سيري » (١) ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ممن أجلب على رسول الله (ص) وإنما أنت طليق ابن طليق أطلقكما رسول الله (ص) فانى تصلح الخلافة لطليق؟ »

وامتلأ قلب معاوية غيظاً وكمداً فالتفت اليهم :

« لولا أني أرجع الى قول أبي طالب حيث يقول :

قابلت جهلهم حلماً ومغفرة والعفو عن قدرة ضرب من الكرم

لقتلتكم » (٢) .

وكان صعصعة من جملة الأشخاص الذين طلب لهم الإمام الحسن (ع)

---

(١) أصل هذا المثل (لا حاء ولا ساء) ومعناه أنه ليس لك فيه أمر ولا نهي ، جاء ذلك في مجمع الأمثال ٢ / ١٥٨ .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٤١ .

من معاوية الأمن وعدم التعرض لهم بسوء ومكروه (١) ولكن معاوية لم يف بذلك فقد روعه وأفزعـه وأودعه في سجنه كما روع غيره من زعماء الشيعة ، وصرحت بعض المصادر ان المغيرة نفى صعصعة بأمر معاوية من الكوفة الى الجزيرة أو الى البحرين أو الى جزيرة ابن كافان فمات بها معتقلا منفياً عن وطنه وبلاده وفي رثائه يقول المرزباني (٢) :

هلا سألت بني الجارود أي فتى ... عند الشفاعة والبأن ابن صوحانا

كنا وكانوا كأم أرضعت ولداً ... عق ولم نجز بالإحسان إحسانا(٣)

٥ ـ عدي بن حاتم :

وعدي بن حاتم من أهم الشخصيات الرفيعة الفذة في العراق ، فقد كان قبل الإسلام يتمتع بمجد أصيل وشرف أثيل ، فهو ابن حاتم مضرب المثل في الجود والسخاء ، وبالإضافة الى مجده الموروث فقدكان في الإسلام من ابطال العقيدة ، ومن عيون المؤمنين ، ومن رجال الإسلام البارزين ، وقد تقدم في هامش هذا الكتاب شيء موجز عن ترجمته ، والمهم التعرض الى ما لاقاه من الهوان والإستخفاف من قبل ابن هند لأجل ولائه وإخلاصه لأمير المؤمنين (ع) فقد دخل يوماً على معاوية فقال له متشمتاً به :

---

(١) رجال الكشي ص ٤٦ .

(٢) المرزباني : بفتح الميم وسكون الراء وضم الزاء وفتح الباء الموحدة وهو جد من انتسب اليه من الأعيان جاء ذلك في اللباب ٣ / ١٢٤ ، وجاء في وفيات الأعيان ٣ / ٤٤٣ ، أن لفظ المرزبان لفظ فارسي معناه صاحب الحد ، فان مرز معناه الحد وبان معناه صاحب ، وهو في الأصل عندهم اسم لمن كان دون الملك .

(٣) الاصابة ٢ / ١٩٢ .

– ما فعلت الطرفات ؟ (١) .

– قُتلوا مع علي .

– ما أنصفك علي قتل أولادك وأبقى أولاده !! .

– ما أنصفك علي إذ قُتل وبقيت بعده .

فتألم ابن هند من مقال عدي وقال مهدداً له :

« أما إنه قد بقي قطرة من دم عثمان ما يمحوها إلا دم شريف من أشراف اليمن – يعني به عدياً – » .

فانبرى اليه عدي وهو غير مكترث بتهديده قائلاً له :

« والله إن قلوبنا التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وإن أسيافنا التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن أدنيت الينا من الغدر فترا ، لندنين اليك من الشر شبرا ، وإن حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم (٢) لأهون علينا من أن نسمع المساءة في علي ، فسلم السيف يا معاوية لباعث السيف » .

فراوغ معاوية على عادته وقال :

« هذه كلمات حكم فاكتبوها » .

ثم أقبل عليه يحدثه كأنه لم يخاطبه بشيء (٣) ثم قال له :

« صف لي علياً » .

– إن رأيت أن تعفيني .

– لا أعفيك .

فأخذ عدي في وصف أمير المؤمنين فقال :

---

(١) الطرفات : أولاد عدي وهم طريف وطارف وطرفة .

(٢) الحيزوم : وسط الظهر .

(٣) مروج الذهب ٢ / ٣٠٩ .

« كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول عدلا ، ويحكم فصلا تتفجر الحكمة من جوانبه ، والعلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يحاسب نفسه إذا خلا ، ويقلب كفيه على ما مضى ، يعجبه من اللباس القصير ، ومن المعاش الخشن ، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويدنينا إذا أتيناه ، ونحن مع تقريبه لنا ، وقربه منا لا نكلمه لهيبته ، ولا نرفع أعيننا اليه لعظمته ، فان تبسم فعن اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويتحبب الى المساكين ، لا يخاف القوي ظلمه ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأقسم لقد رأيته ليلة وقد مثل في محرابه وأرخى الليل سرباله ، وغارت نجومه ، ودموعه تتحادر على لحيته ، وهو يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، فكأني الآن أسمعه وهو يقول :

« يا دنيا ، إليّ تعرضت أم إليّ أقبلت ؟ غري غيري لا حان حينك قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، فعيشك حقير ، وخطرك يسير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، وقلة الأنيس » .

فوكفت عينا معاوية ، وجعل ينشفهما بكمه وهو يقول :

« يرحم الله أبا الحسن ، كان كذلك ، فكيف صبرك عنه ؟ »

— كصبر من ذبح ولدها في حجرها فهي لا ترقأ دمعتها ، ولا تسكن عبرتها .

— فكيف ذكرك له ؟

— وهل يتركني الدهر أن أنساه ؟ (١) »

وقد دل هذا الحديث على ولاء عدي لأمير المؤمنين ومن أجل ولائه

(١) المحاسن والمساوي ١ / ٣٢ .

واخلاصه فقد رُوع وأُفزع ، وقد تقدم أن زياداً أودعه في السجن حفنة من الأيام من أجل عبد الله بن خليفة الطائي ولم يراع شخصيته الكريمة ، ومكانته الإجتماعية ، وعظم منزلته ، وإنما فعل ذلك به ليقضي على شيعة أمير المؤمنين عليه السلام .

٦ ـ جارية بن قدامة :

ووفد جارية بن قدامة السعدي على معاوية ، فقال له معاوية :

ـ أنت الساعي مع علي بن أبي طالب ، والموقد النار في شعلك ، تجوس قرى عربية تسفك دماءهم ؟

ـ يا معاوية دع عنك علياً ، فما أبغضنا علياً منذ أحببناه ، ولا غششناه منذ صحبناه .

ـ ويحك يا جارية !! ما كان أهونك على أهلك إذ سموك جارية !!

ـ أنت يا معاوية كنت أهون على أهلك إذ سموك معاوية (١) !

ـ لا أمّ لك .

ـ أم ما ولدتني (٢) ، إن قوائم السيوف التي لقيناك بها بصفين في أيدينا .

ـ إنك لتهددني ؟

ـ إنك لم تملكنا قسرة ، ولم تفتحنا عنوة ، ولكن أعطيتنا عهوداً ومواثيق ، فان وفيت لنا وفينا ، وإن ترغب الى غير ذلك فقد تركنا وراءنا رجالاً مداداً ، وأدرعاً شداداً ، وأسنّة حداداً ، فان بسطت الينا

---

(١) وفي رواية ابن عبد ربه (ما كان أهونك على أهلك إذ سموك معاوية) وهي الإنثى من الكلاب .

(٢) وفي رواية ابن عبد ربه أمي ولدتني للسيوف .

فتراً من غدر ، زلفنا اليك بباع من ختر .

ـ لا كثر الله في الناس من أمثالك .

وتركه جارية والأسى ملأ اهابه (١) ، لقد لقي جارية هذا الهوان ، والتبكيت من أجـــل ولائه للعترة الطاهرة التي فرض الله مودتهـــا على جميع المسلمين .

ترويع نساء الشيعة :

ولم يقتصر معاوية في ارهابه واضطهاده على رجال الشيعة وزعمائهم فقد أخذ يتحرى نساءهم فما ذكرت له امرأة منهم ذات مكانة مهمة إلا وبعث خلفها فقابلها بالإستخفاف والإستهانة ، وأدخل الفزع والخوف في نفسها ، وإذا وفدت عليه امرأة منهم قابلها بالإذلال ، وأظهر لها ما يكنه في نفسه من الحقد والبغض العارم للإمام أمير المؤمنين ولشيعته وها نحن نقدم الى القاريء الكريم أسماء بعض السيدات اللاتي بعث خلفهن ، واللاتي وفدن عليه مع ما جرى بينهن وبينه من الحديث :

١ ـ الزرقاء بنت عدي :

وكانت الزرقاء بنت عدي بن غالب ممن عرفت بالولاء والإخلاص لأمير المؤمنين (ع) ، وكانت من ربات البلاغة والفصاحة والرأي الصائب وكانت في واقعة صفين تدعو الجماهير الى نصرة أميرالمؤمنين (ع) وتحرضهم على قتال عـدوه ، ولما فجع الإسلام بقتل أمير المؤمنين وانتهى الأمر الى ابن هند كتب الى عامله بالكوفة أن يحمل اليـه الزرقاء بنت عدي فبعث بها اليه ، فلما دخلت عليه رحب بها ثم قال لها :

---

(١) تأريخ الخلفاء ص ١٩٩ .

« هل تعلمين لِمَ بعثت اليك ؟ » .

ـ سبحان الله أنى لي بعلم ما لم أعلم !! وهل يعلم ما في القلوب إلا الله .

ـ بعثتُ اليكِ أن أسألكِ ألستِ راكبة الجمل الأحمر يوم صفين بين الصفين توقدين الحرب ، وتحرضين على القتال ، فما حملك على ذلك ؟

ـ يا أمير المؤمنين ، إنه قد مات الرأس ، وبُتر الذنب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمرُ يحدث بعده الأمر !!!

ـ صدقتِ فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟

ـ ما أحفظه .

ـ ولكني والله أحفظه لله أبوك لقد سمعتك تقولين : أيها الناس إنكم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم وجارت بكم عن المحجة فيا لها من فتنة عمياء صماء تسمع لناعقها ، ولا تساس لقائدها ، إن المصباح لا يضيء في الشمس وإن الكواكب لا تنير مع القمر ، وإن البغل لا يسبق الفرس وان الزف (١) لا يوازن الحجر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ، ألا من استرشدنا أرشدناه ومن استخبرنا أخبرناه ، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار ، فكان قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فلا يعجلن أحد فيقول : كيف العدل وأنى ؟ ليقضي الله أمراً كان مفعولا ، ألا إن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، والصبر خير عواقب الأمور ، إيهاً الى الحرب غير ناكصين ، ولا متشاكسين فهذا يوم له ما بعده .

وبعد ما تلى معاوية كلامها تأثر منه واندفع وهو مغيظ محنق فقال لها :

(١) الزف : الصغير من الريش .

« والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه » .

« أحسن الله بشارتك ، وأدام سلامتك ، مثلك من بشر بخير وسر جليسه » .

« وقد سرّكِ ذلك ؟ »

« نعم والله لقد سرني قولكَ فأنّى لي بتصديق الفعل !؟ »

فتبهر معاوية من اخلاصها لأمير المؤمنين فقال :

« والله لوفاؤكم له بعد موته احبّ إليّ من حبكم له في حياته ، اذكري حاجتك ؟ »

— إني قد آليت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنت عليه شيئاً أبداً ومثلُك أعطى من غير مسألة ، وجاد عن غير طلب .

— صدقت .

ثم أقطعها ضيعة وأوصلها وردها الى أهلها (١) .

إنه وإن أكرمها أخيراً ، وأجزل لها العطاء إلا أنه قد روعها وأفزعها أولاً وأظهر لها الظفر والغلبة والنصر عليها .

٢ — أم الخير البارقية :

كانت أم الخير بنت الحريش البارقية من سيدات النساء ومن البليغات البارعات ، وقد عرفت بالولاء والإخلاص لأمير المؤمنين (ع) ، وكانت في واقعة صفين تحرض الجماهير على حرب ابن هند ، وتحفزهم الى الذب عن أمير المؤمنين ونصرته ، وقد تألم معاوية من مواقفها ، وأضمر لها الحقد والعداء ، ولما انحسرت روح الإسلام باستيلائه على زمام الحكم كتب الى واليه على الكوفة يأمره بأن يحمل اليه أم الخير لينتقم منها ، فلما ورد

(١) بلاغات النساء لطيفور طبع النجف ص٣٢ صبح الأعشى، المستطرف.

الكتاب الى عامله بعثها اليه ، فلما دخلت على معاوية قالت :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين » .

— وعليكِ السلام ، وبالرغم والله دعوتني بهذا الإسم .

— مه يا هذا ، فان بديهة السلطان مدحظة لما يجب علمه .

— صدقتِ يا خالة ، وكيف رأيت مسيرك ؟

— لم أزل في عافية وسلامة حتى أوفدت الى ملك جزل ، وعطاء بذل ، فأنا في عيش أنيق ، عند ملك رفيق .

— بحسن نيتي ظفرت بكم وأعنت عليكم .

— مه يا هذا ، لك والله من دحض المقال ما تردّى عاقبته .

— ليس لهذا أردناك .

— إنما أجرى في ميدانك إذا أجريت شيئاً أجريته ، فاسأل عما بدا لك؟

— كيف كان كلامكِ يوم قُتل عمار بن ياسر ؟

— لم أكن والله رويته قبل ، ولا زورته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثهن لساني حين الصدمة ، فان شئت أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فعلت ؟

— لا أشاء ذلك !!

ثم التفت الى أصحابه فقال لهم : أيكم حفظ كلام أم الخير ؟ فانبرى اليه أحدهم فقال له : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد فقال له : هاته ، فقال : كأني بها وعليها برد زبيدي كثيف الحاشية وعلى جمل أرمك (١) وقد احيط حولها وبيدها سوط منتشر الضفر وهي كالفحل يهدر في شقشقته تقول :

« يا أيها الناس ، اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، إن الله

---

(١) جمل أرمك : أي لونه كلون الرماد .

قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونوّر السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدعكم في عمياء مبهمة ، ولا سوداء مدلهمة ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ! أفراراً عن أمير المؤمنين ؟ أم فراراً من الزحف ؟ أم رغبـة عن الإسلام ؟ أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرون ونبلو أخباركم » .

ثم رفعت رأسها الى السماء وهي تقول : « اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، وبيدك يا رب أزمة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، والّف القلوب على الهدى ، ورد الحق الى أهله ، هلموا رحمكم الله الى الإمام العادل ، والوصي الوفي ، والصديق الأكبر ، إنها احن بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أُحدية ، وثب بها معاوية حين الغفلة ، ليدرك بها ثارات بني عبد شمس » .

ثم قالت : « قاتلوا أئمة الكفر انهم لا إيمـان لهم لعلهم ينتهون » صبراً معاشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم ، قد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة ، فرت من قسورة ، لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالةبالهدى ، وباعوا البصيرة بالعمى ، وعما قليل ليصبحن نادمين حين تحل الندامة فيطلبون الاقالة إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل ، ومن لم يسكن الجنـة نزل النار ، أيها الناس إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستبطؤا مدة الآخرة فسعوا لها ، والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ، ويظهر الظالمون ، وتقوى كلمة الشيطان لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبـه ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ عن ابن عم رسول الله (ص) وزوج ابنته وأبي ابنيه ؟ خلق من طينته ، وتفرع من

نبعته . وخصه بسره ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين ، فلم يزل كذلك يؤيده بمعونته ، ويمضي على سنن استقامته لا يرجع لراحة اللذات وهو مفلق الهام ، ومكسر الأصنام ، إذ صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس مرتابون ، فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي بدر ، وأفنى أهل أحد ، وفرق جمع هوازن ، فيا لها وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً ، وردة وشقاقاً ، وقد اجتهدت في القول ، وبالغت في النصيحة ، وبالله التوفيق وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته » .

فانتفخت أوداج معاوية غيظاً وحنقاً وقال لها بنبرات تقطر غضباً :

« والله يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتلي ، والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك » .

فأجابته وهي غير خائفة منه :

« والله ما يسوؤني يا ابن هند أن يجري الله ذلك على يد من يسعدني الله بشقائه » .

— هيهات يا كثيرة الفضول ، ما تقولين في عثمان بن عفان ؟

— وما عسيت أن أقول فيه استخلفه الناس وهم كارهون ، وقتلوه وهم راضون .

وبعد حديث جرى بينهما أطلق أخيراً سراحها وعفا عنها (١) .

٣ — سودة بنت عمارة :

وسودة بنت عمارة بن الأشتر الهمداني من سيدات نساء العراق ، ومن ربات الفصاحة والبيان ، ورثت حب أمير المؤمنين من آبائها الكرام الذين عرفوا بالحب والأخلاص له ، وفدت على معاوية تشتكي عنده جور عامله

(١) اعلام النساء ١ / ٣٣٢ ، بلاغات النساء ص ٣٦ صبح الأعشى .

فلما دخلت عليه عرفها فقال لها :

ألست القائلة يوم صفين ؟ :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقران

وانصر علياً والحسين ورهطه ... واقصد لهند وابنهـــا بهوان

إن الأمام أخا النبي محمـــد ... علم الهدى ومنارة الإيمـان

فقد الجيوش وسر أمام لوائه ... قــدماً بأبيض صارم وسنان

قالت : « أي والله ما مثلي من رغب عن الحق أو اعتذر بالكذب » .

ـ فما حملك على ذلك ؟!

ـ حب علي وإتباع الحق .

ـ فو الله ما أرى عليك من أثر علي شيئاً ؟!

ـ يا أمير المؤمنين مات الرأس وبُتر الذنب ، فدع عنك تذكار ما قد نسي واعادة ما مضى .

ـ هيهات ما مثل مقام أخيك ينسى ، وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وأخيك .

ـ صدق فوك لم يكن أخي ذميم المقام ، ولا خفي المكان كان والله كقول الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

ـ صدقتِ كان كذلك .

ـ مات الرأس وبتر الذنب ، وبالله أسأل أمير المؤمنين اعفائي ممـا استعفيت منه .

ـ قد فعلت فما حاجتك ؟

ـ إنك أصبحت للناس سيداً . ولأمرهم متقلداً ، والله سائلك من

أمرنا ، وما افترض من حقنا . ولا يزال يقـدم علينا من ينوء بعزك . ويبطش بسلطانك فيحصدنا حصد السنبل ، ويدوسنا دوس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسلبنا الجليلة هذا بسر بن أرطاة قدم علينا من قبلك فقتـل رجالي وأخـذ مالي ، ولولا الطاعة لـكان فينا عز ومنعة ، فأما عزلته عنا فشكرناك ، وإما لا فعرفناك .

فتأثر معاوية من كلامها وقال لها :

« أتهدديني بقومك ؟ لقد هممت أن أحملك على قتب أشرس فأردك اليه ينفذ فيك حكمه » .

فأطرقت الى الأرض وهي باكية العين حزينة القلب ثم أنشأت تقول :

صلى الإله على جسم تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به بدلا فصار بالحق والإيمـان مقرونا

— ومن ذلك ؟

— علي بن أبي طالب .

— وما صنع بك حتى صار عندك كذلك ؟

— قدمت عليه في رجل ولاه صدقتنا فكان بيني وبينه ما بين الغث والسمين ، فأتيت علياً عليه السلام لأشكو اليه ما صنع ، فوجدته قائماً يصلي فلما نظر إلي انفتل من صلاته ، ثم قال لي برأفة وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته الخبر فبكى ثم قال : « اللهم إنك أنت الشاهد عليّ وعليهم أني لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا بترك حقك » ثم أخرج من جيبه قطعة جلد كهيئة طرف الجراب ، فكتب فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا النـاس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا

عليكم بحفيظ ، إذا قرأت كتابي فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك والسلام » فأخذته منه ، والله ما ختمه بطين ولا حزمه بحزام .

فتبهر معاوية وتعجب من هذا العدل والإنصاف وقال : « أكتبوا لها بالانصاف والعدل لها » .

فانبرت اليه قائلة :

« ألي خاصة أم لقومي عامة ؟ »

ـ وما أنت وغيرك ؟

ـ هي والله إذن الفحشاء واللؤم ، إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وإلا فأنا كسائر قومي .

ـ هيهات لمظكم ابن أبي طالب الجرأة وغركم قوله :

فلو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

ثم قال : « اكتبوا لها ولقومها بحاجتها » (١) .

٤ ـ أم البراء بنت صفوان :

وكانت أم البراء بنت صفوان بن هلال من سيدات النساء في عفتها وطهارة ذيلها ، عرفت بالولاء والإخلاص لأميرالمؤمنين عليه السلام ، وكان لها موقف مشرف في صفين فكانت تحرض الجماهير الحاشدة على مناجزة معاوية وقتاله ، ولما انتهى الأمر اليه وفدت عليه فقال لها :

« كيف أنت يا بنت صفوان ؟ »

ـ بخير يا أمير المؤمنين .

ـ كيف حالك ؟

---

(١) أعلام النساء ٢ / ٦٦٣ ، العقد الفريد ١ /٢١١ ، بلاغات النساء ص ٣٠ .

— ضعفتُ بعد جلد ، وكسلتُ بعد نشاط .

— شتان بينك اليوم وحين تقولين :

يا عمرو دونك صارماً ذا رونق غضب المهـزة ليس بالخوار

أسرج جوادك مسرعاً ومشمراً للحـرب غير معـرد لفرار

أجب الإمام ودب تحت لوائـه وافر العـدو بصارم بتـار

يا ليتني أصبحت ليس بعورة فأذب عنه عساكر الفجـار

— قد كان ذاك يا أمير المؤمنين ، ومثلك عفا والله تعالى يقول :

« عفا الله عما سلف » .

— هيهات أما انه لو عاد لعُدتِ ، ولكن أخترم دونك فكيف قولك حين قتل ؟ » فقالت نسيته .

فانبرى اليه بعض جلسائه فقال إنها تقول :

يا للرجال لعظم هول مصيبة فدحت فليس مصابها بالهـازل

الشمس كاسفة لفقـد إمامنا خير الخلائق والإمام العـادل

ياخير من ركب المطي ومن مشى فوق التراب لمحتف أو ناعل

حاشا النبي لقد هددت قواءنا فالحق أصبح خاضعاً للباطل

فتألم ابن هند وقال لها :

« قاتلكِ الله يا بنت صفوان ، ما تركتِ لقائل مقالاً اذكري حاجتك » .

ولما رأت بنت صفوان الاستهانة والتحقير من معاوية امتنعت أن تفوه بحاجتها وتسأله بمسألتها فقالت له :

« هيهات بعد هذا والله لا سألتك شيئاً » .

ولما قامت من مجلسه عثرت فقالت : « تعس شانئ علي » (١) .

---

(١) بلاغات النساء ص ٧٥ ، وصبح الأعشى .

وقد لاقت هذه المرأة النبيلة الكريمة المحتد والطيبة العنصر الاستهانة والإذلال لحبها لأمير المؤمنين .

٥ ــ بكارة الهلالية :

وبكارة الهلالية من سيدات النساء الموصوفات بالشجاعة والإقدام والفصاحة والبلاغة ، كانت من أنصار أمير المؤمنين في واقعة صفين وقد خطبت فيها خطباً حماسية دعت فيها جنود الحق للذب عن سيد المسلمين وأمير المؤمنين (ع) ولحرب عدوه .

وفدت بكارة على معاوية بعد أن تم له الأمر ، وقد كبُرت ودق عظمها ، ومعها خادمان وهي متكئة عليهما وبيدها عكاز ، فسلمت على معاوية بالخلافة فأحسن لها الرد وأذن لها بالجلوس ، وكان عنده مروان بن الحكم ، وعمرو بن العاص ، فعرفها مروان فالتفت الى معاوية قائلاً :

« أما تعرف هذه يا أمير المؤمنين ؟ »

ــ ومن هي ؟

ــ هي التي كانت تعين علينا يوم صفين وهي القائلة :

يا زيد دونك فاستثر من دارنا   سيفاً حساماً في التراب دفينا
قد كان مذخوراً لكل عظيمة   فاليوم أبرزه الزمان مصونا

واندفع ابن العاص قائلاً : يا أمير المؤمنين وهي القائلة :

أترى ابن هند للخلافة مالكاً   هيهات ذاك وما أراد بعيد
منتك نفسك في الخلاء ضلالة   أغراك عمرو للشقاء وسعيد
فارجع بأنكد طائر بنحوسها   لاقت علياً أسعد وسعود

وانبرى بعدهما سعيد قائلا : يا أمير المؤمنين وهي القائلة :

قد كنت آمل أن أموت ولا أرى   فوق المنابر من أمية خاطبا

فالله أخر مدتي فتطـــاولت حتى رأيت من الزمان عجائبـا
في كل يوم لا يزال خطيبهم وسط الجموع لآل أحمد عائبا

وسكت القوم ، فالتفتت بكارة الى معاوية قائلة له :

« نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني ، فقصرت محجتي وكثر عجبي ، وغشي بصري ، وأنا والله قائلة ما قالوا لا أدفع ذلك بتكذيب ، فامض لشأنك ، فلا خير فى العيش بعد أمير المؤمنين »(١) .

ثم انصرفت والألم يحز فى فؤادها ، قد نبحتها كلاب معاوية واحتوشها جلساؤه الأوغاد .

٦ ـ أروى بنت الحارث :

وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب من سيدات نساء المسلمين فى اقدامها وشجاعتها وحسن منطقها ، قد عرفت بالولاء والحب لأمير المؤمنين عليه السلام ، وفدت على معاوية فوجهت له سهاماً من القول ، وعرضت في كلامها عن محنة أهل البيت (ع) وما لاقوه بعد النبي (ص) من المحن والبلاء وهذا نص كلامها :

« أنت يا ابن أخي لقد كفرت بالنعمة ، وأسأت لابن عمك ـ يعني علياً ـ الصحبة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت غير حقك بغـــير بلاء كان منك ولا من آبائك في الإسلام ، ولقد كفرتم بما جاء به محمد (ص) فأتعس الله منكم الجدود ، وأصعر منكم الخدود ، حتى رد الله الحق الى أهله ، وكانت كلمة الله هي العليا ، ونبينا محمد (ص) هو المنصور على من ناوأه ولو كره المشركون ، فكنا أهـــل البيت أعظم الناس فى الدين حظاً ونصيباً وقدراً حتى قبض الله نبيه (ص) مغفوراً ذنبــه ، مرفوعاً

(١) بلاغات النساء ص ٣٤ ، عقد الفريد .

درجته شريفاً عند الله مرضياً فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى حيث يقول : « يا ابن أم ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني » ، ولم يجمع بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لنا شمل ، ولم يسهل لنا وعر ، وغايتنا الجنة ، وغايتكم النار » .

وكان ابن العاص حاضراً فلسعه كلامها فاندفع قائلاً :

« أيتها العجوز الضالة أقصري من قولك ، وغضي من طرفك » .

— ومن أنت لا أم لك ؟

— عمرو بن العاص .

— يا ابن اللخناء النابغة ، أتكلمني ؟!! أربع على ضلعك ، وأعن بشأن نفسك ، فو الله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها ، ولا كريم منصبها ، ولقد ادعاك ستة من قريش كل واحد يزعم أنه أبوك ، ولقد رأيت أمك أيام منى بمكة مع كل عبد عاهر فأتم بهم فانك بهم أشبه .

والتفت لها مروان بن الحكم فقال لها :

« أيتها العجوز الضالة ساخ بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك » .

فانبرت اليه قائلة :

« يا بني أتتكلم ؟ فو الله لأنت الى سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم ، وإنك لتشبهه في زرقة عينيك ، وحمرة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمامته ، ولقد رأيت الحكم ماد القامة ، ظاهر الأمة ، سبط الشعر وما بينكما من قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المقرب

فاسأل أمك عما ذكرت لك فانها تخبرك بشأن أبيك إن صدقت » .

ثم التفتت الى معاوية فقالت له :

« والله ما عرضني لهؤلاء غيرك وإن أمك هند القائلة في يوم أحد في قتل حمزة رحمة الله عليه :

نحن جزيناكم بيوم بدر	والحرب يوم الحرب ذات سعر
ماكان عن عتبة لي من صبر	أبي وعمي وأخي وصهري
شفيت وحشي غليل صدري	شفيت نفسي وقضيت نذري
فشكر وحشي عليّ عمري	حتى تغيب أعظمي في قبري

فأجبتها :

يا بنت رقاع عظيم الكفر	خزيت في بدر وغير بدر
صبحك الله قبيل الفجر	بالهاشميين الطوال الزهر
بكل قطاع حسام يفري	حمزة ليثي وعلي صقري
إذ رام شيبب وأبوك غدري	أعطيت وحشي ضمير الصدر
هتك وحشي حجاب الستر	ما للبغايا بعدها من فخر

فثار معاوية والتفت الى ابن العاص ومروان قائلاً :

« ويلكما أنتما عرضتماني لها وأسمعتماني ما أكره » .

ثم التفت اليها فقال لها :

« يا عمة اقصدي حاجتك ودعي عنك أساطير النساء » .

ــ تأمر لي بألفي دينار ، وألفي دينار ، وألفي دينار .

ــ ما تصنعين بألفي دينار ؟

ــ أشتري بها عيناً خرخارة ، في أرض خوارة تكون لولد الحارث ابن عبد المطلب .

— نعم الموضع وضعتها ، فما تصنعين بألفي دينار ؟
— أزوج بها فتيان عبد المطلب من أكفائهم .
— نعم الموضع وضعتها ، فما تصنعين بألفي دينار ؟
— أستعين بها على عسر المدينة ، وزيارة بيت الله الحرام .
— نعم الموضع وضعتها ، هي لك نعم وكرامة .

ثم التفت اليها بعد هذا العطاء الجزيل ليرى مدى اخلاصها لأمير المؤمنين قائلاً :

« أما والله لو كان علي ما أمر لك بها !! »

— صدقت ، إن علياً أدى الأمانة ، وعمل بأمر الله وأخذ به ، وأنت ضيعت أمانتك ، وخنت الله في ماله ، فأعطيت مال الله من لا يستحقه وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها وبيّنها فلم تاخذ بها ، ودعانا علي الى أخذ حقنا الذي فرض الله لنا فشغل بحربك عن وضع الأمور في مواضعها ، وما سألتك من مالك شيئاً فتمن به إنما سألتك من حقنا ، ولا نرى أخذ شيء غير حقنا ، أتذكر علياً فضّ الله فاك وأجهد بلاءك ؟.

ثم بكت وقالت رائية لأمير المؤمنين :

ألا يا عين ويحك أسعدينا	ألا وابكي أمير المؤمنينا
رزينا خير من ركب المطايا	وفارسها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال أو احتذاها	ومن قرأ المثاني والمئينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين	رأيت البدر راع الناظرينا
ولا والله لا أنسى علياً	وحسن صلاته في الراكعينا
أفي الشهر الحرام فجعتمونا	بخير الناس طراً أجمعينا

فأمر لها معاوية بستة آلاف دينار فأخذتها وانصرفت (١) وقد أراد معاوية بتكريمه لها استمالة قلبها وصرفها عن حب أمير المؤمنين (ع)، وقد خاب سعيه، فان من طبع على حب أمير المؤمنين والإخلاص اليه كيف يغيره المال؟ وتقلب عقيدته المادة، وقد فاهت بهذا الشعور الطيب كريمة أبي الأسود الدؤلي فقد بعث معاوية حلوى هدية الى أبيها ليستميله عن حب أمير المؤمنين (ع) فتناولت ابنته قطعة من تلك الحلوى ووضعتها في فيها فقال لها أبوها :

« يا بنتي القيها فانها سم، هذه حلواء أرسلها الينا معاوية ليخدعنا عن أمير المؤمنين ويردنا عن محبة أهل البيت !! »

فلما سمعت بذلك انبرت الى أبيها تعرب له عن شعورها الطيب وعن مدى حبها لأمير المؤمنين قائلة :

« قبحه الله، يخدعنا عن السيد المطهر بالشهد المزعفر، تباً لمرسله وآكله !! »

ثم قاءت ما أكلته وأنشأت تقول :

أبا لشهد المزعفر يا ابن هند نبيع عليك أحساباً ودينا
معاذ الله كيف يكون هـذا ومولانا أمير المؤمنينا (٢)

٧ ـ عكرشة بنت الأطرش :

وعكرشة بنت الأطرش سيدة جليلة تعد في طليعة نساء العرب في شجاعتها، وقوة بيانها، كانت في صفين تدعو النـاس الى نصرة الإمام ومناجزة عدوه، ولما تم الأمر الى معاوية وفدت عليه فسلمت عليه بالخلافة

(١) بلاغات النساء ص ٢٧، العقد الفريد ١ / ٢١٩.

(٢) الكنى والألقاب ١ / ٨.

فتذكر موقفها في صفين فقال لها :

« يا عكرشة الآن صرت أمير المؤمنين ؟ »

فقالت له :

« نعم إذ لا عليّ حي » .

فلم يقتنع بذلك وأخذ يذكرها بموقفها وخطبها في صفين قائلاً :

« ألست صاحبة الكور المسدول ، والوسيط المشدود ، والمتقلدة بحمائل السيف ، وأنت واقفة بين الصفين تقولين :

« يا أيها الناس ، عليكم أنفسكم ، لا يضُركم من ضل إذا اهتديتم إن الجنة دار لا يرحل عنها من قطنها ، ولا يحزن من سكنها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها ، كونوا قوماً مستبصرين ، إن معاوية دلف اليكم بعجم العرب ، غلف القلوب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون ما الحكمة ؟ دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم الى الباطل فلبوه ، فالله الله عباد الله في دين الله !! وإياكم والتواكل ، فان في ذلك نقض عروة الإسلام ، وإطفاء نور الإيمان ، وذهاب السنة ، وإظهار الباطل هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى ، قاتلوا يا معشر الأنصار والمهاجرين على بصيرة من دينكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة ، والبغال الشحاجة تضفع ضفع البقر ، وتروث روث العتاق » .

وبعد ما تلى معاوية عليها خطابها قال لها بنبرات تقطر غضباً :

« فو الله لولا قدر الله ، وما أحب أن يجعل لنا هذا الأمر لقد كان انكفأ علي العسكران فما حملك على ذلك ؟ »

فقابلته بناعم القول قائلة :

« إن اللبيب إذا كره أمراً لم يحب إعادته » .

ــ صدقت اذكري حاجتك .

ــ إن الله قد رد صدقاتنا علينا ورد أموالنا فينا إلا بحقها ، وإنا قد فقدنا ذلك ، فما ينعش لنا فقير ، ولا يجبر لنا كسير فان كان ذلك عن رأيك فما مثلك من استعان بالخونة ، ولا استعمل الظالمين .

فما اعتنى معاوية باسترحامها وقال لها :

« يا هــذه إنه تنوبنا أمور هي أولى بنا منكم ، من بحور تنبثق ، ولثغور تنفتق » .

ــ يا سبحان الله !! ما فرض الله لنا حقاً جعل لنا فيه ضرراً على غيرنا ما جعله لنا وهو علام الغيوب .

ولم يجد حينئذ معاوية بدا من إجابتها فقال لها :

ــ هيهات يا أهل العراق نبهكم ابن أبي طالب فلن تطاقوا .

ثم أمر لها بقضاء حاجتها وردها الى أهلها (١) .

٨ ــ الدارمية الحجونية :

ومن سيدات النساء وخيارهن الدارمية الحجونية ، عرفت بالصلاح والنسك ، وبقوة الحجة ، وشدة العارضة ، قد والت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، ولما تم الأمر الى معاوية بعث خلفها وكان آنذاك في الحجاز فلما مثلت عنده قال لها :

« كيف حالك يا ابنة حام »

ــ بخير ، ولست لحام إنما أنا امرأة من قريش من بني كنانة ، ثمت من بني أبيك .

---

(١) بلاغات النساء ص ٧٠ ، العقد الفريد ١ / ٢١٥ ، صبح الأعشى .

ـ صدقتِ ، هل تعلمين لِمَ بعثت اليك ؟

ـ لا ، يا سبحان الله !! وأنّى لي بعلم ما لم أعلم ؟

ـ بعثتُ اليك أنأسألك علام أحببت علياً (ع) وأبغضتيني ؟ وعلام واليتيه وعاديتيني ؟

ـ أو تعفيني من ذلك ؟

ـ لا أعفيكِ ، لذلك دعوتكِ .

ـ فأما إذا أبيت فإني أحببت علياً (ع) على عدله في الرعيـة ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتالك من هو أولى بالأمر منك ، وطلبك ما ليس لك ، وواليت علياً على ما عقد له رسول الله (ص) من الولاية وحب المساكين ، واعظامه لأهـل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وشقك العصا .

فتأثر ابن هند من مقالها وقال فاحشاً ومستهزئاً :

« صدقتِ فلذلك انتفخ بطنك ، وكبر ثديك ، وعظمت عجيزتك »

فردت عليه مقالته بالمثل :

« يا هذا بهند والله يضرب المثل لا أنا » .

ـ لا تغضبي فانا لم نقـل إلا خيراً ، إنه إن انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدهـا ، وإذا كبر ثديها حسن غذاء ولدها ، وإذا عظمت عجيزتها وزن مجلسها .

فهدأ روعها ، وسكن غضبها ، ثم التفت لها :

ـ هل رأيت علياً ؟

ـ أي والله لقد رأيته .

ـ كيف رأيته ؟

ـ لم ينفخه الملك ، ولم تصقله النعمة (١) .

ـ هل سمعت كلامه ؟

ـ كان والله كلامه يجلو القلوب من العمى ، كما يجلي الزيت صداء الطست .

ـ صدقتِ ، هل لك من حاجة ؟

ـ أو تفعل إذا سألتك ؟

ـ نعم .

ـ تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها .

ـ ما تصنعين بها ؟

ـ أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، واكتسب بها المكارم واصلح بها بين العشائر .

ـ فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن أبي طالب ؟

ـ سبحان الله !!! أو دونه أو دونه .

فتبهر معاوية وقال :

إذا لم أعد بالحلم مني عليكم ... فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم

خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد ... جزاك على حرب العداوة بالسلم

أما والله لو كان علي حياً ما أعطاك منها شيئاً .

ـ لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين (٢) .

---

(١) وفي العقد الفريد : رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك .

(٢) بلاغات النساء ص ٧٢ ، العقد الفريد ١ / ٢١٦ ، صبح الأعشى ١ / ٢٥٩ .

الى هنا ينتهي بنا الحديث عما لاقته شيعة أمير المؤمنين عليه السلام من التنكيل ، والتعذيب ، والإعدام ، والعسف ، والإرهاب ، والإذلال ، والتحقير من قبل معاوية وعامله زياد ، وبذلك فقد نقض معاوية أهم شروط الصلح ، وهو عدم التعرض لشيعة آل البيت بسوء ومكروه وغائلة:

المؤتمر الحسيني :

ولما رأى سيد الشهداء الإمام الحسين (ع) الإجراءات الحاسمة التي اتخذها معاوية ضد العترة الطاهرة ، عقد (ع) مؤتمراً في مكة ، دعا فيه جمهوراً غفيراً ممن شهد موسم الحج من المهاجرين والأنصار ، والتابعين ، وغيرهم من سائر المسلمين ، وعرض عليهم ما ألمّ بأهل البيت وبشيعتهم من المحن والخطوب من جراء الحكم القائم الذي عمد الى اتخاذ جميع الوسائل للكيد لآل النبي (ص) واخفاء فضائلهم ، وستر ما أثر عن الرسول فى حقهم وقد ألزم حضار مؤتمره باذاعة ذلك بين المسلمين ، ونسوق ما رواه سليم ابن قيس فى ذلك قال :

« ولما كان قبل موت معاوية بسنة ، حج الحسين بن علي ، وعبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، فجمع الحسين بني هاشم ، رجالهم ونساءهم ، ومواليهم ، ومن حج منهم من الأنصار ، ممن يعرفه الحسين عليه السلام وأهل بيته ، ثم أرسل رسلاً وقال لهم : لا تدعوا أحداً حج العام من أصحاب رسول الله (ص) المعروفين بالصلاح والنسك إلا اجمعوهم لي ، فاجتمع اليه بمنى أكثر من سبعمائة رجل وهم فى سرادقه . عامتهم من التابعين ، ونحو من مائتي رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فقام فيهم خطيباً :

« فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فان هذا الطاغية قد فعل بنا وبشيعتنا ما قد رأيتم ، وعلمتم وشهدتم . وإني أريد أن أسألكم عن شيء فان صدقت فصدقوني ، وإن كذبت فكذبوني ، اسمعوا مقالتي ، واكتبوا قولي ، ثم ارجعوا الى أمصاركم وقبائلكم ، فمن أمنتم من الناس ، ووثقتم به فادعوهم الى ماتعلمون من حقنا . فاني أتخوف أن يدرس هذا الأمر ويغلب ، والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

« وما ترك شيئاً مما أنزله الله فيهم من القرآن إلا تلاه وفسره ، ولا شيئاً مما قاله رسول الله (ص) فى أبيه وأخيه وأمه وفى نفسه وأهل بيته إلا رواه . . وكل ذلك يقول أصحابه اللهم نعم ، وقد سمعنا وشهدنا ، ويقول التابعي : اللهم قد حدثني به من أصدقه وأئتمنه من الصحابة ، فقال : أنشدكم الله إلا حدثتم به من تثقون به وبدينه .. » (1)

وكان هذا المؤتمر الذي عقده الإمام أول مؤتمر عرفه العالم الإسلامى في ذلك الوقت ، فقد شجب فيه الإمام سياسة معاوية ، ودعا المسلمين الى مناهضة حكمه ، والى الإطاحة بسلطانه .

٤ — البيعة ليزيد :

ومن أهم بنود الصلح إرجاع الخلافة الإسلامية الى الإمام الحسن ، ومن بعده الى أخيه الحسين عليهما السلام بعد هلاك معاوية ، فقد كانت هذه المادة من أهم شروط الصلح التى وقع عليها معاوية ، ولكنه بعد ما تم له الأمر ، وصفا له الملك ، صمم على نقضها ، وعلى عدم الوفاء بها ، فقد أخذ يعمل مجداً في جعل الخلافة وراثة في أهل بيته ، وهو بهذا الفعل

---

(1) سليم بن قيس .

كما يقول الاستاذ السيد قطب : « مدفوع بدافع لايعرفه الإسلام ، دافع العصبية العائلية والقبلية ، وما هي بكثيرة على معاوية ولا بغريبة عليه ، فعاوية بن أبي سفيان وابن هند بنت عتبة ، وهو وريث قومه وأشبه شيء بهم في بُعد روحه عن حقيقة الإسلام » (١) .

لقدكان معاوية في فعله هذا مدفوعاً بدافع الجاهلية العمياء ، وبدافع العصبية القبلية التي شجبها الإسلام فقد اعتبر المواهب والكفاءة والعلم والجدارة فيمن يتولى شؤون الحكم ، والغى جميع الإعتبارات التي لا تمت لذلك ، فقد صح عن رسول الله (ص) أنه قال : « من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » (٢) ولكن معاوية الذي برىء من الإسلام راح يعمل بوحي من جاهليته الى الإنتقام من الإسلام والى تمزيق صفوف المسلمين فعمد الى جعل الخلافة الى ولده الفاسق الأثيم يزيد وقد صور فسقه ومجونه الشاعر العبقري الاستاذ الكبير بولس سلامة بقوله :

وترفق بصاحب العرش مشغو ... لاً عن الله بالقيان الملاح

ألف (الله أكبر) لا يساوي ... بين كفي يزيد نهلة راح

تتلظى في الدنان بكرا فلم ... تدنس بلثم ولا بماء قراح (٣)

وقال فيه عبد الله بن حنظلة الصحابي العظيم المنعوت بالراهب قتيل واقعة الحرة : والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء ، إنه رجل ينكح الامهات ، والبنات ، والأخوات ، ويشرب الخمر

---

(١) العدالة الاجتماعية ص ١٨٠ .

(٢) النصائح ص ٣٩ .

(٣) ملحمة الغدير ص ٢٢٧ .

ويدع الصلاة ، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاءً حسناً » (١) . وقال فيه المنذر بن الزبير لما قدم المدينة : « إن يزيد قد أجازني بمائة الف ، ولا يمنعني ما صنع بي أن أخبركم خبره ، والله إنه ليشرب الخمر ، والله إنه ليسكر حتى يدع الصلاة » (٢) ، وقال ابن فليح إن أبا عمرو بن حفص وفد على يزيد فأكرمه ، وأحسن جائزته ، فلما قدم المدينة قام الى جنب المنبر وكان مرضياً صالحاً فخطب الناس فقال لهم : « ألم أُحب ؟ ألم أُكرم ؟ والله رأيت يزيد بن معاوية يترك الصلاة مسكراً » (٣) .

لقد كان معاوية يعلم فسق ولده وارتكابه للموبقات ، وادمانه على شرب المسكر ، وتركه للصلاة ، وقد أدلى بذلك في كتابه الذي ندد فيه بأفعاله فقد جاء فيه ما نصه :

« بلغني أنك اتخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير كما قال تعالى : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » ، وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهراً . اعلم يا يزيد ، ان أول ما سلبكه السكر معرفة مواطن الشكر لله على نعمه المتظاهرة ، وآلائه المتواترة ، وهي الجرحة العظمى ، والفجعة الكبرى : ترك الصلوات المفروضات في أوقاتها ، وهو من أعظم ما يحدث من آفاتها ، ثم استحسان العيوب ، وركوب الذنوب ، وإظهار العورة ، وإباحة السر ، فلا تأمن نفسك على سرك ، ولا تعتقد على فعلك » (٤) .

---

(١) تأريخ ابن عساكر ٧ / ٣٧٢ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٨١ .

(٢) البداية والنهاية ٨ / ٢١٦ ، الكامل لابن الأثير ٤ / ٤٥ .

(٣) تاريخ ابن عساكر ٧ / ٢٨ .

(٤) صبح الأعشى ٦ / ٣٨٨ .

ومع علمه بمروق ولده عن الدين ، واستحلاله لما حرّم الله ، واغراقه في الشهوات ، كيف يمكنه من رقاب المسلمين ويفرضه حاكماً عليهم ، إنه بذلك مدفوع بدافع الحقد على الإسلام ، وبدافع العصبية الجاهلية التي أترعت بها نفسه الشريرة .

لقد أجهد معاوية نفسه في فرض يزيد حاكماً على المسلمين ، فقد ظل سبع سنين يروض الناس ، ويعطي الأقارب ، ويدني الأباعد من أجل ذلك (١) ، ولما هلك زياد وكان كارهاً لبيعة يزيد أظهر عهداً مفتعلاً عليه فيه عقد الخلافة ليزيد من بعده (٢) ، وهكذا اعتمد على جميع الوسائل التي لم يألفها المسلمون ، ولم يقرها الدين في سبيل جعل الملك في بني أميّة وتحويل الخلافة عن مفاهيمها الخلاقة الى الملك العضوض . وقد جرت تلك المقدمات التي عملها معاوية في حياة الإمام الحسن (ع) ولكنه لم يعلن البيعة الرسمية ليزيد إلا بعد اغتياله للإمام ، وعلينا أن نعرض بعض الوسائل التمهيدية التي عملها معاوية من أجل ذلك .

دعوة المغيرة :

وأول من تصدى الى الدعوة لهذه البيعة المشومة المنافق الأثيم أعور ثقيف المغيرة بن شعبة صاحب الأحداث والموبقات في الإسلام (٣) وسبب

(١) العقد الفريد ٢ / ٣٠٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٢٧٠ ، العقد الفريد ٢ / ٣٠٢ .

(٣) من موبقات المغيرة انه أول من رشى في الإسلام كما يروي ذلك البيهقي وغيره ، ومن جرائمه انه الوسيط في استلحاق زياد بمعاوية ، وهو صاحب الدعوة الى البيعة ليزيد ،

ذلك فيما يرويه المؤرخون أن معاوية أراد عزله عن الكوفة فبلغه ذلك ، فرأى أن يسافر الى دمشق ويبادر بتقديم استقالته عن منصبه حتى لا تكون عليه حزازة ، وليرى الناس أنه كاره للإمارة والحكم ، ولما وصل الى دمشق عنّ له أن يلتقي بيزيد قبل التقائه بمعاوية فيحبذ له الخلافة من بعد أبيه ليتخذ من اغرائه وسيلة الى اقراره فى الحكم ، كما أدلى بذلك لأصحابه ولما التقى بيزيد قال له :

« إنه قد ذهب أعيان أصحاب محمد (ص) وكبراء قريش وذوو أسنانهم ، وإنما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم ، وأحسنهم رأياً ، وأعلمهم بالسنة والسياسة ، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟. »

ولما سمع ذلك يزيد الطائش المغرور طار لبه فرحاً وسروراً فانبرى اليه قائلاً :

« أو ترى ذلك يتم ؟ »

« نعم » .

ومضى يزيد مستعجلاً الى أبيه فأخبره بمقالة المغيرة ، فارتاح معاوية بذلك وبعث بالوقت خلفه فعرض عليه مقالته ليزيد فأجابه بصدور ذلك منه ثم انبرى اليه يحفزه على تحقيق هذه الفكرة قائلا له مقال المنافق الذي لا يعرف الخير ولا يفكر به :

« يا أمير المؤمنين ، قد رأيت ما كان من سفك الدماء والإختلاف بعد عثمان . وفي يزيد منك خلف فاعقد له ، فان حدث بك حدث كان كهفاً للناس وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ، ولا تكون فتنة !! »

وأصابت هذه الكلمات الهدف المقصود لمعاوية فقال له مخادعاً ومستشيراً :

« ومن لي بهذا ؟ »

« أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك . »

فاستحسن معاوية رأيه ، وأجازه على ذلك فأقره فى عمله ، ثم أمره بالخروج الى الكوفة ليعمل على تحقيق ذلك ، ولما انصرف عنه اجتمع بقومه فبادروه بالسؤال عن مصيره فأجابهم بما جلبه من البلاء والفتن لعموم المسلمين من أجل غايته قائلاً :

« لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغاية على أمة محمد (ص) وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً » وتمثل :

بمثلي شاهد النجوى وغالى ... بي الأعداء والخصم الغضابا

وسار المغيرة حتى انتهى الى الكوفة ، ففاوض بمهمته جماعة ممن عرفهم بالولاء والإخلاص للبيت الأموي فأجابوه الى ما أراد فأوفد منهم عشرة الى معاوية بعد أن أرشاهم بثلاثين ألف درهم ، وجعل عليهم عميداً ولده موسى ، فلما انتهوا الى معاوية حبذوا له الأمر ودعوه الى انجازه فشكرهم معاوية ، وأوصاهم بكتمان الأمر ، ثم التفت الى ابن المغيرة فساره قائلاً :

« بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟ »

— بثلاثين ألف درهم .

فضحك معاوية وقال :

« لقد هان عليهم دينهم » (١) .

لقد توصل معاوية الى تحقيق ذلك بشراء الأديان والضمائر والى الإعتماد

(١) تأريخ الطبري ٦ / ١٦٩ ، الكامل لابن الأثير ٣ / ٢١٤ ، وكان قدوم المغيرة على معاوية في سنة ٤٥ ، ففي هذه السنة عمل معاوية مقدمات البيعة لولده .

على الوسائل التي لم يألفها المسلمون ، ولم يقرها الدين .

وفود الأمصار :

ووجه معاوية دعوة رسمية الى جميع الشخصيات الرفيعة فى العالم الإسلامى يدعوهم الى الحضور في دمشق ليفاوضهم في أمر البيعة ليزيد ، فلما حضروا عنده دعا الضحاك بن قيس الفهري سراً وقال له :

« إذا جلست على المنبر ، وفرغت من بعض موعظتي وكلامى ، فاستاذني للقيام ، فاذا أذنت لك فاحمد الله تعالى ، واذكر يزيد وقل فيه الذي يحق له عليك ، من حسن الثناء عليه ، ثم ادعني الى توليته من بعدي فاني قد رأيت وأجمعت على توليته ، فاسأل الله في ذلك ، وفى غيره الخيرة وحسن القضاء » .

ثم دعا فريقاً آخر من الأذناب والعملاء الذين هان عليهم دينهم فباعوه بأبخس الأثمان ، فأمرهم بتصديق مقالة الضحاك وتأييد فكرته ، وهم: عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، وعبد الله بن مسعدة الفزاري ، وثور بن معن السلمي ، وعبد الله بن عصام الأشعري ، فاستجابوا لدعوته ، ونزى معاوية على المنبر فحدث الناس بما شاء أن يتحدث به ، وبعد الفراغ من حديثه انبرى اليه الضحاك فاستأذنه بالكلام فأذن له ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه : « أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إنا قد بلونا الجماعة والألفة والإختلاف ، والفرقة ، فوجدناها ألمّ لشعثنا ، وأمنة لسبلنا ، وحاقنة لدمائنا وعائدة علينا فى عاجل ما نرجو ، وآجل ما نؤمل ، مع ما ترجو به الجماعة من الألفة ، ولا خير لنا أن نترك سدى ، والأيام عوج رواجع والله يقول: « كل يوم هو في شأن » ، ولسنا ندري ما يختلف به العصران ، وأنت

يا أمير المؤمنين ميت كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه ، نسأل الله بك المتاع ، وقد رأينا من دعة يزيد بن أمير المؤمنين ، وحسن مذهبه وقصد سيرته ، ويمن نقيبته ، مع ما قسم الله له من المحبة في المسلمين ، والشبه بأمير المؤمنين ، في عقله ، وسياسته وشيمته المرضية ، ما دعانا الى الرضا به في امورنا ، والقنوع به في الولاية علينا ، فليوله أمير المؤمنين – أكرمه الله – عهده ، وليجعله لنا ملجأ ومفزعاً بعده ، نأوي اليه إن كان كون ، فانه ليس أحد أحق بها منه ، فاعزم على ذلك عزم الله لك في رشدك ، ووفقك في امورنا » .

ودل هذا الكلام على أن صاحبه رجل سوء ونفاق ، فقد عمد الى سحق جميع القيم الإنسانية في سبيل أطماعه ومنافعه .

ولما فرغ الضحاك من مقالته انبرى من بعده زملاؤه فأيدوا مقالته ، وأخذوا ينسبون ليزيد فضائل المحسنين ، ويضفون عليه مواهب العبقريين ، ويطلقون عليه الألقاب الضخمة ، والنعوت الشريفة التي اتصف بعكسها ، وأخذوا يموهون على المجتمع أنهم إنما تكلموا من صالحه واسعاده ، وهم – يعلم الله – إنما أرادوا هلاكه وتحطيمه ، والقضاء على نواميسه ومقدساته وبعد ما انتهى حديث هؤلاء التفت معاوية الى الوفد العراقي ليسمع رأيه وكان شخصية الوفد الأحنف بن قيس حليم العرب وسيد تميم فطلب منه معاوية الرأي فى الأمر ، فقام الأحنف خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم التفت الى معاوية قائلاً :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، ان الناس قد أمسوا فى منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان مؤتنف ، ويزيد بن أمير المؤمنين ، نعم الخلف وقد حلبت الدهر أشطره يا أمير المؤمنين فاعرف من تسند اليه الأمر من

بعدك ، ثم اعص أمر من يأمرك ، لا يغررك من يشير عليك ، ولا ينظر لك وأنت أنظر للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حياً » :

لقد منح الأحنف النصيحة الى معاوية وأرشده الى الحق فأشار عليه بعدم سماع أقوال المرتزقين الذين ينظرون الى صالح أنفسهم أكثر مما ينظرون لصالحه ، وبيّن له أن العراقيين والحجازيين لا يرضون بهذه البيعة ما دام حفيد الرسول وسبطه الأول حياً ، وقد اثارت هذه الكلمات غضب النفعيين والمرتشين الذين تذرع معاوية بهم الى تحقيق هدفه فقام اليه الضحاك بن قيس فندد بمقالته وشتم العراقيين وهذا نص كلامه :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النفاق من أهل العراق مروءتهم في أنفسهم الشقاق ، وألفتهم في دينهم الفراق ، يرون الحق على أهوائهم كأنما ينظرون بأقفائهم ، اختالوا جهلا وبطراً ، لا يرقبون من الله راقبة ، ولا يخافون وبال عاقبة ، اتخذوا ابليس لهم رباً ، واتخذهم ابليس حزباً ، فمن يقاربوه لا يسروه ، ومن يفارقوه لا يضروه ، فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين في نحورهم ، وكلامهم في صدورهم ، ما للحسن وذوي الحسن في سلطان الله الذي استخلف به معاوية في أرضه ؟ هيهات لا تورث الخلافة عن كلالة ، ولا يحجب غير الذكر العصبة ، فوطنوا أنفسكم يا أهل العراق على المناصحة لإمامكم ، وكاتب نبيكم وصهره ، يسلم لكم العاجل ، وتربحوا من الآجل » .

ولم نحسب أن العراق قد ذم بمثل هذا الذم الفظيع ، أو وصم بمثل هذه الامور ، ولكن العراقيين هم الذين جروا لأنفسهم هذا البلاء وتركوا هذا الوغد وأمثاله يحط من كرامتهم ، ويتطاول عليهم .

وعلى أي حال ، فان الأحنف لم يذعن لمعاوية ولم يعتن بمقالة الضحاك فقد انبرى يهدد معاوية باعلان الحرب إن أصرّ على تنفيذ فكرته قائلاً :

« يا أمير المؤمنين ، إنا قد فررنا (١) عنك قريشاً فوجدناك أكرمها زنداً ، وأشدها عقداً ، وأوفاها عهداً ، قد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة ، ولم تظهر عليها قعصاً ، ولكنك أعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك ، فان تف فأنت أهل الوفاء وإن تغدر تعلم ، والله إن وراء الحسن خيولاً جياداً ، وأذرعاً شداداً ، وسيوفاً حداداً ، إن تدن له شبراً من غدر ، تجد وراءه باعاً من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك ، ولا أبغضوا علياً وحسناً منذ أحبوهما ، وما نزل عليهم في ذلك غير من السماء ، وإن السيوف التي شهروها عليك مع علي يوم صفين لعلى عواتقهم ، والقلوب التي أبغضوك بها لبين جوانحهم ، وأيم الله إن الحسن لأحب لأهل العراق من علي » .

لقد بالغ الأحنف في نصح معاوية ، وذكر له تمسك العراقيين بولاء أهل البيت (ع) وان اخلاصهم للإمام الحسن أكثر من أبيه ، وهم على استعداد الى مناجزته إن نفذ بيعة يزيد ، وانطلق عبد الرحمن بن عثمان فندد بمقالة الأحنف ، وحرض معاوية على تنجيز مهمته قائلاً له :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، ان رأي النـاس مختلف ، وكثير منهم منحرف ، لا يدعون أحداً الى رشاد ، ولا يجيبون داعياً الى سداد ، مجانبون لرأي الخلفاء ، مخالفون لهم في السنة والقضاء ، وقد وقفت ليزيد في أحسن القضية وأرضاهـا لحمل الرعية ، فاذا خار الله لك فاعزم ثم اقطع قالة الكلام فان يزيد أعظمنا حلماً وعلماً ، وأوسعنا كنفاً ، وخيرنا سلفاً ، قد

(١) فررنا : أي بحثنا وفتشنا .

أحكمته التجارب ، وقصـــدت به سبل المذاهب فلا يصرفنك عن بيعته صارف ، ولا يقفن بك دونها واقف ، ممن هو شاسع عاص ينوص للفتنة كل مناص لسانه ملتو ، وفي صـــدره داء دوّي ، إن قال فشر قائل ، وإن سكت فذو دغائل ، قد عرفت من هم أولئك وما هم عليه لك من المجانبة للتوفيق والـكلف للتفريق فاجل ببيعته عنا الغمة ، واجمع به شمل الأمّة ، فلا تحد عنه إذا هديت له ، ولا تنش عنه إذا وقفت له ، فان ذلك الرأي لنـــا ولك ، والحق علينا وعليك ، اسأل الله العـــون وحسن العاقبة لنا ولك » .

وصورت لنا هذه الكلمات ضميراً قلقاً ، ونفساً أثيمة ، قد اعتنقت الشر ، وابتعدت عن الخير ، وانبرى معاوية يهدد من لا يوافقه على رغبته ليفرض على المجتمع الخضوع لفكرته ، والرضا ببيعة يزيد قائلا :

« أيها الناس : إن لابليس إخواناً وخـــلاّناً ، بهم يستعد ، وإياهم يستعين ، وعلى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعاً أو جفوا ، وإن استغنى عنهم أرجفوا ، ثم يلحقون الفتن بالفجور ، ويشققون لها حطب النفاق ، عيابون مرتابون ، إن ولوا عروة أمر حنقوا ، وإن دعوا الى غي أسرفوا وليسوا أولئك بمنتهين ، ولا بمقلعين ، ولا متعظين ، حتى تصيبهم صواعق خزي وبيل ، وتحل بهم قوارع أمر جليل ، تجتث اصولهم كاجتثاث اصول الفقع (١) فأولى لأولئك ثم أولى ، فانا قد قدمنا وأنذرنا إن أغنى التقـدم شيئاً أو نفع النذر » .

بمثل هذا الإرهاب الفظيـع الذي لم يعهد له نظير تذرع معاوية الى تحقيق فكرته ، ثم استدعا الضحاك بن قيس فولاه الكوفة جزاءاً لـكلامه

(١) الفقع : بالفتح والكسر ، البيضاء الرخوة من الكماة .

بعد هلاك المغيرة ، واستدعا عبد الرحمن فولاه الجزيرة ، وقام يزيد بن المقفع رافعاً عقيرته قائلاً :

« أمير المؤمنين هذا — وأشار الى معاوية — » .

ثم قال : « فإن هلك ، فهذا — وأشار الى يزيد — » .

ثم قال : « فن أبى ، فهذا — وأشار الى السيف — !!! »

فاستحسن معاوية كلامه وقال له :

« اجلس ، فأنت سيد الخطباء وأكرمهم !! »

بهذا اللون من الإرهاب فرض معاوية ابنه الفاسق الفاجر خليفة على المسلمين ، فلولا السيف لما وجد الى ذلك سبيلا . ولما رأى الأحنف بن قيس تصميم معاوية على فكرته وعدم تنازله عنها انبرى اليه قائلا :

« يا أمير المؤمنين : أنت أعلمنا بليله ونهاره ، وبسره وعلانيته ، فان كنت تعلم أنه خير لك فوله واستخلفه ، وإن كنت تعلم أنه شر لك ، فلا تزوده الدنيا وأنت صائر الى الآخرة ، فانه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت تعلم من هما ، وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » (١) .

ولم يعتن معاوية بمقالة الأحنف ونصحه ، ولم يفكر في مصير المسلمين إذا استخلف عليهم ولده قرين الفهود والمدمن على الخمور ، وأخذ معاوية ولده يزيد فأجلسه في قبة حمراء وبايعه بولاية العهد وأمر الناس بمبايعته ، وأقبل بعض العملاء فسلم عليهما ثم أقبل على معاوية فقال له :

« يا أمير المؤمنين : اعلم انك لو لم تول هذا — وأشار الى يزيد —

---

(١) الامامة والسياسة ١ / ١٧٤ — ١٨٠ .

أمور المسلمين لاضعتها » .

فالتفت معاوية الى الأحنف :

« ما بالك لا تقول يا أبا بحر ؟ »

ـ أخاف الله إذا كذبت ، وأخافكم إذا صدقت .

ـ جزاك الله على الطاعة خيراً .

وخرج الأحنف فلقيه ذلك الرجل بعد أن أجزل له معاوية بالعطاء فقال للأحنف معتذراً من مقالته :

« يا أبا بحر : إني لأعلم ان شر من خلق الله هذا وابنه ـ يعني معاوية ويزيد ـ ولكنهم إستوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ، فليس يطمع في استخراجها إلا بما سمعت » (١) .

لقد أحدث معاوية بهذه البيعة المشومة صدعاً في الإسلام ، وقد صور لنا الشاعر الموهوب عبد الله بن هشام السلولي بمقطوعته الرائعة جزعه وجزع خيار المسلمين من خلافة يزيد بقوله :

فان تأتوا برملة أو بهند ... نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا ما مات كسرى قام كسرى ... نعد ثلاثة متناسقينا
فيا لهفا لو أن لنا ألوفاً ... ولكن لا نعود كما عنينا
إذاً لضربتموا حتى تعودوا ... بمكة تلعقون بها السخينا
خشينا الغيظ حتى لو شربنا ... دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم ... تصيدون الأرانب غافلينا (٢)

لقد ذعر المسلمون في جميع أقطار الأرض من هذا الحادث الخطير

---

(١) تاريخ ابن خلكان ١ / ٢٣٠ ، التمدن الإسلامي ٤ / ٧٦ ـ ٧٧ .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٣٩ .

لأن الخلافة عندهم ليست كسروية ولا قيصرية حتى تورث بل أمرها شورى بين المسلمين يختارون لخلافتهم من أحبوا وذلك عند الجمهور من أبناء السنة والجماعة ، وأما عند الشيعة فإنها حق شرعي لأمير المؤمنين وأولاده الطيبين كما نصّ النبي (ص) على ذلك .

ومهما يكن من شيء فإن معاوية بعد ما أخذ البيعة ليزيد من أهل دمشق رفع مذكرة الى جميع عماله يطلب فيها أخذ البيعة ليزيد من جميع المواطنين ، واستجاب جميع عماله لذلك سوى مروان بن الحكم فإنه قد ورم أنفه لصرف الأمر عنه وهو شيخ الأمويين بعد معاوية ، وتوجّه فوراً بحاشيته الى دمشق ، فلما مثل عند معاوية انبرى اليه وهو مغيظ قائلا :

« أقم الامور يا ابن أبي سفيان ، واعدل عن تأميرك الصبيان ، واعلم أن لك من قومك نظراء ، وأن لك على مناوأتهم وزراء » .

فاندفع اليه معاوية يخادعه قائلا له بناعم القول :

« أنت نظير أمير المؤمنين ، وعدته في كل شديدة ، وعضده ، والثاني بعد ولي عهده . »

ثم أعطاه ولاية العهد حيلة منه ومكراً وأخرجه من عاصمته مكرماً فلما وصل الى يثرب عزله عن منصبه (١) وجعل مكانه سعيد بن العاص وقيل الوليد بن عقبة ، وكتب اليه أن يأخذ البيعة من أهل المدينة لولده إلا انه فشل أخيراً في أداء مهمته فقد أصرت الجماهير على رفض دعوة معاوية وعدم طاعته في شأن خليفته الجديد ، خصوصاً الشخصيات الرفيعة من أبناء المهاجرين والأنصار فإنهم قد شجبوا ذلك وأعلنوا سخطهم وإنكارهم على معاوية ، فإنهم كانوا يحقرون يزيد ويأنفون أن يعد في مصافهم ،

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٣٣٠ .

فضلاً عن أن يكون خليفة عليهم .

سفرة معاوية الاولى ليثرب :

ورأى معاوية بعد امتناع المدنيين عن بيعة يزيد واجماعهم على رفضها أن ينطلق بنفسه الى المدينة ليفاوض أهل الحل والعقـــد ، وليشتري الذمم والضمائر بالأموال ، ويتوعد ويرهب من لم يخضع للمادة ليفوز ولده بالخلافة وسافر من أجل هذه الغاية الى يثرب وذلك سنة خمسين من الهجرة ، فلما انتهى اليهـــا بعث فوراً نحو عبد الله بن عباس ، وعبـد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . فلما حضروا عنده أمر حاجبه أن لا يسمح لأحد بالدخول عليه حتى يخرج هؤلاء النفر من عنده ثم التفت اليهم قائلاً :

« الحمد لله الذي أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيراً كما أنعم علينا كثيراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .

أما بعـــد : فإني قد كبر سني ، ووهن عظمي ، وقـرب أجلي ، وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أستخلف بعدي يزيد ، ورأيته لكم رضاً ، وأنتم عبادلة قريش وخيارهم وأبنـاء خيارهم ، ولم يمنعني أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما علي ، على حسن رأيي فيهما ، وشديد محبتي لهما فردوا على أمير المؤمنين خيراً ، رحمكم الله » .

وقد احتوى كلامه على اللين والمدح والثناء ، ولـكن هؤلاء الأبطال الذين هم نخبة العرب والمسلمين رأياً وإقداماً ، لم يذعنوا لمعاوية وردوا عليه مقاله وعرفوه بمن هو أهل للخلافة وأول من تكلم منهم حبر الأمة عبد الله

ابن عباس فقال :

« الحمد لله الذي ألهمنا أن نحمده ، واستوجب علينا الشكر على آلائه وحسن بلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وصلى الله على محمد وآل محمد .

أما بعد : فانك قد تكلمت فأنصتنا ، وقلت فسمعنا ، وإن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه اختار محمداً (ص) لرسالته ، واختاره لوحيه ، وشرّفه على خلقه ، فأشرف الناس من تشرف به ، وأولاهم بالأمر أخصهم به ، وإنما على الأمّة التسليم لنبيها ، إذا اختاره الله لها ، فإنه إنما اختار محمداً (ص) بعلمه ، وهو العليم الخبير ، واستغفر الله لي ولكم » .

وتكلم من بعده عبد الله بن جعفر فقال :

« الحمد لله أهل الحمد ومنتهاه : نحمده على إلهامنا حمده ، ونرغب اليه في تأدية حقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله واحداً صمداً ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله (ص) .

أما بعد : فان هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن ، فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، وإن أخذ فيها بسنة رسول الله (ص) فأولو رسول الله (ص) ، وإن أخذ فيها بسنة الشيخين أبي بكر وعمر فأي الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ؟ وأيم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه لحقه وصدقه ، ولأطيع الرحمن وعصي الشيطان ، وما اختلف في الأمّة سيفان ، فاتق الله يا معاوية ، فانك قد صرت راعياً ، ونحن رعية ، فانظر لرعيتك ، فانك مسؤول عنها غداً ، وأما ما ذكرت من ابني عمي ، وتركك أن تحضرهما ، فو الله ما أصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم انهما معدن العلم

والكرم ، فقل أودع واستغفر الله لي ولكم » .

وبيّن عبد الله بن جعفر استحقاق أهل البيت (ع) للخلافة على جميع الوجوه فان كان مدرك استحقاقها القرآن الكريم فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ، وإن كانت السنة المقدسة فآل الرسول أولى بالأمر من غيرهم ، وإن كانت سنة الشيخين فآل الرسول (ص) أولى بالأمر وذلك لمواهبهم وكمالهم وتقدمهم على غيرهم بالعلم والفضل ، ثم بيّن الأضرار الناجمة من ترك الإمّة لهم وعدم اتباعهم ، وانبرى من بعده عبد الله بن الزبير فقال :

« الحمد لله الذي عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله ، أحمده على ما أبلى وأولى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد : فان هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بمآثرها السنية وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية وأنصف نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله (ص) ، وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين ابن عم رسول الله (ص) ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله ، وعلي خلف حسناً وحسيناً وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

وقد رشح ابن الزبير هؤلاء النفر للخلافة ، وحفزهم لمعارضة معاوية وإفساد مهمته ، وانبرى من بعده عبد الله بن عمر فقال :

« الحمد لله الذي أكرمنا بدينه ، وشرفنا بنبيه (ص) .

أما بعد : فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية ، ولا قيصرية ، ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنتُ القائم بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست

شرطاً مشروطاً ، وإنما هي في قريش خاصة ، لمن كان لها أهلاً ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ممن كان أتق وأرضى ، فإن كنت تريد الفتيان من قريش فلعمري إن يزيد من فتيانها ، واعلم انه لا يغني عنك من الله شيئاً » .

لقد شجب ابن عمر بيعة يزيد ولكنه لم يلبث أن سمع وأطاع وبايع له لأن معاوية قد أرشاه بمائة ألف دينار (١) وبذلك فقد باع عليه ضميره ودينه .

ومهما يكن من شيء فان معاوية قد ثقل عليه كلام هؤلاء النفر فلقد جابهوه بعدم صلاحية ابنه للخلافة ، وانهم أولى بها منه ، وانبرى اليهم مجيباً :

« قد قلت وقلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابني أحب إلي من أبنائهم ، مع ان ابني إن قاولتموه وجد مقالاً ، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف لأنهم أهل رسول الله (ص) فلما مضى رسول الله ولى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك والخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ثم رجع الملك الى بني عبد مناف فلا يزال فيهم الى يوم القيامة وقد أخرجك الله يا ابن الزبير وأنت يا ابن عمر منها ، فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله » .

وعلى أي حال فقد فشل معاوية في مهمته ونزح عن يثرب وولى الى عاصمته ، وأعرض عن ذكر بيعة يزيد (٢) فلقد عرف انها لا تتم مادام الحسن حياً ، فأخذ يطيل التفكير في كيفية اغتيال الإمام حتى يتم له الأمر وقد توصل الى ما أراد ، فاغتاله بالسم كما سنبينه عند نهاية المطاف من هذا الكتاب .

---

(١) سنن البيهقي ١٥٩/٨ ، تأريخ ابن كثير ١٣٧/٨ ، فتح الباري ٥٩/١٣ .

(٢) الامامة والسياسة ١٨٠/١ – ١٨٣ ، جمهرة الخطب ٢٣٣/٢ – ٢٣٦ .

لقد اتخذ معاوية بعد اغتياله للإمام جميع التدابير ، واعتمد على جميع الوسائل فى ارغام المسلمين على بيعة يزيد ، وفرضه حاكماً عليهم ، وقد راسل الوجوه من أبناء المهاجرين والأنصار يدعوهم الى ذلك ، وذكر المؤرخون نصوص رسائله مع أجوبتهم له ، وقد كتب الى الإمام الحسين عليه السلام ما نصه :

« أما بعد : فقد انتهت إلي منك امور ، لم أكن أظنك بها رغبة عنها ، وإن أحق الناس بالوفاء لمن أعطى بيعة من كان مثلك ، في خطرك وشرفك ، ومنزلتك التي أنزلك الله بها ، فلا تنازع الى قطيعتك ، واتق الله ، ولا تردن هذه الأمّة في فتنة ، وانظر لنفسك ودينك وأمّة محمد ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون .. »

وأجابه أبو الشهداء (ع) فذكر له الاحداث الجسام التي ارتكبها وعرض عليه ما مُني به المسلمون من الظلم والجور في دوره ، وقد استشهدنا ببعض فصوله للإستدلال به على شجب الإمام الحسين (ع) لموبقات معاوية وقد جاء فى آخر جوابه ما لفظه :

« وقلت فيما قلت : لا ترد هذه الأمّة في فتنة . وإني لا أعلم فتنة لها أعظم من امارتك عليها .

وقلت فيما قلت : انظر لنفسك ولدينك ، ولأمّة محمد ، وإني والله ما أعرف أفضل من جهادك ، فإن أفعل فإنه قربة الى ربي ، وإن لم أفعل فأستغفر الله لذنبي وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى .

وقلت فيما قلت : متى تكدني أكدك ، فكدني يا معاوية فيما بدا لك فلعمري لقديماً يُكاد الصالحون ، وإني لأرجو أن لا تضر إلا نفسك ، ولا تمحق إلا عملك ، فكدني ما بدا لك .

واتق الله يا معاوية ، واعلم أن لله كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ! واعلم أن الله ليس بناس لك ، قتلك بالظنة ، وأخذك بالتّهمة وامارتك صبياً يشرب الخمر ، ويلعب بالكلاب !! ما أراك إلا وقد أوبقت نفسك ، وأهلكت دينك ، وأضعت الرعية والسلام . » (١)

ولم يجد مع ابن هند النصح ، ولا التحذير من عقوبة الله ، فقد راح يعمـــل بوحي من جاهليته الى ضرب الإسلام ، والى ارغام المسلمين على مبايعة يزيد المستحل لجميع ما حرم الله .

سفره الثاني الى يثرب :

ولما رأى معاوية أن خيار الصحابة ، وأبناء المهـاجرين والأنصار لم يستجيبوا لدعوته ، وأصرّوا على رفض بيعـــة يزيد سافر مرة أخرى الى يثرب ، وقـد أحاط نفسه بالقوى العسكرية ليرغم الجبهة المعـارضة على الإستجابة له ، وفي اليوم الثاني من قدومه أرسل الى الإمام الحسين ، والى عبد الله بن عباس ، وسبق ابن عباس فأجلسه معـــاوية عن يساره وشاغله بالحديث حتّى أقبل الحسين (ع) فأجلسه عن يمينه وسأله عن بني الحسن وعن أسنانهم فاخبره بذلك ، وخطب معـــاوية خطبة أشاد فيـها بيزيد ، وذكر علمه بالقرآن والسنة ، وحسن سياسته ، ثم دعاهم الى بيعتـه والى الإستجابة لقوله .

خطبة الامام الحسين :

وقام أبي الضيم بعد خطاب معاوية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(١) الإمامة والسياسة ١ / ١٨٨ ــ ١٩٠ .

« أما بعد : يا معاوية ، فلن يؤدي القائل وإن أطنب في صفة الرسول (ص) من جميع جزءاً ، وقد فهمتُ ما لبستَ به الخلف بعد رسول الله (ص) من ايجاز الصفة ، والتنكب عن استبلاغ النعت ، وهيهات هيهات يا معاوية ، فضح الصبح فحمة الدجى ، وبهرت الشمس أنوار السرج ، ولقد فضلتَ حتى أفرطتَ ، واستأثرتَ حتى أجحفتَ ، ومنعتَ حتى بخلت ، وجرتَ حتى جاوزت ، ما بذلتَ لذي حق من اسم حقه من نصيب ، حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ، ونصيبه الأكمل .

وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمّة محمد ، تريد أن توهم الناس في يزيد ، كأنك تصف محجوباً ، أو تنعت غائباً ، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص ، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه ، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش والحمام السُبَّق لأترابهن ، والقيان ذوات المعازف ، وضروب الملاهي تجده ناصراً .

ودع عنك ما تحاول !! فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه ، فوالله ما برحتَ تقدح باطلاً في جور ، وحنقاً في ظلم ، حتى ملأت الأسقية ، وما بينك وبين الموت إلا غمضة ، فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود ، ولات حين مناص ، ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر ، ومنعتنا عن آبائنا تراثاً ، ولقد لعمر الله أورثنا الرسول (ص) ولادة ، وجئت لنا بها ما حججتم به القائم عند موت الرسول فاذعن للحجة بذلك ، ورده الإيمان الى النصف ، فركبتم الأعاليل ، وفعلتم الأفاعيل وقلتم كان ويكون حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك فهناك فاعتبروا يا اولي الأبصار .

وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله (ص) وتأميره له ، وقد كان ذلك ، ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة بصحبة الرسول وبيعته له ، وما صار لعمر الله يومئذ مبعثهم حتى أنف القوم إمرته ، وكرهوا تقديمه ، وعدوا عليه أفعاله ، فقال (ص) : لا جرم معشر المهاجرين لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري ، فكيف تحتج بالمنسوخ من فعل الرسول فى أوكد الأحكام ، وأولاها بالمجتمع عليه من الصواب ؟ أم كيف صاحبت بصاحب تابعاً ، وحولك من لا يؤمن في صحبته ، ولا يعتمد فى دينه وقرابته وتتخطاهم الى مسرف مفتون ، تريد أن تلبس الناس شبهة يسعد بها الباقي فى دنياه ، وتشقى بها في آخرتك ، إن هذا لهو الخسران المبين ، واستغفر الله لي ولكم . »

وذهل معاوية فنظر الى ابن عباس فقال له :

« ما هذا يا ابن عباس ؟؟ »

« لعمر الله إنها لذرية الرسول ، وأحد أصحاب الكساء ، ومن البيت المطهر ، قاله عما تريد ، فإن لك في الناس مقنعاً حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين » (١) .

وانصرف الإمام (ع) وترك الأسى يحز في نفس معاوية ، واعتمد معاوية بعد ذلك على جميع وسائل العنف والإرهاب ، فقد روى المؤرخون أنه لما كان في مكة أحضر الإمام الحسين ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن ابن أبي بكر ، وابن عمر وقال لهم : إني أتقدم اليكم ، إنه قد أعذر من أنذر ، إني كنت أخطب فيكم ، فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس ، فأحمل ذلك وأصفح . وإني قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن ردّ عليّ

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ١٩٥ ـ ١٩٦ .

أحدكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه !

ودعا صاحب حرسه بحضورهم فقال له : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف ، فان ذهب رجل يردّ عليّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما ؟!

وخرج وخرجت الجماعة معه فنزى على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبتز أمر دونهم ، ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وانهم قد رضوا وبايعوا يزيد ، فبايعوا على اسم الله » (١) .

وبهذه الوسائل الرهيبة ، والكذب السافرحمل معاوية المسلمين على بيعة يزيد وقد انتهك بذلك الحرمات ، وألقى المسلمين في الفتن والبلاء .

عائشة وبيعة يزيد

ولم تعارض عائشة هذه البيعة المشومة ، ولم تعمل أي عمل إيجابي ضد هذه الكارثة الكبرى التي روع بها المسلمون ، وانتهكت بها حرمة الإسلام ، فقدكانت تدلي بالرأي لمعاوية في حمل المعارضين على الطاعة فقد أوصته بالرفق بهم ، واللين معهم ليستجيبوا له قائلة :

« وارفق بهم — أي بالمعارضين — فإنهم يصيرون الى ما تحب إن شاء الله !! » (٢)

---

(١) الكامل لابن الأثير وغيره .

(٢) الإمامة والسياسة .

لقد وقفت عائشة هذا الموقف المؤسف من بيعة يزيد الماجن الخليع وهي من دون شك تعلم بفسقه ، وبلعبه بالفهود والقرود ، واستباحته لما حرم الله ، إن الفكر ليقف حائراً أمام موقفها هذا ، وموقفها من بيعة أمير المؤمنين (ع) الذي هو أخو النبي وأبو سبطيه ، وباب مدينة علمه ، فإنها لما أخبرت ببيعته انهارت أعصابها ، وهتفت وهي حانقة مغيظة ، وبصرها يشير الى السماء ثم ينخفض فيشير الى الأرض قائلة :

« والله ليت هذه انطبقت على هذه إن تمّ الأمر لابن أبي طالب !! »

وقفلت راجعة الى مكة تحفز الجماهير لحرب الإمام رائد العدالة الإجتماعية الكبرى في الأرض ، فقادت الجيوش لمناجزته حتى أغرقت الأرض بالدماء ، وأشاعت الثكل والحزن والحداد بين المسلمين للإطاحة بحكمه .

وعلى أي حال ، فإن موقف عائشة من بيعة يزيد ، وتأييد ابن عمر وسائر القوى النفعية لها قد أخلد للمسلمين الفتن والمصاعب وجرّ لهم الويلات والخطوب ، فقد سارت الخلافة الإسلامية تنتقل بالوراثة الى الطلقاء وأبنائهم الذين لم يألوا جهداً في الكيد للإسلام ، وفي نشر البغي والفساد في الأرض .



أَزْوَاجُهُ وَعَقِبُهُ

وتساءل السائلون عن كثرة أزواج الإمام الحسن (ع) وأرجف المرجفون في ذلك ، وقد بلغ الحقد وسوء الظن ببعض الجاهلين أن قالوا إنه إنما تزوج بهذه الكثرة اجابة لداعي الهوى واشباعاً للشهوة ، وما عرفوا أن الإمام بعيد كل البعد عن الإنقياد لهذه الغرائز فهو سيد شباب أهل الجنة وممن نطق القرآن الكريم بعصمته وطهارته ، وسنذكر نص كلام القائلين بذلك مشفوعاً ببيان بطلانه وفساده ، وحيث أن الموضوع قد حامت حوله الشكوك والظنون ، وحفّت به التهم والطعون فلابد من البحث عنه وبيان الواقع فيه ولو اجمالا ، فنقول : قد ذهب بعض أهل العلم الى تصحيح ذلك والى عدم منافاته لسيرة الإمام وهديه ، وذهب بعض آخر الى وضع ذلك وعدم صحته ، ومن الخير أن نسوق أدلة الطرفين ، أما المصححون فقد استدلوا عليه بما يلي :

١ ـ انه لا مانع بحسب الشريعة الإسلامية المقدسة من كثرة الزواج فقد ندب الإسلام اليه كثيراً ، وقد اشتهرت كلمة المنقذ الأعظم في الحث على ذلك فقد قال صلى الله عليه وآله : « تناكحوا تناسلوا حتى أباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط » . وقال سفيان الثوري : « ليس في النساء سرف » . وقال الخليفة الثاني : « إني أتزوج المرأة ومالي فيها من أرب ، وأطؤها ومالي فيها من شهوة » ، فقيل له : « فلماذا تتزوجها؟ » فقال : « حتى يخرج مني من يكاثر به النبي (ص) » وتزوج المغيرة بن شعبة بألف امرأة (١) ، وقد كان لأمير المؤمنين (ع) أربع نسوة ، وتسعة عشر وليدة (٢) هذا في الإسلام . وأما قبل الإسلام فقد كان لسليمان بن

---

(١) الإستيعاب ٤ / ٣٧٠ .

(٢) شرح الشفا لعلي القاري ١ / ٢٠٨ .

داود سبعمائة حرة وثلثمائة سرية ، وتزوج أبوه داود (ع) بمائة حرة وثلثمائة سرية ، فكثرة التزويج لا مانع منها بحسب الشرع الإسلامي وغيره ، وعليه فأي حزازة على الإمام في ارتكابه لذلك ؟

٢ ـ إنما تزوج بهذه الكثرة لتقوى شوكته ، ويشتد أزره بالمصاهرة على الأمويين الذين بذلوا جميع جهودهم للقضاء على الهاشميين وتحطيم كيانهم ومحو ذكرهم .

٣ ـ إن أوليـاء النسوة كانوا يعرضون بناتهم على الإمام ويلحون عليه بالتزويج بهن لأجل التشرف به ، والتقرب اليه ، فهو حفيد النبي (ص) وسبطه الأكبر ، وسيد شباب أهل الجنـة ، ومضافاً الى ذلك انهم رأوا أن عائشة بنت أبي بكر كان أبوها من أواسط قريش شرفاً وبسبب زواج النبي (ص) بابنته قد احتل مكانة مرموقة في العالم الإسلامي ، ولهذا الأمر كانوا يعرضون بناتهم على الإمام ويلحون عليه بالتزويج بهن ليحضوا بالعز والشرف بمصاهرة الإمام لهم ، هذا ما استدل به المصححون للكثرة وأما النافون فقد استدلوا على ذلك بأمور :

١ ـ كراهة الطلاق شرعاً .

لقد ثبت عند القائلين بالكثرة والملتزمين بها ان الإمام كان مطلاقاً وانه كان يفارق من تزوجها بأقرب وقت ، ومن المعلوم ان الطلاق من أبغض الأشياء في الإسلام ، وقد تواترت الأخبار في كراهته وفي النهي عنه ، فقد أثر عن النبي (ص) انه لما بلغه أن أبا أيوب يريد أن يطلق زوجه ، قال (ص) إن طلاق أم أيوب لحوب ـ أي أثم ـ وقال أبو عبد الله الصادق (ع) : إن الله يحب البيت الذي فيه العرس ، ويبغض البيت الذي فيه الطلاق ، وما من شيء أبغض الى الله عز وجل من الطلاق

وقال أبو عبدالله (ع) : ما من شيء مما أحله الله أبغض اليه من الطلاق وإن الله عز وجل يبغض المطلاق الذواق ، وقال عليه السلام : تزوجوا ، ولا تطلقوا ، فإن الطلاق يهتز منه العرش (١) ومع هذه الكراهة الشديدة كيف يرتكبه الإمام ويبالغ فيه ؟

٢ ــ منافاته لهدي الإمام .

وقد ثبت ان الإمام حليم المسلمين والمثل الأعلى للأخلاق الفاضلة ، ومن المعلوم أن الطلاق ينافي الحلم إذ فيه كسر لقلب المرأة وإذلال لها وذلك لا يتفق مع ما عرف به الإمام من الحرص على ادخال السرور على الناس واجتناب المساءة ، والأذى لكل انسان .

٣ ــ انشغاله عن ذلك .

لقد كان الإمام مشغولاً عن أمثال هذه الأمور بعبادته واتجاهه نحو الله وعمله المستمر في حقل الإصلاح وقضاء حوائج الناس وجلب الخير لهم ودفع الشر والشقاء عنهم فلا تفكير له إلا بالأمور الإصلاحية ، وليس عنده مزيد من الوقت ليقضيه في ذلك .

هذا مجموع ما استدل به النافون ، وإن كان بعضه لا يخلو من ضعف.

أما أنا فبحسب تتبعي عن أحوال الإمام أرى أن هذه الكثرة موضوعة وبعيدة عن الواقع كل البعد ، وبيان ذلك لا يتم إلا بعرض الروايات ، والبحث عن سندها الذي هو شرط في قبول الرواية فنقول : قد اختلف رواة الأثر في ذلك إختلافاً كثيراً فقد روي أنهن :

١ ــ سبعون .

٢ ــ تسعون .

---

(١) وسائل الشيعة ١٥ / ٢٦٧ ــ ٢٦٨ .

٣ ـ مائتان وخمسون .

٤ ـ ثلثمائة .

وروي غير هذا إلا أنه من الشذوذ بمكان ، والمهم البحث عن سند هذه الروايات فعليها يدور البحث نفياً واثباتاً فنقول :

أما الرواية (الأولى) : فقد ذكرها ابن أبي الحديد وغيره (١) وقد أخذوها عن علي بن عبد الله البصري الشهير بالمدائني المتوفى سنة (٢٢٥ هـ) وهو من الضعفاء الذين لا يعول على أحاديثهم ، فقد امتنع مسلم من الرواية عنه في صحيحه (٢) ، وضعفه ابن عدي في الكامل فقال فيه : « ليس بالقوي الحديث ، وهو صاحب الأخبار قل ماله من الروايات المسندة » (٣) وقال له الأصمعي : والله لتتركن الإسلام وراء ظهرك (٤) ، وكان من خلص أصحاب أبي اسحاق الموصلي ، وقد رافقه من أجل أمواله وثرائه . فقد روى أحمد بن أبي خيثمة قال : كان أبي ويحيي بن معين ، ومصعب الزبيري يجلسون على باب مصعب فمر رجل على حمار فاره ، وبزة حسنة فسلم ، وخص بسلامه يحيي فقال له : يا أبا الحسن الى أين ؟ قال : الى دار هذا الكريم الذي يملأ كمي دنانير ودراهم اسحاق الموصلي ، فلما ولى قال يحيي : ثقة ، ثقة ، ثقة فسألت أبي من هذا ؟ فقال : هذا المدائني (٥) وكان يروي عن عوانة بن الحكم المتوفى سنة (١٥٨ هـ) وهو عثماني وكان

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٨ .

(٢) ميزان الإعتدال ٣ / ١٣٨ ط دار احياء الكتب العربية .

(٣) لسان الميزان ٤ / ٢٥٢ .

(٤) ميزان الاعتدال ٣ / ١٣٩ .

(٥) لسان الميزان ٤ / ٢٥٣ ، معجم الأدباء ١٢ / ١٢٦ .

يضع الأخبار لبني أمية (١) ، ولذا كان المدائني يشيد بالأمويين ويبالغ في تمجيدهم وبالإضافة لذلك ، فقد كان مولى لسمرة بن حبيب الأموي (٢) ، والموالي على الأكثر تنطبع في نفوسهم ميول مواليهم وسائر نزعاتهم ، وقد تأثر المدائني بنفسية سمرة ، فكان أموي النزعة ومن المنحرفين عن أهل البيت وبعد هذا فلا يبقى لنا أي وثوق برواياته واحاديثه .

وأما الرواية (الثانية) : فقد اقتصر على روايتها الشبلنجي (٣) وقد رواها مرسلة فلا يصح التعويل عليها نظراً لارسالها .

وأما الرواية (الثالثة) و (الرابعة) : فقد رواهما المجلسي (٤) ، وابن شهراشوب (٥) ، وقد نص كل منهما انه قد أخذهما عن (قوت القلوب) لأبي طالب المكي المتوفى سنة (٣٨٠ هـ) ، وقد راجعنا هذا الكتاب فوجدناه قد ذكر ذلك ، وهذا نص ما جاء فيه :

« وتزوج الحسن بن علي (ع) مائتين وخمسين ، وقيل ثلثمائة ، وكان علي يضجر من ذلك ويكره حياءً من أهلهن إذ طلقهن ، وكان يقول : ان حسناً مطلق فلا تنكحوه ، فقال له رجل من همدان : والله يا أمير المؤمنين لننكحنه ما شاء ، فمن أحب أمسك ، ومن كره فارق ، فسرّ علي بذلك وأنشأ يقول :

---

(١) لسان الميزان ٤ / ٣٨٦ .

(٢) معجم الأدباء ١٤ / ١٢٤ ، وفي لسان الميزان ٤ / ٢٥٣ انه مولى لعبد الرحمن بن سمرة .

(٣) نور الأبصار ص ١١١ .

(٤) البحار ١٠ / ١٣٧ .

(٥) المناقب ٢ / ٢٤٦ .

ولو كنت بواباً على باب جنة   لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وهذا أحد ما كان الحسن يشبه فيه رسول الله (ص) وكان يشبهه في الخَلْق والخُلُق ، فقد قال رسول الله (ص) : اشبهت خَلْقي وخُلُقي وقال : حسن مني وحسين من علي ، وكان الحسن ربما عقد له على أربعة وربما طلق أربعة » (١) .

وأبو طالب المكي لا يعول على مؤلفه ، فقد ورد في ترجمته انه لما ألف (قوت القلوب) ، كان طعامه عروق البردي حتى اخضر جلده من كثرة تناولها ، وكان مصاباً با (لهستيريا) ، قدم بغداد واعظاً فاحتف به البغداديون فرأوا في حديثه هذياناً وخروجاً عن موازين الإستقامة فتركوه ونبذوه ، ومن هجره وشذوذ قوله : « ليس على المخلوقين أضر من الخالق » وكان يبيح سماع الغناء فدعا عليه عبد الصمد بن علي ودخل عليه معاتباً فقال له أبو طالب :

فيا ليل كم فيك من متعــة   ويا صبح ليتك لم تقــرب

فخرج منه عبد الصمد وهو ساخط عليه ، ومن شذوذه انه لما حضرته الوفاة دخل عليه بعض أصدقائه فقال له أبو طالب : « إن ختم لي بخير فانثر على جنازتي لوزاً وسكراً » ، فقال له صديقه : وما علامة الغفران لك ؟ قال : إن قبضت على يدك . فلما حان موته قبض على يد صاحبه قبضاً شديداً ، فامتثل زميله ذلك فنثر على جنازته لوزاً وسكراً (٢) ، ونص المترجمون له أيضاً أنه ذكر في كتابه أحاديث لا أصل لها .

---

(١) قوت القلوب ٢ / ٢٤٦ .

(٢) البداية والنهاية ١١ / ٣١٩ ، لسان الميزان ٥ / ٣٠٠ ، الكنى والألقاب ١ / ١٠٦ ، المنتظم لابن الجوزي ٧ / ١٩٠ .

ومع هذا فكيف يعول على رواياته ويؤخذ بها ، ومن أخذ عنه فهو غير عالم بحاله ، وعلى كل فالرقم القياسي لكثرة أزواج الإمام مستندة اليه ومأخوذة عنه ، ونظراً لما هو فيه من الشذوذ والإنحراف فلا يمكن التعويل على ما ذكره .

ومهما يكن من شيء فليس عندنا دليل مثبت لكثرة أزواج الإمام سوى هذه الروايات ، وهي لا تصلح للإعتماد عليها نظراً للشبه والطعون التي حامت حولها ، ويؤيد افتعال تلكم الكثرة امور :

١ ــ انها لو صحت لكان للإمام من الأولاد جمع غفير يتناسب معها والحال أن النسابين والرواة لم يذكروا للإمام ذرية كثيرة فان الرقم القياسي الذي ذكر لها اثنان وعشرون ولداً ما بين ذكر وانثى وهذا لا يلتئم كلياً مع تلك الكثرة ولا يلتقي معها بصلة .

٢ ــ ومما يزيد وضوحاً في افتعال تلكم الروايات هي المناظرات التي جرت بين الإمام الحسن (ع) وبين خصومه في دمشق وغيره ، وقد اجهدوا نفوسهم ، وانفقوا كثيراً من الوقت للتفتيش عما يشين الامام ليتخذوه وسيلة الى التطاول عليه ، والنيل منه ، فلم يجدوا لذلك سبيلا ، كما تقدم بيانه عند عرض مناظراته ، ولو كان الامام (ع) كثير الزواج والطلاق ــ كما يقولون ــ لقالوا له : أنت لا تصلح للخلافة لأنك مشغول بالنساء ، ولطبلوا بذلك ، واتخذوه وسيلة للتشهير به ، وجابهوه به عند اجتماعهم به فسكوتهم عنه وعدم ذكرهم له مما يدل على عدم واقعيته وصحته .

٣ ــ ومما يؤيد عدم صحة تلك الروايات أن أبا جعفر محمد بن حبيب المتوفى سنة (٢٤٥ هـ) قد ذكر في كتابه (المحبر) ثلاثة أصهار للإمام ، وهم : الامام علي بن الحسين (ع) وعنده أم عبد الله ، وعبد الله بن الزبير

وعنده أم الحسن ، وعمرو بن المنذر وعنده أم سلمة (١) ولم يزد على ذلك ولو كان الامام (ع) كثير الأزواج لكان له من الأصهار ما يتناسب مع تلك الكثرة ، ومضافاً لذلك فان أبا جعفر من المعنيين بأمثال هذه البحوث فقد ذكر في (المحبر) كثيراً من نوادر الأواج ، ولو كان للإمام تلك الكثرة من الأزواج لألمع لها في محبره .

٤ — ومما يدل على وضع ذلك وعدم صحته ما روي أن الامام أمير المؤمنين (ع) كان يصعد المنبر فيقول : « لا تزوجوا الحسن فانه مطلاق » كما روى ذلك أبو طالب وغيره ، إن نهي أمير المؤمنين الناس عن تزويج ولده على المنبر لا يخلو إما أن يكون قد نهى (ع) ولده عن ذلك فلم يستجب له حتى اضطر (ع) الى الجهر به والى نهي الناس عن تزويجه ، وإما أن يكون ذلك النهي ابتداء من دون أن يعرف ولده الامام الحسن (ع) مبغوضية ذلك وكراهته لأبيه وكلا الأمرين بعيدان كل البعد

أما « الأول » فهو بعيد لأن الامام الحسن من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وممن باهل بهم النبي (ص) ومن المستحيل أن يخالف أباه ويعصي أمره .

وأما « الثاني » فبعيد أيضاً لأن الاولى بالامام أمير المؤمنين أن يعرف ولده بمبغوضية ذلك وكراهته له ولا يعلن ذلك على المنبر أمام الجماهير الحاشدة الأمر الذي لا يخلو من حزازة على ولده ووصيه وشريكه في آية التطهير ، ومضافاً الى ذلك أن الأمر إما أن يكون سائغاً شرعاً أو ليس بسائغ فان كان سائغاً فما معنى نهي الامام (ع) عنه ، وإن لم يكن سائغاً فكيف يرتكبه الحسن ؟ إنا لا نشك في افتعال هذا الحديث ووضعه من

(١) المحبر ص ٥٧ .

خصوم الامام ليشوهوا بذلك سيرته العاطرة التي تحكي سيرة جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسيرة أبيه أمير المؤمنين (ع) .

٥ ـ ومما يؤيد افتعال تلك الكثرة لأزواجه ما روي أن الامام الحسن عليه السلام لما وافاه الأجل المحتوم خرجت جمهرة من النسوة حافيات حاسرات خلف جنازته ، وهن يقلن نحن أزواج الامام الحسن (١) . ان افتعال ذلك صريح واضح ، فانا لا نتصور ما يبرر خروج تلك الكوكبة من النسوة حافيات حاسرات ، وهن يهتفن أمام الجماهير بأنهن زوجات الامام ، فان كان الموجب لخروجهن إظهار الأسى والحزن ، فما الموجب لهذا التعريف والسير في الموكب المزدحم بالرجال مع أنهن قد أمرن بالتستر وعدم الخروج من بيوتهن ، إن هذا الحديث وأمثاله قد وضعه خصوم العلويين من الأمويين والعباسيين ، والغرض منه الحط من قيمة الامام ، وتقليل أهميته .

ومن الأخبار الموضوعة التي تشابه تلك الأخبار ما رواه محمد بن سيرين ان الامام الحسن (ع) تزوج بامرأة فبعث لها صداقاً مائة جارية مع كل جارية الف درهم (٢) إنا نستبعد أن يعطي الامام هذه الأموال الضخمة مهراً لاحدى زوجاته فان ذلك لون من ألوان الاسراف والتبذير ، وهو منهي عنه في الاسلام ، فقد أمر بالاقتصار ، على مهر السنة ، وكره تجاوزه ، فقد أثر عن النبي (ص) أنه قال : « أفضل نساء أمتي أقلهن مهراً » ، وتزوج (ص) نساءه بمهر السنة ، وكذلك تزوج أمير المؤمنين به ولم يتجاوزه ، وسبب ذلك تسهيل أمر الزواج لئلا يكون فيه ارهاق وعسر

---

(١) البحار

(٢) البداية والنهاية ٨ / ٣٨ ، المسالك للشهيد الثاني .

على الناس ، ومن المقطوع به ان الامام الحسن (ع) لا يجافي سنة جده ولا يسلك أي مسلك يتنافى مع شريعته . إن هذا الحديث وأمثاله من الموضوعات في المقام تؤيد وضع كثرة الأزواج ، وتزيد في الافتعال وضوحاً وجلاءً .

وعلى أي حال ، فليس هناك دليل يثبت كثرة أزواج الإمام سوى تلكم الروايات ، ونظراً لما ورد عليها من الطعون فلا تصلح دليلا للإثبات .

فرية المنصور :

وأكبر الظن أن أبا جعفر المنصور هو أول من افتعل ذلك ، وعنه أخذ المؤرخون ، وسبب ذلك هو ما قام به الحسنيون من الثورات التي كادت أن تطيح بسلطانه ، وعلى أثرها التي القبض على عبد الله بن الحسن وخطب على الخراسانيين في الهاشمية خطاباً شحنه بالسبّ والشتم لأمير المؤمنين ولأولاده ، وافتعل فيه على الحسن ذلك ، وهذا نص خطابه :

« إن ولد آل أبي طالب تركناهم والذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير ، فقام فيها علي بن أبي طالب (ع) ، فما أفلح وحكم الحكمين ، فاختلفت عليه الأمة ، وافترقت الكلمة ، ثم وثب عليه شيعته وأنصاره وثقاته ، فقتلوه ، ثم قام بعده الحسن بن علي فو الله ما كان برجل عرضت عليه الأموال فقبلها ، ودسّ اليه معاوية أني أجعلك ولي عهدي ، فخلعه ، وانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه ، وأقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة ، ويطلق غداً أخرى ، فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه » (١) ..

وحفل خطابه بالمغالطات والأكاذيب فقد جاء فيه :

---

(١) مروج الذهب ٣ / ٢٢٦ .

١ ـ إن الإمام أمير المؤمنين (ع) قد حكم الحكمين، وهو افتراء محض، فان الذي حكم الحكمين إنما هم المتمردون من جيش الإمام، فقد أصرّوا على ذلك، وأرغموه على قبوله، فاضطر (ع) الى اجابتهم كما بيّنا ذلك في الحلقة الأولى من هذا الكتاب.

٢ ـ وجاء في خطابه ان الإمام قد وثبت عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه، وقد جافى بذلك الواقع، فان الذي قتله إنما هم الخوارج، وهم ليسوا من شيعته، ولا من أنصاره، وإنما كانوا من ألدّ أعدائه وخصومه.

٣ ـ وذكر ان الإمام الحسن (ع) أقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة، ويطلق غداً أخرى، وهو بعيد كل البعد ولم يفه به أحد سواه.

وإنما عمد الى تلفيق هذه الأكاذيب لأجل تدعيم ملكه وسلطانه، وقهر الحسنيين والحط من شأنهم، لأنه قد بايع محمداً ذا النفس الزكية مرتين، ولم يكن له أي أمل بالخلافة كما لم يكن له أي شأن في المجتمع فقد كان فقيراً بائساً يجوب في القرى والأرياف وهو يمدح العترة الطاهرة فيتصدق عليه المسلمون، وليس له ولأسرته أي خدمة للمجتمع حتى يستحق هذا المنصب الخطير.

ومن مفتريات هذا الطاغية السفاك على سبط الرسول (ص) وريحانته ما جاء في كتابه الى ذي النفس الزكية، وهذا نصه:

« وأفضى أمر جدك ـ يعني أمير المؤمنين (ع) ـ الى الحسن فباعها الى معاوية بخرق ودراهم، ولحق بالحجاز، وأسلم شيعته بيد معاوية، ودفع الأمر الى غير أهله، وأخذ مالاً من غير ولائه، ولا حله، فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه، وأخذتم ثمنه. »(١)

---

(١) صبح الأعشى ١ / ٢٣٣، جمهرة رسائل العرب ٣ / ٩٢.

لقد عمد المنصور الى هذا التهريج ، والى هذه المغالطات ليبرر تقمصه للخلافة فقد أخذها بغير حق لأن الثورة التي أطاحت بالحكم الأموي كانت من أجل العلويين ، ولارجاع حقهم الغصيب ، وليس للعباسيين فيها أي نصيب .

محاربو لامنس :

وطالما تحدى لامنس كرامة الإسلام ، فألصق به التهم ، وطعن برجاله وحماته ، وقد ذكرنا في أسباب الصلح شطراً من مفترياته على الإمام ، وقد كتب في بحثه عن أزواج الإمام ما نصه :

« ولما تجاوز — يعني الإمام الحسن (ع) — الشباب ، وقد انفق خير سني شبابه في الزواج والطلاق فاحصي له حوالي المائة زوجة ، والصقت به هذه الأخلاق السائبة لقب المطلاق ، وأوقعت علياً في خصومات عنيفة وأثبت الحسن كذلك أنه مبذر كثير السرف ، وقد خصص لكل من زوجاته مسكناً ذا خدم وحشم ، وهكذا نرى كيف يبعثر المال أيام خلافة علي التي اشتد عليها الفقر .. » (١)

لقد اعتمد لامنس في قوله : إن الإمام كان كثير الزواج والطلاق على أقوال المدائني وأمثاله من المؤرخين الذين تابعوا السلطة الحاكمة فكتبوا لها لا للتاريخ ، وقد استقى المستشرقون الذين كادوا للإسلام في بحوثهم من منهل المؤرخين الذين ساندوا تلك الدول الجائرة التي ناهضت أهل البيت ، وعملت على تشويه واقعهم والحط من كرامتهم ، وقد زاد عليهم (لامنس) فذكر من المخاريق والأكاذيب بما لم يقل به أحد غيره فقد قال :

---

(١) دائرة المعارف ٧ / ٤٠٠ .

١ ـ إنه ألقى أباه بسبب كثرة زواجه وطلاقه في خصومات عنيفة، ولم يشر أحد ممن ترجم الإمام الى تلك الخصومات العنيفة التي زعمها لامنس.

٢ ـ وذكر ان الإمام خصص لكل من زوجاته مسكناً ذا خدم وحشم، إن جميع المؤرخين لم ينقلوا ذلك، وهو من الكذب السافر والإفتراء المحض.

إن لجان التبشير المسيحي التي حاربت الإسلام وبغت عليه هي التي تدفع هذه الأقلام المأجورة وتزج بها للنيل من الإسلام، والى تشويه واقعه والحط من قيم رجاله واعلامه الذين أناروا الطريق للركب الإنساني، ورفعوا منار الحضارة في العالم.

الى هنا ينتهي بنا الحديث عن كثرة أزواج الإمام مع ما حف بها من الطعون والشكوك، وقد بقي علينا أن نشير الى أسماء أزواجه اللاتي ذكرهن المؤرخون مع بيان ما عثرنا عليه من تراجمهن واليك ذلك:

١ ـ خولة الفزارية:

وخولة بنت منظور الفزارية من سيدات النساء في وفورعقلها وكمالها تزوج بها الإمام، وفي ليلة اقترانه بها بات معها على سطح الدار فشدت خمارها برجله، وشدت الطرف الآخر بخلخالها فلما استيقظ وجد ذلك فسألها عنه فقالت له معربة عن اخلاصها وحرصها على حياته:

« خشيت أن تقوم من وسن النوم فتسقط فأكون أشأم سخلة على العرب ».

فلما رأى ذلك منها أحبها وأقام عندها سبعة أيام (١) وقد بقيت عنده حولاً لم تتزين ولم تكتحل حتى رزقت منه السيد الجليل (الحسن) فتزينت

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤ / ٢١٦ :

حينئذ ، فدخل عليها الامام فرآها متزينة فقال لها : « ما هذا ؟ » فقالت له : « خفت أن أتزين وأتصنع فتقول النساء تجملت فلم تر عنده شيئاً ، فأما وقــد رزقت ولداً فلا أبالي » ، وبقيت عنــده إلى أن توفي (ع) فجزعت عليه جزعاً شديداً فقال لها أبوها مسلياً :

نبئت خولة أمس قد جزعت ... من أن تنوب نوائب الدهر

لا تجزعي يا خول واصطــبري ... إن الكرام بنوا على الصبر (١)

وذكرت السيدة زينب بنت علي العاملية في ترجمة خولة ما حاصله انها لما بلغت مبالغ النساء خطبها جملة من وجهـاء قريش وأشرافهم فأمتنع أبوها من إجابتهم لأنهم ليسوا بأكفاء لها ، ثم انه طلق امها مليـكة بنت خارجة فتزوجها من بعده طلحة بن عبيد الله ، وتزوج ابنــه محمد بخولة فأولدت له ابراهيم وداود وأم القاسم ، وقتل زوجها محمد في واقعة الجمل فخطبها جماعة من الناس فجعلت أمرها بيد الحسن (ع) فتزوجها ، ولما نزح الإمام الى يثرب حملها معه ، فبلغ أباها ذلك ، فأقبــل الى مسجد رسول الله (ص) وبيده راية فركزها في المسجد فلم يبق قيسي إلا وانضم تحتها ، وهو يهتف بقومه ويستنجد بهم على أخــذ بنته من الامام ، فلما بلغه (ع) ذلك خلى سراحها فأخذها وخرج فجعلت خولة تتوسل به على ارجاعها وتندد بعمله وتذكر له فضل الامام ، فندم على فعله وقال لها : البثي هاهنا فان كان للرجل بك من حاجة سيلحق بك ، فلحقه الامام مع أخيه الحسين ، وعبد الله بن عباس ، فلما انتهوا اليه قابلهم بحفاوة وتكريم وأرجعها الى الامام ، وفي ذلك يقول جبير العبسي :

إن الندى في بني ذبيان قد علموا ... والجود في آل منظور بن سيار

---

(١) الأمالي للزجاج ص ٧ .

والماطرين بأيديهم ندى ديما　　وكل غيث من الوسمي مدرار
تزور جارتهم وهنا قواضبهم　　وما فتاهم لهـا سراً بزوار
ترضى قريش بهم صهراً لأنفسهم　　وهم رضا لبني أخت وأصهار

ثم انها بقيت عند الإمام حتى أسنت ، ولما مات الإمام لم تتزوج من بعده . وقيل انها تزوجت بعبد الله بن الزبير ودخلت عليهـا النوار زوج الفرزدق مستـ نعة بزوجها فأجابتها الى ذلك ، فكلمت عبد الله به فأجابها الى ذلك وفي هذا يقول الفرزدق :

أما بنوه فلم تقبل شفاعتهم　　وشفعت بنت منظور بن زبانا
ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً　　مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا(١)

وعتدي ان هذه القصة ضرب من الخيال ولا نصيب لها من الواقع وذلك لأن زواج الإمام بها من دون مراجعة أبيها أمر لا يتناسب مع كرامة الإمام ومحال أن يقدم عليه من دون مراجعته وأخذ رأيه في ذلك ، ومضافاً لهذا فانه من المستبعد علم علم أبيها بقتل زوجها الأول في تلك المدة الطويلة من الزمن حتى تزوج بها الإمام ، وبعده ايضاً نزوحه الى يثرب واستنجاده بأسرته ليأخذ ابنتـه من الامام ، وقد كان يتطلب مصاهرة الأشراف ، ومناسبة العظماء ، فردّ جماعة من الأشراف الذين خطبوا ابنته لأنهم ليسوا أكفاءاً لها ، وبعد هذا فكيف لا يرضى بمصاهرة الامام له وهو من ألمع الشخصيات في العالم الاسلامي ، إنا لا نشك في افتعال ذلك وعدم صحته .

٢ ـ جعدة بنت الأشعث :

واختلف المؤرخون في اسمها ، فقيل سكينة ، وقيل شعثاء ، وقيـل

---

(١) الدر المنثور ص ١٨٧ ، وعمدة الطالب ص ٧٣ .

عائشة ، والأصح انها جعدة حسب ما ذكره أكثر المؤرخين (١) ، وسبب زواج الامام بها أن أمير المؤمنين خطب من سعيد بن قيس الهمداني ابنته أم عران لولده الحسن فقال له سعيد : إمهلني يا أمير المؤمنين حتى أستشير ثم خرج من عنده فلقيه الأشعث فسأله عن مجيئه فأخبره بالأمر فقال له هذا المنافق مخادعاً :

« كيف تزوج الحسن وهو يفتخر عليها ولا ينصفها ويسيء اليها ؟! فيقول لها : أنا ابن رسول الله ، وابن أمير المؤمنين ، وليس لها هذا الفضل ولكن هل لك فى ابن عمها فهي له وهو لها » .

— ومن ذلك ؟

— محمد بن الأشعث .

فانخدع هذا الغبي من مقالته وقال : « قد زوجته من ابنتي » .

وأخذ الأشعث يشتد نحو أمير المؤمنين ، فقال له :

« خطبت الى الحسن ابنة سعيد ؟ »

— نعم .

— فهل لك فى أشرف منها بيتاً ، وأكرم منها حسباً ، وأتم منها جمالا وأكثر مالاً ؟

— ومن هي ؟

— جعدة بنت الأشعث بن قيس .

— قد فاولنا رجلا — يعني سعيداً الهمداني — .

— ليس الى ذلك الذي فاولته من سبيل .

— إنه فارقني ليستشير أمها .

(١) مقاتل الطالبيين ص ٣٣ وغيره .

ـ قد زوجها من محمد بن الأشعث .

ـ متى ؟ !!

ـ قبل أن آتيك .

فوافق أمير المؤمنين ، ولما فهم سعيد باغراء الأشعث ومخادعته له أقبل نحوه يشتد فقال له : « يا أعور خدعتني !! »

ـ أنت أعور خبيث ، حيث تستشير في ابن رسول الله الست الأحمق ؟!

وأقبل الأشعث الى الامام فقال له : « يا أبا محمد ألا تزور أهلك » مستعجلاً في الأمر خوفاً من فواته ، ثم إنه فرش أبسطة من باب بيته الى بيت الامام وزف ابنته اليه (١) بهذه الصورة كان زواج الامام بجعدة .

٣ ـ عائشة الخثعمية :

ومن جملة أزواج الامام عائشة الخثعمية تزوجها في حياة أمير المؤمنين ولما قتل (ع) أقبلت الى الامام الحسن فأظهرت الشماتة بوفاة أبيه فقالت له: « لتهنك الخلافة » . ولما علم عليه السلام شماتتها قال لها :

« ألقتل علي تظهرين الشماتة ؟ إذهبي فأنت طالق » .

فتلفعت بثيابها وقعدت حتى انقضت عدتها فبعث لها بقية صداقها وعشرة آلاف درهم صدقة لتستعين بهـا على أمورها ، فلما وصلت اليها قالت : « متاع قليل من حبيب مفارق » (٢) ، ولم يذكر التاريخ ان الإمام طلق زوجه سوى هـذه وأم كلثوم وامرأة من بني شيبـان ، فأين كثرة الزواج والطلاق التي طبل بها بعض المؤرخين ؟

وأما بقية أزواجه اللاتي لم نعثر على تراجمهن فهن :

---

(١) الأذكياء لابن الجوزي ص ٢٧ .

(٢) تاريخ ابن عساكر ٤ / ٢١٦ .

٤ ـ أم كلثوم بنت الفضل بن العباس ، تزوجها (ع) ثم فارقها فتزوجها من بعده أبو موسى الأشعري (١) .

٥ ـ أم اسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التميمي ، أولدت منه ولداً أسماه طلحة .

٦ ـ أم بشير بنت أبي مسعود الأنصاري ، أولدت منه ولداً أسماه زيداً

٧ ـ هند بنت عبد الرحمن بن أبي بكر .

٨ ـ امرأة من بنات عمرو بن أهيم المنقري .

٩ ـ امرأة من ثقيف ، أولدت له ولداً أسماه عمراً .

١٠ـ امرأة من بنات زرارة .

١١ـ امرأة من بني شيبان من آل همام بن مرة ، فقيل له إنها ترى رأي الخوارج فطلقها وقال : « إني أكره أن أضم الى نحري جمرة من جمر جهنم » (٢) .

١٢ ـ أم عبد الله ، وهي بنت الشليل بن عبد الله أخو جرير البجلي.

١٣ ـ أم القاسم ، وهي أم ولد ، وقيل اسمها نفيلة ، وقيل رملة .

فمجموع ما تزوجه الامام من النساء هذا العدد المذكور لم يتجاوزه بقليل ، وهو كما ترى لا يمت الى الكثرة المزعومة بصلة ، الى هنا ينتهي بنا الحديث عن أزواج الامام ، وقد بقي علينا الاشارة الى عدد أولاده ذكوراً وأناثاً ، وقد اختلف المؤرخون في ذلك اختلافاً كثيراً فقد روي أنهم :

١ ـ اثنا عشر ، ثمانية ذكوراً وأربع اناث (٣) .

---

(١) الاستيعاب ٣ / ٢٠٤ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٨ ، وقد ذكر اسماء هذه النسوة .

(٣) الارشاد .

٢ ـ خمسة عشر ، الذكور احدى عشر ، والاناث أربع (١) .
٣ ـ ستة عشر ، الذكور احدى عشر ، والاناث خمس (٢) .
٤ ـ تسعة عشر ، الذكور ثلاثة عشر ، والبنات ست (٣) .
٥ ـ عشرون ، ستة عشر ذكراً ، وأربع بنات (٤) .
٦ ـ اثنان وعشرون ، الذكور أربعة عشر ، والاناث ثمان (٥) .
وقيل غير ذلك ، وقد اتفق المؤرخون أنه لم يعقب أحد من أولاده سوى الحسن وزيد ، اما أعلام أولاده فهم :

---

(١) النفحة العنبرية .

(٢) زينب ، والزينبات للعبيدلي ، اتعاض الحنفا في أخبار الخلفاء للمقريزي المجدي ، وقد نص على أسمائهم فالذكور : زيد ، والحسن ، والحسين الأثرم ، وطلحة ، واسماعيل ، وعبد الله ، وحمزة ، ويعقوب ، وعبد الرحمن ، وأبو بكر ، وعمر .
وأما الاناث : أم الخير ، ورملة ، وأم الحسن ، وأم سلمة ، وأم عبد الله . وجاء فيه أن زيداً ، وأم الخير ، وأم الحسن أمهم خزرجية ، وأم الحسن خولة بنت منظور الفزارية ، وزوجه عمه الحسين بنته فاطمة ، وعمر أمه أم ولد ، والحسين أمه أم ولد ، وطلحة أمه من تيم قرشية ، وذكر ان عبد الرحمن بن الامام الحسن مات محرماً بالأبواء فكفنه عمه الحسين ولم يحنطه ولا غطى وجهه .

(٣) سر السلسلة العلوية لأبي نصر البخاري .

(٤) تذكرة الخواص لابن الجوزي ،

(٥) الحدائق الوردية ص ١٠٧ .

١ – القاسم :

وفي طليعة أولاد الامام الحسن القاسم ، وقد استشهد مع عمه سيد الشهداء في واقعة كربلا الخالدة في دنيا الأحزان ، وكان حينذاك في ريعان الشباب وغضارة العمر ، وكالقمر في جماله ، وبهائه ، ونضارته ، برز يوم الطف حينما رأى ريحانة النبي (ص) وحيداً ، قد أبيدت الصفوة من أهل بيته ، وعلا الصراخ والعويل من ثقل النبوة ، فلم يتمكن أن يرى ذلك ، فانبرى الى عمه يقبل يديه ورجليه يطلب منه الاذن للدفاع عنه ، فأذن له ، أما كيفية شهادته فتذوب لها النفس لهولها أسى وحسرات ، وقد ذكرها المؤرخون وأرباب المقاتل والسير بالتفصيل .

٢ – أبو بكر :

واسمه عبد الله ، أمه أم ولد (١) يقال لها رملة (٢) برز يوم الطف يحامي عن دين الله ، ويذب عن ريحانة رسول الله (ص) ، فاستشهد في تلك الواقعة التي وتر فيها رسول الله (ص) .

٣ – عبد الله :

استشهد مع عمه سيد الشهداء في كارثة كربلا ، وله من العمر احدى عشر سنة ، نظر الى عمه الحسين وقد أحاطت به جيوش الأمويين ، فأقبل يشتد للدفاع عنه ، وأهوى أبحر بن كعب بالسيف ليضرب الإمام الحسين فصاح به الغلام ، ويلك يا ابن الخبيثة أتضرب عمي ؟ واتقى الغلام الضربة بيده فأطنها الى الجلد فاذا هي معلقة ، فاستنجد الغلام بعمه ، فانبرى اليه

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٢٦٩ .

(٢) الحدائق الوردية ص ١٠٧ .

الإمام فضمه اليـــه (١) ، وبينما هو في حجره إذ رماه حرملة بن كاهل بسهم فذبحه (٢) وليس في تأريخ الإنسانية قديماً ولا حديثاً مثل أولئك الفتية من آل النبي (ص) في نخوتهم ونبلهم وبطولتهم .

٤ — زيد :

وزيد أمّه خزرجيـــة كان جليل القـدر ، كريم الطبع ، كثير البر والاحسان ، قصده الناس من جميع الآفاق لطلب بره ومعروفه ، وكان يلي صدقات رسول الله (ص) فلما ولي سليمان بن عبد الملك عزله عنها ، ولما هلك واستخلف عمر بن عبد العزيز أرجعها اليه ، وقد مدحه محمد بن بشير الخارجي بقوله :

إذا نزل ابن المصطفى بطن تلعة — نفى جدبها واخضرّ بالنبت عودها
وزيد ربيع الناس في كل شتوة — إذا اخلفت انواؤها ورعودها
حمـول لأشتات الديات كأنه — سراج دجى قد فارقته سعودها (٣)

وكان يركب فيأتي سوق (الظهر) فيقف به فتزدحم النـــاس على النظر اليه ويعجبون من خلقه ، ويقولون يشبه جده رسول الله (٤) توفي سنة مائة وعشرين وله من العمر تسعون سنة وقيل مائة ، ورثاه جماعة من الشعراء منهم قدامة بن موسى الجحمي بقوله :

فان يك زيد غالت الأرض شخصه — فقد بان معروف هنـــاك وجود
وإن يك أمسى رهن رمس فقدثوى — به وهـــو محمود الفعال فقيـــد

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٢٥٩ .

(٢) اللهوف ص ٦٨ .

(٣) البحار ١٠ / ١٨٠ .

(٤) طبقات ابن سعد ٥ / ٣٤ .

سميع الى المضطر يعلم أنه | سيطلبه المعروف ثم يعود
وليس بقوال وقد حط رحله | لملتمس المعروف اين تريد
إذا قصر الوعد الذي قد نمى به | الى المجد آباء له وجدود
مناديل للمولى محاشيد للقرى | وفي الروع عند النائبات أسود
إذا مات منهم سيد قام سيد | كريم فيبني مجدهم ويشيد (١)

٥ ـ الحسن :

كان الحسن سيداً جليلاً عظيم القدر ، وهو وصي أبيه ، ووالي صدقته (٢) ، حضر مع عمه الحسين (ع) في واقعة كربلا ، فقاتل معه حتى سقط الى الأرض جريحاً ، ولما أقبل أجلاف أهل الكوفة على حز رؤوس الشهداء وجدوا في الحسن رمقاً فجاء اسماء بن خارجة الفزاري ، وكان من أخواله فاستشفع به فشفعوه فيه فحمله معه الى الكوفة وعالجه حتى بريء ثم لحق بالمدينة ، وكان يلي صدقات جده أمير المؤمنين (ع) وقد تزوج بابنة عمه فاطمة بنت الحسين ، ولما مات جزعت عليه جزعاً شديداً فضربت على قبره فسطاطاً سنة كاملة فكانت تصلي في الليل وتصوم في النهار(٣) توفي وعمره خمس وثلاثون سنة مسموماً قد سقاه السم الوليد بن عبد الملك (٤) .

الى هنا ينتهي بنا الحديث عن أولاده وقد بحثنا عنهم بحثاً موجزاً وعسى أن يساعدني التوفيق فأتشرف بالبحث عن سيرتهم وثورات احفادهم الإصلاحية ضد الظالمين والمستبدين من خلفاء الأمويين والعباسيين .

---

(١) البحار ١٠ / ٢٣٤ .
(٢) الحدائق الوردية ص ١٠٧ .
(٣) البحار ١٠ / ١٣٨ ، تنقيح المقال ١ / ٢٧٢ .
(٤) عمدة الطالب ص ٧٨ .



نهاية المطاف

وحقق معاوية جميع ما يصبو اليه في هذه الحياة ونال من دنياه كل ما اشتهى وأراد ولكن بقيت عنده فكرة واحدة تراوده في جميع أوقاته قد أقضت مضجعه ، لو تمت لتم له كل شيء بحسابه وهي جعل الخلافة والملك العضوض وراثة في أبنائه وذريته ، وقد بذل جميع جهوده ومساعيه في تحقيق ذلك ، فأدنى الأباعد ، وأنفق الإموال الطائلة ، وسافر الى يثرب مع ما هو فيــه من الشيخوخة والضعف ، فلم يظفـر بذلك ما دام الإمام الحسن حياً ، فعلم أنه لا يتمكن من انجاز مهمته إلا باغتيال شخصية الإمام التي ينتظر دورها العادل جميع المسلمين لينتشر العدل ويعم الخير والرفاهية في جميع أنحاء البلاد .

وأخذ معاوية يفكر في ذلك فيطيـل التفكير ، ويقلب الرأي على وجوهه باي وسيلة يتوصل الى تحقيق أمنيته ، فمثل أمامه قوله الذي ضربه مثلاً للفتك والغدر : « إن لله جنوداً من عسل » ، وقد طبق ذلك فنجح به مع سعد بن أبي وقاص ، والزعيم مالك الأشتر ، فانحصرت وسيلته بتطبيق ذلك فأرسل الى الإمام غير مرة سماً مميتاً حين ما كان في دمشق فلم ينجح به ، فراسل عاهل الروم يطلب منه أن يبعث اليه سماً فاتكاً سريع التأثير فامتنع من إجابته قائلاً له : « انه لا يصلح لنا في ديننا أن نعين على قتال من لا يقاتلنا » ان ملك الروم لم يسمح له دينه أن يغتال بريئاً ، ولـكن معاوية قد استباح ذلك واعرب عن كفره ، فراسله مرة ثانية يخبره بمشروعية هذا الأمر قائلاً : « إن هذا الرجل ابن الذي خرج بأرض تهامة – يعني رسول الله – قد خرج يطلب ملك أبيه ، وأنا أريد اليه السم ، فاريح منه العباد والبلاد » لقد استحل اغتيال الإمام لأنه ابن رسول الله (ص) الذي حطم أوثان الجاهلية ، وقضى على الشرك ، وقد وجد ملك الروم عند ذلك

مجالاً فبعث اليه سماً مميتاً (١) ، ولما وصل السم الى معاوية جعل يفكر فى إيصـــاله الى الإمام فاستعرض أقرباء الإمام ومن يمت اليـــه فلم يجـــد أحداً يعينه على ارتكاب هذه الجريمة ، فاستعرض ثانياً أزواج الإمام فوجد في جعدة بنت الأشعث طلبته فأبوهـــا الذي أرغم أمير المؤمنين على قبول التحكيم وأفسد جيشه ولعله يجد فى ابنته تحقيق اربه وبلوغ أمنيتـه فأرسل اليها السم بتوسط الأثيم مروان بن الحكم وأمره أن يمنيها بزواج يزيد وأن يقدم لهـــا مائة ألف درهم (٢) وحري بهذه الأثيمة أن تجيب نداء ابن هند فهي من اسرة انتهازية لها تأريخها الأسود فقـــد جبلت على الطمع وعلى الاستجابة لجميـع الدوافع المادية ، وقد قال الإمام الصادق (ع) فيها: « ان الأشعث شرك فى دم أمير المؤمنين ، وابنته جعـــدة سمت الحسن ، وابنه شرك فى دم الحسين » (٣) . ويضاف لذلك أن جعدة كانت مصابة بالعقـد النفسية لأنها لم ترزق من الامام ولداً ، وكانت تعـــامل في بيتها معاملة عادية .

ولما وصل السم الى مروان حمله اليها فقدم لها الأموال ومناها بزواج يزيد ان أجابت طلبته ، فأخذ الشيطان يوسوس لهـــا فانخدعت وفرحت بالأموال وباقترانها بيزيد ، فوافقت على ارتكاب الجريمة فأخذت منه السم وكان الامام صائماً في وقت شديد الحر فأخرجت له افطاره والقت السم في لبن فتناول منـه الامام جرعة فلما وصل الى جوفه تقطعت أمعـــاؤه ،

---

(١) البحار ١٠ / ١٧٣ .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٥٣ ، وقيل إن معاوية بعث لهـا عشرة آلاف دينار وأقطعها ضياعاً من سواد الكوفة جاء ذلك فى تحف العقول ص ٣٩١ .

(٣) اعيان الشيعة ٤ / ٧٨ .

فقال (ع) لما أحس بألمه الشديد :

« إنا لله وإنا اليه راجعون ، الحمد لله على لقاء محمد سيد المرسلين وأبي سيد الوصيين ، وأمي سيدة نساء العالمين ، وعمي جعفر الطيار ، وحمزة سيد الشهداء . »

ثم التفت الى جعدة فقال لها :

« يا عدوة الله ، قتلتيني قتلك الله ، والله لا تصيبين مني خلفاً ، ولقد غرك — يعني معاوية — وسخر منك يخزيك الله ويخزيه » (١) .

لقد أخزاها الله فلقد أصبحت مضرب المثل للسوء والخزي والاثم والخيانة فقد أصبحت عاراً لذريتها وأبنائها من غير الامام فقد وصموا بابناء مسممة الأزواج (٢) ولقد سخر منها معاوية فلم يف لها بزواج يزيد حيث طلبت منه ذلك فقد ردها بسخرية واستهزاء قائلاً :

« أنا نحب حياة يزيد ، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه !! » (٣) .

واتفق أكثر المؤرخين ان الامام مات مسموماً وان معاوية هو الذي دس اليه السم فقتله (٤) ، وذهب فريق آخر أن يزيد هو الذي سم

(١) تحف العقول ص ٣٩١ .

(٢) أعيان الشيعة ٤ / ٧٦ .

(٣) مروج الذهب ٢ / ٣٠٣ .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ١٧ ، تأريخ الدول الاسلامية ١ / ٥٣ ، تذكرة الخواص ص ٢٢٢ ، الاستيعاب ١ / ٣٧٤ ، النصائح الكافية ص ٦٢ تأريخ أبي الفداء ١ / ١٩٤ ، وهذه المصادر كلها لأبناء السنة والجماعة وقد عزت قتل الامام الى معاوية ، وبهذا يتضح فساد ما ذهب اليه بعض المؤرخين من أن الشيعة هي التي روت أن معاوية قد سم الامام كما انه يتضح فساد ما ذكره —

الإمام (١) ولو سلمنا ذلك فانه إنما كان بأمر من أبيـــه إذ لا يعقل أن يرتكب مثل هذا الحادث الخطير من دون مراجعته واحراز موافقته ، ومن الغريب جداً ما ذهب اليه ابن خلدون حيث حاول تبرير ساحة معـــاوية ونفي الجريمة عنه ، قال :

« وما ينقل من أن معاوية قد دس السم الى الامام الحسن على يد زوجته جعـــدة بنت الأشعث فهو من أحاديث الشيعة ، وحاشا لمعـــاوية ذلك » (٢) .

وابن خلدون مدفوع بدافع العصبية وهي داء خبيث قد القت الناس في شر عظيم وقد منى بهـا هذا المؤرخ ، فهو لم يكتب فى أمثـــال هذه

— الدكتور فيليب حتى في كتابه (العرب) ص٧٩ ما نصه : « وأما الشيعة فتعزوا مقتله — يعني الحسن — الى معاوية وتجعل الحسن شهيداً لا بل سيد الشهداء أجمعين » وقد استقى الدكتور قوله من ابن خلدون ولم يتتبع بقية المصادر ليطلع على جلية الحال وهذا دليل على فقدان المستشرقين للتحقيق العلمي وعدم تركيز بحوثهم على المنطق والدليل .

(١) تاريخ أبي الفداء ١ / ١٩٣ ، نور الأبصار ص ١١٢ ، تأريخ ابن الوردي ٨ / ٤٣ ، وعند ابن كثير ان هـذا ليس بصحيـح من يزيد فضـلاً عن معاوية ولم يبين مدرك عدم الصحة وما سبب ذلك إلا العصبية الهوجاء وإلا فما يمنع يزيد من ذلك وهو الذي قتل سيد شباب أهل الجنة الحسين وأباح عاصمة الرسول لجنده ثلاثة أيام ، وزنى بعمته أم الحكم .

(٢) تأريخ ابن خلدون ٢ / ١٨٧ ، واستند عبـــد المنعم فى كتابه التأريخ السياسي ٢ / ٢٠ ، الى قول ابن خلدون فقال فى معرض حديثه عن وفاة الامام : « ولكنا نستبعد قيام معاوية بذلك » .

البحوث إلا ليرضي عصبيته وعاطفته وميوله وإنا لنسأله ما الذي يمنع معاوية من ارتكاب هذه الجريمة في سبيل توطيد ملكه وسلطانه وقد ارتكب من أجل ذلك افحش الموبقـــات واعظم الجرائم ، فحارب الخليفـــة الشرعي أمير المؤمنين وولده الحسن وقتل الصحابي حجر بن عدي واصحابه المؤمنين ، وسم مالك الأشتر ، وسعد بن أبي وقاص واستلحق به زياد بن ابيه إلى غير ذلك من جرائمه التي لا تحصى وبعد هذا فما الذي يمنعه من اغتيال الامام وسمه وقد علم أن الأمر لايتم لولده إلا بذلك ،

أقوال غريبة :

ولا بأس بالاشارة الى بعض الاقوال الغريبـة التي تضارع قول ابن خلدون في عدم الصحة وفى البعد عن الواقع وهي :

١ — موته بالسل :

ذكر المستشرق (روايت م . رونلدس) ان الإمام الحسن (ع) مات بالسل عند ما بلغ من العمر خمساً واربعين سنة (١) ، وهذا القول من الغرابة بمكان ولم يذهب اليه أحد من المؤرخين فقد أجمعوا أنه مات مسموماً ولم يصب بداء السل ، وقد كتب هذا المستشرق جميع بحوثه على هذا الطراز في الخلو عن التحقيق وفي الإعتماد على الإفتراء والكذب .

٢ — سمه في العصا :

ذكر الأستاذ حسين واعظ : « أن الإمام الحسن قد ترك المدينة الى الموصل في العراق بقصد الإستشفاء لأنه شعر بتأخر في صحته من بعد حوادث

---

(١) عقيدة الشيعة ص٩٠ ، وذكر عين هذا المعنى لامنس في دائرة المعارف الإسلامية ٧ / ٤٠٠

التسميم ، إلا أن شخصاً فقيراً أعمى قد جاء يطلب منه أن يتصدق عليه وكان (ع) جالساً على الأرض فرمى الأعمى عصاه على رجل الحسن ثم ضغطها على رجله ، وكانت عصاه متسممة إلا أنه عولج على أيدي الأطباء هناك فبريء من ذلك » (١) .

وهذا القول بعيد عن الصحة كل البعد إذ لم يصرح مؤرخ بما ذكره وهو افتراء محض لا نصيب له من الصحة .

٣ ــ سمه في الطواف :

ذكر المؤرخ الشهير أحمد بن سهل البلخي الشهير بالمقدسي : « أن الإمام كان يطوف في البيت الحرام فطعنه شخص بظهر قدمه بزج (٢) مسموم فتوفى على أثر ذلك » (٣) .

وهذا القول من الغرابة بمكان قد انفرد به هذا المؤرخ ولعله أراد تنزيه معاوية ورفع المسؤولية عنه بارتكابه هذه الجريمة ، ولم نحسب أن مؤرخاً قد ذهب الى ذلك .

٤ ــ موته حتف أنفه :

ذكر الدكتور حسن ابراهيم أن بعض المؤرخين ذهب الى أن الإمام مات حتف أنفه بعد رجوعه من العراق الى يثرب بأربعين يوماً (٤) وهذا

---

(١) روضة الشهداء ص ١٠٧ .

(٢) الزج : الحديدة في أسفل الرمح .

(٣) البدء والتاريخ ٦ / ٥ ط باريس .

(٤) تاريخ الإسلام السياسي ١/٣٩٨ ، وذكر قريب من ذلك محمد أسعد طلس في كتابه تاريخ الأمة العربية ص ٩ وص ١٦ ، فقال : « وغادر الحسن ــ بعد الصلح ــ الى المدينة ، ولم يلبث أكثر من شهرين حتى مات » .

القول ظاهر الفساد فان الإمام (أولا) لم يمت حتف أنفه، و (ثانياً) انه قد مكث في يثرب حفنة من السنين بعد وصوله اليها حتى وافاه الأجل المحتوم كما أجمع على ذلك المؤرخون.

ونعود بعد هذا الى تفصيل حالة الإمام فانه لما وصل السم الى جوفه أخذ يعاني آلام الموت فبقي في فراش المرض أربعين يوماً (١)، وقيل: شهرين (٢) وفي كل يوم تزداد فعالية السم في جسمه حتى ذاب قلبه الشريف من الألم ذلك القلب الذي يضم الحب والعطف للناس جميعاً، ودخل عليه عائداً شقيقه الحسين فلما رآه وهو خابيء اللون، معصوب الرأس، قد ذابت حشاه من السم التفت اليه وقد أذهله المصاب، وأفزعه الخطب قائلاً:

« أخي من سقاك السم ؟ »

ـ وما تريد منه ؟

ـ أريد أن أقتله.

« إن يكن الذي أظنه فالله أشد بأساً وأشد تنكيلاً، وإن لم يكن هو فما أحب أن يقتل بي بريء » (٣).

وهكذا كان (ع) محتاطاً في الدماء حريصاً عليها، لايحب أن يهراق في أمره ملأ محجمة دماً، وجيء له بطبيب ففحصه فحصاً دقيقاً وبعد الامعان في التشخيص يئس منه فالتفت الى أهله قائلاً لهم:

---

(١) دائرة المعارف للبستاني ٧ / ٣٨، شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٤.

(٢) حياة الحيوان للدميري ١ / ٥٣، وقيل انه مكث يومين بعد التسمم لا غير، جاء ذلك في تحف العقول ص ٣٩١.

(٣) الاستيعاب ١ / ٣٧٤.

« ان السم قد قطع أمعاءه » (١) .

فعند ذلك يئس الإمام من حياته ، ودخل عليه عائداً الصحابي العظيم جنادة بن أبي أمية فالتفت الى الإمام قائلاً :

« عظني يا ابن رسول الله » .

فاجاب (ع) طلبته وهو في أشد الأحوال حراجة ، وأقساها ألماً ومحنة فاتحفه بهذه الكلمات الذهبية التي هي أغلى وأثمن من الجوهر وقد كشفت عن أسرار إمامته ، قائلاً :

« يا جنادة ، استعد لسفرك ، وحصل زادك قبل حلول أجلك ، واعلم أنك تطلب الدنيا والموت يطلبك ، ولا تحمل هم يومك الذي لم يأت على يومك الذي أنت فيه ، واعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلا كنت فيه خازناً لغيرك ، واعلم أن الدنيا في حلالها حساب ، وفى حرامها عقاب ، وفي الشبهات عتاب ، فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة خذ منها ما يكفيك فان كان حلالاً كنت قد زهدت فيه ، وإن كان حراماً لم يكن فيه وزر فأخذت منه كما أخذت من الميتة ، وإن كان العقاب فالعقاب يسير ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، وإذا أردت عزاً بلا عشيرة ، وهيبة بلا سلطان ، فاخرج من ذل معصية الله الى عز طاعة الله عز وجل ، وإذا نازعتك الى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا صحبته زانك ، وإذا أخذت منه صانك ، وإذا أردت منه معونة أعانك وان قلت صدق قولك ، وان صلت شد صولتك ، وإن مددت يدك بفضل مدها ، وإن بدت منك ثلمة سدها ، وإن رأى منك حسنة عدها وإن سألته أعطاك ، وإن سكت عنه إبتداك ، وإن نزلت بك إحدى

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ٤٣ .

الملمات واساك ، من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ولا يخذلك عند الحقائق ، وان تنازعتما منقسماً آثرك » (١) .

لقد اعطى (ع) لجنادة بهذه الوصية الخالدة الدروس النافعة ، والحكم القيمة ، والآراء الصائبة التي استقاها من جده الرسول (ص) ومن أبيه أمير المؤمنين ، فقد أرشده الى أفضل المناهج التي تضمن له النجاح في آخرته ودنياه .

ودخل على الإمام عائداً عمير بن اسحاق فالتفت (ع) له قائلاً .

« يا عمير سلني قبل أن لا تسلني ! »

وثقل على عمير أن يسأله وهو بهذه الحالة فقال له :

« لا والله لا أسألك حتى يعافيك الله ثم أسألك » (٢) .

والتفت عليه السلام إلى أهل بيته معرباً لهم عما يعانيه من ألم السم ، « لقد القيت طائفة من كبدي ، واني سقيت السم مراراً ، فلم أسقه مثل هذه المرة ، لقد لفظت قطعة من كبدي (٣) ، فجعلت أقلبها بعود

---

(١) أعيان الشيعة ٤ / ٨٥ .

(٢) صفة الصفوة ١ / ٣٢٠ ، البداية والنهاية ٨ / ٤٢ .

(٣) لقد نصت الرواية — على تقدير ثبوتها — ان السم أثر في كبد الإمام عليه السلام حتى قاء بعضاً منه ، وقد تحقق في الطب الحديث ان السم لا يوجب قيء الكبد ، وإنما يحدث التهاباً بالمعدة ، وتهيجاً في الأمعاء إذا كان التسمم حاداً وإذا كان غير حاد فإنه يؤدي الى هبوط في ضغط الدم ، والى التهاب في الأعصاب وقد يؤدي في أحوال نادرة الى التهاب كبدي وغير ذلك من العوارض التي نص عليها الأطباء المختصون في الطب العدلي ، وقد يتوهم ان هذا يتصادم مع ما جاء في الرواية وهو مدفوع فان الكبد في الاستعمالات العربية يطلق على الجهاز الخاص —

معي » (١) .

ودخل عليه عائداً أخوه سيد الشهداء فلما نظر الى ما يعانيه من ألم السم غامت عيناه بالدموع ، فنظر اليه الحسن فقال له :

ـ ما يبكيك يا أبا عبد الله ؟

ـ أبكي لما صنع بك .

واستشف الإمام الحسن بما سيجري على أخيه من بعده فهان عليه ما هو فيه ، وأرخى عينيه بالدموع وقال له بنبرات مرتعشة حزينة :

« إن الذي أوتي إلي سم اقتل به ، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله وقد ازدلف اليك ثلاثون ألفاً ، يدعون أنهم من أمة جدنا محمد (ص) وينتحلون دين الإسلام ، فيجتمعون على قتلك ، وسفك دمك ، وأنتهاك

ـ في الجانب الأيمن الذي يفرز الصفراء ، كذلك يطلق على ما في الجوف بكامله كما جاء في القاموس ١ / ٣٣٢ ، وفي تاج العروس ٢ / ٤٨١ ما نصه : وربما سمي الجوف بكامله كبداً حكاه ابن سيده عن كراع انه ذكره في المُنجَّد وأنشد :

إذا شاء منهم ناشيء مد كفه الى كبد ملساء أو كلفل نهد

قال : ومن المجاز الكبد الجنب ، وفي الحديث : فوضع يده على كبده وإنما وضعها على جنبه من الظاهر ، وفي حديث مرفوع : « وتلقي الأرض أفلاذ كبدها » أي تلقي ما خبيء في بطنها من الكنوز والمعادن فاستعار لها الكبد ، وجاء ذلك ايضاً في لسان العرب ٤ / ٣٧٨ ، وعلى ذلك فيكون المراد من الرواية انه القى من جوفه قطعاً من الدم المتخثر تشبه الكبد وبهذا ظهر عدم التنافي بين الرواية وبين ما ذكره الأطباء فيما نحسب والله العالم .

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ١٧ .

حرمتك ، وسبي ذراريك ونسائك ، وانتهاب ثقلك .. » (١)

إن جميع ما واجهته العترة الطاهرة بعد وفاة النبي (ص) من الشجون والخطوب لا يضارع كارثة أبي عبد الله (ع) فلا يوم كيومه فقد ذل فيه الإسلام ، وانتهكت فيه كرامة المسلمين وحرمة النبي (ص) التي هي أولى بالرعاية والعطف من كل شيء ، ويشتد الوجع به ويسعر عليه الألم فيجزع ، فيلتفت اليه بعض عواده قائلا له :

« يا ابن رسول الله ، لِمَ هذا الجزع ؟ أليس الجد رسول الله (ص) والأب علي والأم فاطمة ، وانت سيد شباب أهل الجنة ؟!! »

فاجابه بصوت خافت :

« أبكي لخصلتين : هول المطلع ، وفراق الأحبة » (٢) .

وصيته للحسين :

ولما ازداد ألمه وثقل حاله علم أنه قد قرب دنوه من دار الآخرة ، وبعده عن هذه الدنيا ، فاستدعا أخاه سيد الشهداء فأوصاه بوصيته وعهد اليه بعهده ، وقد روت الشيعة وصيته بلون لا يتفق مع ما روته أبناء السنة والجماعة .

أما ما روته الشيعة فهذا نصه :

« هذا ما أوصى به الحسن بن علي الى أخيــه الحسين ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأنه يعبده حق عبادته ، لا شريك له في الملك ، ولا ولي له من الذل ، وأنه خلق كل شيء فقدره

---

(١) البحار ١٠ / ١٢٣ .

(٢) أمالي الصدوق ص ١٣٣ .

تقديراً ، وأنه أولى من عبـــد ، وأحق من حمد ، من أطاعه رشد ، ومن عصاه غوى ، ومن تاب اليه اهتدى ، فاني أوصيك يا حسين بمن خلفت من أهلي وولدي وأهل بيتك ، أن تصفح عن مسيئهم ، وتقبل من محسنهم وتكون لهم خلفاً ووالداً ، وأن تدفنني مع رسول الله (ص) فاني أحق به وببيته ، فان أبوا عليك فأنشدك الله وبالقرابة التي قرب الله منك ، والرحم الماسة من رسول الله (ص) أن لا يهراق من أمري محجمة من دم حتى تلقى رسول الله فتخصمهم وتخبره بما كان من أمر الناس الينا » (١) .

وقد اشتملت فقرات هذه الوصية على توحيد الله تعالى وتنزيهه عن المماثل ، ونفي الشريك عنه ، وقد أمر فيهـا أخاه بالصفح عمن أذنب من أهل بيته ، والإحسان لمن أساء منهم ، ومواراة جثمانه بجوار جده ، فهو أولى الناس به فان عارضه المنـــاوئون لهم بذلك فلا يهريق من أجل ذلك محجمة دم ، وقد عرف (ع) بالمحافظة على هذه الجهات ، فقد أنفق جميع ما عنـده في سبيل الله ، وقابل جميـع من أساء اليـه بالصفح والإحسان ، وترك الخلافة محافظة على دماء المسلمين .

وأما ما روته أبناء السنة والجماعة فهذا نصه :

« يا أخي إن أباك لما قبض رسول الله (ص) استشرف لهذا الأمر ورجا أن يكون صاحبه فصرفه الله عنه ووليهـــا أبو بكر ، فلما حضرت أبا بكر الوفاة تشوف لها أيضاً ، فصرفت عنه الى عمر ، فلما احتضر عمر جعلها شورى بين ستة هو أحدهم ، فلم يشك أنها لا تعدوه ، فصرفت عنه الى عثمان ، فلما هلك عثمان بويع ثم نوزع حتى جرد السيف وطلبهـا فما

(١) أعيان الشيعة ٧٩/٤ ، أمالي الصدوق ، عيون المعجزات للسيد المرتضى مرآة العقول ١ / ٢٢٦ .

صفا له شيء منها ، وإني والله ما أرى أن يجمع الله فينا أهل البيت النبوة والخلافة فلا أعرفن ما استخفك سفهاء أهل الكوفة فأخرجوك ، إني وقد كنت طلبت الى عائشة إذا مت أن تأذن لي فأدفن في بيتها مع رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت نعم . وإني لا أدري لعلها كان ذلك منها حياءً فاذا أنا مت فأطلب ذلك منها فان طابت نفسها فادفني في بيتها ، وما أظن القوم إلا سيمنعونك إذا أردت ذلك ، فان فعلوا فلا تراجعهم في ذلك ، وادفني في بقيع الغرقد فان لي فيمن فيه أسوة »(١) .

وقد اشتملت هذه الوصية على الحط من كرامة أمير المؤمنين (ع) وانتقاصه ، وهذا لا يتفق مع سيرة الإمام الحسن بحال من الأحوال ولكن في التأريخ صوراً هزيلة أثبتت لأغراض غير خفية على النبيه .

وصيته لمحمد :

ومشى الموت الى الإمام عليه السلام فعلم انه على أبواب الآخرة ، فأمر قنبراً أن يحضر أخاه محمد بن الحنفيــة ، فمضى اليه مسرعاً فلما رآه محمد ذُعر فقال :

« هل حدث إلا خير ؟ »

فأجابه بصوت خافت : « أجب أبا محمد » .

فذهل محمد واندهش وخرج يعدو حتى انه لم يسوِ شسع نعله من كثرة ذهوله ، فدخل على أخيه وهو مصفر الوجه قد مشت الرعدة بأوصاله فالتفت عليه السلام له :

« إجلس يا محمد ، فليس يغيب مثلك عن سماع كلام تحيي به الأموات

---

(١) الاستيعاب ١ / ٣٧٥ ، تاريخ الخميس ٢ / ٢٢٧ .

وتموت به الأحياء ، كونوا أوعية العلم ، ومصابيح الدجى ، فان ضوء النهار بعضه أضوء من بعض ، أما علمت أن الله عز وجل جعل ولد ابراهيم أئمة ، وفضل بعضهم على بعض ، وآتى داود زبوراً ، وقد علمت بما استأثر الله به محمداً (ص) يا محمد بن علي إني لا أخاف عليك الحسد ، وإنما وصف الله به الكافرين ، فقال تعالى : «كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق »(1) ، ولم يجعل الله للشيطان عليك سلطاناً ، يا محمد بن علي ألا اخبرك بما سمعت من أبيك فيك ؟ »

— بلى .

— سمعت أباك يقول يوم البصرة : من أحب أن يبرني في الدنيا والآخرة فليبر محمداً ، يا محمد بن علي لو شئت أن أخبرك وانت نطفة في ظهر أبيك لأخبرتك ، يا محمد بن علي أما علمت أن الحسين بن علي بعد وفاة نفسي ، ومفارقة روحي جسدي إمام بعدي ، وعند الله فى الكتاب الماضي وراثة النبي (ص) أصابها في وراثة أبيه وأمه ، علم الله أنكم خير خلقه فاصطفى منكم محمداً ، واختار محمد علياً ، واختارني علي للإمامة واخترت أنا الحسين .

فانبرى اليه محمد مظهراً له الطاعة والانقياد قائلا :

«أنت إمامي ، وأنت وسيلتي إلى محمد (ص) ، والله لوددت إن نفسي ذهبت قبل أن أسمع منك هذا الكلام ، ألا وإن فى رأسي كلاما لاتنزفه الدلاء ، ولا تغيره بعد الرياح ، كالكتاب المعجم في الرق المنمنم ، أهم بابدائه فأجدني سبقت اليه سبق الكتاب المنزل ، وما جاءت به الرسل وإنه لكلام يكل به لسان الناطق ، ويد الكاتب ، ولا يبلغ فضلك ، وكذلك

(1) سورة البقرة آية ١٠٩ .

يجزي الله المحسنين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، إن الحسين أعلمنا علماً وأثقلنا حلماً ، وأقربنا من رسول الله (ص) رحماً ، كان إماماً فقيهاً قبل أن يخلق ، وقرأ الوحي قبل أن ينطق ، ولو علم الله أن أحداً خير منّا ما اصطفى محمداً منا ، فلما اختار محمد علياً إماماً ، واختارك علي بعده واخترت الحسين بعدك سلمنا ورضينا بمن هو الرضا »(١) .

وذكر الدينوري : أن الإمام في ساعاته الأخيرة بعث خلف أخيه محمد وكان في ضيعة له ، فلما مثل عنده فتح (ع) عينيه ، وكان مغمى عليه ، فالتفت الى أخيه الحسين أولاً موصياً له بمحمد قائلاً له :

« يا أخي ، أوصيك بمحمد خيراً ، فانه جلدة ما بين العينين » .

ثم التفت إلى محمد :

« يا محمد ، وأنا أوصيك بالحسين كانفه ووازره » (٢) .

الى الرفيق الاعلى :

وثقل حال الإمام واشتد به الوجع فأخذ يعاني آلام الإحتضار فعلم أنه لم يبق من حياته الغالية إلا بضع دقائق فالتفت إلى أهله قائلاً :

« إخرجوني الى صحن الدار ، أنظر في ملكوت السماء » .

فحملوه الى صحن الدار فلما استقر به رفع رأسه الى السماء وأخذ يناجي ربه ويتضرع اليه قائلاً :

« اللهم إني احتسب عندك نفسي فإنها أعز الأنفس عليّ لم أصب بمثلها ، اللهم آنس صرعتي ، وآنس في القبر وحدتي » .

---

(١) محمد بن الحنفية ص ٥٢ .

(٢) الأخبار الطوال ص ٢٠٣ .

ثم حضر في ذهنه غدر معاوية به، ونكثه للعهود، واغتياله إياه فقال:

« لقد حاقت شربته، والله ما وفى بما وعد، ولا صدق فيما قال » (١).

وأخذ يتلو آي الذكر الحكيم ويبتهل الى الله ويناجيه حتى فاضت نفسه الزكية الى جنة المأوى، وسمت الى الرفيق الأعلى، تلك النفس الكريمة التي لم يخلق لها نظير فيما مضى من سالف الزمن، وما هو آت حلماً وسخاءً وعلماً وعطفاً وحناناً وبراً على الناس جميعاً.

لقد مات حليم المسلمين، وسيد شباب أهل الجنة، وريحانة الرسول وقرة عينه، فاظلمت الدنيا لفقده، وأشرقت الآخرة بقدومه (٢).

وارتفعت الصيحة من بيوت الهاشميين، وعلا الصراخ والعويل من بيوت يثرب، وهرع أبو هريرة وهو باك العين، مذهول اللب الى مسجد رسول الله (ص) وهو ينادي بأعلى صوته:

---

(١) تذكرة الخواص ص ٢٣، تاريخ ابن عساكر ٤ / ٢٢٦، حلية الأولياء ٢ / ٣٨، صفة الصفوة ١ / ٣٢٠.

(٢) اختلف المؤرخون في السنة التي توفي فيها الإمام فقيل سنة ٤٩ هج، ذهب الى ذلك ابن الأثير، وابن حجر في تهذيب التهذيب، وقيل سنة ٥١ هج، ذهب الى ذلك الخطيب البغدادي في تاريخه، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة، وقيل غير ذلك، وأما الشهر الذي توفي فيه فقد اختلف فيه أيضاً، فقيل في ربيع الأول لخمس بقين منه، وقيل في صفر لليلتين بقيتا منه، وقيل يوم العاشر من المحرم يوم الأحد سنة ٤٥ من الهجرة، كما في المسامرات ص ٢٦، والمشهور عند الشيعة انه توفي في صفر في السابع منه إذ تقام فيه مراسيم الذكرى له، وقد ذكر السيد مهدي الكاظمي في دوائر المعارف ص ٢٣ تفصيل الأقوال في وفاته.

«يا أيها الناس ، مات اليوم حب رسول الله (ص) فابكوا»(١) .

وصدعت كلماته القلوب ، وتركت الأسى يحز في النفوس ، وهرع من في يثرب نحو ثوى الإمام وهم ما بين واجم وصائح ومشدوه ونائح قد نخب الحزن قلوبهم على فقد الراحل العظيم الذي كان ملاذاً لهم وملجأ ومفزعاً إن نزلت بهم كارثة أو حلت بهم مصيبة .

تجهيز الإمام :

وأخذ سيد الشهداء في تجهيز أخيه وقد أعانه على ذلك عبد الله بن عباس ، وعبد الرحمن بن جعفر ، وعلي بن عبد الله بن عباس ، فغسله وكفنه وحنطه وهو يذرف من الدموع مهما ساعدته الجفون ، وبعد الفراغ من تجهيزه أمر (ع) بحمل الجثمان المقدس الى مسجد الرسول لأجل الصلاة عليه (٢) .

مواكب التشييع :

كان تشييع الإمام تشييعاً حافلاً لم تشهد نظيره عاصمة الرسول ، فقد بعث الهاشميون الى العوالي والقرى المحيطة بيثرب من يعلمهم بموت الإمام فنزحوا جميعاً الى يثرب ليفوزوا بتشييع الجثمان العظيم (٣) وقد حدث ثعلبة ابن مالك عن كثرة المشيعين فقال :

« شهدت الحسن يوم مات ، ودفن في البقيع ، ولو طرحت فيه

---

(١) تهذيب التهذيب ٢ / ٣٠١ ، تاريخ ابن عساكر ٤ / ٢٢٧ .

(٢) أعيان الشيعة ٤ / ٨٠ .

(٣) تاريخ ابن عساكر ٨ / ٢٢٨ .

ابرة لما وقعت إلا على رأس انسان »(١) ،

وقد بلغ من ضخامة التشييع أن البقيع ما كان يسع أحداً من كثرة الناس ، وحق على المسلمين أن يحفوا لتشييع حفيد نبيهم الذي تكفل بصالحهم ، وعال بضعيفهم وعاجزهم ، وأوقف نفسه على البر والمعروف اليهم .

الصلاة على الجثمان :

وحمل الجثمان المقدس من ثوي الإمام الى مسجد النبي (ص) على أطراف الأنامل قد حفت به الوجوه والأشراف ، فوضع في الجامع فتقدم الإمام الحسين (ع) فصلى عليه وقد ائتمت به بقية الصحابة والناس على اختلاف طبقاتهم ، وذكر ابن أبي الحديد : ان الإمام الحسين (ع) أمر سعيد بن العاص بالصلاة عليه وقال له : لولا انها سنة لما قدمتك(٢) وهذا القول بعيد نظراً لتوتر العلاقات بين الأمويين والهاشميين فكيف يقدم الإمام الحسين عميدهم للصلاة عليه ؟ والصحيح ما روي أنه لم يحضر أحد من الأمويين فى موكب التشييع سوى سعيد بن العاص (٣) .

الفتنة الكبرى :

واتجهت مواكب التشييع نحو المرقد النبوي ليجددوا بالجثمان الطاهر عهداً عند جده ويوارونه بجواره ، ولما علم الأمويون ذلك تكتلوا وانضم

---

(١) الاصابة ١ / ٣٣٠ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ١٨ .

(٣) تاريخ الخميس ٢ / ٣٢٣ .

بعضهم الى بعض فقد دفعتهم الأنانية والعداء للهاشميين الى إحداث المعارضة والشغب في دفن الإمام بجوار جده ذلك لأنهم رأوا أن عميدهم عثمان قد دفن في حش كوكب مقبرة اليهود ، ويدفن الحسن مع جده فيكون ذلك عاراً عليهم وخزياً ، وأخذوا يهتفون بلسان واحد :

« يا رب هيجاء ، هي خير من دعة ، أيدفن عثمان بأقصى المدينة ، ويدفن الحسن عند جده !!؟ » .

وانعطف مروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص نحو عائشة وهما يستفزانها ويستنجدان بها في مناصرتهم ، وقد عرفا دخيلة نفسها وما تكنه من الموجدة والغيرة والحسد لولد علي وفاطمة قائلين لها :

« يا أم المؤمنين ، إن الحسين يريد أن يدفن أخاه الحسن مع رسول الله والله لئن دفن الحسن بجوار جده ليذهبن فخر أبيك ، وصاحبه عمر الى يوم القيامة » .

وألهبت هذه الكلمات نار الثورة في نفسها فاندفعت بغير اختيار لمناصرتهما كما اندفعت قبل ذلك لحرب أمير المؤمنين (ع) لا على أساس وثيق ، بل للعاطفة والميول التي طبعت المرأة نفسياً على الإنقياد اليهما ، والتفتت الى مروان قائلة :

« ما أصنع يا مروان ؟ »

ـــ الحقي به ، وامنعيه من أن يدفن معه .

فقامت مسرعة مدهوشة ، فجيء لها ببغلة فامتطتها وأقبلت الى مواكب التشييع الحاشدة ، وهي تصيح بلا اختيار قائلة :

« لا تُدخلوا بيتي من لا أحب ! ! إن دفن الحسن في بيتي لتجز

هذه – وأومأت الى ناصيتها – » (١) ،

وما علمت عائشة أن كلامها سيؤدي الى إراقة الدماء ، والى تفريق صفوف المسلمين ، وهي من دون شك لا يهمها ذلك ، فقد أراقت يوم الجمل سيلاً عارماً من دمائهم استجابة لعواطفها المترعة بالحقد تجاه أمير المؤمنين .

وإنا لنتساءل – أولاً – : من أين جاء لها البيت الذي دفن فيه رسول الله (ص) ؟ ألم يزعم أبوها أن رسول الله (ص) قال : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ، ولا فضة ، ولا داراً ولا عقاراً » فهل إن هذه الرواية اختصت بسيدة النساء فاطمة سلام الله عليها فمنعت من ارثها ، وحرمت من حقها ، وإذا كانت عامة فلماذا لا تعمل بها أم المؤمنين ؟ ولو سلمنا أنها ترث من البيت فما هو مقدار حصتها منه ، لأنها لا تستحق إلا التسع من الثمن ، وقد قيل :

لك التسع من الثمن   وبالكل تملكت

وبالاضافة لذلك فان الزوجة لا ترث من الأرض ، وإنما ترث من العمارات ، وسائر الأموال المنقولة .

ونتساءل – ثانياً – : لماذا لا تحب ريحانة رسول الله (ص) وثمرة

---

(١) ذكر فريق كبير من المؤرخين منع عائشة لدفن الامام الحسن بجوار جده منهم ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٨/٤ ، والسبط الجوزي في تذكرة الخواص ص ٢٢٣ ، واليعقوبي في تاريخه ١ / ٢٠٠ ، وأبو الفداء في تاريخه ١ / ١٩٢ ، وأبو علي النيسابوري في روضة الواعظين ص ١٤٣ ، وأبو الفرج في مقاتل الطالبيين ص ٥٢ ، وجاء أيضاً في الخرائج والجرائح ص ٢٣ ، وفي روض المناظر ، وفي البحار .

فؤاده ، وقد قال فيه : « اللهم إني أحبه ، وأحب من يحبه » لقد جافت عائشة بذلك ما أثر عن رسول الله (ص) في سبطه وريحانته (١) .

نعم استجابت عائشة لرغبات الأمويين، وانطلقت في موكبهم فمنعت سبط النبي أن يدفن مع جـــده ، وما راعت حرمة العـــترة الطاهرة التي فرض الله مودتها في كتابه الكريم ، فإنا لله وإنا اليه راجعون .

اجازة عائشة لدفن عبد الرحمن :

ونص المؤرخون أن عائشة سمحت بأن يدفن عبد الرحمن بن عوف في حجرة النبي (ص) (٢) وهو من الغرابة بمكان ، فهل ان عبد الرحمن أولى بالنبي (ص) من الإمام الحسن الذي هو سبطه وريحانته ، رحماك يا رب !! أي موقف هذا الذي وقفته عائشة ، فإنها تسمح لابن عوف أن يوارى مع رسول الله ، ويحظى بجواره ، وتبعد عنه ريحانته ، وفلذة كبده ، فتحول بينـــه وبين أغلى أمانيه ، ولم ترع عواطف النبي (ص) وشدة حبـــه له وتعلقه به ،

وعلق الاستاذ السيد سعيد الأفغـاني على موقف عائشة فقال : ولعل آخر تعبـــير عن موقفها ــ يعني عائشة ــ السلبي من علي ، انقباضها عن ولديه الحسن والحسين ، فلقد كانت تحتجب منهما وهما لها من المحارم ، انهما سبطا زوجها ولا تحل لهما ، ولا يحلان لها ، ومن المعروف بداهة انه لا تحـل امرأة الرجل لولده ولا لولد ولده وأولاد بناتهم ، وهي تعرف

---

(١) ذكرنا الأحاديث الواردة من النبي (ص) التي أجمع عليها المسلمون في حق الإمام الحسن في الحلقة الأولى من هذا الكتاب .

(٢) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة ص ٤٠٤ .

ذلك حق المعرفة لكنها حجبتهما ، ولم تكن تأذن لهما إلا من وراء حجاب مبالغة في مباعدتهما ، ولقد علّق على هذا الحادث ابن عباس بقوله : ان دخولهما عليها لحل (١) ثم كانت الأمنية الأخيرة للحسن بعد وفاة علي وتنازله لمعاوية عن الخلافة أن يدفن عند جده رسول الله (ص) وهي أمنية حق ما كان ينبغي أن يحرمها إذ كان أقرب الأحياء يومئذ من رسول الله (ص) وهو أمسهم به رحماً بعد ابنته وأزواجه ، ولكن للأهواء السياسية منحى لا يخضع لحق ولا منطق (٢) .

لقد ارتكبت عائشة في فعلها شططاً ، وأوضحت عما تكنه من العداء لأمير المؤمنين ولأولاده ، ونحن لا نجد ما يبرر فعلها ، ولما رأى محمد بن الحنفية موقفها المرير انبرى اليها وقد قُدّ قلبه قائلاً بنبرات تقطر غضباً : « يا عائشة ، يوماً على جمل ، ويوماً على بغل ، فما تملكين نفسكِ ، ولا تملكين الأرض عداوة لبني هاشم » .

فأثارت هذه الكلمات الغضب في نفسها فأرادت أن تفصل محمداً عن الفاطميين وتفرق بينهم وبينه قائلة له :

« هؤلاء بنو الفواطم لا يتكلمون » .

ولم يخف على الحسين ما ارادته عائشة من التفرقة وصدع الشمل فاندفع اليها راداً عليها مقالها قائلاً :

« وأنتِ تبعدين محمداً من الفواطم ، فوالله لقد ولدته ثلاث من الفواطم ، فاطمة بنت عمران بن عايذ بن مخزوم ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم ، وفاطمة بنت زائدة » .

(١) طبقات ابن سعد ٨ / ٥٠ .

(٢) عائشة والسياسة ص ٢١٨ .

فقالت عائشة وهي مغيظة حانقة :

« نحوا ابنكم واذهبوا به فإنكم قوم خصمون » (١) .

وانعطف نحو عائشة ابن أخيها القاسم بن محمد الطيب ابن الطيب فزجرها وردعها عن موقفها قائلا :

« يا عمة ، ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر أتريدين أن يقال يوم البغلة الشهباء ؟!! » (٢)

وأقبل اليها ابن عباس وهو لا يبصر طريقه من الغضب فسدد لها سهماً من منطقه الفياض قائلاً :

« وا سوأتاه ، يوماً على بغل ، ويوماً على جمل ، تريدين أن تطفئي نور الله ، وتقاتلين أولياءه » .

ثم التفت الى مروان فقال له :

« إرجع يا مروان من حيث جئت ، فانا لا نريد دفن صاحبنا عند رسول الله ، ولكن نريد أن نجدد به عهداً ، ثم ندفنه عند جدته فاطمة بنت أسد عملاً بوصيته ، ولو أوصانا بدفنه عند جده لعلمت من هو أقصر باعاً » (٣) .

ولما رأى ذلك أبو هريرة أخذ ينادي بأعلى صوته :

« أرأيتم لو مات ابن لموسى بن عمران ، أما كان يدفن مع أبيه ؟

---

(١) اعلام الورى في اعلام الهدى ص ١٢٦ .

(٢) تأريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠٠ .

(٣) روضة الواعظين ص ١٤٣ ، أعيان الشيعة ٤ / ٨١ ، وابن عباس ايس هو حبر الأمة عبد الله فانه كان في دمشق ، بل المراد هو أحد ولد العباس أما عبيد الله أو غيره .

وإني سمعت رسول الله (ص) يقول : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . »

ولم يسجل التاريخ لأبي هريرة موقفاً كريماً سوى هذا الموقف ، وقد اغتاظ مروان من مقالته وصاح به لقد ضاع حديث رسول الله صلى الله عليه وآله (١) . وخرج أبان بن عثمان وهو رافع عقيرته قائلاً :

« إن هذا لهو العجب يدفن ابن قاتل عثمان مع رسول الله وأبي بكر وعمر ، ويدفن أمير المؤمنين الشهيد المظلوم ببقيع الغرقد » (٢) .

ولما رأى الهاشميون موقف بني أمية ومنعهم من دفن الإمام بجوار

---

(١) أعيان الشيعة ٤ / ٨١ ، وجاء قريباً منه في مستدرك الحاكم ٣ / ١٧١ وجاء في تاريخ ابن عساكر ان محرز بن جعفر روى عن أبيه قال : سمعت أبا هريرة يقول يوم دفن الحسن بن علي : قاتل الله مروان ، قال : والله ما كنت لأدع ابن أبي تراب يُدفن مع رسول الله ، وقد دفن عثمان في البقيع ، فقلت : يا مروان اتق الله ، ولا تقل لعلي إلا خيراً ، أشهد لقد سمعت رسول الله (ص) يقول : يوم خيبر لأعطي الراية رجلاً يحبه الله ورسوله ليس بفرار ، وأشهد سمعت رسول الله يقول في حسن : « اللهم إني أحبه فأحبه ، وأحب من يحبه » . قال مروان : إنك والله أكثرت على رسول الله ، فلا نسمع منك ما تقول ، فهل غيرك يعلم ما تقول ؟ قال : قلت : هذا أبو سعيد الخدري ، فقال مروان : لقد ضاع حديث رسول الله ، حين لا يرويه إلا أنت وأبو سعيد الخدري والله ما أبو سعيد الخدري إلا غلام ، ولقد جئت من جبال دوس قبل وفاة رسول الله بيسير فاتق الله يا أباهريرة ، قال : قلت : نعم ما أوصيت به ، وسكت عنه .

(٢) تاريخ ابن عساكر الجزء الثاني عشر صورة فوتغرافية بمكتبة الإمام أمير المؤمنين .

جده عزموا على مناجزتهم ، فانحاز كل منهما في جانب ، وهمّ بعضهم على بعضهم بالهجوم ، فلما رأى الإمام الحسين (ع) ذلك بادر نحو الهاشميين فصاح بهم :

« الله الله يا بني هاشم ، لا تضيعوا وصية أخي ، واعدلوا به الى البقيع ، فانه أقسم عليّ إن أنا منعت من دفنه مع جده أن لا أخاصم فيه أحداً وأن أدفنه في البقيع مع أمّه » .

ثم التفت الى الأمويين فقال لهم :

« والله لولا عهد الحسن إليّ أن لا أهريق في أمره محجمة من دم لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها ، وقد نقضتم العهد الذي بيننا وبينكم ، وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا » (١) .

ثم أمر (ع) بحمل الجثمان المقدس الى البقيع ، فحمل على الأنامل قد حفّ به الهاشميون والطالبيون وهم يذرفون الدموع ، ويصعدون من الحسرات ما يسعره الألم ، قد أخذتهم المائقة ، وأذاب الحزن قلوبهم على

---

(١) وذهب مؤرخوا الشيعة أن عائشة أمرت بني أميّة برمي جنازة الحسن فرموها حتى استل منها سبعون سهماً ذكر ذلك في ناسخ التواريخ وغيره ، ويؤيده ما جاء في تاريخ ابن عساكر ج ١٢ « وانتهى الحسين الى قبر النبي (ص) فقال : احفروا هاهنا ، فسكت عنه سعيد بن العاص وهو الأمير ولم يحل بينه وبينه ، وصاح مروان في بني أميّة فلبسوا السلاح ، وقال مروان : لا كان هذا أبداً فقال له الحسين : يا ابن الزرقاء مالك ولهذا أو أولى أنت به ؟ !! . قال مروان : لا كان هذا ولايخلص اليه وأنا حي ، وصاح بحلف الفضول فاجتمعت هاشم ، وتيم وزهرة وأسد و ... وقد لبسوا السلاح ، وعقد مروان لواءً وعقد الحسين لواءً ، فقال الهاشميون : يدفن مع النبي (ص) حتى كانت بينهم المراماة في النبل . الخ . »

فقيدهم العظيم ، وعلى ما ارتكبه الأمويون منهم .

وجيء بالجثمان الطاهر إلى البقيع فأودع في مقره الأخير بجوار جدته فاطمة بنت أسد (١) لقد أودع في الثرى ريحانة الرسول وسبطه ، فاقبر معه الحلم والكرم والفضل .

على حافة القبر :

ووقف سيد الشهداء على حافة القبر وهو شاخص العين لم يطرف له هدب ، ولم يهدأ له قلب ، وأخذ يؤبّن أخاه ، ويصوغ من حزنه كلمات :

« رحمك الله أبا محمد ، إن كنت لتباصر الحق مظانه ، وتؤثر الله عند التداحض في مواطن التقية بحسن الروية ، وتستشف جليل معاظم الدنيا بعين لها حاقرة ، وتفيض عليها يداً طاهرة الأطراف ، نقية الأسرة ، وتردع بادرة غرب أعدائك بأيسر المؤنة عليك ، ولا غرو فأنت ابن سلالة النبوة ، ورضيع لبان الحكمة ، فالى روح وريحان ، وجنة ونعيم ، أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه ، ووهب لنا ولكم حسن الأسى (٢) عنه » (٣) .

ثم جلس على القبر وأخذ يروي أديمه بماء عينيه ، وينشد :

أأدهن رأسي أم تطيب محاسني ... وخدك معفور وأنت سليب

أأشرب ماء المزن من غير مائه ... وقد ضمن الأحشاء منك لهيب

أو أستمتع الدنيا لشيء أحبه ... الى كل ما أدنى اليك حبيب

---

(١) كفاية الطالب ص ٢٦٨ وغيره ،

(٢) الأسى : بضم أوله وكسره ، جمع أسوة بالضم والكسر ، وهو ما يتعزى به .

(٣) عيون الأخبار .

سأبكيك ما ناحت حمامة أيكة　　　وما اخضر في دوح الحجاز قضيب
غريب وأكناف الحجاز تحوطه　　　ألا كل من تحت التراب غريب
فلا يفرح الباقي ببعد الذي مضى　　　فكل فتى للموت فيه نصيب
وليس حريباً من أصيب بماله　　　ولكن من وارى أخاه حريب
بكائي طويل والدموع غزيرة　　　وأنت بعيد والمزار قريب
نسيبك من أمسى يناجيك طيفه　　　وليس لمن تحت التراب نسيب(١)

وأقبل أخوه ، الثاكل الحزين محمد بن الحنفية فوقف على حافة القبر كأنه يعاني آلام الإحتضار قد استجاب لأحاسيس نفسه الولهى ، وقلبه المتصدع الذي ليس فيه فراغ لغير الأسى والحزن وهو يصوغ من حزنه كلمات قائلاً :

« رحمك الله يا أبا محمد ، فو الله لئن عزت حياتك لقد هدت وفاتك ولنعم الروح روح عمّر بدنك ، ونعم البدن بدن تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك ، وكيف لا تكون كذلك وأنت سليل الهدى ، وحليف أهل التقى ، وخامس أصحاب الكساء ، وجدك المصطفى ، وأبوك المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء ، وعمك جعفر الطيار في جنة المأوى ، غذتك أكف الحق ، وربيت في حجر الإسلام ، وأرضعتك ثدي الإيمان فطبت حياً وميتاً ، وإن كانت أنفسنا غير قالية لحياتك ، ولا شاكة في الخيار لك ، وإنك وأخاك لسيدا شباب أهل الجنة ، فعليك أبا محمد منا السلام » (٢) .

وبعد الفراغ من دفن الإمام وتأبينه أقبلت الجماهير ترفع للأمام

---

(١) مقتل الحسين ١ / ١٤٢ ، وقيل ان الأبيات أنشدها محمد بن الحنفية

(٢) زهر الآداب ١ / ٥٥ ، تأريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠٠ .

الحسين التعازي الحارة وتواسيه بمصابه الأليم وهو (ع) واقف يشكرهم على مواساتهم وتعازيهم .

صدى الفاجعة :

وما أذيع النبأ المؤلم فى العالم الإسلامى إلا واهتز من أقصاه الى أدناه حزناً ووجداً ، فلقد مات سيد المسلمين وإمامهم ، والملجأ الوحيد لهم ، وقد أدخل موته ذلاً على عموم العرب والمسلمين (١) وعلينا أن ننظر الى العواصم الإسلاميه التي غمرها الحزن وهي :

١ — يثرب :

أما يثرب عاصمة الإسلام فقد لبست الحزن والحداد على الفقيد الراحل فعطلت أسواقها ومكاسبها (٢) ، وبكاه الرجال والنساء سبعة أيام واستمرت نساء بنى هاشم فى النياحة عليه شهراً ، وأظهرن الحداد ، ولبسن السواد سنة كاملة (٣) .

٢ — مكة :

وعم الحزن والأسى أهل مكة ، فانه لما انتهى اليهم النبأ المريع أغلقوا حوانيتهم ، وعطلوا مكاسبهم ، واستمروا بالنياحة ، يبكون رجالاً ونساء سبعة أيام (٤) .

---

(١) مقاتل الطالبيين ١ / ٥٣ وجاء فيه ان عمر بن بشير سأل أبا اسحاق فقال له : متى ذل الناس ؟ فقال : حين مات الحسن .

(٢) مستدرك الحاكم ٣ / ١٧٣ ، أسد الغابة ٢ / ١١ ، أعيان الشيعة ٤ / ٨٠ .

(٣) البداية والنهاية ٨ / ٤٤ .

(٤) تاريخ ابن عساكر ٤ / ٢٢٨ .

٣ ـ البصرة :

وحمل النبأ المؤلم الى البصرة عبد الله بن سلمة ، فأخبر به حاكمها زياد بن أبيه ، وفهم بذلك الحكم بن أبي العاص الثقفي فخرج الى الناس فنعى اليهم الإمام ، فلما سمعوا بذلك ، علا منهم البكاء والضجيج ، وسمع أبو بكرة أخو زياد الصراخ والعويل وكان سقيماً ، فقال لزوجه ميسة بنت سخام :

« ما هذا ؟ »

ـ مات الحسن بن علي ، والحمد لله الذي أراح الناس منه .

فقال لها بصوت خافت :

« اسكتي ويحك ، فقد أراحه الله من شر كثير ، وفقد الناس بموته خيراً كثيراً ، يرحم الله حسناً » (١) .

ورثاه شاعر البصرة الجارود بن أبي سبرة فقال :

إذا كان شر سار يوماً وليلة	وإن كان خيراً خرد السير أربعا
إذا ما يريد الشر أقبل نحونا	باحدى الدواهي الربد سار وأسرعا (٢)

٤ ـ الكوفة :

وحينما أذيع النبأ المؤلم في الكوفة تصدعت القلوب وارجفت من هوله النفوس ، وأخذ الكوفيون بالبكاء والنحيب ، وهم يعددون مزايا الإمام ويذكرون خطأهم وتقصيرهم تجاهه ، وقد رثاه شاعرهم الموهوب سليمان ابن قتة بقوله :

يا كذب الله من نعى حسناً	ليس لتكذيب نعيه ثمن

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٦ .

كنت خليلي وكنت خالصتي لكل حي من أهله سكن
أجول في الدار لا أراك وفي الدار أناس جوارهم غبن
بدلتهم منك ليت انهم أضحوا وبيني وبينهم عدن (١)

ورثاه شاعر الكوفة الكبير قيس بن عمر الشهير بالنجاشي بأبيات ذكر فيها جريمة بنت الأشعث وذكر فضل الإمام وجوده وسخاءه :

جعدة إبكيه ولا تسأمي بعد بكاء المعول الثاكل
لم يسبل الستر على مثله في الأرض من حاف ومن ناعل
كان إذا شبت له ناره يرفعها بالسند الغاتل
كيما يراها بائس مرمل وفرد قوم ليس بالآهل
يغلى بنيء اللحم حتى إذا أنضجه لم يغل من آكل
أعنى الذي أسلمنا هلكه للزمن المستحرج الماحل (٢)

واجتمع زعماء الشيعة وشخصياتهم فى ثوي سليمان بن صرد الخزاعي فرفعوا الى الإمام الحسين رسالة يعزونه بمصابه المؤلم ويعربون له الولاء والإخلاص والطاعة لأمره وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : للحسين بن علي ، من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام ، سلام عليك ، فانا نحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد : فقد بلغنا وفاة الحسن بن علي ، فسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حياً ، غفر الله ذنبه ، وتقبل حسناته ، وألحقه بنبيه (ص) ، وضاعف لك الأجر فى المصاب به ، وجبّر بك المصيبة

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١٨/٤ .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٠٣ .

من بعده فعند الله نحتسبه ، وإنا لله وإنا اليه راجعون ، ما أعظم ما أصيبت به هذه الأمّة عامة ، وأنت وهذه الشيعة خاصة ، بهلاك ابن الوصي وابن بنت النبي ، علم الهدى ، ونور البلاد المرجو لإقامة الدين ، وإعادة سيرة الصالحين ، فاصبر رحمك الله على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ، فان فيك خلفاً ممن كان قبلك ، وإن الله يؤتي رشده من يهتدي بهديك ، ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك المحزونة بحزنك ، المسرورة بسرورك ، السائرة بسيرتك ، المنتظرة لأمرك ، شرح الله صدرك ، ورفع ذكرك ، وأعظم أجرك ، وغفر ذنبك ، ورد عليك حقك ، والسلام » (١) .

سرور معاوية :

كان معاوية يتشوف بفارغ الصبر أنباء يثرب ، ويترقب البريد ساعة فساعة ، قد ألح على عامله أن يعرفه بأخبار الإمام في كل يوم ، ولما انتهى اليه النبأ بموت الإمام لم يملك نفسه من السرور حتى خرّ ساجداً ، وكبّر وكبّر من كان معه في الخضراء ، ولما سمعت ذلك زوجه فاختة بنت قرضة خرجت من خوخة لها فرأت زوجها قد غمره الفرح والسرور فقالت له :

« سرك الله يا أمير المؤمنين ، ما هذا الذي بلغك فسررت به ؟ »

ـ موت الحسن .

فاستعبرت ، وقالت : « إنا لله وإنا راجعون » . ثم بكت وقالت : « مات سيد المسلمين ، وابن بنت رسول الله (ص) » (٢) .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠٣ .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٠٥ .

وأخذ معاوية يتعجب من سرعة تأثير السم الذي بعثه للإمام قائلاً :

« يا عجباً من الحسن شرب شربة من عسل بماء رومة فقضى نحبه !! » (١) .

وبلغ معاوية ما أراده الهاشميون من دفن الحسن في بيت النبي (ص) فقال : ما أنصفتنا بنو هاشم حين يزعمون أنهم يدفنون حسناً مع النبي وقد منعوا عثمان أن يدفن إلا في أقصى البقيع ، إن يك ظني بمروان صادقاً لا يخلصون الى ذلك وجعل يقول : ويها مروان أنت لها .. » (٢)

ووفد عليه المقدام بن عدي بن كرب وكان من شيعة أمير المؤمنين فقال له معاوية مظهراً له الشماتة بموت الإمام :

« يا مقدام ، أعلمت أن الحسن بن علي توفي ؟ »

فاسترجع المقدام ، واستعبر ، فالتفت اليه معاوية والسرور باد على وجهه ، وابتسامة ظاهرة على شفتيه قائلاً له باستهزاء :

« أترى موت الحسن مصيبة ؟!! »

— ولِمَ لا أراها مصيبة ؟ وقد وضعه رسول الله (ص) في حجره وقال : هذا مني ، وحسين من علي (٣) .

لقد فرح معاوية بموت الإمام ، لأنه قد تمت بحسابه بوارق آماله وأحلامه وتحقق عنده جعل الملك العضوض وراثة في أبنائه وذريته ، وقد وصف لنا الفضل بن العباس مدى سرور معاوية وشماتته بموت الإمام بقوله :

أصبح اليوم ابن هند شامتاً ظاهر النخوة إذ مات الحسن

---

(١) الاستيعاب ١ / ٣٧٤ .

(٢) تاريخ ابن عساكر .

(٣) كفاية الطالب ص ٢٦٨ ،

رحمة الله عليه إنه	طالما أشجى ابن هند وأرن
استراح اليوم منه بعده	إذ ثوى رهناً لأحداث الزمن
فارتع اليوم ابن هند آمناً	إنما يقمص بالعير السمن
لست بالباقي فلا تشمت به	كل حي بالمنايا مرتهن
يا ابن هند إن تذق كأس الردى	تك في الدهر كشيء لم يكن (١)

وذكر المؤرخون أن ابن عباس دخل على معاوية فلما استقر به المجلس التفت اليه معاوية ــ وهو جذلان مسرور بموت الإمام ــ قائلاً : « يا ابن عباس هلك الحسن !!! »

ــ نعم هلك ، إنا لله وإنا اليه راجعون ــ قال ذلك مكرراً ــ وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ما سدّ جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله في عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أصبنا به لقد أصبنا بمن كان خيراً منه جده رسول الله (ص) فجبر الله مصيبته ، وخلف من بعده أحسن الخلف » .

وشهق ابن عباس من الحزن ثم انفجر باكياً فبكى من حضر في بلاط معاوية ، وتباكى معاوية رياءً ، فلم ير أكثر باك في ذلك اليوم ، والتفت معاوية والفرح والسرور باد على سحنات وجهه قائلاً له : « يا ابن عباس إنه ترك بنين صغاراً » .

ولم يخف على ابن عباس ما في كلام معاوية من الشماتة فقال له : « كلنا كنا صغاراً فكبرنا » .

ــ كم أتى له من العمر ؟

ــ أمر الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده .

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ١ / ١٤١ .

وسكت معاوية برهة ثم التفت اليه ليعرف مدى اتجاهه نحو الحسين قائلاً : « يا ابن عباس ، أصبحت سيد قومك !؟ »

وعرف ابن‌عباس غايته فقال له : « أما ما أبقى الله أبا عبدالله الحسين فلا » .

فأجابه معاوية على عادته من المراوغة : « لله أبوك يا ابن عباس !! ما استنبأتك إلا وجدتك معداً !! »

وبهذا ينتهي بنا المطاف عن حياة الإمام أبي محمد ، فسلام عليه يوم ولد ، ويوم مات ، ويوم يبعث حياً ، فقد خسر المسلمون بفقده قيادته الروحية والزمنية ، وأسلمهم فقده للخطوب والنكبات ، وجهد الأمويون من بعده الى اذلال المسلمين ، والى ارغامهم على ما يكرهون .

وأعرض الى القراء ان هذا الكتاب انما هو خلاصة ما توصلت اليه من الدراسة لحياة الإمام الزكي أبي محمد ، وعن تراثه ومُثله ، وعن عصره وخلافته ، وما أحاط به من الظروف العصيبة التي ألجأته الى الصلح ، ولا أزعم أني قد وفقت الى الكمال فيه ، فان الكمال لله ، ولكني لم أدع جُهداً في البحث والتنقيب ، وفي عرض الأخبار وتحليلها ، ومناقشة بعضها ، وعسى أن أكون قد وفقت في جميع ذلك الى اعطاء صورة حية عن الإمام وعن العصر الذي عاش فيه ، وقد توسعت كثيراً في عرض الأحداث التي رافقت الإمام ، وفيما أحسب أن في عرض ذلك ضرورة ملحة يقتضيها البحث .

وإني أرى من الحق — وأنا في ختام البحث — أن أرفع أعمق الشكر الى حضرة المحسن النبيل الحاج محمد رشاد نجل الوجيه الحاج محمد جواد عجينة على تبرعه بطبع هذا الكتاب رغبة منه في خدمة أهل البيت (ع) ، وفي احياء مآثر هذا الإمام العظيم سائلاً من الله أن يعوضه المزيد من الأجر ويحسن له الصنيع إنه تعالى ولي القصد والتوفيق .



مصادر البحث

أهم المصادر

التي ورد ذكرها في الجزء الاول والثاني

اسم الكتاب	اسم المؤلف
(أ)	
أحكام القرآن	لأبي اسحاق الرازي
أنساب الأشراف	للبلاذري
أسد الغابة	لابن الأثير
الاصابة	لابن حجر العسقلاني
الاستيعاب	لابن عبد البر المالكي
الامامة والسياسة	لابن قتيبة
اصول الكافي	للكليني
أمالي الصدوق	للصدوق
أمالي الزجاج	للزجاج
الإرشاد	للشيخ المفيد
أنباء نجباء الأبناء	لمحمد الصقلي
الأخبار الطوال	للدينوري
أحياء العلوم	للغزالي
الأموال	لأبي عبيد
الإمام علي	لعبدالفتاح عبد المقصود

اسم الكتاب	اسم المؤلف
الإمام علي صوت العدالة الإنسانية	لجورج جرداق
الإسلام والنصرانية	لمحمد عبده
أسباب النزول	للواحدي
الاصول العامة للفقه المقارن	لمحمد تقي الحكيم
الإرشاد في اصول الإعتقاد	للجويني
الأغاني	لابي الفرج الاصفهاني
أبو الشهداء	للعقاد
أبو هريرة	للإمام شرف الدين
أعيان الشيعة	للسيد محسن العاملي
الأذكياء	لابن الجوزي
الإيضاح	لفخر المحققين
الأدب المفرد	للبخاري
اتعاض الحنفاء في أخبار الخلفاء	للمقريزي
أعلام النساء	لكحالة
الأعلام	للزركلي
الأحكام السلطانية	للماوردي
الهاشميات	للكميت
أنوار التنزيل وأسرار التأويل	للبيضاوي
اتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء	للخضري
الإسلام بين السنة والشيعة	لهاشم الدفتر
اسعاف الراغبين	لمحمد الصبان

اسم الكتاب	اسم المؤلف
ايضاح الكفاية	للمؤلف
أعلام الورى في أعلام الهدى	للسيد المرتضى
الاثني عشرية	لمحمد بن قاسم الحسيني
اتمام الوفاء	للخضري
احتجاج الطبرسي	للطبرسي

(ب)

اسم الكتاب	اسم المؤلف
بحار الأنوار	للمجلسي
بلاغات النساء	لأحمد بن أبي طاهر
البدء والتاريخ	لأبي طاهر المقدسي
البداية والنهاية	لابن كثير
البيان والتبيين	للجاحظ
بدايع الصنايع	علاء الدين الكاشاني الحنفي

(ت)

اسم الكتاب	اسم المؤلف
تهذيب التهذيب	لابن حجر العسقلاني
تهذيب الأسماء واللغات	للنووي
تهذيب الأحكام	للطوسي
تطهير الجنان واللسان	لابن حجر
الترغيب والترهيب	لعبد العظيم المنذري
التصوف الإسلامى	لزكي مبارك
التنبيه والاشراف	للمسعودي
تاريخ اليعقوبي	لأحمد بن أبي يعقوب

اسم الكتاب	اسم المؤلف
تاريخ الخميس	للحسين بن محمد الدياربكري
تاريخ بغداد	للخطيب أحمد بن علي
تاريخ ابن خلدون	لعبد الرحمن بن محمد
تاريخ ابن خلكان	لأحمد بن محمد بن خلكان
تاريخ أبي الفداء	لاسماعيل بن علي عماد الدين
تمام المتون	صلاح الدين الصفدي
تحفة المحتاج	للنووي
تذكرة الحفاظ	للذهبي
تقييد العلم	
تفسير ابن كثير	لاسماعيل بن كثير القرشي
التاج	للجاحظ
التعليقات	لمحمد باقر البهبهاني
تنزيه الأنبياء	السيد المرتضى
تاريخ الأمم والملوك	أبو جعفر محمد بن جرير
تحف العقول	حسن بن شعبة
تاريخ سينا	شقير نعوم
تاريخ الخلفاء	عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي
تفسير الفخر الرازي	للإمام الرازي
تلخيص المستدرك	للذهبي
تاريخ التمدن الإسلامي	جرجي زيدان
تاريخ العرب العام	المستشرق ل . أ . سيديو

اسم الكتاب	اسم المؤلف
تحفة الأنام	للفاخوري
تاريخ دول الإسلام	الصدفي
تذكرة الخواص	السبط ابن الجوزي
تاريخ الأمة العربية	لمحمد سعد
تاريخ الإسلام السياسي	الدكتور ابراهيم حسن
تنقيح المقال	المامقاني
تاريخ ايران	لبعض المستشرقين
(ث)	
ثمرات الأوراق	أبو بكر بن علي الحموي
(ج)	
جامع السعادات	للنراقي
جامع أسرار العلماء	قاسم بن محمد الكاظمي
جوهرة الكلام فى مدح السادة الأعلام	القراغولي
جريدة الساعة	شرف الدين
جمهرة رسائل العرب	أحمد زكى صفوت
جمهرة الخطب	محمد رضا المدرس
جنات الخلود	" " "
جمهرة اشعار العرب	لأبي زيد القرشي
جواهر الأحكام	لمحمد حسن
جمع الجوامع	للسيوطي
جامع البيان فى تفسير القرآن	لمحمد بن جرير الطبري

اسم الكتاب	اسم المؤلف
الجامع لأحكام القرآن	للقرطبي
(ح)	
حلية الأولياء	أبو نعيم الأصفهاني
حياة الحيوان	الدميري
حماة الإسلام	
حياة الحسين	العلائلي
حياة الإمام علي بن أبي طالب (ع)	محمدحبيب الله الشنقيطي
حياة محمد (ص)	محمد حسين هيكل
الحدائق الوردية	لحميد بن زيد اليماني
(خ)	
خطط المقريزي	المقريزي
الخصائص الكبرى	للسيوطي
خلاصة تهذيب الكمال	أحمد الخزرجي
خزانة الأدب	للشيخ عبدالقادرالبغدادي
الخرائج والجرائح	للراوندي
الخراج	لأبي يوسف
الخلفاء الراشدون	لعبد الوهاب النجار
(د)	
دائرة المعارف	للبستاني
دائرة معارف القرن العشرين	محمد فريد وجدي
دائرة المعارف الإسلامية	لجماعة من المستشرقين

اسم الكتاب	اسم المؤلف
دوائر المعارف	محمد مهدي الكاظمي
ديوان الرصافي	شاعر العرب الرصافي
درة الناصحين	عثمان بن حسن الخوبوي
الدر المنثور	لجلال الدين السيوطي
الدر المنثور في ربات الخدور	لزينب بنت علي العاملية
(ذ)	
ذخائر العقبى	محب الدين الطبري
ذخيرة الدارين	عبد المجيد
(ر)	
روضات الجنات	محمد باقر الخونساري
روضة الواعظين	أبو علي النيسابوري
ربيع الأبرار	الزمخشري
رجال الكشي	محمد الكشي
روح المعاني	الآلوسي
روض المناظر	لابن شحنة
روضة الشهداء	حسين واعظ
(ز)	
زهر الآداب	لابراهيم القيرواني
زينب والزينبات	العبيدلي
(س)	
سنن ابن ماجة	ابن ماجة

اسم الكتاب	اسم المؤلف
سنن أبي داود	أبو داود
سفينة البحار	الشيخ عباس القمي
سر السلسلة العلوية	أبو نصر البخاري
سيرة ابن هشام	ابن هشام
سيرة الحلبي	الحلبي
سفر السعادة	الفيروزابادي
سليم بن قيس	لسليم بن قيس الهلالي العامري
السيادة العربية	لفان فلوتن
السنن الكبرى	للبيهقي
(ش)	
شرح نهج البلاغة	ابن أبي الحديد
شرح نهج البلاغة	محمد عبده
شعراء الغدير	الشيخ عبدالحسين الأميني النجفي
شذرات الذهب	ابن عماد الحنبلي
شرح الشفا	علي القاري
شرح لامية العجم	الصفدي
شيخ المضيرة	للشيخ محمود أبورية
(ص)	
صحيح مسلم	مسلم
صلح الحسن	الشيخ راضي آل ياسين
صحيح الترمذي	الترمذي

اسم الكتاب	اسم المؤلف
صبح الأعشى	القلقشندي
صفة الصفوة	ابن الجوزي
(ط)	
طبقات ابن سعد	لابن سعد
طبقات فحول الشعراء	لابن سلام
طبقات الشافعية	للسبكي
طبقات القراء	لمحمد بن الجزري
الطبقات الكبرى	للشعراني
(ع)	
علل الشرايع	محمد بن علي بن بابويه
عيون الأخبار	ابن قتيبة
عائشة والسياسة	سعيد الأفغاني
علم النفس في الحياة	ماندر
عبقرية الإمام علي	العقاد
عصر المأمون	أحمد رفاعي
عقيدة الشيعة	روايت م . رونلدس
عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب	لابن المهنا
العلم الشامخ	لصالح المقبلي
العمدة	لابن رشيق
العقد الفريد	لابن عبد ربه الأندلسي
العدالة الاجتماعية	لسيد قطب

اسم الكتاب	اسم المؤلف
العرب	لفيلب حتي
العناصر النفسية	لشفيق جبري
(غ)	
غرائب القرآن	للحسن بن محمد النيسابوري
(ف)	
فكرة الافريقية الآسيوية	لمالك الجزائري
الفتوحات الاسلامية	لأحمد دحلان
الفتنة الكبرى	طه حسين
الفصول المهمة	لابن الصباغ
فضائل الأصحاب	أحمد مصطفى
فاطمة وبنات محمد	لامنس
فجر الإسلام	أحمد أمين
فتح الباري في شرح صحيح البخاري	لابن حجر العسقلاني
فيض القدير	للمناوي
الفائق	للزمخشري
الفصول المهمة	لشرف الدين
الفوائد	لمحمد باقر البهبهاني
(ق)	
قوت القلوب	أبو طالب المكي
قوة الإرادة	اويسون سويت ماردن
القاموس	للفيروزابادي

اسم الكتاب	اسم المؤلف
(ك)	
كشف الخفاء والإلتباس	العجلوني
كنز العلوم	محمد فريد وجدي
كشف الغمة	علي بن عيسى الأربلي
كنوز الحقائق	للمناوي
الكنى والأسماء	للدولابي
كشف الغمة	عبد الوهاب الشعراني
كنز العمال	لعلي المتقي الهندي الحناني
كفاية الطالب	محمد القرشي الشافعي
كشف المحجة	السيد ابن طاووس
الكامل	للمبرد
الكشاف عن حقائق التنزيل	للزمخشري
الكامل	لابن الأثير
الكنى والألقاب	للقمي
(ل)	
لسان الميزان	ابن حجر
لسان العرب	ابن منظور
لباب التأويل	للخازن
اللهوف	لابن طاووس
اللباب في معرفة الأنساب	لابن الأثير
(م)	
مجمع البيان	الفضل بن الحسن الطبرسي

اسم الكتاب	اسم المؤلف
معجم البلدان	ياقوت الحموي
الملل والأهواء	لابن حزم
المستطرف	لشهاب الدين
المنتظم	لابن الجوزي
معجم الأدباء	ياقوت الحموي
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	نور الدين الهيثمي
مجمع الأمثال	أحمد بن محمد الميداني
معجم الشعراء	محمد بن عبد المرزباني
مشكل الآثار	للطحاوي
المواهب اللدنية	لابن حجر
الملل والنحل	للشهرستاني
المجتبى	لابن دريد
المحاسن والأضداد	للجاحظ
مجمع البحرين	الطريحي
محاضرات الأدباء	الراغب الاصفهاني
ميزان الاعتدال	الذهبي
مروج الذهب	المسعودي
مقاتل الطالبيين	أبو الفرج الاصفهاني
منهاج السنة	ابن تيمية
مقتل الحسين	الخوارزمي
مطالب السؤل	كمال الدين الشافعي
المحبر	لمحمد بن حبيب

اسم الكتاب	اسم المؤلف
المكاسب	للأنصاري
مناقب أحمد	لابن الجوزي
مناقب أبي حنيفة	للخوارزمي
مقتل الحسين	للمقرم
المعارف	لابن قتيبة
محاضرات الأوائل	للسكتواري
المحاسن والمساوي	للبيهقي
مجموعة ورام	لورام
المجدي	لعلي بن محمد الصوفي
محمد بن الحنفية	السيد علي الهاشمي
مجلة العرفان	أحمد عارف الزين
مجلة الأسيوية البريطانية	
مجلة البيان	علي الخاقاني
مجلة الغري	شيخ العراقين آل كاشف الغطاء
مناقب ابن شهراشوب	ابن شهراشوب
مسند حنبل	أحمد بن حنبل
مرآة العقول	المجلسي
من لايحضره الفقيه	للطوسي
مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار	السيد عبد الله شبر
ملحمة الغدير	بولس سلامة
مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون
مشارق الأنوار	الأجهوري



محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة